

الإسلام في مواجهة التحديات

د. محمد عمار



الإسلام

فِي مُوَاجَهَةِ التَّحَدِّياتِ

د. محمد عثمان



اسم الكتاب: الإسلام في مواجهة التحديات

المؤلف: د. محمد عمار

إشراف عام: د. إيا محمد إبراهيم

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - يناير 2007م

رقم الإيداع: 22721 / 2006

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3785-2

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434 (02) - 3472864 (02) - فاكس: 3462576 (02) - ص.ب: 21 إمبابية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفيحة - القاهرة
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (وشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عيد السلام - عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



للطباعة والنشر والتوزيع

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1996

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تقديم

عندما صدر كتابنا عن «الإسلام والتحديات المعاصرة»: رأى فيه الكثيرون «ديواناً لخلاصات الأفكار» الجامعة للرؤية الإسلامية إزاء العديد من التحديات الشرسة التي تواجه الإسلام وأمته وعالمه في هذه السنوات.. سواء أكانت هذه التحديات:

١- خارجية.. غربية.. وذلك من مثل:

■ الغزو الفكري والقيمي الذي يجتاح مقومات الهوية الإسلامية عاملاً على نسخها ومسحها وتشويهها.

■ والغزو العسكري الذي يتجلى في عشرات القواعد العسكرية - لأمريكا وحلف الأطلسي - ومئات الألوف من جنود الجيوش الغربية الجرارة التي غزت وتغزو العديد من ديار الإسلام والأساطيل الحربية التي تنتشر في بحارنا ومحيطاتنا؛ لتنزع السيادة والاستقلال عن أوطان عالم الإسلام..

■ والنهب الاقتصادي لمئات من الشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات التي تستنزف ثروات المسلمين، وتكرس الفقر والبؤس والتبعية في ديار الإسلام.. إلى آخر هذه التحديات الخارجية، إن كان لها آخر!

٢- أم داخلية التي تندرج تحت آفة «التخلف الموروث» عن عصور التراجع الحضاري في تاريخنا الإسلامي، وذلك من مثل:

■ القمع والاستبداد.

■ وغيبة الشورى والحرية.

■ والضيق بالآخر، التابع من ضيق الأفق، وآفة التعميم والإطلاق.

■ و«الحرفية - الظاهرية» في التعامل مع النصوص..

- والهجرة من «الحاضر» إلى «التاريخ» دون وعى بسنن هذا التاريخ.
- والانقسام الفكرى الحاد بين علمانيين، يمثلون «خبراء لا قلوب لهم» وبين إسلاميين يمثلون «فقهاء لا عقول لهم!!» يحاصرون جميعاً تيار الإحياء والاجتهاد والتجديد.
- والأمية الثقافية والأبجدية التى تشل أغلب طاقات الأمة.
- والتشرذم القطرى، الذى يقطع أوصال الإسلام.. فى عصر تتجه فيه القارات والحضارات إلى التضامن والتكامل والاتحاد.
- وتحويل الكثير من النظم والحكومات بأسها إلى المنازعات الداخلية - مع شعوبها.. ومع جيرانها - بدلاً من توجيهه إلى الأعداء الحقيقيين للإسلام والمسلمين.. حتى لكان هذه النظم والحكومات لم تسمع ولم تقرأ الوصف الإلهى لأمة محمد ﷺ: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].



وإذا كان واقعنا الحديث والمعاصر يشهد على ترابط التحديات الخارجية بالتحديات الداخلية، بل وحرص الغرب الاستعماري - السياسى والدينى - - والذى هو مصدر التحديات الخارجية - على «حراسة أمراضنا الداخلية»، كى لا يصح جسد الأمة وعقلها، فتنتفض محطمة أغلالها، ومنتصرة على سائر هذه التحديات، حتى لكان هذا الغرب الاستعماري يكرر مع حاضرننا صنيعه التاريخي مع الدولة العثمانية [٦٦٩ - ١٣٤٢ هـ = ١٢٩٩ - ١٩٢٢ م]، يوم حرس أمراضها حتى جاءت ساعة الإسقاط واقتسام التركة والأسلاب!



وإذا كانت الصحوۃ الإسلامية التى تعاظم مدھا فى طول عالم الإسلام وعرضه - وخاصة فى العقود الأربعة الأخيرة - قد مثلت تحدياً أعظم فى مواجهة هذه التحديات الغربية.. فلقد أصبحت المواجهة بينها وبين الهيمنة الغربية تحدياً جديداً أضيف إلى ما سبقت الإشارة إليه من تحديات.. الأمر الذى جعل عالمنا الإسلامى أشبه ما يكون بساحة حرب عالمية ضروس بين الغرب وأمة الإسلام..

ولهذه الحقائق جميعاً، تصبح «الكتابة الواعية» عن هذه التحديات.. وتقديم الرؤية الإسلامية لجذورها.. وتسليط الأضواء الإسلامية على معالم المواجهة لها.. ومناهج النظر في فقه واقعنا واستشراف مستقبلنا - يصبح ذلك أحد أهم «الفرائض الفكرية» التي يتوجب على العقل المسلم أن يؤديها للإنسان المسلم في هذه اللحظات.. ولذلك - وأداءً لبعض هذه الفريضة - يصدر هذا الكتاب [الإسلام في مواجهة التحديات] لمواصلة السير على درب إيقاظ العقل المسلم على ما يواجهه من التحديات.. والله نرجو أن يتقبله، وينفع به..
إنه - سبحانه - خير مسئول.. وأكرم مجيب.

القاهرة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٤٢٧ هـ
١٩ يولية سنة ٢٠٠٦ م

د. محمد عثمان

الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ودور الكنائس المحلية في التنصير



■ لقد عاشت الكنائس النصرانية في الشرق الإسلامي قرونًا طويلة وهي تدرك أن الإسلام هو الذي أنقذها وأنقذ نصرانيتها من الإبادة الرومانية التي امتدت منذ ظهور المسيحية وحتى الفتوحات الإسلامية؛ ففي تلك القرون الستة عاشت النصرانية الشرقية - تحت نير الاستعمار الروماني - ديانة سرية مضطهدة ومطاردة ومتهمه بالهرطقة، حتى لقد اغتصب الرومان كنائسها وأديرتها بعد تدينهم بالنصرانية، منذ الانشقاق الذي حدث في «مجمع خلقدونية» سنة ٤٥١م، وتكون «المذهب الملكاني» الروماني، المعادي للنصرانية الشرقية.. فتواصل الاضطهاد الروماني للنصرانية الشرقية بعد اعتناق روما للنصرانية، كما كان الحال في عصر وثنية الرومان!

ولقد استمر هذا الاضطهاد الذي هربت منه قيادات النصرانية الشرقية إلى الصحاري والجبال والمغارات، والذي تؤرخ الكنائس الشرقية حتى الآن بمجازهه ضد أنصارها، فتسميه «عصر الشهداء».

عاشت النصرانية الشرقية هذا التاريخ حتى جاء الفتح الإسلامي فحرر أوطانها من القهر السياسي والحضاري والثقافي والاقتصادي.. وحرر ضمير رعاياها من القهر الديني.

وظلت هذه النصرانية الشرقية وكنائسها واعية بذكريات هذا التاريخ الدموي.. وعارفة ومعلنة عن فضل الإسلام وفتوحاته التحريرية في إنقاذها من الهلاك والانقراض.

■ فشاهد العيان على الفتح الإسلامي لمصر، الأسقف «يوحنا النقيوسي» هو القائل: «إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين - «العرب المسلمين» - ثم نهض

المسلمون وحازوا كل مصر.. وكان هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مصر - وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم - مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص [٥٠ ق.هـ - ٤٣ هـ = ٥٧٤ - ٦٦٤ م] يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافظ على الكنائس طوال الأيام^(١).

■ كما تحدث هذا الأسقف عن الأمان الذي أعطاه عمرو بن العاص للبطريرك «بنيامين» (٣٩ هـ - ٦٥٩ م) - لبطريك المصريين - الذي كان هاربًا من مطاردة الرومان ثلاثة عشر عامًا، وعن عودته إلى رعيته واستقبال عمرو بن العاص له، وزيارة البطريرك للكنائس التي حررها له الإسلام، والسعادة التي عبر عنها وأعلنها بما صنع الفتح الإسلامي للنصرانية المصرية.. فقال الأسقف يوحنا النقيوسي:

«ودخل الأنبا «بنيامين» بطريرك المصريين، مدينة الإسكندرية، بعد هربه من الروم ثلاثة عشر عامًا.. وسار إلى كنائسه، وزارها كلها، وكان كل الناس يقولون: هذا النفي، وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك، وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين.. وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.. وخطب الأنبا «بنيامين» - في دير «مقاريوس» - فقال: لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدكما بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون...»^(٢).

■ وبعد الأسقف «يوحنا النقيوسي» بعدة قرون يشهد الأسقف «ميخائيل السرياني» على ذات الحقيقة فيقول عن تحرير الإسلام للنصرانية المصرية والشرقية، وعن سماحة الإسلام مع نصارى مصر:

«لم يسمح الإمبراطور الروماني لكنيستنا المونوفيزتية - «القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح» - بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التي تهيت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.

لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا أبناء إسماعيل من الجنوب لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا في سلام»^(٣).

(١) [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي] ص ٢٠١، ٢٢٠. ترجمة ودراسة: د. عمر صابر عبدالجليل. طبعة القاهرة - دار عين سنة ٢٠٠٠ م.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر في العصر البيزنطى] ص ٦٢. طبعة القاهرة. دار عين سنة ٢٠٠١ م.

■ ولما حرر عمرو بن العاص كنائس مصر وأديرتها من الاغتصاب الروماني، وردّها إلى أهلها «خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكان، فسلموا عليه، وكتب لهم كتاباً «بالأمان» هو عندهم»^(١) - في أديرتهم.

■ وحتى القرن العشرين، ظل المؤرخون النصارى الوطنيون يشهدون على هذه الحقيقة - حقيقة إنقاذ الإسلام للنصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية - فكتب صاحب كتاب «تاريخ الأمة القبطية» - يعقوب نخلة روفيله - (١٨٤٧ - ١٩٠٥م) يقول:

«ولما ثبت تقدم العرب في مصر شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهليين واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم.

وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاء «بنيامين» البطريك، الذي اختفى من أيام هرقل ملك الروم، فكتب أماناً أرسله إلى جميع الجهات يدعوه فيه البطريك للحضور، ولا خوف عليه ولا تثريب، ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه، وأظهر له الولاء، وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته، وعزل البطريك الذي كان أقامه هرقل، ورد «بنيامين» إلى مركزه الأصلي معزراً مكرماً.. وكان «بنيامين» موصوفاً بالعقل والمعرفة والحكمة، حتى سماه بعضهم (بالحكيم).. وقيل إن عمراً لما تحقق ذلك منه، قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيريه في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منة عظيمة وفضلاً جزيلاً لعمرو.

واستعان عمرو في تنظيم البلاد بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلأ منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نواباً من القبط ومنحهم حق التدخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية،

(١) المرجع السابق: ص ١٩٤.

وكانوا بذلك فى نوع من الحرية والاستقلال المدنى، وهى ميزة كانوا قد جردوا منها فى أيام الدولة الرومانية.

وضرب عمرو بن العاص الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وجعله على أقساط، فى آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد.

وبالجملة، فإن القبط نالوا فى أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان^(١).
■ نعم.. ظلت الكنائس المحلية فى الشرق الإسلامى طوال قرون عيشها المشترك مع الإسلام واعية بهذه الحقائق، وذاكرة لها، ومتذكرة لآثارها؛ ولذلك، انخرطت مع رعيّتها - طوال هذه القرون - فاندمجت فى الأمة الواحدة، وأسهمت فى بناء الحضارة الإسلامية الواحدة.. وانتمت إلى مكونات الهوية الواحدة التى جمعت بين الجميع - هوية: اللغة .. والتاريخ .. ومنظومة القيم والأخلاق - مع التنوع والتمايز فى عقائد الدين.

■ وفى ضوء هذه الحقائق التاريخية التى شهد عليها وبها الأساقفة والمؤرخون، والتى أثمرت قدرًا من الاندماج القومى والحضارى والثقافى، ونماذج من العيش والتعايش المشترك، صار مضرِبًا للأمثال ونموذجًا للاحتذاء - فى ضوء ذلك يأتى السؤال - الذى يحير البعض - عن السر الذى جعل قطاعات عديدة.. ومتنفةذة.. وأحيانًا قائدة - فى هذه الكنائس - تتحول عن حذرها التاريخى من العمل على تنصير المسلمين لتتخبط فى عملية التنصير.. وبالاشتراك مع من؟! مع الغربيين؛ أحفاد الذين اضطهدوا الأسلاف! وضد من؟! ضد المسلمين، أحفاد الأسلاف الذين حرروا أولئك الأسلاف!؟



لقد بدأ التنصير - الذى يسمونه تبشيرًا - كجزء من الغزوة الاستعمارية الغربية للشرق، مارسته مذاهب النصرانية الغربية - البروتستانت والكاثوليك - .. وكانت سهام هذا التنصير - فى مراحله الأولى - موجهة ضد أبناء الكنائس الشرقية؛ لأنهم الأقرب فى الاستجابة لمذاهب نصرانية بينها وبينهم وجوه شبه كثيرة.. ولما كانت عليه كنائسهم الشرقية من جمود وتخلف وجهل وتقليد.. ولما كان فى موالاة مذاهب المستعمرين من امتيازات.

(١) يعقوب نخلة روفيلة: «تاريخ الأمة القبطية» ص ٥٤ - ٥٧ - تقديم: د. جودت جبرة. الطبعة الثانية - القاهرة، مؤسسة مار مرقس لدراسة التاريخ - سنة ٢٠٠٠ م.

وبعد أن اكتسب هذا التنصير الغربي لمذاهبه الغربية مواطناً أقدام بين النصرانية الشرقية، بدأ يتوجه نحو تنصير المسلمين، لكنه - رغم طول الزمن - وكثرة الإنفاق - ومشقة الجهود - لم يحصد إلا خيبة الأمل في ميادين التنصير للمسلمين!!

■ ولهذه الحقيقة، تداعت الكنائس الغربية - والأمريكية المشيخية منها على وجه الخصوص - لدراسة تاريخ التنصير، وتجاريته، وأساليبه، والدروس المستفادة من هذا الإخفاق، ولدراسة الأساليب الجديدة لتنصير المسلمين، فكان المؤتمر التاريخي الذي عقد في منتصف مايو سنة ١٩٧٨م في «كولورادو» - بولاية «كاليفورنيا» - بالولايات المتحدة الأمريكية - والذي ناقش المؤتمر فيه أربعين بحثاً، ثم نشرت وثائقه - إلا ما له حساسية شديدة - باللغة الإنجليزية سنة ١٩٧٨م، ثم ترجمت إلى العربية، تحت عنوان: «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» فيما يقرب من ألف صفحة.

ففي وثائق هذا المؤتمر ومداولاته التي تمثل «بروتوكولات قساوسة التنصير» - نجد الإجابة عن هذا السؤال:

- لماذا خرجت الكنائس الشرقية - أو بعضها على الأقل - عن هذا «الخطر التاريخي» فانتخرطت في ميدان تنصير المسلمين بعد أن كانت تبتعد عن ذلك طوال تاريخ تعايشها وعيشها المشترك مع الإسلام والمسلمين؟



إن هذا التحول التاريخي في الموقف الكندي الشرقي من هذه القضية، هو - بإيجاز شديد - جزء من النجاح الغربي في توظيف الكنائس الشرقية بعملية تنصير المسلمين التي هي جزء من الحملة الغربية ضد الصحوة الإسلامية المعاصرة والبعث الإسلامي الحديث.

لقد جاء حين من الدهر - في ظل الاستعمار الغربي الحديث للشرق الإسلامي - ظن فيه الغرب الاستعماري، وظنت فيه الكنائس الشرقية أن «العلمانية» التي جاءت إلى بلادنا في ركاب المستعمرين الغربيين، قد أزاحت الإسلام عن مكانته في السياسة والدولة والاجتماع والقانون.. وأنه لم يبق من هذا الإسلام إلا العقائد والشعائر والعبادات.. وأن التصنيع الحديث والعلوم الطبيعية وتقنياتها ونظرياتها قد صنعت بالإسلام ما صنعت به النصرانية الغربية، عندما همشتها، وعزلتها عن التأثير في مختلف ميادين الحياة.

لكن... وفجأة... فوجئ الغرب - السياسي والديني - بأن الإسلام لم يقترح عن أي من قواعده الراسخة في ميادين الدولة والسياسة والاجتماع والقانون.. وأنه لم تتم أي علمنة حقيقية في عالم الإسلام.. ولقد نشرت مجلة «شئون دولية» - الصادرة في «كمبردج» بإنجلترا - عدد يناير سنة ١٩٩١م - دراسة عن موقف الإسلام هذا، فقالت:

«إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوّض الإيمان الديني - مقولة العلمنة - صالحة على العموم، فالتأثير السياسي والسيكولوجي للدين قد تناقص عملياً في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جداً من هذا! فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، وهي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت عليه من ١٠٠ سنة مضت، إن الإسلام مقاوم للعلمنة في ظل كل النظم السياسية - الراديكالية، والتقليدية - والتي تقف بين بين - وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد جعل عملية الإصلاح الذاتي، استجابة لدواعي الحداثة، تتم باسم الإيمان المحلي، الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي أرقت المجتمعات الأخرى.. معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب، ومحاكاته - الباعثة على الإذلال! - وهذا هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة».

■ ولهذا الاستعصاء الإسلامي على العلمنة والتهميش والتواري.. قرر الغرب السياسي: اتخاذ الإسلام عدواً، وإعلان ذلك صراحة في ذات اللحظات التي تهاوى فيها الخطر الشيوعي داخل الحضارة الغربية.

وعن هذه الحقيقة تتحدث مجلة: «شئون دولية» فتقول:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي.. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة. ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللا أدبية وفتور الهمة واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً، فضلاً عن هلاكها المعنوي...».

إذن ها هو الغرب السياسي قد أعلن الحرب على الإسلام.. واتخذته عدوًا أحله محل الخطر الشيوعي - الذي انتهار - وذلك لاستعصاء الإسلام على العلمنة والتهميش، وبقائه منهاجا شاملاً للدين والدولة، والدنيا والآخرة، والسياسة والقانون والعمران، وفشل المحاولات الغربية لحضره في المحارب والشعائر والطقوس والعبادات، وترك دنيا المسلمين وثروات أوطانهم للقيصر الغربي! لقد اتخذوه عدوا، وأعلنوا عليه الحرب لصموده ممثلاً ومزكياً لثقافة المقاومة وروح الجهاد لتحرير أمة الإسلام وعالمه وحضارته من الهيمنة الغربية، وفق نموذج ذاتي للتجدد والتجديد، متميز عن النموذج الغربي في الحداثة والتقدم والنهوض.



■ وعلى جبهة «الغرب الديني» كان التوازي مع «الغرب السياسي» في الموقف من الإسلام.. وكان السعي من قبل النصرانية الغربية لمحاصرة الصحوة الإسلامية ومعاجلتها.. ولتنصير المسلمين، بالاعتماد المتبادل - هذه المرة - مع الكنائس المحلية الشرقية!!

لقد تحدثت «برتوكولات قساوسة التنصير» - في مؤتمر «كولورادو» - عن «أن الصحوة الإسلامية قد بلغت شأوا لم تبلغه لعدة قرون مضت» وعن «تحرك جماهير هذه الصحوة لفرض تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر.. وتطبيق الدستور الإسلامي في باكستان»^(١).

كما تحدثت هذه «البرتوكولات» عن «أن الإسلام - منذ ظهوره في القرن السابع - قد مثل تحدياً لكنيسة يسوع المسيح»^(٢). وعن أن هذا «الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية. وأن النظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً. إنه حركة دينية معادية للنصرانية، مخططة تخطيطاً يفوق قدرة البشر! ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، تؤسس حول العالم بواسطة النصارى للتركيز على الإسلام، ليس فقط لخلق فهم أفضل للإسلام، وللتعامل النصراني مع الإسلام، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام في صدق ودهاء»^(٣).

(١) «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» ص ٨، طبعة مالطا سنة ١٩٩١ م

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢

(٣) المصدر السابق، ص ٢٢٩

■ كما تحدثت هذه «البرتوكولات» عن معالم هذا الدهاء في اختراق الإسلام.. والتي تتمثل - ضمن ما تتمثل - في التنصير من خلال الثقافة الإسلامية. والمصطلحات الإسلامية. واستغلال الموروث الإسلامي - عن طريق التحريف والتأويل - فقالت هذه «البرتوكولات»:

«إنه من الممكن في بعض الأحوال الذهاب أبعد فيما يتعلق باستعمال المصطلحات القرآنية، مع إعطاء اهتمام خاص للثقافة الإسلامية، وتكييف اللغة لحروف خاصة، واستعمال قواعد الإملاء القرآنية للأسماء الإنجيلية المعروفة، واستعمال الألقاب التبجيلية والتعبيرات القرآنية» في ترجمة الإنجيل^(١) وذلك وصولاً «إلى المسلمين من أجل المسيح على أساس تأويلات قرآنية»^(٢). «وبهذه الطريقة تصبح عملية التنصير مثل الخميرة التي تعمل داخل الكيان كله لتمكن الروح النصرانية وتعاليمها من إحداث التغيير الطبيعي»^(٣).

■ ولم يقف هذا الانزعاج من صمود الإسلام أمام العلمنة والعلمانية. والفزع من صحوته.. وتمدده.. لم يقف ذلك عند البروتستانتية الغربية - وخاصة الأمريكية - بل شاركها في ذلك الانزعاج والفزع الكاثوليكية أيضاً، فتحدث كبار كرادلة الفاتيكان عن الصبوة الإسلامية «التي تفتح أوروبا فتحاً إسلامياً جديداً»!! وعن «التحدى الإسلامي» وعن تكاثر المسلمين أمام انقراض الأوربيين!! فقال الكاردينال «بول بويار» - مساعد بابا الفاتيكان، ومسؤول المجلس الفاتيكانى للثقافة:

«إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا والغرب عمومًا، وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً كي يلاحظ تفاوتاً بين معدلات النمو السكاني في أنحاء معينة من العالم، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجي، بينما يحدث العكس في البلدان الإسلامية النامية، وفي مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما؟!

إن التحدي الذي يشكله الإسلام يكمن في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، في حين أن المسيحيين في أوروبا يميلون إلى تهفيش

(١) المصدر السابق: ص ٥٥١

(٢) المصدر السابق: ص ٨١٥

(٣) المصدر السابق: ص ٥٩٥، ٥٩٦

الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذي يفرضه عليهم دينهم، وفي الوقت نفسه ينبهرون بصيام المسلمين في شهر رمضان»^(١)!!

كما يتحدث المونسنيور «جوزيبي برناردينى» - يحضرة بابا الفاتيكان - سنة ١٩٩٩ م - عن هذا «الفتح الإسلامى الجديد» لأوروبا! فيقول:

«إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية. فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً»؟^(٢)

إنه الانزعاج والفرع من الإسلام.. وصموده أمام العلمنة.. واستعصاؤه عليها.. وصحوته.. وتمده - الذى سموه «فتحاً جديداً لأوروبا والغرب»..

وإنها المعالجة الغربية لهذه الصحوة الإسلامية، بإعلان الحرب الشاملة على الإسلام - دينياً وسياسياً، وإعلامياً - لمعالجة هذا الخطر الذى سموه فى البداية «الخطر الأخضر» ثم ما لبثوا أن أطلقوا عليه أسماء أخرى، منها «الأصولية» ومنها «الإرهاب» ومنها «الفاشية»!!



■ وفى إطار هذا المخطط الغربى - على الجبهة الدينية - لتنصير المسلمين - كل المسلمين! - جاء الحديث عن المتغير الجوهري - والجديد - الذى رسمته النصرانية الغربية للكنائس المحلية الشرقية، فى عملية تنصير المسلمين! مخطط التنصير للمسلمين بالاعتماد المتبادل بين الكنائس الغربية والكنائس الشرقية: أى إخراج الكنائس الشرقية من «وطنيتها» ومن «انتمائها الشرقى»، وتوظيفها - من قبل النصرانية الغربية - فى عملية تنصير المسلمين!

وعن هذا «المتغير - الجوهري - والجديد» قالت: «بروتوكولات قساوسة التنصير» الأمريكان فى مؤتمر «كولورادو»:

«إنه على مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المتصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوظفوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث

(١) من حديث إلى صحيفة «الفيجارو» - الفرنسية - بالنقل عن صحيفة «الشرق الأوسط» لندن، فى ١٠/١٠/١٩٩٩ م

(٢) صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن فى ١٣/١٠/١٩٩٩ م

وعملها المتظم للوصول إلى المسلمين، لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي.. إن نصارى البروتستانت - في الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة في تنصير المسلمين، ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها وتفتح بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معها بروح تامة من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين؛ إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين داخل مجتمعاتهم.. ويُفضل النصارى العرب في عملية التنصير، إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية..»^(١)

■ هكذا تم التخطيط النصراني الغربي لغواية الكنائس الشرقية، وتوظيفها في المخطط الغربي لتنصير المسلمين.. كما سبق وخطط الغرب السياسي لغواية العلمانيين الشرقيين وتوظيفهم في عملية تبغيب الأمة الإسلامية بهدف كسر شوكة الإسلام، وتحقيق التبعية الحضارية - في عالم الإسلام - للمركز الحضاري الغربي.

وفي إطار هذا المخطط المكتوب والمنطوق، يجب أن تروى «ظاهرة القمُص زكريا بطرس».. قُمُص الكنيسة الأرثوذكسية المصرية، وجهود الساعية إلى تنصير المسلمين، من خلال حقايقه التلفازية، وجهود غيره من المنصرين.. وأن نسأل أنفسنا:

- ماذا نحن قاعلون؟

(١) «التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامي» ص ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٢٨٣، ٨٤٥.



لماذا دستور الأسرة المسلمة؟

قبل الغزو الفكري الذي جاء إلى الشرق الإسلامي في ركاب الغزوة الغربية الحديثة التي قادها «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) على مصر والشرق (١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م) - لم تكن هناك حاجة إلى وضع المواثيق التي تحدد المفاهيم والفلسفات لسلوك المسلمين في مختلف ميادين الحياة - الفردية، والأسرية، والاجتماعية والسياسية - ذلك أن المرجعية الإسلامية كانت هي الوحيدة الحاكمة، التي تحدد كل المفاهيم والفلسفات في سائر هذه الميادين.

ولقد كانت المشكلات التي تعاني منها الحياة الإسلامية مقصورة على «التطبيق» لهذه المفاهيم الإسلامية الواحدة، والتي تحكم حتى الاختلافات الفرعية التي يثمرها الاجتهاد في إطار وحدة هذه المرجعية ومفاهيمها وفلسفاتها، ومدى اقتراب «الواقع والتطبيق» من «المثل» التي حددها الإسلام. لكن الغزو الفكري الغربي قد أحدث متغيراً أساسياً، وذلك عندما زرع في المجتمعات الشرقية الإسلامية «مرجعية حضارية» أخرى - وضعية.. علمانية.. لا دينية - غدت منافساً شرساً لـ «مرجعية الإسلام» الأمر الذي استدعى واستوجب تمييز المفاهيم الإسلامية عن نظيرتها الوضعية العلمانية اللادينية في مختلف ميادين الحياة.

■ فبدأ الحديث عن ضرورة وأهمية تقنين الفقه الإسلامي كبديل متميز عن القانون الوضعي العلماني.

■ وبدأت البلورة للرؤية الإيمانية الإسلامية للكون والحياة - لبداية الخلق، والمسير، والمصير، ومكانة الإنسان في الكون - كبديل متميز عن الرؤية الوضعية والحادية للكون والحياة.

■ وبدأت البلورة لمذهب الإسلام في الثروات والأموال والعدل الاجتماعي - مذهب الاستخلاف - كبديل «الليبرالية الرأسمالية»، و«الشمولية الشيوعية» في الاقتصاد والاجتماع.



ولأن الغزو الفكري الغربي قد تسلل إلى ميادين الحياة الإسلامية تدريجياً، وفي نعومة، وأحياناً على استحياء، بل وبواسطة الغش والتدليس في خلط المفاهيم ومضامين المصطلحات.. وذلك كي لا يستفز الحس الإسلامي، فتنتفض الأمة لمقاومته.. ولأن الدوائر التي تخطط لهذا الغزو كانت على علم بمكانة الأسرة في منظومة القيم الإسلامية - مكانة «الحرم»، و«العرض»، و«الشرف» - فلقد جاء الغزو لميدان الأسرة متأخراً، وفي مرحلة عموم البلوى لكل ميادين الحياة. جاء في الوقت الذي أصبحت فيه الأسرة المسلمة «محاصرة» بهذا الغزو الفكري من جميع الجهات والاتجاهات!

لقد بدأ تسلل القانون الوضعي أولاً إلى ميادين المنازعات التجارية - في الموانئ - عندما يكون أحد طرفي هذه المنازعات أجنبياً، في سنة ١٨٥٥ م، في عهد الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩ هـ = ١٨٢٢ - ١٨٦٣ م]، ثم زاد هذا التسلل بإنشاء محكمة «قومسيون مصر» سنة ١٨٦١ م التي تقضى - بالقانون الوضعي - بين الأجانب والمصريين حتى خارج الموانئ التجارية.

ثم حدث تعميم هذا التسلل إلى مطلق ميادين المنازعات - تجارية وغير تجارية - التي يكون أحد طرفيها أجنبياً، وذلك عندما أنشئت «المحاكم المختلطة» - في عهد الخديو إسماعيل [١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ = ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م]، ورئيس وزرائه الأرميني نوبار باشا «١٨٢٥ - ١٨٩٩ م» وذلك في سنة ١٨٧٥ م - وهي المحاكم التي يقضى فيها القضاة الأجانب بالقانون الفرنسي، واللغة الفرنسية. فلما وقع الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ م، عممت سلطات الاحتلال هذا القانون الأجنبي في المحاكم الأهلية المصرية - مع بعض التعديلات - فلم يبق خارج ولاية القانون الوضعي وحاكميته سوى الأسرة وأحوالها الشخصية. ومع تصاعد موجات التغريب، وزيادة هيمنة الغرب على المؤسسات الدولية، واجتياح العولمة الغربية للخصوصيات الثقافية والقيمية غير الغربية - في

العقدين الأخيرين من القرن العشرين - بدأ الاقتحام الغربى لحرمان الأسرة المسلمة، والانتهاك لمقدسات منظومة قيمها التى حددها الإسلام وصاغتها المرجعية الإسلامية. الأمر الذى فرض ويفرض على مؤسسات العلم والفكر والعمل الإسلامى صياغة البديل الإسلامى فى هذا الميدان.



لقد شرع الغزو الفكرى الغربى، منذ العقدين الأخيرين للقرن العشرين، فى صياغة منظومة قيمه فى «الحداثة وما بعد الحداثة».. صياغتها فى مواثيق ومعاهدات، أخذ فى عولمتها تحت ستار الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها. وذلك لإحلال هذه المنظومة القيمية، المصادمة لكل القيم الدينية، محل منظومة القيم الإسلامية، وفى ميدان الأسرة على وجه التحديد.

وإذا كانت قوى الهيمنة الغربية المعاصرة، ترفع - فى ميدان السياسة - شعار «الفوضى الخلاقة» التى تتغيا من ورائها تفكيك المجتمعات الإسلامية وبعثرة مكونات وحدتها، وفق معايير عرقية ولغوية ومذهبية وطائفية، ليتأبد نهب ثروات هذه المجتمعات، بمنع التماسك والتضامن والوحدة الإسلامية من الجهاد لتحرير الأوطان والثروات. فلقد غدت الهجمة الغربية على حصون الأسرة المسلمة بمثابة «المعركة الفاصلة» فى هذه الغزوة وهذا الاحتواء الذى يتغيا إحداث الفوضى فى عالم الأسرة، لتفكيكها والقضاء على مقوماتها. ومن ثم تفكيك الأمة المكونة من الأسر والعائلات.



وإذا نحن أخذنا نموذجاً واحداً من «الوثائق» التى يصوغها الغرب، ويضمها منظومة قيمه فى الحداثة وما بعد الحداثة، ثم يسعى لعولمتها، وفرضها على الحضارات غير الغربية تحت ستار الأمم المتحدة وأعلامها لترصد من بين فصولها وموادها عدداً من معالم الهدم والتدمير لمنظومة الأسرة المسلمة فى القيم والأخلاق، فإننا واجدون فى وثيقة «مشروع برنامج عمل المؤتمر الدولى للسكان والتنمية» - الذى عقد بالقاهرة من ٥ حتى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٩٤م - نموذجاً «لإعلان الحرب» على الأسرة المسلمة ومنظومة القيم والأخلاق التى حددها لها الإسلام.

■ فإذا كان الإسلام - انطلاقاً من الق نظرة الإنسانية السوية - قد بنى الأسرة على العلاقات الشرعية والمشروعة بين ذكر وأنثى، ليتحقق - بهذا التمايز والتكامل - سعادة الإنسان، وليتحقق - بالتوالد والتناسل - بقاء النوع الإنساني، ولتكون هذه الأسرة هي البنة الأولى في تأسيس بناء الأمة.. فإن وثيقة مؤتمر السكان - وبصريح العبارة - تعلن الحرب على هذا المعنى الإنساني للأسرة، وتدعو إلى «تغيير الهياكل الأسرية»، معتبرة ذلك التغيير هو «المجال الحيوي لعمل الحكومات والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية» فكل هذه المؤسسات مدعوة بإلحاح «لإعطاء الأولوية للبحوث الحيوية المتعلقة بتغيير هياكل الأسرة»^(١).. وذلك حتى لا تكون - فقط - أسرة شرعية مؤسسة على علاقة مشروعة بين ذكر وأنثى.. وإنما لتضم كل ألوان العلاقات - بين رجل ورجل، أو بين امرأة وامرأة - مدخلة - بذلك الانقلاب - كل ألوان العلاقات الشاذة والمحرفة شرعاً في «إطار الأسرة» التي يعترف بها القانون ويحميها ويرتب لها الحقوق!

■ وإذا كان الإسلام قد ضبط المتعة الجنسية، لتكون سبيلاً شرعياً للمعة والإحصان والإنجاب، فجعل «الجنس مشروعة» فإن وثيقة مؤتمر السكان تطلب - فقط - أن يكون «الجنس مأموناً»؛ أي لا يؤدي إلى الأمراض، وتطلقه وتحزره من ضوابط الشرع، ليكون حقاً من حقوق الجسد - كالطعام والشراب - مباحاً «لجميع الأفراد» - وليس فقط «الأزواج».. ومن كل الأعمار، بما في ذلك المراهقون والمراهقات!!

«الصحة التناسلية والصحة الجنسية» - التي جاءت مصطلحاتها الأكثر شيوعاً وتكراراً في هذه الوثيقة - هي «حالة الرفاهية البدنية والعقلية والاجتماعية الكاملة التي تجعل الأفراد - وليس فقط الأزواج - قادرين على التمتع بحياة جنسية مرضية ومأمونة»^(٢).. والمتعة الجنسية والصحة التناسلية والجنسية هي، كإحتياجات التغذية، حق من حقوق البنات والفتيات المراهقات!!^(٣)

(١) «مبتروع برنامج عمل المؤتمر الدولي للسكان والتنمية» - الفصل الثاني عشر - الفقرة ٢٤ - الترجمة العربية الرسمية - طبعة ١٩٩٤م

(٢) المصدر السابق، الفصل السابع - الفقرات ١ - ٥

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع - الفقرة ٢.

■ وإذا كان الإسلام قد أطلق على عقد الزواج - الذي تتأسس به الأسرة - وصف «الميثاق الغليظ» المؤسس على قيم «المودة.. والرحمة.. والسكن.. والسكينة» فجاء في القرآن الكريم: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]. فإن وثيقة مؤتمر السكان تؤسس «العلاقة» - التي تسميها «أسرة» - على مجرد الائتقاء الاختياري المؤسس على «الإباحة والإباحية»، ولذلك فهي تنزع عن هذه العلاقة الصفة الشرعية حتى لقد خلت كل فصول هذه الوثيقة وينودها خلوا تاماً من كلمتي «الله» و«الدين»!

■ وإذا كان الإسلام يحض على الزواج المبكر لإحصان البالغين من الشبان والشابات وإعفافهم.. فإن وثيقة مؤتمر السكان تحرم وتجرم الزواج المبكر، وتستعيض عنه ببدائل: منها الزنا المبكر! فتدعو «الحكومات إلى أن تزيد السن الأدنى عند الزواج حيثما اقتضى الأمر، ولا سيما بإتاحة بدائل تغفى عن الزواج المبكر»^(١).

أي أنها تدعو إلى «تقييد الحلال»، وإلى «إطلاق الحرام»، الذي جعلته حقاً من حقوق الجسد، بالنسبة لجميع الناشطين جنسياً، من كل الأعمار. وبين جميع الأفراد.. وعلى اختلاف ألوان هذه العلاقات:

■ وفي الوقت الذي يقيم فيه الإسلام العلاقة بين الرجل والمرأة - وخاصة في إطار الأسرة - على قواعد المودة والرحمة والسكن والسكينة.. ويجعل «النساء شقائق الرجال» - كما جاء في الحديث النبوي الشريف - ويقرر للنساء من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات بالمعروف المتعارف عليه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]. تذهب وثيقة مؤتمر السكان - انطلاقاً من الطابع المادي للحضارة الغربية - إلى تحويل هذه العلاقة إلى علاقة تجارية مادية «تتسبب» فيها القيم والمثل والأخلاقيات.. فتتحدث عن «تمكين المرأة»، بدلاً من الحديث عن «إنصافها ومساواتها» بالرجال.. وتدعو

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع - الفقرة ٢١

إلى «دمجها بشكل تام في الحياة المجتمعية»، وإلى المشاركة الكاملة للرجل في تربية الأطفال والعمل المنزلي^(١)... فتصادم بذلك تقسيم العمل الفطري الذي ساد الحياة الإنسانية على مر التاريخ.

■ والأكثر إمعاناً في الغرابة والشذوذ أن الغرب الذي يتفاخر بالحديث عن الحرية والليبرالية وحقوق الإنسان ينكر على الأمم والحضارات الأخرى حقوقها في أن تختار منظومة القيم التي تريد! ويسعى - بالترهيب والترغيب - إلى فرض مفاهيمه وفلسفاته على العالمين حتى ليعلن - في وثيقة مؤتمر السكان - توجيه المعونات التي يقدمها لتنفيذ ما صاغه في هذه الوثيقة من قيم وفلسفات، فتتكرر - في هذه الوثيقة - عبارات «الالتزام»، و«الإلزام» التي تقول: «ينبغي للحكومات أن تلتزم على أعلى مستوى سياسى بتحقيق الغايات والأهداف الواردة في برنامج العمل هذا»^(٢) وأعمال الضمانات وآليات التعاون الدولية لكفالة تنفيذ هذه التدابير^(٣). وينبغي على الجمعية العامة للأمم المتحدة أن تنظم استعراضاً منتظماً لتنفيذ برنامج العمل هذا^(٤).

وعندما طلبت بعض الدول النص - في الوثيقة - على أن يكون «تنفيذ السياسات السكانية حقاً سيادياً يتماشى مع القوانين الوطنية» رأينا الوثيقة تجهض هذا الحق - يعد النص عليه - وذلك بالنص على أن يكون هذا الحق في إطار «الامتثال للمعايير الدولية لحقوق الإنسان»^(٥) - وهي المعايير التي صاغها الغرب لتعبر عن فلسفته في هذا الميدان!

■ أما الإغراء والترغيب الذي قدمه الغرب - في هذه الوثيقة - فهو المساعدات في مجالات «التنمية» التي تساعد على انتشار هذا الانحلال، فنصت هذه الوثيقة على أنه «ينبغي للمجتمع الدولي أن ينظر في اتخاذ تدابير مثل نقل التكنولوجيا إلى البلدان النامية لتمكينها من إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية وغيرها من السلع الضرورية اللازمة لخدمات الصحة التناسلية، وذلك للاعتماد على الذات في هذا الميدان»^(٦).

(١) المصدر السابق، الفصل الرابع - الفقرة ٢٦. (٢) المصدر السابق، الفصل السادس عشر - الفقرة ٧.

(٣) المصدر السابق، الفصل الرابع - الفقرة ٩.

(٤) المصدر السابق، الفصل السادس عشر - الفقرة ٢١.

(٥) المصدر السابق، الفصل الثاني - المبدأ ٤.

(٦) المصدر السابق، الفصل السابع - الفقرة ٢٣.

نعم.. هذا هو الميدان الذي يساعد فيه الغرب الدول النامية كي تعتمد على الذات! ميدان «إنتاج وتوزيع وسائل منع الحمل ذات النوعية العالية، وغيرها من السلع الضرورية لتحقيق المتعة الجنسية المأمونة للأفراد.. من مختلف الأعمار»!



وهكذا.. ومن خلال هذه الأمثلة - وهي مجرد أمثلة، من وثيقة مؤتمر السكان، وهي مجرد وثيقة من وثائق عديدة - يتم الغزو والاجتياح لآخر حصون الأمة الإسلامية، والمنظومة القيم الحاكمة لهذا الحصن - حصن الأسرة المسلمة..

الأمر الذي استوجب وفرض الوضع والصياغة لهذا الميثاق - ميثاق الأسرة في الإسلام - ليكون - مع مذكرته التفسيرية - دليلاً يبين الطريق للإنسان المسلم - رجلاً كان أو امرأة - ومرجعاً للمجتمعات الإسلامية، ومنظوماتها الأهلية، ولحكوماتنا الوطنية، ومنظوماتنا الإقليمية، بل ورثاً على فوائيق الغزو وأيديولوجياته، التي تحاول - مع امتداداتها السرطانية في مجتمعاتنا - اجتياح آخر حصون الإسلام وأمنه! حصن الأسرة في عالم الإسلام.

■ إننا والغرب أمام مفهومين مختلفين للحرية، ينبع كل واحد منهما من فلسفة النظر إلى مكانة الإنسان في الكون، وعلاقته بالذات الإلهية..

فقى الإسلام: الإنسان خليفة لله - سبحانه وتعالى - له حزية الخليفة والنائب والوكيل، المحكومة ببنود عقد وعهد الاستخلاف، المتمثلة في الشريعة الإلهية بينما هذا الإنسان - في الرؤية الوضعية الغربية - هو سيد الكون، الذي لا سلطان على عقله إلا لعقله وحده، ولا حدود لحرية إرادته واختياره.

ولقد أدرك علماء الإسلام - منذ بدايات الغزو الفكري الغربي للشرق الإسلامي - هذا الفارق الجوهرى في مفهوم الحرية.. فانتقد العالم المجاهد عبدالله النديم [١٢٦١ - ١٣١٣ هـ = ١٨٤٥ م - ١٨٩٦ م] المفهوم الغربى للحرية فقال:

«ولئن قيل: إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة، قلنا: إن هذا رجوع إلى البهيمية، وخروج عن حد الإنسانية.. أما الحرية الحقيقية فهي عبارة عن المطالبة بالحقوق والوقوف عند الحدود.

ولئن كان ذلك سائغاً في أوربا، فإن لكل أمة عادات وروابط دينية أو بيتية، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم...» (١).



إننا أبناء دين أصفى القداسة الدينية على منظومة القيم الحاكمة لمؤسسة الأسرة، عندما أقامها على «الميثاق الغليظ» الجامع لقيم المودة والرحمة والسكن والسكينة. كما رسم هذا الدين المعالم والطرق والوسائل لحل مشكلات هذه الأسرة - من الإعراض .. إلى الشؤز، إلى الشقاق - .. وجعل «التحكيم» والشورى» السبيل لإصلاح هذه المشكلات.

ونحن أبناء الحضارة التي وضعت هذه القيم الدينية وجسدتها في الممارسات والتطبيقات على امتداد تاريخ الإسلام.. حتى لقد رأينا «مؤسسة الأوقاف» - وهي المؤسسة الأهلية الأم - التي مولت صناعة الحضارة الإسلامية وتجديدها - ترصد الأوقاف الواسعة على مؤسسة الأسرة، فتيسر الزواج، وتحل مشكلاته.. الأوقاف التي تيسر:

- ١ - تزويج المحتاجين والمحتاجات.
- ٢ - وتقديم الحلى وأدوات الزينة ومستلزمات العرس للعرائس الفقيرات.
- ٣ - وتقديم حليب الرضاعة - المحلى بالسكر - لإعانة الأمهات المرضعات.
- ٤ - وتأسيس الدور لرعاية النساء الغاضبات اللواتي لا أسر لهن، أو من تسكن أسرهن في بلاد بعيدة.. فتؤسس هذه الأوقاف لهن الدور التي تقوم على رعايتها نساء مدربات، على رأسهن مشرفة تهين الصلح للزوجات الغاضبات من أزواجهن.
- ٥ - وحتى الأوقاف المرصودة على رعاية الأيتام واللقطاء.



هكذا صاغ الإسلام للأسرة ميثاقاً من القيم والأخلاق، ووضعت الحضارة الإسلامية هذه القيم في التطبيق - قدر الإمكان، ومع تفاوت في التطبيق الذي يقترب فيه «الواقع» من «المثال» - على امتداد تاريخ الإسلام

(١) عبدالله النديم: مجلة «الأستاذ» العدد ١٩ ص ٤٣٩ في ٨ جادى الثانية سنة ١٣١٠ هـ - ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٩٢ م

ومن هنا - وفي مواجهة الغزو الغربي لحصن الأسرة المسلمة - تأتي الأهمية البالغة لهذا الميثاق - ميثاق الأسرة الإسلامية - تلك الأهمية التي لا تقف عند كونه السياج الذي يحفى الأسرة المسلمة في المجتمعات الإسلامية.. وإنما تمتد - هذه الأهمية - إلى حيث تجعله «إعلاناً عالمياً إسلامياً»، ينطلق من عالمية الإسلام، وهدايته للعالمين، ليكون طوق نجاة للأسرة - كل أسرة - على امتداد القارات والحضارات.. وذلك عندما يدعو - باسم الإسلام - أهل الحكمة والفطرة الإنسانية السوية - من مختلف الديانات - إلى كلمة سواء

إنه بديل إسلامي لكل ما يرفضه الإسلام - فيما يتعلق بالأسرة - تتقدم به الأسرة المسلمة - عبر منظماتنا النسائية الوافية لدينها - إلى المؤتمرات العالمية «إعلاناً إسلامياً عالمياً» لإنقاذ الأسرة من الانحلال الذي تفرضه عليها العولمة الغربية.

تلك هي رسالة هذا الميثاق.. وهذه هي مكانته.. ومقاصده.. التي ندعو الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لها أسباب التحقيق والتمكين.. إنه - سبحانه - أفضل مسئول وأكرم مجيب (١).



(١) مقدمة كتبها لميثاق الأسرة المسلمة، الذي وضعته اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل.. لتصدره منظمة المؤتمر الإسلامي.



الأيدولوجيات في خدمة المصالح

كل الحروب والصراعات تدور حول «المصالح»، لكن «المصالح» لا تسير وحدها عارية من الأفكار، والعقائد، والفلسفات، والأيدولوجيات... فالجيوش التي تحارب - قبي سبيل المصالح - لابد لها من «عقائد قتالية» تدفعها للتضحية في سبيل تحقيق «المصالح» والجماهير التي تجيش الجيوش وتنفق على التسليح وتضحي في الحروب لابد لها من «أفكار وأيدولوجيات وعقائد» تشحنها وتحرضها على تقديم التضحيات في سبيل «المقاصد المصلحية» ولهذا الحقيقة ارتبطت حروب المصالح وصراعاتها بحروب الأفكار والعقائد والأيدولوجيات..

■ فالاستعمار الروماني الذي قهر الشرق عشرة قرون، قبل ظهور الإسلام، قد توسل لتحقيق استغلاله لثروات الشرق بالاضطهاد الديني والثقافي لشعوب الشرق.. حدث ذلك في ظل وثنية الرومان التي اضطهدت نصرانية الشرق.. وحدث ذلك - أيضا - بعد أن تدين الرومان بالنصرانية، فلقد اتخذوا لهم مذهباً - هو المذهب الملكاني - يضطهد المذاهب النصرانية الشرقية.. فكان الفكر اللاهوتي سلاحاً في حروب المصالح بين الاستعمار الروماني وبين الشرقيين الساعين إلى التحرر من الاستعمار.

■ وفي حقبة الحروب الصليبية القديمة [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] كانت عين الصليبيين الكاثوليكية على ثروات الشرق وكنوزه وخيراته.. وعلى أرضه الخصبة.. وعلى خزائنه التي تعز على الإحصاء!

لكنها غلقت هذه المصالح الدنيوية السافرة بغلاف العقيدة المسيحية.. قير المسيح.. ومقاتيح الجنة.. والغفران لأمرء الإقطاع من جرائم صراعاتهم الداخلية والدماء التي سفكوها فيها.. حتى لقد اعتبرت البابوية أن هذه الحرب المصلحية «هي في سبيل الله» - وبعبارة البابا: هي حرب «في حق الله عينه»!!

ويؤكد هذه الحقيقة نص الخطبة التي خطبها البابا الذي أعلن هذه الحروب الصليبية - «أوربان الثاني» (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) في فرسان الإقطاع - بكليرمونت.. بجنوبي فرنسا سنة ١٠٩٥ م ، والتي خاطبهم بها فقال:

«يا من كنتم لصوصاً كونوا الآن جنوداً.. لقد آن الزمان الذي فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن هي في حق الله عينه.. وليست هي لاكتساب مدينة واحدة، بل هي أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها عديمة الإحصاء.. فإتخذوا محجة القبر المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض - حسب ألفاظ التوراة - تفيض لبناً وعسلاً.. ومدينة أورشليم هي قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصصة المشابهة فردوساً سماوياً.. امضوا، متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية، واكسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم، فالملك الشرقي يكون لكم قسماً وميراثاً!!»

هكذا اختلطت أحاديث الخزائن الأرضية التي لا تحصى بخزائن المكافآت السماوية الأبدية.. ومن هذه الحقائق التاريخية نتعلم أن تجريد الصراعات من أبعادها الفكرية وعواملها الأيديولوجية هو وهم، إن أدى إلى نزع سلاحنا نحن، فإنه لن ينزع الأسلحة الدينية والأيديولوجية للأعداء!!





علاقة المسلم بالآخر الدينى

فى دولة النبوة - بالمدينة المنورة - سنّ رسول الله ﷺ، ثلاث سنن جسدت فلسفة الإسلام فى العلاقة بالآخر الدينى - الكتابى منه والوضعى: اليهود والنصارى والمجوس ومن ماثلهم - ولقد صيغت هذه السنن النبوية المعبرة عن هذه الفلسفة الإسلامية فى وثائق دستورية، طبقتها دولة النبوة، ورعتها دولة الخلافة الراشدة، وظلت مبادئها مرعية إلى حد كبير عبر تاريخ الحضارة الإسلامية وأوطان عالم الإسلام.

■ وأولى هذه الوثائق الدستورية هى «الصحيفة» الكتاب - دستور دولة المدينة المنورة، الذى وضعه رسول الله ﷺ عقب الهجرة وفور إقامة «الدولة» ليحدد حدود الدولة، مكونات رعيّتها - الأمة - والحقوق والواجبات لوحدات الرعية، بمن فيهم الآخر الدينى - اليهود العرب وحلفاؤهم العبرانيون - وليحدد كذلك المرجعية الحاكمة للدولة ورعيّتها.

وفى هذه الوثيقة الدستورية تحدثت موادها - التى زادت على الخمسين مادة - عن التنوع الدينى فى إطار الأمة الوليدة والدولة الجديدة، وعن المساواة بين الفرقاء المتنوعين، فقالت عن العلاقة بين المسلمين واليهود: أى عن التنوع الدينى فى إطار وحدة الأمة: «ويهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم والمسلمين دينهم.. مواليتهم وأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم» [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ١٥ - ٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م]

فكانت هذه الوثيقة الدستورية، أول «عقد اجتماعي وسياسي وديني» - حقيقى وليس مفترضا ولا متوهما - لا يكتفى بالاعتراف بالآخر، وإنما يجعل الآخر جزءا من الرعية والأمة والدولة - أى جزءا من الذات - له كل الحقوق، وعليه كل الواجبات، وذلك فى زمن لم يكن فيه طرف يعترف بالآخر على وجه التعميم والإطلاق!

■ أما الوثيقة الدستورية الثانية، فهي خاصة بالعلاقة مع الآخر النصراني، وضعها رسول الله ﷺ لنصارى نجران - عهدا لهم ولكل المتدينين بالنصرانية عبر المكان والزمان - وذلك عند أول علاقة بين الدولة الإسلامية وبين المتدينين بالنصرانية.. وفى هذا العهد الدستوري كتب رسول الله ﷺ: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية فى أقطار الأرض: جوار الله، وذمة محمد رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، أن أحصى جانبهم، وأذب عنهم، وعن كتائبهم وبيعهم، وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السباح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»! [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص ١٢٣ - ١٢٨، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م].

قبلت هذه الوثيقة - التى أشرنا إلى سطور من صفحاتها - فى الاعتراف بالآخر الدينى، والقبول به، والتكريم له، والتمكين لخصوصياته، والاندماج معه، ما لم تبلغه وثيقة أخرى عبر تاريخ الإنسانية - القديم منه.. والوسيط.. والحديث.. والمعاصر أيضا - مع ميزة كبرى، وهى جعلها لهذا التنوع والاختلاف فى إطار وحدة الأمة، تجسيذا لفلسفة الدين الإسلامى فى العلاقة بالآخر، وليس على أنقاض الدين - كل دين - كما هو الحال مع الوثائق الوضعية العلمانية التى تؤسس للعلاقات بين المختلفين!

■ أما السنة النبوية الثالثة، التى قننت للعلاقة بالآخر الدينى، فلقد مدت نطاق الآخر إلى أهل الديانات الوضعية، فعاملتهم معاملة أهل الديانات الكتابية.. ولقد بدأ تطبيق دولة الخلافة الراشدة لهذه السنة عندما دخل المتدينون

بالمجوسية في إطار الرعية الواحدة لدولة الخلافة الراشدة - على عهد الراشد الثاني عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ = ٥٨٤ - ٦٤٤ م] فلقد عرض عمر هذا الواقع الجديد - الموقف من المجوس - على مجلس الشورى.. مجلس السبعين، الذي كان يجتمع بمسجد النبوة، بمكان محدد، وأوقات منتظمة وسأل عمر:

- كيف أصنع بالمجوس؟

غوثب عبدالرحمن بن عوف [٤٤ ق هـ - ٣٢ هـ = ٥٨٠ - ٦٥٢ م] فقال - أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: سئوا فيهم سنة أهل الكتاب» - (البلانري «فتوح البلدان» ص ٣٢٧، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م).

فعومل أهل الديانات الوضعية - كل الديانات الوضعية - معاملة الكتابيين، غير تاريخ حضارة الإسلام.. تأسيساً على السنن النبوية الثلاث، التي قننت لذلك التنوع والاختلاف، منذ دولة المدينة المنورة، على عهد رسول الله ﷺ، وحتى أحدث الاجتهادات في الفقه الإسلامي المعاصر.





المباهلة

المباهلة: مفاعلة بين فريقين متناظرين ومتحاجين في أمر يختلفان فيه، يبتهل - أى يتضرع - كل منهما إلى الله سبحانه وتعالى أن يجعل لعنته على الكاذب منهما.

وفي المباهلة نزلت آيات سورة آل عمران (٥٩ - ٦١): ﴿إِنْ مَثَلٌ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١).

وسبب ومناسبة نزول آيات المباهلة هذه ما حدث من وقد نصارى نجران الذين جاءوا إلى النبي ﷺ بالمدينة سنة ٩ هـ سنة ٦٣٠ م - مع رؤسائهم «السيد الأيهم»، و«العاقب عبد المسيح»، و«ابن الحارث»، ففي الحوار الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، قال لهم الرسول:

- إن عيسى عبد الله وكلمته.

- فقالوا: أرنا عبدا خلق من غير أب.

- قال لهم الرسول: آدم، من كان أبوه؟ أعجبتكم من عيسى ليس له أب؟ فأدم عليه السلام ليس له أب ولا أم.

فنزلت الآيات تدعوهم - إن لم يصدقوا - إلى المناظرة - بحضور أبناء ونساء الفريقين - متضرعين إلى الله أن ينزل اللعنة على الفريق الكاذب.

لكنهم خافوا على أنفسهم من تنفيذ المباهلة، لما علموا من صدق نبوة ورسالة محمد ﷺ، حتى قال بعضهم لبعض: «إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم نارا». فعادوا إلى النبي ﷺ، يسألونه بديلا عن المباهلة وعن الإسلام، وقالوا:

- أما تعرض علينا سوى هذا؟

- فقال: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

فعاهدوه - مقابل حرية عقيدتهم وحمايتهم كجزء من رعية الدولة الإسلامية - على جزية مقدارها ألف حلة - ثياب - تؤدى فى شهر صفر، وألف حلة أخرى تؤدى فى شهر رجب.

وبذلك تكون المباهلة قد وقعت عند حد التحدى بها، ولم تتم لأنهم خافوا عاقبتها، واختاروا الصلح والمعاهدة التى دخلوا بها فى رعية الدول الإسلامية وحمايتهم مع الاحتفاظ بحريتهم الدينية وعقيدتهم النصرانية.

وظاهر الآيات القرآنية ينفى المرويات الرائجة التى تقول إن الرسول ﷺ قد اختار طريقه للمباهلة: على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين - رضى الله عنهم - «لأن كلمة (نساءنا) - كما يقول الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٢٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - لا يقولها العربى يريد بها ابنته، لا سيما إذا كان له أزواج، ولا يفهم هذا من لغة العرب، وأبعد من ذلك أن يراد بـ«أنفسنا» - عندما ينطقها النبى - على بن أبى طالب».

فما تطلبه الآيات هو اجتماع الفريقين للمناظرة والمحاجة والمجادلة، بحضور جماهير الفريقين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويبتهلون إلى الله بأن يلعن الكاذب منهما.

ويؤكد أن هذه المباهلة لم تتم أن وفد تجران - يومئذ - لم يكن معهم أحد من النساء والأبناء.



ولأن هذه المباهلة هى سبيل من سبل المناظرة والمحاجة بين أهل الحق وأهل الباطل، ولخلو الآيات مما يفيد قصرها على النبى ﷺ، أو على زمنه، فإنها تشريع إسلامى خالك، تستدعيه المقاصد المرجوة من ورائها، والمصالح المعلقة عليها، ولذلك، قال الإمام ابن عابدين [١١٩٨ - ١٢٥٢ هـ = ١٧٨٤ - ١٨٣٦ م]: «إن المباهلة، بمعنى الملاعنة، مشروعة فى زماننا... ولذلك، فمن المشروع والوارد أن تكون المباهلة من أساليب وآليات المناظرة والمحاجة مع المخالفين والمعاندين، أى أن تتم المناظرة، ويقدم الفرقاء المختلفون ما لدى كل منهم من

الحجج والبراهين والبيّنات، ثم يبتهلون إلى الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل
اللجنة على الكاذبين.

وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد العديد والعديد من المناظرات بين علماء
الإسلام وبين نفر من أهل الكتاب، فلا تحضرني وقائع تاريخية - قديمة
أو حديثة - اتخذت فيها هذه المناظرات صورة المباهلة التي نزلت بها هذه
الآيات من القرآن الكريم. والله أعلم.





فى العدل مع الآخر الدينى

لقد فُضح الإسلام - منذ لقائه الأول باليهودية واليهود - الانحرافات العقدية والتحريفات التى أوقعها أحبار اليهود بتوراة موسى - عليه السلام - ولم يمنع هذا الموقف الواضح والصريح والحاسم رسول الإسلام ﷺ ودولته وأمته من فتح الأبواب الواسعة أمام اليهود للتعايش مع المسلمين فى دولة الإسلام ومجتمعه - أمة واحدة ورعية متحدة - فنص دستور دولة المدينة - الذى وضعه رسول الله ﷺ عام تأسيس الدولة (سنة ١ هـ - سنة ٦٢٢ م) على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة» «الدستور» غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.. على اليهود تفقتهم وعلى المسلمين تفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصيح والنصيحة والبر دون الإثم..»

فكامل العدل والإنصاف فى الحقوق والواجبات لمن نرفض عقائدهم - كما يرفضون عقائدنا - وحساب العقائد لله - سبحانه وتعالى - وحده، يوم الدين. وهذه السنة التى سنّها الإسلام وطبقها مع اليهود كانت هى التى طبقها رسول الله ﷺ مع النصارى، منذ اللقاء الأول الذى جاءه فيه وقد نصارى نجران سنة (١٠ هـ - سنة ٦٣١ م) ففى هذا اللقاء حدثت المباهلة: أى استدعاء لعنة الله على الذين بدلوا عقائد شريعة عيسى - عليه السلام - ونقلوه من عبد الله ورسوله إلى حيث ألوهه وعبدوه من دون الله!

لكن هذه المباهلة لم تحجب عدل الإسلام مع النصارى المخالفين فى الاعتقاد.. فلقد فتح رسول الله ﷺ لنصارى نجران هؤلاء - كما يروى ابن القيم فى «زاد المعاد» - أبواب مسجد النبوة فصلوا فيه صلاة عيد الفصح، مولين

وجوهم إلى المشرق! ثم كتب لهم - ولكل من يتدين بالنصرانية عهداً لا تزال نصوصه متفردة، غير مسبوقة ولا ملحقة، بين عهد حقوق الإنسان ومواثيقها، ويكفى أن نقرأ فيه: «لنجران وحاشيتها، وسائر من ينتحل دين النصرانية في أقطار الأرض جوار الله وذمة محمد رسول الله، على أموالهم وأنفسهم وملتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم.. أن أحى جانبهم، وأدب عنهم وعن كنائسهم وبيوت صلواتهم ومواضع الرهبان ومواطن السياح.. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا مما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى.. لأنى أعطيتهم عهد الله على أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..».

نعم.. تلك هى سنة الإسلام فى العدل مع الآخرين والمخالقين فى الاعتقاد الدينى:

- الرفض للانحرافات والتحريفات العقدية التى أصابت تلك الديانات.. وترك حسابها إلى الله - سبحانه وتعالى - يوم الدين.

- والعدل والقسط والبر مع المتدينين بهذه الديانات فى الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات.. وعلى طريق هذه السنة سارت الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية عبر التاريخ، فحررت الفتوحات الإسلامية أوطان النصرانية الشرقية من القهر الدينى والحضارى الرومانى، وتركت هؤلاء النصارى أحراراً فى التدين بالعقائد التى رفضها ويرفضها الإسلام! وعلى امتداد تاريخ الإسلام لم يحدث إكراه على الدخول فى الإسلام.. وإنما دخل الناس فى الإسلام بالأسوة والجدال بالتي هى أحسن، وذلك وفقاً للمنهج الذى سنه القرآن الكريم





وشهد شاهد من أهلها

هناك شهادات كثيرة شهد بها علماء نصارى على أن الفتوحات الإسلامية إنما كانت فتوحات تحرير للشرق من الاستعمار الغربى: الإغريقى، الرومانى، البيزنطى الذى امتد عشرة قرون من الإسكندر الأكبر - [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد.. وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١ م] فى القرن السابع للميلاد.. وعلى أن هذه الفتوحات الإسلامية - التى حررت الأرض - قد حررت الضمائر، وتركت الناس أحراراً وما يدينون؛ لأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

■ ومن هذه الشهادات النصرانية، شهادة المستشرق الإنجليزى الحجة سير «توماس أرنولد» (١٨٦٤ - ١٩٣٠ م) التى يقول فيها:

«إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح».

ونحن عندما نقرأ هذه الشهادة لابد أن نتذكر أن التسامح الأوروبى الحديث، إنما كان ولا يزال تسامحاً مع الذات أكثر مما هو مع الآخر.. وأنه قد تم على أنقاض الدين - فى ظل العلمانية - بينما التسامح الإسلامى والعدل والإنصاف قد تم مع كل ألوان الآخر الدينى - حتى المتدينين بالديانات الوضعية - وأن هذا التسامح الإسلامى إنما هو ثمرة لدين الإسلام، الذى يعترف بكل الديانات.. وليس على أنقاض الدين..

■ وغير «توماس أرنولد» يشهد على سماحة الإسلام المستشرق الألمانى الحجة «آدم مترز» (١٨٦٩ - ١٩١٧ م) الذى قال: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام».

■ ولقد أيد هذه الحقيقة المؤرخ القبطي «يعقوب نخلة رقيقة» (١٨٤٧ - ١٩٠٥م) الذي شهد في كتابه «تاريخ الأمة القبطية» على أن عمرو بن العاص [٥٠ ق.هـ - ٤٣ هـ = ٥٧٤ - ٦٦٤م] قد استعان في حكم مصر بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلا منها حاكم قبطي ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم.

■ كذلك يشهد المؤرخ المعاصر «الدكتور جاك تاجر» [١٣٣٦ - ١٣٧١هـ = ١٩١٨ - ١٩٥٢م] على التحرير الإسلامي لمصر وأهلها، فيقول: «إن الأقباط قد استقبلوا العرب كمحررين، بعد أن ضمن لهم العرب - عند دخولهم مصر - الحرية الدينية، وخففوا عنهم الضرائب.. ولقد ساعدت الشريعة الإسلامية الأقباط على دخولهم الإسلام وادماجهم في المجموعة الإسلامية، بفضل إعفائهم من الضرائب. أما الذين ظلوا مخلصين للمسيحية، فقد يسر لهم العرب سبيل كسب العيش، إذ وكلوا لهم أمر الإشراف على دخل الدولة».

تلك شهادات من أهلها.. وهي مجرد نماذج.. فهل يعيها المرجفون في المهاجر الذين أصبحوا خدما للمخططات المعادية لمصر والشرق، ولكل ما هو نبيل في حياة الإنسان؟

إن الذين يكثرون من الحديث عن حقوق «المواطنة» عليهم أن يتعلموا

١ - أن الإسلام هو الذي قرر المساواة في الحقوق الدنيوية للمواطنة.. ولقد نص عهد رسول الله ﷺ إلى نصارى نجران على: «أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وعلى المسلمين ما عليهم حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».. بينما لم يعرف الغرب حقوق المواطنة إلا بالعلمانية.. وعلى أنقاض الدين.. فلسنا في حاجة إلى العلمانية، وترك الإسلام وشريعته حتى يتمتع المواطنون بحقوقهم في ديار الإسلام.

٢ - أن لكل حقوق واجبات توازيها.. فالتمتع بحقوق المواطنة يستلزم الولاء للوطن والانتماء إلى حضارته؛ لأن هذا الوطن هو «السقيفة» التي بدون الحفاظ عليها لن تكون هناك مجالات للتمتع بأية حقوق.. فمخالفة الأعداء تسقط كل حقوق المواطنة عن هؤلاء الذين يقتربون هذا الإثم العظيم!



عقد الذمة

الذمة - فى مصطلح العربية - هى: «العهد، والحرمة، والأمان، والضمان» وفى القرآن الكريم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]. وفى المصطلح الشرعى الإسلامى هى وصف يصير به الإنسان أهلاً لما له ولما عليه.

وأهل الذمة - فى الفقه والتاريخ الإسلاميين - هم أبناء الملل غير الإسلامية، من مواطنى دار الإسلام، الذين حكم عقد وعهد الذمة - أى الأمان والحرمة والضمان - علاقتهم بالدولة الإسلامية وبالمسلمين.

والأمر الذى استدعى وجود هذا النظام فى المجتمع الإسلامى هو القاعدة الإسلامية التى قررت التعددية فى الملل والشرائع والديانات فى دار الإسلام ودولته. فـ ﴿لَا إِكْرَاهَ فى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]. فالتعددية الإسلامية هى التى سمحت بالمغايرة، فاستدعى الأمر نظاماً للعلاقة بين المتغايرين..

ولقد شمل عقد الذمة كل أهل الكتاب - من اليهود والنصارى - ومن لهم شبهة كتاب، أو قيل إنه قد كانت لهم كتب سماوية، ثم اندثرت.. فدخل فى أهل الذمة: المجوس والصابئة وأهل الديانات الوضعية، غير السماوية فى شرقى آسيا، بل وقال المالكية - فى المشهور من مذهبهم، وكذلك الإمام الأوزاعى - بإدخال المشركين والوثنيين - عرباً وغير عرب - فى أمان الذمة وعقدها.

وعلة المغايرة، التى اقتضت عقد الذمة، فى رأى جمهور الفقهاء، ليست اختلاف الدين، وإنما هى قيام المسلمين، دون سواهم، بفريضة الجهاد، وتأمين الناس، بمن قبيحهم أهل الذمة، الذين لم يفرض عليهم الجهاد يومئذ، لكونه عقيدة

وفريضة إسلامية - من ناحية - ولمقتضيات وملابسات الفتوحات الإسلامية، حيث لم يكن ولاء غير المسلمين للدولة الإسلامية مضموناً إلى الحد الذي يجعلهم يحملون السلاح دفاعاً عن دولة الإسلام

وعقد الذمة من العقود المؤبدة لأهل الذمة المقيمين بدار الإسلام.. وهو مؤقت بالنسبة للمستأمنين الداخلين إلى دار الإسلام لغترات مؤقتة، كالتجار، والرسل، والسائحين.. وهو يقرر ويضمن لهم الأمن والأمان المقررين والمضمومين للمسلمين، وفق القاعدة الإسلامية المؤسس عليها هذا العقد - قاعدة: لهم ما لنا وعليهم ما علينا - ومن المأثور فيها عن الإمام علي بن أبي طالب قوله «أموالهم كأموالنا، وديارهم كديارنا» - فلاهل الذمة الأمان والحرمة والضمان في أنفسهم وعبادتهم وأموالهم وعقائدهم وشعائيرهم وشرائعهم ودور عباداتهم وأدوات هذه العبادات.. وفي عديد من الأحاديث النبوية التأكيد والتوصية على الوفاء بالذمة لأهلها.. من مثل قوله ﷺ: «أوصيكم بذمة الله فإنه ذمة نبيكم» (رواه البخاري).

وكانت الجزية هي المقابل المالى لضريبة الدم والجندية والجهاد لحماية دار الإسلام.. وهي مبلغ زهيد لا يفرض على كل أهل الكتاب، وإنما على القادرين مالياً وبدنياً ممن هم في سن الجندية، فهي لا تفرض على الصغار ولا على النساء ولا على المرضى ولا على العجزة ولا على أصحاب العاهات ولا على الأرقاء ولا على الرهبان المنقطعين للعبادة.. وتقاربت مقاديرها - تبعاً لمستويات الغنى والثراء - ما بين ١٢ درهماً، و٢٤ درهماً، و٤٨ درهماً في العام، تؤخذ مما تيسر من أموالهم، نقداً أو سلعاً أو مصنوعات.

وفي التجارات العابرة بين أقاليم الدولة الإسلامية كان الكتابيون يدفعون - مرة في العام - نصف عشر هذه التجارات، بينما كان التجار المسلمون يدفعون ربع العشر إلى جانب الزكاة في سائر أموالهم، والتي أعفى منها الكتابيون.

وكانت أعمال الدولة ووظائفها مفتوحة لأهل الذمة، لا يستثنى منها إلا الولايات التي يشترط الإسلام فيمن يتولاها: للطابع الديني في مهام ولايتها. كما كانت الوظائف ذات الطابع الديني في تنظيمات طوائف أهل الذمة مقصورة على أهل هذه الملل والطوائف والديانات.

وفى القضاء والفصل فى المنازعات، كان لأهل الذمة حقوق التحاكم إلى قضائهم الخاص فى قضايا شرائعهم الدينية، مع حق التحاكم فيها - لمن أراد - إلى شريعة الإسلام وقضاته. أما ما عدا المنازعات الشرعية فكان الفصل فيها لقضاء الدولة الإسلامية الموحدة.

ولقد شهد تاريخ المجتمعات الإسلامية فترات تعرض فيها أهل الذمة لألوان من الاضطهاد.. وغلب على هذه الفترات عموم الاضطهاد الذى شغل غيرهم معهم. كما فى عهد المتوكل العباسى [٢٣٢ - ٢٤٧ هـ = ٨٤٦ - ٨٦١ م] الذى اضطهد الشيعة والمعتزلة بأكثر مما اضطهد به أهل الكتاب.. وعهد الحاكم بأمر الله الفاطمى [٣٧٥ - ٤١١ هـ = ٩٨٥ - ١٠٢١ م] الذى دام اضطهاده لأهل السنة، بينما تراجع سريعاً عن اضطهاده لأهل الكتاب.. وفى فترات الغزو الخارجى والدسائس الأجنبية - من الدول النصرانية - للبلاد الإسلامية، تعرض أهل الذمة لألوان من التضييق والاضطهاد، بسبب موالاته نفر منهم، وخاصة أبناء الكنائس غير الوطنية: كالأروام لقوات الغزو، أو الشبهات على هذه الموالاته. كذلك ارتبطت فترات «التوتر الطائفى» حديثاً بنفوذ ودسائس الاستعمار الغربى الحديث.

ومع نمو وعموم القسومات والقيم الثقافية التى وجدت كل الملل - على أرض الإسلام - فى اللغة والقومية والحضارة، غدت الحضارة العربية الإسلامية رباطاً توحيدياً للجميع، فقبلورت فى ديار الإسلام أمة واحدة، بالمعنى الحضارى والقومى، ولاؤها للوطن الواحد، فذبلت عوامل المغايرة، وتساوى الجميع فى حمل مسئولية الجندية وحماية الوطن، الأمر الذى أدى إلى إلغاء نظام الجزية، وحلول المساواة فى المواطنة محل نظام الذمة.. ولقد لعبت الاجتهادات الإسلامية، وواكبت هذا التطور الذى شهدته الواقع الإسلامى الحديث.



الحكومات غير الشرعية.. والأقليات

فى ظل حكم الدولة الفاطمية [٢٩٧ - ٥٦٧ هـ = ٩٠٩ - ١١٧١ م] - الشيعية الإسماعيلية الباطنية - كان التناقض الفكرى والمذهبى بينها وبين الشعب المصرى - السننى - حائلا دون استمداد هذه «الدولة» لشرعيتها والرضا بها وعنهما من جماهير المحكومين.. ولذلك كان اعتماد هذه الدولة على الأقليات النصرانية واليهودية.. وخاصة النصارى غير الأرثوذكس - أى الملكانيين الأروام - وكان استقواء هذه الأقليات بضعف الحكم، لظلم جماهير الناس.

لكن الشعب المصرى قد ابتدع وأبدع ألوانا من المقاومة لهذا التحالف غير المقدس، المعادى لهويته ولمصالحه.. قاوم بالعرائض التى حملتها الصور والتماثيل عندما أغلقت فى وجوهه أبواب الحكام.. وقاوم «بالمنشورات» التى كتبت نثرا وشعرا

نعم.. صنع المصريون ذلك قبل أكثر من ألف عام! ولقد سخر المصريون يومئذ من عقائد الشيعة: عصمة أئمتهم - بمن فيهم الخلفاء الفاطميون - وادعاء علمهم بالغيب، والتبحر فى كل العلوم وجميع اللغات حتى ولو لم يدخلوا مدرسة أو حتى «كتأيا».. وكتبوا هذه السخرية فى «منشور»، نظموه شعرا، ثم وضعوه على منبر المسجد، ليقرأه الخليفة العزيز بالله [٣٤٤ - ٣٨٦ هـ = ٩٥٥ - ٩٦٦ م] عندما يصعد المنبر ليخطب.. وعندما رأى العزيز «المنشور»، قرأ فيه:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحقاقة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وعندما تولى وزارة مصر - فى عهد العزيز بالله - «يعقوب بن كلس» وأصله يهودى، وتولى «الفضل» قيادة الجيش.. تحدثت المقاومة المصرية عن سيطرة هذا

الثالث.. وعبر الشاعر المصري الحسين بن بشر عن تذمر الشعب المصري عن هذه السيطرة.. فقال:

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب، وهذا العز يز ابن، وروح القدس فضل!

قلما توفي العزيز بالله.. وجاء الحاكم بأمر الله [٣٨٦ - ٤١١ هـ = ٩٩٦ - ١٠٢١ م].. ووجد هذه السيطرة الطاغية للأقليات النصرانية واليهودية على مصر - حكاماً ومحكومين - كان رد فعله الشهير والمغالي الذي اضطلع فيه النصاري، حتى إنه هدم كنيسة القيامة بالقدس.. وأجبر العديد منهم على اعتناق الإسلام!! ثم عاد بعد أيام إلى إلغاء المراسيم الجائرة التي عالج بها جور الأقليات فبنى الكنائس التي هدمها.. وسمح لمن أجبر على تغيير دينه بالعودة إلى دينه.. بينما ظلت أغلبية الشعب المصري - السنية - تعاني اضطهاد الدولة الفاطمية حتى سقوط هذه الدولة، وتولى صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م] حكم البلاد حتى لقد كان لعن الفاطميين لأبي بكر الصديق ولعمر بن الخطاب، مكتوباً بحروف من ذهب، ومعلقاً على مساجد الشيعة الفاطميين الغلاة!

ولقد كانت ردود الفعل على استعلاء الأقليات، في ذلك التاريخ مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]

وإذا كان التاريخ - كوقائع وأحداث - إنما تحكمه سنن وقوانين ليس لها تبديل ولا تغيير، فإن وقائع العلاقات إبان الدولة الفاطمية - بين الدولة والسلطة، وبين الأغلبية الممثلة للعمود الفقري في الأمة والرعية.. وبين الأقليات - إن وقائع هذه العلاقات تقول:

عندما تفقد السلطة شرعيتها، فلا تكون معبرة عن الأغلبية، فإنها تستند في تسلطها إلى الأقليات، وهنا تتجبر الأقليات وتطغى - حتى على سلطان الدولة أحياناً - الأمر الذي يحدث ردود الأفعال الغاضبة والرافضة من الأغلبية ضد الحكام والأقليات جميعاً!

وفى ظل هيمنة الخارج الاستعماري، كثيراً ما تلجأ الحكومات الفاقدة للشرعية وتأييد الأغلبية إلى الاستعانة برضى الخارج وحمايته.. وكذلك تصنع الأقليات.

فبالخل إنما يحدث دائماً عندما يغيب الرضى والوفاق - وتغيب الشرعية - عن العلاقة بين السلطان وبين الأغلبية من رعيته، فيكون الضعف إما أمام الأقليات.. أو أمام الغزاة.. ولهذه الحقيقة كانت دعوة القرآن الكريم إلى أن يكون «ولاة الأمور» من الأمة، أى ممثلين لعقيدتها وفكرها وهويتها، وليسوا مجرد متغلبين على رعية تخالفهم فى الفكر والاتجاه.. وصدق الله العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. فكلمة (منكم) يجب أن يوضع تحتها عشرات الخطوط! وأن يفقهها الفقهاء، يلتزمها الجميع.

نعم.. إن للأقليات حقوقاً، لكنها جزء من حقوق الأمة، وليست «فيتن» على هوية الأمة وحقوقها!



العب بورقة الأقليات (١)

منذ بدايات الغزوة الغربية الاستعمارية الحديثة للوطن العربي، قلب العالم الإسلامي، بواسطة حملة «بونابرت» (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) على مصر (١٢١٣ هـ - ١٧٩٨ م) كان الإعلان عن مخطط العمل على استخدام الأقليات في مشروع الهيمنة الاستعمارية على بلادنا، وذلك عندما أعلن «بونابرت» وهو في الطريق البحري من «مرسيليا» إلى «الإسكندرية» عزمه على تجنيد عشرين ألفاً من أبناء الأقليات غير المسلمة، ليكونوا مواطني أقدام وثغرات اختراق تعينه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية الشرقية.. وفي أثناء حصاره لمدينة «عكا» الفلسطينية سنة ١٧٩٩ م - في الذكرى السبعماية لاحتلال الصليبيين للقدس سنة ١٠٩٩ م! - أصدر «بونابرت» نداءه إلى الأقليات اليهودية في العالم، كي تتحالف معه لتحقيق هذا الغرض الاستعماري مقابل أن يساعدها على احتلال فلسطين.

ومنذ ذلك التاريخ اتخذت قطاعات من هذه الأقليات اليهودية أكثر القرارات اللا أخلاقية، وذلك عندما وظفت نفسها في خدمة الحضارة الغربية التي اضطهدت اليهود طوال تاريخهم، ضد الحضارة الإسلامية التي أوتهم وأكرمتهم طوال تاريخها!! فبدأت «الشراكة» بين الصهيونية وبين الاستعمار الغربي منذ ذلك التاريخ.. الصهيونية تحلم بالخلاص من اضطهاد الغرب لليهود، على حساب العرب والمسلمين! والغرب الاستعماري يريد تحقيق «حرمة» من الأهداف، فهو يريد الخلاص من اليهود الذين كان ينظر إليهم باعتبارهم سرطانات في جسم حضارته المسيحية، وذلك بقذفهم إلى قلب الوطن العربي، يقيم بواسطتهم قاعدة لحضارته، وآلة حربية ضد أحلام العرب في التقدم والنهوض.. والبروتستانتية الغربية قد رأت في هذا المشروع «الصهيوني» - الاستعماري - تحقيقاً لنبوذة أسطورية تتحدث عن عودة السيد المسيح - عليه السلام - ثانية ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، عندما يحشر اليهود في فلسطين،

ويُقسمون «الهيكل الثالث» على أنقاض المسجد الأقصى، وتحدث معركة «هرمجدون» التي يباد فيها المسلمون!

وعندما هزم المصريون حملة «بونابرت» وتبددت أحلامه، وأصبحت القيادة - في المشروع الاستعماري الغربي - لإنجلترا نقل الصهاينة «قبلتهم» وشراكتهم إلى الاستعمار الإنجليزي، وتولت إنجلترا رعاية هذه «الشراكة»، وتوظيف الأقليات اليهودية ضد العرب والمسلمين.

وفي مواجهة مشروع «مصر - محمد علي باشا» [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧١ - ١٨٤٩ م] لتجديد شباب الشرق، وإنقاذه من الضعف العثماني، للحيلولة دون نجاح مخططات الاستعمار الغربي، سعت إنجلترا إلى الدولة العثمانية كي تسمح بزرع اليهود في فلسطين، لإعاقة المشروع النهضوي لمحمد علي باشا، وطلب «بالمرستون» (١٧١٠ - ١٨٦٥ م) وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٤٠ م من سفيره في «الأستانة» أن يقنع السلطان العثماني بالسماح بهجرة اليهود إلى فلسطين «حتى يكونوا حجر عثرة أمام محمد علي باشا ونوابه والأغراض التي قد تخطر بباله أو بال من يخلقه»!

ولم تخرج فرنسا الاستعمارية من الساحة نهائياً بهزيمة نابليون، فهي قد تولت تحويل الأقلية المارونية في لبنان، بواسطة التغريب الثقافي ومدارس الإرساليات التبشيرية إلى ثغرات اختراق: لتحويل قبلة هذه الأقلية وغيرها إلى الغرب، بدلاً من الشرق والعروبة وحضارة الإسلام.. وذلك وصولاً إلى «جعل الجزيرة العربية - كما قالوا - تتحنى لا إرادياً أمام الحضارة المسيحية لأوربا».

كما تولت فرنسا - في المغرب العربي - اللعب بورقة الأقلية الأمازيغية لإلحاق عاداتها وأعرافها بالقانون الوضعي الفرنسي، بدلاً من الشريعة الإسلامية، وإلحاقها - لغوياً وثقافياً - بالفرنسية والفرنكفونية، بدلاً من هويتها الحضارية العربية الإسلامية.

ولقد كانت «الشراكة» الاستعمارية الصهيونية والأصابع اليهودية حاضرة وفاعلة، دائماً وأبداً، في كل هذه المراحل لتنفيذ هذا المخطط الاستعماري للعب بأوراق الأقليات في بلادنا العربية والإسلامية.. ولقد زاد وضوح الدور الصهيوني في هذا المخطط وهذه التحديات منذ أن تجسد الظلم الصهيوني في

الكيان الإسرائيلي سنة ١٩٤٨م، فرأينا الكتابات الصهيونية تضع مخططات تفتيت الشرق العربي والإسلامي، بواسطة الأقليات الدينية والمذهبية والقومية، باعتبار هذا التفتيت هو التعميم لمشروع الأقلية اليهودية في إقامة كياناتها السياسي الخاص.. وباعتبار أن هذا التفتيت هو الضمان لأمن الكيان الصهيوني، الذي لا بقاء له ولا مستقبل في ظل الوحدة العربية والجامعة الإسلامية.. لقد تصاعد إغراء الأقليات باختيار الطريق الصهيوني: عض اليد العربية الإسلامية، والتوجه غرباً ضد العروبة والإسلام، وزيط مستقبل هذه الأقليات بالهيمنة الاستعمارية الغربية، بدلاً من المشروع النهضوي للعرب والمسلمين!





اللعاب بورقة الأقليات (٢)

منذ أكثر من نصف قرن، وبالتواكب مع إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين - قاعدة عنصرية استعمارية غربية - لإعاقة تقدم أمتنا ووجدها.. أعلن المستشرق الصهيوني «برنارد لويس» Bernard Lewis مخطط التفكيك للأمة الإسلامية، بواسطة الأقليات.. والذي نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية - البنتاجون - Executive Intelligence Research Project وفيه يدعو إلى إضافة أكثر من ثلاثين كياناً انفصالياً، على أساس ديني ومذهبي وعرقي (إثني)، تضاف إلى التجزئة التي أحدثتها اتفاقية «سيكس - بيكو» سنة ١٩١٦م وينص عبارات هذا المستشرق الصهيوني «فإن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع، فما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثلة في هذه الدول. بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة»!

وبعد أن تحدث عن تفاصيل مخطط تفكيك العالم الإسلامي - من باكستان إلى المغرب - على أسس دينية ومذهبية وعرقية، خلص إلى الهدف الصهيوني من وراء هذا التفكيك، فقال «ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد، بل سوف تشلها خلافات لا انتهاء لها.. ونظراً لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل، فإن هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل»!

فالمطلوب هو استخدام الأقليات لتفكيك العالم الإسلامي إلى كيانات ضعيفة، لضمان الأمن والتفوق للكيان الصهيوني الموظف في خدمة المشروع الإمبريالي الغربي الكبير!

ولقد تحول هذا التخطيط «الاستعماري - الصهيوني» إلى الممارسة والتطبيق على أيدي «ديفيد بن جوريون» (١٨٨٦ - ١٩٧٣ م) و«موشي شاريت» (١٨٩٤ - ١٩٦٥ م) و«موشي ديان» في حقبة خمسينيات القرن العشرين، ابتداء بالأقلية المارونية في لبنان، وطموحاً إلى تعميمه خارج لبنان.. وكتب «شاريت» في مذكراته - عن المقاصد من وراء اللعب بأوراق الأقليات في بلادنا، يقول: إنها:

أولاً: تثبيت وتقوية الميول الانعزالية للأقليات في العالم العربي.

وثانياً: إنكاء النار في مشاعر الأقليات المسيحية في المنطقة وتوجيهها نحو المطالبة بالاستقلال والتحرر من الاضطهاد الإسلامي!!
فمجرد تحريك الأقليات هو عمل إيجابي؛ لما قد ينتج عنه من آثار تدميرية على المجتمع المستقر!!

وفي مرحلة ثمانينيات القرن العشرين، ورغم الحديث عن «السلام، والتسوية.. وتطبيع العلاقات، بعد المعاهدة المصرية - الإسرائيلية سنة ١٩٧٩ م نجد أن هذا المخطط التفتيتي لعالمنا الإسلامي، بواسطة الأقليات، هو من الثوابت الاستعمارية الصهيونية، التي لا تتأثر «بالتغيرات»، حتى ولو سفتت هذه المتغيرات «بالسلام.. وتطبيع العلاقات»!

ففي المحاضرة التي ألقاها «أرييل شارون» - وكان يومئذ وزيراً للدفاع، في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٨١ م، والتي نشرتها مجلة «معاريف» - تراه يقول: «إن إسرائيل تصل بمجالها الحيوي إلى أطراف الاتحاد السوفيتي شمالاً، والصين شرقاً، وإفريقيا الوسطى جنوباً، والمغرب العربي غرباً.. وهذا المجال الحيوي عبارة عن مجموعات قومية وإثنية ومذهبية متناحرة»

ثم يواصل «شارون» الحديث عن مشروعات تفتيت العالم الإسلامي بواسطة الأقليات - على النحو الذي سبقه إليه «برنارد لويس» - حتى يكون هذا العالم الإسلامي «مجالاً حيوياً لإسرائيل».

وفي ذات الحقبة - ثمانينيات القرن العشرين - تصوغ «المنظمة الصهيونية العالمية» هذا المشروع التفتيتي تحت عنوان: «استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات»، وتنشره في مجلتها الفصلية «كيفونيم» Kivunim (الاتجاهات) - في عدد ١٤ فبراير سنة ١٩٨٢ م - وفي ثنايا هذا المخطط الاستراتيجي، تتحدث عن النجاحات التي حققتها إسرائيل في لبنان - إبان الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٨٩ م)

بواسطة قطاع من الأقلية المارونية - المارونية السياسية - باعتباره النموذج الواجب التعميم مع كل الأقليات.. فتقول «المنظمة الصهيونية العالمية»: «إن تفتت لبنان بصورة مطلقة إلى خمس مقاطعات إقليمية هو سابقة للعالم العربي بأسره، بما في ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية.. إن دولاً مثل ليبيا والسودان والدول الأبعد منها - [في المغرب] - لن تبقى على صورتها الحالية، بل ستقتفى أثر مصر في انهيارها وتفتتها، قمتي تفتتت مصر تفتت الباقون(13) إن رؤية دولة قبطية مسيحية في صعيد مصر، إلى جانب عدد من الدول ذات سلطة أقلية - مصرية، لا سلطة مركزية كما هو الوضع الآن، هو مفتاح هذا التطور التاريخي الذي أخرته معاهدة السلام، لكنه لا يبدو مستبعداً في المدى الطويل.

وإن تفتتت سوريا والعراق لاحقاً إلى مناطق ذات خصوصية إثنية ودينية، على غرار لبنان، هو هدف من الدرجة الأولى بالنسبة لإسرائيل، ولأن العراق أقوى من سوريا، وقوته تشكل في المدى القصير خطراً على إسرائيل أكثر من أي خطر آخر، فهو المرشح المضمون لتحقيق أهداف إسرائيل في التفتت، فتفتت العراق هو أكثر أهمية من تفتت سوريا.

وشبه الجزيرة العربية بأسره مرشح طبيعي للانحيار، وأكثر اقتراباً منه، بفعل ضغط داخلي وخارجي، وهذا أمر غير مستبعد في معظمه، خصوصاً في السعودية، والأردن هدف استراتيجي في المدى القصير.. فليس هناك أي إمكان بأن يبقى الأردن قائماً على صورته وبنيته الحاليتين في المدى الطويل، وينبغي أن تؤدي سياسة إسرائيل - حرباً أو سلماً - إلى تصفية الأردن بنظامه الحالي».

تم تلخيص هذه «الاستراتيجية» - بعد التفصيل لمخطط التفتت للعالم الإسلامي بواسطة الأقليات - إلى أن هذا هو «ضمان الأمن والسلام في المنطقة بأسرها في المدى الطويل.. ففي العصر النووي لا يمكن ضمان بقاء إسرائيل إلا بمثل هذا التفكير، ويجب من الآن فصاعداً بعثرة السكان، فهذا دافع استراتيجي، وإذا لم يحدث ذلك، فليس باستطاعتنا البقاء مهما كانت الحدود».

وهنا نسأل: أليس هذا هو المخطط الذي يتم تنقيذه اليوم في العالم العربي، وخاصة في العراق؟



اللعب بورقة الأقليات (٣)

فى ٢٠ مايو سنة ١٩٩٢م عقدت بإسرائيل ندوة - بجامعة «بارايلان» تحت عنوان: «تأييد إسرائيل للنزعات الانفصالية للجماعات العرقية والإثنية والاعتبارات الكامنة وراءه»!

ولقد خلصت أبحاث ومقررات هذه الندوة إلى أن «هذه الأقليات.. هى شريكة لإسرائيل فى المصير، ولا بد من أن تقف مع إسرائيل فى مواجهة ضغط الإسلام والقومية العربية، أو تهدى استعداداً لمحاربتها أو مقاومتها، هى حليف وقوة لإسرائيل لتنفيذ سياسة الاستيطان والدولة التى مازالت فى مرحلة التكوين»!

ولقد تزامن مع اشتعال الحرب الطائفية فى لبنان - فى سبعينيات القرن العشرين - غواية عدد من الشباب القبطى المصرى بالاشتراك مع المارونية السياسية فى هذه الحرب! واجتذبت الأصابع الصهيونية فى أمريكا قطاعاً من أقباط المهجر - وخاصة فى أمريكا وكندا وأستراليا - لتكوين «الهيئات القبطية»، الداعية إلى ما تسميه «تحرير مصر القبطية من استعمار العروبة والإسلام»! حتى أفضت هذه الأنشطة الطائفية - المواكبة لهيمنة العولمة الأمريكية، والمدفوعة والمدعومة من «اللوبي الصهيونى»، ومنظمات وكنائس «التحالف المسيحى»، و«المسيحية الصهيونية» - إلى إصدار «الكونجرس الأمريكى، فى أكتوبر ١٩٩٩م، لقانون «الحريات الدينية الدولية»، الذى فرض الحماية الأمريكية على الأقليات الدينية - وخاصة فى العالم الإسلامى - وقنن لآليات إيقاع العقوبات الأمريكية على الدول التى لا ترضى عنها أمريكا فى هذا المجال!

وليس صدفة أن صدور هذا القانون قد جاء ثمرة لحركة إعلامية بدأها محام يهودى - هو «مايكل هورفيتز» Michael Horowitz - فى ٥ يوليو سنة ١٩٩٥م، ثم تلققت الخيط المؤسسات والكنائس «المسيحية الصهيونية»، و«التحالف المسيحى»!

و«المحافظون الجدد» لتفضي هذه الحملة - الموجهة بالأساس إلى العالم الإسلامي - إلى قانون «الحماية والعقاب» - كما أسماه بحق الكاتب «سمير مرقس».

وليس صدفة كذلك أن تجد هذه المخططات «مراكز أبحاث»، معولة من أمريكا والغرب، تركز على اللعب بورقة الأقليات في بلادنا. وتدعو إلى تطبيق ذات المخطط الذي دعا إليه «برنارد لويس» و«بن جوريون» و«موشى شاريت»، و«موشى ديان»، و«أرييل شارون»، و«المنظمة الصهيونية العالمية». مخطط تفتيت العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية - نعم سياسية! - على أساس الدين والعرق والمذهب: أي تحويل التنوع من نعمة ومصدر قوة إلى نقمة وتشردم وتفتيت.. وتحويل الأقليات من لبنات في بناء الأمة والأمن الوطني والقومي والخضارى إلى ثغرات اختراق، وأسباب للانهييار والدمار. فيكتب رئيس أحد أهم هذه «المراكز البحثية» - د. سعد الدين إبراهيم - يقول بالنص: «إن المجتمعات التي تنقسم بالتعددية الإثنية، في الوقت الحالى، ينبغي أن تكون متعددة من الناحية السياسية أيضا».

ومع هذه الغواية الأجنبية، التي استجابت لها ووقعت في شباكهها جمعيات وجماعات طائفية، تعيش في المهاجر، متعاونة مع الصهيونية وقوى الهيمنة الإمبريالية.. وقلة قليلة من غلاة العلمانيين والطائفيين في الداخل، يستخدم المخطط الغربى - وخاصة الأمريكى - السلاح الاقتصادى في إنكاء الصراع الطائفى، فبواسطة المعونات الأمريكية الموجهة إلى القطاع الخاص، وتوكيلات الاستيراد والتصدير، والمعونات الموجهة للمشروعات التنموية الصغيرة، يتم التمييز الطائفى، لإيجاد واقع اجتماعى يعزقه «شراء الأقلية» و«حرمان الأغلبية»! لا حُباً في سواد عيون الأقلية، وإنما لتأجيج الصراع الطبقي ذى الطابع الطائفى. تكراراً للتجربة التي سبق أن صنعها الاستعمار - وأتت ثمراتها في لبنان - إغناء الأقلية المارونية، وإفقار الأكثرية المسلمة، وخاصة الشيعة منها، الأمر الذى أحدث - في لبنان - ويحدث الآن تراجعاً للسماحة والتسامح، و«قرراً طائفيًا» على نحو غير معهود.. كما يخلق ضيقاً «بالآخر» وتضييقاً على بعض حقوقه الطبيعية والمشروعة، كالحال مثلاً في موقف العامة والجمهور من بناء دور العبادة في بعض البلاد، بينما النهج الإسلامى يفتح الطريق أمام الحريات في هذه الميادين، حتى ليحض الدولة على إعانة غير المسلمين في بنائها.



اللعاب بورقة الأقليات (٤)

وإذا كان هذا التمييز الاقتصادي للأقليات في بلادنا مما يعترف به العقلاء منهم، حتى ليقول «الأنبا موسى» - أسقف الشباب في الكنيسة الأرثوذكسية المصرية - وهو من عقلاء وحكماء هذه الكنيسة: «إن الأقباط جزء هام من نسيج الحياة المصرية، فهم أطباء وصيادلة ومهندسون، وغيرها من المهن، ونسبتهم في رجال الأعمال مرتفعة أكثر من نسبتهم العددية في مصر» فإن هذه الفوارق الاقتصادية والاجتماعية المستفزة تشير إليها أرقام وإحصاءات رصدتها مصادر علمانية تقول: إن الأقلية النصرانية في مصر - والتي تقل نسبتها في السكان عن ٦٪ والتي كان يصفها الشيخ محمد الغزالي [١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ. = ١٩١٧ - ١٩٩٦ م] عليه رحمة الله بآتها: «أسعد أقلية في العالم» - تملك من ثروة القطاع الخاص في مصر ما بين ٣٥٪، و ٤٠٪ فهي تملك وتمثل:

- ٢٢.٥٪ من الشركات التي تأسست ما بين سنة ١٩٧٤، وسنة ١٩٩٥ - سنوات الانفتاح والمنعوتات الأمريكية؛
- و ٢٠٪ من شركات المقاولات في مصر.
- و ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية.
- و ٦٠٪ من الصيدليات.
- و ٤٥٪ من العيادات الطبية الخاصة.
- و ٣٥٪ من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية.
- و ٦٠٪ من عضوية غرفة التجارة الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين).
- و ٢٠٪ من رجال الأعمال المصريين.
- و ٢٠٪ من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادي بمصر.

- وأكثر من ٢٠٪ من المستثمرين بمدينتي السادات والعاشق من رمضان.

- و١٥,٩٪ من وظائف وزارة المالية المصرية.

- و٢٥٪ من المهن الممتازة والمتميزة - الصيادلة، والأطباء، والمهندسين، والبيطريين، والمحامين.

وذلك فضلاً عن أن هذه الأقلية نادراً ما تعاني أحد منها المشكلات التي تطحن سواد الأغلبية - البطالة.. الأمية.. وأزمات الزواج.. والإسكان.. إلخ.. إلخ ومع كل ذلك تصدر القوانين الأمريكية لحماية «أسعد أقلية في العالم» ويأتى أعضاء الكونجرس الأمريكى والدبلوماسيون الأمريكيون والغربيون «ليفتشوا» عن أحوالهم، ويرفعوا التقارير التى تتحدث عن «اضطهادهم»! وتطلب توقيع العقوبات على مصر وشعبها، وفق القانون الأمريكى - قانون «الحماية والعقاب»! وتصدر «الهيئات القبطية» فى المهجر الكتب والنشرات، داعية إلى تحرير هذه الأقلية من العروبة والإسلام!

هذا هو «الفعل الاستعماري» فى المسألة الطائفية.. وتلك هى «ريود الأفعال» على هذه التحديات فى تطبيقاتها على الأقلية القبطية فى مصر.. وهى أكبر الأقليات النصرانية العربية عدداً وأهم «الأوراق» التى يحاول الغرب اللغب بها! وإذا كنا نحذر من «الفعل الاستعماري»، و«الفرقة الطائفية الانعزالية» التى تعمل على إحياء اللغة القبطية كما أحييت الصهيونية العبرية! كى تحل محل اللغة العربية، التى هى اللغة الوطنية والقومية والحضارية للأمة كلها، على اختلاف أديانها! فإننا ندعو إلى أن تتحمل الأغلبية مسئولياتها الكبرى فى مواجهة هذه التحديات، وفى قطع الطريق على مخططاتها.. وذلك عن طريق

١ - حل المشكلات الحقيقية التى تعاني منها الأقليات، باعتبارها جزءاً من الأمة، وباعتبار مشكلاتها جزءاً من مشكلات الأمة

٢ - إدارة حوار داخلى بين «الحكماء»، لتحديد وتمييز «المظالم» الحقيقية من «الأحاسيس الزائفة أو المتضخمة بالظلم»! فالحكماء فى مختلف الفرقاء كثيرون، وهم الممثلون للأغلبية.. وحوارهم هو السبيل لقطع الطريق على القلة العميلة والمعادية، التى صنعها ويغذيها الاستعماريون والصهاينة، وقطع الطريق على الغلو الدينى عند مختلف الأطراف.

٣- إعمال المنهاج الإسلامي في «مداواة الجراح»، بدلاً من «توسيع هذه الجراح». فمن الخطأ والخطيئة الاكتفاء بـ«ردود الأفعال»، وخاصة تلك التي تصدر عن العامة والجهال، فالتحصين ضد الغوايات، وإقالة العثرات هو الأولى بالاتباع، وليس تصيد الأخطاء.

وعلينا أن نتذكر ما صنعت به الأمة - قبل قرنين من الزمان - عندما نجحت غواية الحملة الفرنسية على مصر في اجتذاب «المعلم يعقوب حنا» و«الفيلق القبطي» الذي قاده.. فسقطوا في حظيرة الخيانة لأمتهم وطائفهم وكنيستهم. فلقد صدر العفو - بعد هزيمة هذه الحملة سنة ١٨٠١م - عن الذين استجابوا لهذه الغواية. وصدرت «الفرمانات السلطانية» التي أعلنت هذا العفو، والتي تحذر من الانتقام، ومن فتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة. ولقد تحدث «الجبرتي» عن هذا المنهاج في مداواة جراح تلك الغواية، فقال: «لقد تودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصراني ولا يهودي، سواء كان قبطياً أو رومياً أو شامياً، فإنهم من رعايا السلطان، والماضي لا يعاد.. وكتبت فرمانات وأرسلت إلى البلاد - (في الأقاليم) - مضمونها: الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم، وفي ضمتها - (أي فرمانات) - آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل على تدخلهم مع الفرنسيين صيانة أعراضهم وأموالهم، كما قرئت فرمانات فيها التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم».

فالأقليات جزء أصيل من نسيج الأمة، لهم كل ما للأمة من الحقوق، وعليهم جميع ما عليها من الواجبات، ومسئولية الأغلبية في صد الغوايات، ومعالجة جراحاتها أكبر بكثير من مسئولية الأقليات.

هكذا بدأ واستمر.. ويتم اللعب بأوراق الأقليات الدينية والقومية غير المسلمة، وأيضاً المسلمة في وطن العروبة وعالم الإسلام.. وهكذا يجب الوعي بمخاطر هذه التحديات التي تواجه وحدة الأمة وتقديمها.



اللعب بورقة الأقليات (٥)

إذا كانت هذه هي التحديات التي تواجه الأقليات في واقعنا الراهن، ويواجه بها المشروع «الاستعماري - الصهيوني» أمقنا، محاولاً استخدام «أوراق» هذه الأقليات لتفتيت هذه الأمة، فما الحل الذي تواجه به هذه التحديات؟

إننا إذا استثنينا «حل» التجزئة والتفتيت للأمة، على أسس دينية ومذهبية وقومية - لأنه ليس «حلاً»، وإنما هو «المشكلة والتحدى» - فإن هناك مشروعين يتم الحديث عنهما لتحقيق التحصين لجسد الأمة ضد هذه التحديات:

أولهما: الحل العلماني الذي يبشر به العلمانيون، والذي يتصور أصحابه أن «العلمانية» - التي تستبعد المرجعية الإسلامية من السياسة والدولة والقانون والدستور ومشروع النهضة - هي «الحل لمشكلة الأقليات» في بلادنا، كما مثلت - برأيهم - الحل لهذه المشكلة في النموذج الحديث والمعاصر للمجتمعات الغربية.

وثانيهما: هو الحل الإسلامي، الذي بدأ به الإسلام التعامل مع «الأخر» كل ألوان «الأخر»، والذي جَوَّل الإسلام به هذا «الأخر» إلى جزء من «الذات»، ذات الدين الإلهي الواحد، في ظل المرجعية الإسلامية الواحدة.. وهو النموذج الذي كان له الفضل في إنقاذ أهل الديانات الأخرى من الإبادة، حتى لكان وجودها وبقائها في الشرق هو «هبة» هذا الحل الإسلامي، كما أنه هو الحل الذي عرفتة الأمة، واندمج به «الأخرون» مع المسلمين في أمة واحدة، عبر هذا التاريخ الطويل.

ولما كنا قد سبق وانتقدنا ورفضنا وفندنا «الحل العلماني»، في عدد من كتبنا فإننا نكتفي في هذا المقام بالإشارة إلى أن العلمانية قد مثلت وتمثل «المأزق»، وليس «الحل» لما يسمى «بمشكلات الأقليات».. فالعلمانية وافد غربي.

يستبعد المرجعية الإسلامية، التي هي هوية الأمة، والتي تتمسك بها الأغلبية وقطاعات واسعة من الأقليات. فاستبدال العثمانية بالمرجعية الإسلامية، هو - في الحقيقة - بمثابة فرض قطاع محدود من الأقلية - أي أقلية الأقلية - رأيه على أغلبية الأمة! وتحويل هذه الشريحة إلى «قُيتو» ضد أغلبية الأمة وهويتها وتاريخها! وفي هذا تعميق للشقاق على أسس طائفية، وتحقيق لمقاصد التحديات، وليس حلاً تواجه به هذه التحديات.. فضلاً عن أنه نفى وإلغاء لجوهر الديمقراطية، التي يجتمع حولها ويتمسك بها الجميع، والتي تعطي الوزن المناسب لرأي الأغلبية في تحديد مقومات المجتمع، ما دامت لا تنتقص من عقائد الأقليات وحقوقها.. وفوق كل ذلك فإنه يبدو غريباً الدعوة إلى العثمانية - وهي وافد غربي - لحل مشكلة الأقليات، بعد أن سقطت وأفلست كل الحلول الغربية الوافدة، التي أضاعت أمتنا قرنين من عمرها وهي تجرب النهوض وفق نماذجها! وإذا كان الحديث عن أقليات دينية، فإن المرجعية الإسلامية - التي عاشت في ظلالها هذه الأمة أربعة عشر قرناً، كانت في أغليها «العالم الأول» على ظهر هذه الأرض - ليست بديلاً لما تتدين به هذه الأقليات، حتى تكون تعدياً على حريتها في الاعتقاد الديني، لأن هذه المرجعية الإسلامية تترك هذه الأقليات وما تتدين به، وتقتصر تطبيقاتها على الجانب المدني والقانوني والسياسي، الذي ليس له منازعة في التصرائف التي تدع ما لقيصر لقيصر، وتقف عند ما لله، وخلاص الروح ومملكة السماء، ففقه المعاملات الإسلامي هو اجتهادات بشرية، في ظل منظومة القيم الإيمانية، التي لا تختلف باختلاف الشرائع السماوية المتعددة، والاجتهادات فيه مفتوحة أبوابها لكل أصحاب العطاء القانوني، على اختلاف الديانات التي يتدينون بها.. فكما جعل الإسلام شريعة من قبلنا شريعة لنا، ما لم ينسخها التطور التاريخي، فتح الباب أيضاً أمام كل أبناء الأمة، على اختلاف مللهم ونحلهم، للإسهام في البناء لحضارة الإسلام.. ومن ثم فهو يفتح كل الأبواب أمام كل عقول الأمة للإسهام في بلورة المشروع النهضوي المتميز لهذه الأمة - الأقليات منها والأغبيات - ومن هنا تصبح المرجعية الإسلامية، فيما وراء ما جاءت به النصرانية من عقائد، حلولاً «وطنية» وقومية.. وحضارية» لكل أبناء الأمة، تجمعهم على هوية حضارية واحدة، ومشروع نهضوي واحد، فيصبح نهوضهم المعاصر المنشود امتداداً لتاريخهم في النهوض

والازدهار الحضارى.. ويصبح فقه «الشافعى» [١٥٠ - ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠ م] فقها وطنيا بالنسبة لكل المصريين، لا يمكن أن يتقدم عليه فقه نابليون، الذى جاء غازيا وقاهرا لكل المصريين.. وكذلك الحال مع فقه «أبى حنيفة» [٨٠ - ١٥٠ هـ = ٦٩٩ - ٧٦٧ م] فى العراق.. وفقه الإمام مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ = ٧١٢ - ٧٩٥ م] فى أقطار المغرب العربى.. إن وطنية النصارى الشرقى لا يمكن أن تفصل القانون الرومانى، قانون «جستنيان» الذى اضطهد النصارى الشرقية، على فقه «الليث بن سعد» [٩٤ - ١٧٥ هـ = ٧١٣ - ٧٩١ م] الذى أفتى بأن بناء الكنائس هو من عمارة البلاد.



اللعب بورقة الأقليات (٦)

لقد مثلت العلمانية - عندما طبقت في تركيا، بعد إسقاط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م - نكبة على الأقليات الدينية والقومية، ولم تكن حلاً لمشكلاتها بأى حال من الأحوال، ويكفى أن نعلم أن نسبة النصارى في سكان الخلافة العثمانية سنة ١٥٥٠م قد كانت ٤١.٨٪ وأنها ظلت حتى بعد انفصال واستقلال بلاد البلقان تمثل ١٩.١٪ من السكان سنة ١٩١٤م فلما جاءت العلمانية أجهزت على هذه الأقلية النصرانية، فلم يبق منها فى سنة ١٩٩١م سوى ٢٪ من السكان وحتى الاضطهاد، وما يقال عن «الإبادة» التى حدثت للأرمن من سنة ١٩١٥م: فإن مرتكبيها هم العلمانيون من قادة «الاتحاد والترقى»، الذين انقلبوا على المرجعية الإسلامية للخلافة العثمانية!

أما حال الأكراد، فى ظل هذه العلمانية التركية - التى يريدونها حلاً لمشكلات الأقليات - فهو لا يقل سوءاً - رغم إسلامهم - عن حال النصارى.. فهم محرومون من الحديث بلغتهم، فضلاً عن التعليم والكتابة بها! بل ومحرومون من أن يسموا أبناءهم وبناتهم بالأسماء التى يريدون!

إن الأقليات - غير المسلمة - وكذلك المسلمة - قد عاشت وتعايشت وأمنت وازدهرت فى ظل المرجعية الإسلامية، فى ظل شريعة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا».. ولم تعرف المشكلات إلا فى ظل الاستعمار وغواياته.. وفى ظل العلمانية التى جلبها إلينا هذا الاستعمار، وصدق «الأبنا موسى» عندما قال عن حال أقباط مصر فى ظل الخلافة العثمانية: «... حيثما تذكر الأقباط أيام الدولة العثمانية، كانوا مع إخوانهم المصريين لهم دور مشترك.. وكثير من الأقباط عملوا وشاركوا بشكل واضح فى الحياة السياسية فى عهد محمد على».

بل إن هذه العلمانية، ذات النشأة الأوروبية، قد تحولت إلى «مأزق أوروبي»، همش المسيحية في أوروبا، وجعل مجتمعاتها فراغاً دينياً. انصرف فيه أغلبية الناس عن الإيمان الديني، حتى لتفلق الكنائس وتباع! ثم عجزت هذه العلمانية عن أن تملأ هذا الفراغ، وتجيب عن أسئلة النفس الإنسانية التي يجيب عنها الدين.. ويشهادة القس الألماني - عالم الاجتماع - الدكتور «جوتفرايد كوتزلن»: «فلقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني.. ومن نتائج العلمانية فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء السرعة على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون وهي التي تمنح الحرية الدينية».

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية هي العقل والعلم.. لكن وبعد تلاشي المسيحية في أوروبا، سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان التي كان الدين يقدم لها الإجابات، فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل تفككت أنساقها - العقلية والعلمية - بدعم ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة.. فالإنهك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث.. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون (نجمهم) الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم!»

لقد أزال العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا، ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوروبي، عندما أصبح معبداً العلمى عتيقاً! ففقد الناس «النجم» الذي كانوا به يهتدون!

هكذا تحدث «قس.. وعالم اجتماع» عن تحول العلمانية - في بلاد نشأتها - إلى مأزق، عندما هزمت الدين الإلهي، ثم لحقت الهزيمة «بدينها الطبيعي»، فققد الناس «النجم الذي به يهتدون»!

فهل يريد العلمانيون - بسبب الأقليات الدينية - أن تدخل في هذا الطريق، وهذا «المأزق» الذي دخل فيه الغربيون؟ وألا تفيق النصرانية في بلادنا، فتعلن رفضها «لكأس السم» التي تجرعتها النصرانية الأوروبية.. وتذكر أن منظومة القيم الإيمانية - التي تتفق فيها كل الأديان - لابد أن تكون لها السيادة في حياتنا.. وأن الشريعة الإسلامية هي أرعى للنصرانية والنصارى من العلمانية والعلمانيين؟

وفي هذا الإطار، علينا أن نذكر ونذكر بالكلمات العاقلة والحكيمة التي رأت وتري «جوامع الإسلام» - في الشريعة والحضارة - باعتبارها «جوامع الأمة»، وليست «تخصصية» للمؤمنين بالإسلام، دون الآخرين.. أن نتذكر:

■ كلمات البابا «شنودة الثالث» بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية، التي قال فيها: «إن الأقباط في ظل حكم الشريعة الإسلامية، يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد.. نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن، وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة، فكيف نرضى بالقوانين المجبوبة، ولا نرضى بقوانين الإسلام؟».

ولقد رحب - البابا «شنودة» - أخيراً بالحلول الإسلامية التي يقدمها الفقه الإسلامي لمشكلات الأسرة المسيحية - ومنها قانون «الخلع» - وقال - رغم معارضات متعصبة ترفض «الخلع» لا لشيء إلا لمصدره الإسلامي: «إن الخلع مبدأ موجود منذ القديم في الشريعة الإسلامية، ولم يكن عديد من الناس على معرفة به. وبمقتضى مبدأ الخلع من حق المرأة أن تطلب الانفصال عن زوجها لأسباب تبينها للمحكمة، منها استحالة الحياة الزوجية بينهما.. وإذا كان قانون الخلع يسمح للمرأة المسلمة بأن تستفيد من هذا الوضع، فما المانع من أن تستفيد منه المرأة المسيحية؟ فالمعروف في القانون هو عمومية القانون، فلا نطبقه في حالة معينة لفائدة البعض ونرفضه في حالة أخرى لفائدة البعض الآخر، إذن، الخلع يسمح للمرأة، مسيحية كانت أو مسلمة، أن تتخلص

من الزوج المتعب، وبخاصة لو كانت هناك أسباب تجعل استمرار الحياة
المشتركة بينهما مستحيلاً»

فالوحدة الوطنية، من مقوماتها - بعد وحدة منظومة القيم، ووحدة المدرسة -
وحدة المحكمة، ووحدة القانون، ما دام ليس هناك نص ديني قطعي وجليّ
مخالف للشرعية العامة - الشريعة الإسلامية - ففيما يتعلق بمثل هذا النص
يترك غير المسلمين وما يدينون.. أما في فقه المعاصلات - ومنه أغلب قوانين
الأحوال الشخصية.. وكل القوانين المدنية والجنائية والتجارية والدولية - فالفقه
الإسلامي فيها قانون مدني عام لكل الأمة، على اختلاف عقائدها الدينية.
هكذا.. بأصوات العقلاء نواجه الجهلاء والدمماء والأعداء!

اللعب بورقة الأقليات (٧)

فى الحديث عن مستقبل الوحدة الوطنية فى بلادنا، والتى يجب أن نحرص عليها حرصنا على عيوننا يجب أن نتذكر كلمات القائد الوطنى «مكرم عبىء باشا» [١٣٠٧ - ١٣٨٠هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦١م] التى يقول فيها: «نحن مسلمون ووطنا، ونصارى ديننا. اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارا... واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين».

■ ولقد فصل هذه الحقيقة أبو القانون المدنى الحديث، القاضى العادل الدكتور «عبدالرزاق السنهورى باشا» [١٣١٣ - ١٣٩١هـ = ١٨٩٥ - ١٩٧١م] عندما تحدث عن «جامع الإسلام.. وشريعته.. وفقه المعاملات فيه» باعتبارها مقومات الوحدة للأمة جمعاء، فقال: «إن الإسلام دين ومدنية.. والمدنية الإسلامية لا تعنى مجتمعا من المسلمين فقط، وإنما تعنى مجتمعا ذا طابع قد من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية التى عاشت وعملت معا جنبا إلى جنب تحت راية الإسلام، والتى قدمت لنا بذلك تراثا مشتركا لجميع سكان الشرق الإسلامى.. إن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجار هذه المدنية.. والشريعة الإسلامية لا ينبغى الاقتصار على كونها صالحة لتطبيقها على المسلمين وحدهم فى العصر الحاضر، بل على غير المسلمين أيضا، وذلك دون إرغام غير المسلمين على اتباع خلاف عقائدهم؛ ولذلك يجب أن تكون حركة إحياء الشريعة الإسلامية مبنية على أساس لا يتناقض مع هذه المعتقدات.. وأن يشترك فى هذه الحركة الإحيائية، إلى جانب المسلمين، غيرهم من الشرقيين غير المسلمين، القانونيون منهم والاجتماعيون، وأن نطبق قاعدة: أن الشريعة الإسلامية تكملها الشرائع الأخرى ما لم تتناقض معها هذه الشرائع...».

فالعلمانية ليست الحل.. بل إنها هي «المأزق» الذي يشكو منه عقلاء الأوروبيين والغربيين الذين شربوا كأسها المسمومة. وحرام أن يظل العلمانيون في بلادنا مثل أهل الكهف.. يبشرون «بالحادثة الغربية» بعد أن تجاوزها أصحابها إلى عدمية وتفكير «ما بعد الحداثة»! ويدعون إلى العلمانية بعد أن أفلس في المجتمعات التي نشأت فيها، وشهد العالم ويشهد صحوات دينية حتى عند أهل الديانات الوضعية، ورأينا ونرى «اللغة الدينية» و«المقاصد الدينية» تسود حتى في ميادين السياسة بالبلاد التي ظننا أنها علمانية حتى النخاع!

إذن، يجب أن نتوجه جميعاً إلى الشرق.. وأن نحذر ونتخلص من غوايات الغرب.. وأن نخلص الولاء والانتماء لمقومات حضارتنا الواحدة الجامعة، الحضارة الإسلامية، التي ورثت واستوعبت وأحييت كل الموارد الحضارية التي سبقت ظهور الإسلام، والتي شاركت في بنائها كل شعوب الشرق، على اختلاف عقائدها الدينية.. فالتغريب، والغوايات الغربية، والاختراق الغربي لأمن أمتنا الوطنية والقومية والحضارية، هي المخاطر المحدقة بوحدة الوطن والوطنية والقومية والحضارية.

■ ولنتذكر كلمات شهيد الحرية عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] - قبل قرن من الزمان - : «يا قوم، اليس مطلق العربي، أخف استحقاقاً لأخيه من الغربي؟ هذا الغربي قد أصبح مادياً لا دين له غير الكسب، فما تظاهره مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مخادعة وكذباً فالذين يطاردون الدين - [بالعلمانية] - في بلادهم، لا تكون دعواهم الدين في الشرق إلا كما يغره الصياد وراء الشباك».

■ فتحن جميعاً شرقيون، حضارة ومدنية وقيماً، وبعبارة «السنهوري باشا»: «الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإنهما لشيء واحد، وأمتنا ذات مدنية أصيلة، هي أكثر تهذيباً من المدنية الأوروبية.. وليست هي الأمة الطفيلية التي ترقع لمدنيتها ثوباً من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون».

وإذا كان أسلافنا قد علمونا: «أن صلاح آخر هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها».. فإن المنهاج الإسلامي الذي جعل «الآخر» جزءاً من «الذات» - ذات الأمة - والرعية - والدولة - والقومية - والحضارة - بل والدين الإلهي الواحد، مع الاختلاف في الشرائع، هو أصلح المنهاج لبناء الوحدة الوطنية والقومية

والحضارية لشعوب الأمة الإسلامية، هذه الوحدة التي تواجه بها مختلف
القوايات وجميع التحديات..

وعلينا أن نتذكر - كمنطلق لنا في هذا المقام - كلمات رسول الإسلام،
ورحمة الله للعالمين، وخاتم النبيين والمرسلين، والمصدق لما جاءوا به أجمعين،
ومحرر الشرق والشرقيين، وباني نهضة هذه الأمة، عندما أعطى العهد والميثاق
لغير المسلمين، أن يكونوا «مع المسلمين أمة واحدة، بينهم النصر والنصح
والنصيحة والأسوة والبر دون الإثم.. لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين،
وعلى المسلمين ما عليهم.. حتى يكونوا شركاء فيما لهم وفيما عليهم.. وأن أحرس
دينهم وملتهم بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي..».

ذلك هو دستور العدل والإنصاف لوحدة الأمة، مع كل الحقوق والحريات
في التنوع الديني، في ظل الولاء والانتماء لحضارتنا المشتركة والواحدة،
حضارة الإسلام.





اللعب بورقة الأقليات (٨)

وإذا جاز لنا، في ختام هذه الدراسة أن ترشح «الجماعة الحكماء» التي يجب أن تأتلف، لتدير الحوار الموضوعي حول مشكلات الأقليات، والتحديات التي تواجه الأمة بسبب استغلال الغرب الاستعماري لهذه المشكلات.. إذا جاز لنا أن نرشح «النقاط الساخنة» التي يجب أن تقتصر «جدول أعمال» هذا الحوار، فإننا نرشح:

أولاً : ضرورة استبعاد الأوهام التي تروجها قطاعات أقباط المهجر، تلك التي سقطت في شباك الفواية الصهيونية الغربية، والتي تزعم أن العروبة والإسلام طارئان على الشرق، ويجب «تحرير» النصرانية الشرقية منهما! فليست هناك - ولا يعقل أن تكون - «امتيازات للأقدمية الدينية».. قدين الله واحد، والتعددية والتوالي إنما هما في الشرائع والنبوات والرسالات، التي هي معالم على طريق الوصول إلى الله.. فالمسلمون الفرس هم إيرانيون زرادشتيون أسلموا، وليسوا طارئين ولا وافدين على إيران.. وكذلك المسلمون المصريون، هم مصريون - أي أقباط - أسلموا، وليسوا مهاجرين من شبه الجزيرة العربية إلى مصر.. وعلى الذين يزعمون أن المسلمين في المشرق والمغرب هم مهاجرون طارئون على البلاد التي فتحها المسلمون، أن يتعلموا ويعلموا حقائق «الديموجرافيا» التي كتبها ونشرها العلماء غير المسلمين، والتي تقول:

■ إن كل سكان شبه الجزيرة العربية في عهد الخلافة الراشدة - أي عصر الفتوحات - كان عددهم ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة فقط بينما كان عدد سكان مصر والشام والعراق وفارس وحدها - أي باستثناء المغرب - ٢٩,٠٠٠,٠٠٠ نسمة.. فحتى لو هاجر كل سكان شبه الجزيرة العربية - وهذا لم يحدث - إلى البلاد التي

فتحتها المسلمون لما كان لذلك أى أثر «ديموجرافى» على التركيبة السكانية الأصلية لتلك البلاد.

وإذا كانت قد تمت هجرات عربية مسلمة محدودة العدد إلى تلك البلاد، فلقى تمت إليها هجرات أرمنية ويونانية وقبرصية مسيحية أيضاً.

وعلى الذين يقولون إن الإسلام «واقدة» على النصرانية فى تلك البلاد، أن يتذكروا أن النصرانية «واقدة» على تلك البلاد أيضاً بل هى واقدة حتى على الفاتيكان! كما أن اليهودية «واقدة» على كل البلاد التى دخلتها، بما فى ذلك فلسطين! وإذا كانت «الأقدمية الدينية» ميزة وامتيازاً، فلربما كان الفوز بهذا الامتياز هو للذين يعبدون «العجل أبيس»!!

فعلينا أن تبدأ حوار الحكماء بتهديت هذه الأوهام.

وثانياً : أن المساواة فى حقوق المواطنة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية - هى حق إلهى، بحكم خلق الله سبحانه وتعالى، للإنسان - من الأقليات أو من الأغليات كان هذا الإنسان - فهذه المساواة ليست مجرد حق من حقوق الإنسان، تمنح أو تمنع تبعاً لدرجة التسامح فى المجتمع والدولة، وإنما هى «حق إلهى» بحكم الخلق والتكريم الإلهى لمطلق الإنسان.

وإذا كان الحق فى بناء دور العبادة، وفى إقامة الشرائع الدينية فيها، هو مما كفله الإسلام، بل وأوصى الدولة الإسلامية بأن تعين وتساعد عليه غير المسلمين.. قرر الإسلام ذلك، وطبقه قبل أى حديث عن حقوق الإنسان.. ولما كانت هذه القضية قد اكتسبت الكثير من الحساسية، لكثرة ما قيل فيها وعنها، ولما اختلطت فى أوراقها من حق ومن أكاذيب.. فإن الاقتراح الذى تقدمه - للحوار حوله - بصورها، هو الذى سبق واقترحه شيخنا محمد الغزالي - عليه رحمة الله - فى الندوة التى دعت إليها نقابة المهندسين - بمصر - منذ سنوات، والتى حضرها معنا البابا «شنودة الثالث».. وفيها اقترح الشيخ الغزالي أن يعطى كل أهل دين مساحة من الأرض لبناء دور عبادتهم عليها، مساوية لنسبتهم العددية إلى السكان.. فهذا هو المعيار العادل الذى يخرج هذه القضية الحساسة والحيوية من غلو الغلاة، كل الغلاة.. غلو الذين يضيقون ببناء الكنائس.. وغلو الذين يريدون لبناء الكنائس أن يكون مظهرًا من مظاهر «الاستفواء» والتغيير لهوية المجتمع. لحساب الهوية المستوردة التى لا علاقة لها بهويتنا المشتركة.

وثالثاً: إذا كان من غير المتصور أن تفرض الأقلية الدينية على الأغلبية منهاجها ومذهبها في «الدولة»، كأن يسعى المسلمون، في فرنسا - مثلاً - بملايينهم الخمسة، إلى فرض «الدولة الإسلامية وشريعتها» على الأغلبية العلمانية للشعب الفرنسي، أو أن يمثلوا «فيتو» على التوجه العلماني للأغلبية - وكذلك الحال مع أكثر من مائتي مليون مسلم في الهند - لأن «هوية الدولة» - بالمنطق الديمقراطي - هي خيار الأغلبية. فإن هزم «الدولة» - التي تكون علمانية مع الأغلبية العلمانية، وإسلامية مع الأغلبية الإسلامية - مطالبة بالأجور هويتها - علمانية كانت أو إسلامية - على الحق الإلهي والمقدس للأقليات في حرية الاعتقاد الديني، وإقامة شعائر وفرائض الدين.

فالأقليات الإسلامية في البلاد العلمانية، مطالبة باحترام القانون الوضعي. بشرط أن يراعى هذا القاتون حريتها في الاعتقاد الإسلامي وإقامة الفرائض الإسلامية، ومراعاة الحلال والحرام الديني في أحوالها الشخصية وحياتها الأسرية، وعدم التجريح لمقدساتها.

والأقليات غير المسلمة، في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة، مطالبة باحترام قوانين وفقه الشريعة الإسلامية، خصوصاً وأن هزم القوانين مرجعيتها من منظومة القيم الإيمانية المشتركة، والجانب المدني والقانوني الإسلامي، الذي لا بديل له ولا نقيض في النصرانية، وإنما هو بديل ونقيض للقانون الغربي العلماني، الذي جاءنا في ركاب الغزاة والمستعمرين. فالقانون الإسلامي هو قانون «وطني» و«قومي» بالنسبة لغير المسلمين، مع ضرورة مراعاة ألا يتعارض بند من بنود هذا القانون مع نص ديني جلي جاء به الدين لغير المسلمين».

بهذه القضايا، الأكثر حساسية، والأكثر عرضة للاستغلال، يجب أن يبدأ الحوار بين الحكماء.

وإذا كانت أوراق الأقليات قد تحولت - على يد الهيمنة الغربية - من «نعمة التنوع في إطار الوحدة» إلى «نقمة تشرذم وتفتيت» فإن العقلاء والحكماء، من مختلف الفرقاء، يجب عليهم إنقاذ الأديان من هذا الاستغلال الاستعماري، وإنقاذ الأقليات من هذا الذي تصنعه الغواية والخيانة بأقلية قليلة، أرادت وتريد تعميم جريمتها على الأغلبية الساحقة من أبناء الأقليات.

إن التعصب رذيلة، بصرف النظر عن دين المتعصبين.. أما السقوط في شباك
الغواية الاستعمارية فهو الخيانة للوطن.. وللدين معاً.. ولنتذكر - مرة أخرى -
الخيار الصهيوني للأقليات - كما جاء في مقررات «ندوة التسعينيات» - والذي
قالوا فيه: «إن هذه الأقليات هي شريكة لإسرائيل في المصير، وفي الوقوف ضد
الإسلام والقومية العربية»!! أعاذ الله أمتنا من شرور الغواية.. وحرسها من
تحديات الخيانة.. ووقفنا جميعاً - أقليات وأغليات - إلى ما يرسخ وحدة أمتنا،
ويعيد لها أسباب النهوض، لتأخذ مكانها ومكانتها الجديرة بدورها التاريخي،
الذي تعلمت منه الكثير من الأمم والحضارات..
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.





قانون الاحتكاك بين الحضارات

بسبب ثورة وسائل الاتصال زاد الاحتكاك الحضارى، بين مختلف الحضارات والثقافات، فى العصر الذى نعيش فيه.. لكن هذا الاحتكاك الحضارى والثقافى قديم، وليس وليد عصرنا الحديث أو واقعنا المعاصر.

والذين يتتبعون موجات العلاقات والاحتكاكات بين الحضارات - عبر التاريخ المدون للإنسانية - يجدون قانوناً قد حكم هذه العلاقات والاحتكاكات.. فكان هناك تفاعل حضارى فى ميادين «المشترك العام» بين هذه الحضارات والثقافات.. وكانت هناك خصوصية وتميز فيما تتمايز فيه وتختص كل حضارة من هذه الحضارات، فلم يعرف هذا التاريخ الحضارى والثقافى - فى أوضاعه الصحية والسوية - غلو «القطيعة» والتضاد» بين هذه الحضارات.. ولا غلو «المماثلة» والمحاكاة».. وإنما كان هناك «التفاعل الحضارى»، والتمايز - فى ذات الوقت - بين هويات وخصوصيات وسمات هذه الثقافات والحضارات.

فالإغريق انفتحوا على المصريين القدماء، لكن تأثرهم وقف عند ثمرات «العقل» دون أن يتجاوزها إلى عالم «الروح» و«الوجدان».. فلم يأخذ الإغريق عقائد المصريين القدماء فى الروح والغيب والخلود والحساب والجزاء والتوحيد.. والمسلمون انفتحوا على الحضارة الهندية، لكنهم أخذوا عن الهندوس الفلك والحساب، دون الفلسفات والعقائد والثقافات.. وكذلك صنعوا فى انفتاحهم على الفرس، عندما أخذوا عنهم التراتيب الإدارية، ورفضوا - فى ذات الوقت - مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية.. وعن الرومان البيزنطيين أخذ المسلمون تدوين الدواوين، ولم يأخذوا القانون الرومانى.. وكذلك كان الحال فى الانفتاح على تراث الإغريق، فلقد أخذ المسلمون العلوم التجريبية التطبيقية المحايدة.

وأهملوا النظر في إلهيات اليونان، بل وأهملوا النظر - ونحن ثم الترجمة -
للآداب الإغريقية؛ لما حملت من أساطير وثنياتهم، ولما جسدت من روح الوثنية
في ذلك التراث.

وذا القانون نراه فاعلاً إبان انفتاح النهضة الأوربية الحديثة على
تراثنا الإسلامي، فلقد أخذوا العلوم التجريبية، التي طورها المسلمون، وأخذوا
إبداع أسلافنا في المنهج التجريبي والملاحظة والاستقراء - وهو الذي فتح
به المسلمون باب التجاوز للقياس الأرسطي - لكن الأوربيين لم يأخذوا
نموذجنا الثقافي الإسلامي، بل قد أحيوا النموذج الإغريقي والروماني مع
استلهاهم من تراثنا العلوم الطبيعية والمنهج التجريبي، فنهضوا كامتداد
متطور للإغريق والرومان، ولم يقفوا من نموذجنا الثقافي موقف التبعية أو
التقليد والمحاكاة.

بل لقد كان تعامل النهضة الأوربية مع فيلسوفنا أبي الوليد ابن رشد نموذجاً
لإعمال هذا القانون الذي حكم احتكاك وتفاعل الحضارات، فأخذوا «ابن رشد»
الشارح لأرسطو، وأسموه «الرشدية اللاتينية»؛ لأن هذه بضاعتهم ردت إليهم،
ورفضوا - بل أدانوا - «ابن رشد» الموفق بين الحكمة والشرعة، والمتكلم الذي
أقام العقيدة الدينية على العقلانية المؤمنة، والفقيه الذي كان يقضي بالشرعة
الإسلامية؛ لأن هذا النموذج الثقافي الإسلامي - أو «الرشدية الإسلامية» - كان
مغايراً للنموذج الثقافي لـ «الرشدية اللاتينية»؛ تلك التي استبدلت العلمانية
بـ اللاهوت، وألهمت العقل، عندما أصبحت عبارة: «لا سلطان على العقل إلا العقل»
هي شعار فلسفة وفلسفة التنوير!

بل إن بواكير نهضتنا الحديثة - وخاصة مصر في عهد محمد علي باشا
[١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] - قد جسدت إعمال هذا القانون في
علاقة الذات الثقافية ونموذجها بالآخر الثقافي ونموذج.

فرفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] هو الذي دعا
إلى التلمذ على أوربا في «العلوم الجكمية العملية» والمعارف البشرية المدنية
التي لها مدخل في تقدم الوطنية؛ لأنها - وإن ظهر الآن أنها أجنبية - هي علوم
إسلامية، نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلى الآن في
خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة!

فدعنا الطهطاوي إلى التفاعل مع معارف وحقائق وقوانين هذه العلوم، مع إحياء النموذج الثقافي الإسلامي، وذلك «بنشر السنته الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة».

بل لقد أكد الطهطاوي تميز النموذج الثقافي الإسلامي عن النموذج الأوربي عندما قال: إن لهم في «الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية.. وهم من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل والنواميس الطبيعية وحدهما.. أما نحن المسلمين، فليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فتحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشرع».

ففي علوم التمدن المحدثي تعلمت نهضتنا على أوربا، وفي الفلسفة والغقيدة والثقافة والقيم احتفظنا بخصوصيتنا.. وذلك إعمالاً للقطرة السوية، وقانون الاحتكاك بين الحضارات.

الوعي بالآخر شرط للوعي بالذات

قديمًا قال أسلافنا: «والشيء يظهر حسنه الضد».. «وبضدها تميز الأشياء».. لذلك يستحيل علينا أن ندرك خصوصياتنا الثقافية والحضارية إذا نحن انغلقتنا على تراثنا وحده، وثقافتنا دون سواها.. فمعرفة «الآخر» الثقافي والحضاري شرط لإدراك تميز «الذات» الثقافية والحضارية عن هذا «الآخر».. ويدور هذه النظرة «العارفة» والمقارنة» لا سبيل لإدراك مناطق الاشتراك - ومن ثم التفاعل - ومناطق التمايز - ومن ثم الخصوصية - في العلاقة بيننا وبين الآخرين.

وعلى سبيل المثال.. فجوهر الاعتقاد الإسلامي هو «التوحيد» للذات الإلهية، في أرقى مستويات «التفزيه - والتجريد».. فالوجود الإلهي هو وجود متسام ومتره عن وجود الاستخلاف، الخاص بالإنسان، والذي يرى من كل شبهات الاتحاد والخلول بين الله والإنسان، وفي ذات الوقت جعل للإنسان - الخليفة - بعدًا ربابيًا لأن الله قد نفخ فيه من روحه، واستخلفه - تكريمًا له - لعمران الأرض واستعمارها.

وهذه النظرة الفلسفية الإسلامية تجعل حضارتنا الإسلامية حضارة تتمحور حول الله، لا حول الطبيعة، أو الإنسان.. وذلك دون احتقار للطبيعة، أو تهमيش للإنسان.. فالطبيعة فيها مخلوقة لله - سبحانه وتعالى - لها حياة.. بل ولها عبادتها، التي تسبح فيها لله، وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح.. فنحن نتعامل معها لا بـ«القهر» وإنما بالإحاء والارتفاق!

كما أن هذه النظرة الإسلامية - التي لا تؤله الإنسان - ولا تتمحور ثقافتها الإسلامية حوله.. لا تهميش هذا الإنسان؛ لأنه - فيها - المخلوق الذي اختاره الله خليفة له.. ونفخ فيه من روحه.. وحمله الأمانة التي أبت حملها المخلوقات الإلهية الأخرى.. حتى لقد كرمه الله، وفضله على الملائكة المقربين.

وعدم تمتحور الثقافة الإسلامية حول الإنسان يعنى عدم استقلاله عن الله - دون أن يكون هناك خلط بين «الاستخلاف» وبين «الحلول» -.. وعدم استقلال الإنسان عن الله يعنى نسبية قدراته وعلومه ومعارفه ومدرجاته.. فهو - بالاجتهاد - عالم ومعارف، لكن الاجتهاد الإنسانى لا يعدو أن يكون الاستنباط للحكم الظنى والنسبى، بينما العلم المطلق والكلى والمحيط هو الله - سبحانه وتعالى - ولذلك، فمع أن التعقل الإنسانى والعقلانية هى فريضة، إلا أنها لا تستقل بمعرفة المطلق، وخاصة فى نيا الغيب ووحى السماء.

وفى مقابل هذه الفلسفة الإسلامية، نرى - فى الفكر الغربى - فلسفة «الحلول» الإلهى فى الإنسان، فالإنسان ليس «خليقة» لله.. وإنما هو «صورة الله»! ولذلك أدى هذا التأليه للإنسان إلى قيام الفلسفات التى جعلت الثقافات تتمحور حول الإنسان، وليس حول الله.. فكانت شعارات التنوير الغربى: «لا سلطان على العقل إلا للعقل»! وكانت العلمانية، التى رأت الإنسان مكتفياً بذاته، والعالم مكتفياً بذاته، لا حاجة بهما إلى رعاية إلهية وتدبير إلهى وشريعة تأتى من وراء هذا العالم وخارج عقل وحواس هذا الإنسان!

بل إن فى الموقف الإسلامى، الذى يقف بالإنسان عند درجة «الخليقة»، لا «الحلول»، و«التأليه»، العصمة من الكهانة والكهنوت، اللذين فتحا الباب فى الفكر الغربى ليكون فريق من بنى الإنسان ممثلين لسلطان الله، يحكمون بحقه، ولا يسألون عما يفعلون، ويملكون سلطان الغفران والحزمان فيما هو خاص بالله! لقد ابتلى الغرب بالكهانة والكهنوت - بسبب فلسفة «الحلول» و«التأليه» للإنسان، لا فى الإطار الكئسى وحده - كما هو شهير -.. وإنما - أيضاً - فى «تأليه الدولة».. و«تأليه الطبقة».. و«تأليه الحزب».. و«تأليه الفرد».. على النحو الذى شاع فى فلسفات الغرب ومذاهبه الاجتماعية والاقتصادية.

ففى مقابل «مركزية الطبيعة»، و«الإنسان الطبيعى» - فى الفكر الغربى - - التى أثمرت «علمنة المعرفة والحياة»، نجد - فى الفكر الإسلامى - التمرکز حول «وحدة الله» - على المستوى الوجودى - التى تؤدى إلى عقيدة «وحدة الحقيقة»، و«وحدة الحياة»، على نحو من التراتب - وفق الاستخلاف الإلهى للإنسان - - يحول دون علمنة الحياة والمعرفة والقيم فى الثقافة الإسلامية.. فالاستخلاف، والأمانة التى حملها الإنسان، هما أصل القيم المغيارية الإسلامية.. والعهد



الوعى بالذات والواقع المحيط

تمثل «الاستنارة» حالة كيفية ونوعية من «الوعى - الفاعل» بحقيقة «الذات» و«الواقع»، و«المحيط».. فلا بد فيها من الوعى «بالذات الحضارية والثقافية»، والمعرفة الواعية «بالآخر الحضارى والثقافى» أيضا.

والذين تقف ثقافتهم عند موروثهم الفكرى لا تتعداهم - فى أحسن الأحوال - كمن ينظر بعين واحدة، فلا يبصرون إلا ذاتهم، أو كالأعمى الذى لا يدرك من الوجود غير جسده الذى يتحسس بهديه!

وكذلك حال ثقافة الذين ضربت عقولهم فى «المصانع الفكرية» للحضارات الأخرى، الذين جهلوا مواريتهم، وهوية أمتهم، وثقافة الحضارة التى يحملون أسماءها وإلى شعوبها ينتسبون.

إنهم مستنبرون.. لكن استنارتهم لا ترى غير الآخر، ولهم وعى، لكن وعيهم لا يدرك الذات الحضارية التى يستظلون بعنوانها العقدى والوطنى والقومى والثقافى ومن هنا، كانت الاستنارة الكاملة الفاعلة هى الوعى الحقيقى «بالذات الحضارية»، و«بالآخر الحضارى»، وإدراك وإعمال قوانين الأخذ والعطاء، والتفاعل الصحى بين تيارات الفكر الإنسانى، وثمرات العقول فى مختلف الثقافات والحضارات.

فالذين يكتفون «بذاتهم» الثقافية والحضارية، لا بد وأن يقودوا هذه «الذات» إلى الذبول والاضمحلال، مثلهم فى ذلك كمثل المضرب عن الطعام، يعيش على الذات حتى يستهلك مكوناتها!

وكذلك الذين يتجاهلون أو يجهلون «الذات» الثقافية والحضارية لأمتهم، ويتقمصون «ذوات» الآخرين، لا بد وأن تنتهى هذه «الذات» - التى فرطوا فيها - إلى الذبول والاضمحلال!

فمعرفة النفس لا تغني عن معرفة الآخرين.. والعكس صحيح.

ولا يحسن أحد أن هذا المنهاج - في الاستنارة الحقيقية - هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم في ثورة وسائل الاتصال.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذي يدعونا - بعد الوعي بالذات، واليقين بالحق الذي نؤمن به، وننتهي إليه، ونجاهد في سبيله - يدعونا هذا المنهاج القرآني إلى التعرف إلى الآخرين، بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتدبر في «صورة ذاتنا» لدى هؤلاء «الآخرين».

■ إن عالمية الإسلام تفرض على أمته - كي تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه - تحقيق مستويات ثلاثة في الدعوة إلى هذا الدين:

١ - تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.

٢ - إقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.

٣ - وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.

وبدون المعرفة بالآخر، والوعي بما لديه من عقائد و«أيديولوجيات»، وموارث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان في فريضة الدعوة إلى الإسلام.

■ وليس كالقرآن كتاب اعتمد «المقارنة» منهجاً في إثبات الحق الإسلامي، عندما عرض هذا الحق مقارناً بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريف من دعاوى وموارث.. ﴿اتَّبِعُونِ مَا نَحْنُ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وفي تقرير صفات الكمال للذات الإلهية ينساب المنطق القرآني إلى العقول والقلوب عندما يأتي في معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكُتُبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢].

■ وليس كالقرآن كتاب سعى إلى استقطاق الآخرين كل ما لديهم من «حجج وبراهين» على ما يعتقدون: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قُلُوبِهِمْ حَتَّىٰ ذَاغُوا بِأَسْنَانِهِمْ ۚ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
اتَّبِعْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

فالقرآن هو كتاب الشريعة الخاتمة.. والعالمية.. لذلك كان منهاجه في المقارنة
ليبرز التميز الذي جعله المصدق لما سبقه.. وأيضاً المهيمن بالإكمال والتصحيح





الاهتمام بـ«بضاعة» الآخرين

ليس كالقرآن كتاب اهتم بـ«بضاعة» الآخرين - العقدية والفكرية - على ما بها من سقم وعوج وتهافت. فهو يثبت ما تحدثوا به عنه - وهو المعجز المتحدى - عندما قالوا ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]. ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ...﴾ [الأنبياء: ٥].

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين ﷺ عندما قالوا عنه: ﴿هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

ويثبت الفلسفة الدهرية - على بؤسها - عندما تعلقوا بحيالها: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ويخلد «منطقهم» العجيب، الذي انحاز للمشرك، متعجبًا من التوحيد: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥].

يتتبع القرآن الكريم «مقالات» الآخرين قيئندهما، ثم لا يطوى صفحتها متجاوزًا إياها، وإنما يثبتها آيات في سورة تلوها ونتعبد بها، ليرسى دعائم هذا المنهاج في مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار.

بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآني أن الذين يصادرون الفكر الآخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتدبره ليس منهاج أهل الإيمان. والمشركون هم الذين يلهون ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذي خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فلقد حسبوا أن الراحة والغلب في التعمية على هذا الذي لم يألفوه، والكتمان لهذا الذي يريدون، والمصادرة لهذا الذي لا يريدون!

هذا هو المنهاج القرآني في التعامل مع الفكر الآخر - حتى عندما كان شركاً صريحاً وكفراً بواحاً ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التي فطر الله عليها الإنسان في الإيمان -

واليوم.. ونحن نعيش واقعاً عالمياً، إن هدأت فيه أدوات القتال الدامي حيناً اشتدت فيه آليات التدافع الفكري، بل والغزو الثقافي، والاجتياح الإعلامي، في كل الأحياء.. في هذا الواقع، نرى فكر الآخرين يقتحم عقولنا وقلوبنا حتى مخادعنا التي نستكن فيها! وكذلك يتاح لفكرنا - هو الآخر - أن يصل إلى الآخرين في عوالمهم، الأمر الذي أحدث تغييراً نوعياً في المواقع الفكرية على خارطة الواقع المعاصر.. فلم يعد الفكر الآخر خارج الحدود، ولا حتى مقرباً ومتلصصاً على النوافذ والأبواب، وإنما غدا في داخل حصوننا، قامت وتقام له المراكز والمؤسسات والجامعات والصحف والمجلات.. بل إنه يمتطرننا صباح مساء وأثناء الليل وأطراف النهار من أفعاره الصناعية السابحة في سماءنا، بلا حواجز أو حدود!

كما أصبحت لنا نحن أيضاً - رغم حالة الاستضعاف وقلة الإمكانيات - مراكز إشعاع فكري في ديار الآخرين، توتى - بقوة الحق الإسلامي، وجاذبية الفطرة فيه - من الثمرات ما يعرض سلبيات الاستضعاف وقلة الإمكانيات!

لقد أثمر هذا الواقع الجديد - الذي أحدثته ثورة وسائل الاتصال - لونا من «التلاحم الفكري» العالمي، الأمر الذي فرض ويفرض على مختلف فرقاء التدافع الفكري الوعي بما لدى الآخرين.. فلقد أصبح هذا الوعي ضرورة للقبول والرفض على حد سواء!

وإذا كانت القضية، بالنسبة لنا، تتعدى حدود «المغالبة الدنيوية» في عالم الأفكار، إلى حيث هي فريضة دينية - أيضاً - لإبلاغ الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الحجة على صدقه، وإزالة الشبهة عن عقول المشتبهين فيه.. فإن الوعي بما لدى الآخرين عن «ذاتهم» وعنا يصبح - هو الآخر - فريضة إسلامية على الذين انتدبوا أنفسهم للرباط الفكري على ثغور الإسلام - الدين - والحضارة - والأمة - والديار - هذه الشريحة من أهل العلم، الذين تحدث عن رسالتهم هذه رسول الله ﷺ

عندما قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الصالحين وانتحال المبطلين» [رواه الطبراني].

وهؤلاء العدول، الذين ينافحون عن الإسلام، ويكسرون أشواك الفلسفات والأيديولوجيات المعادية - بعد الإحاطة بحقائقها وأباطيلها - هم الذين تحدث القرآن الكريم عن نفيهم إلى الجهاد الفكري فقال: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].





الوسطية الإسلامية (١)

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
[البقرة: ١٤٣]

فالوسطية الإسلامية هي «المنظار» الذي بدوره لا نستطيع تبين حقيقة الإسلام ومنهاجه في مختلف الميادين.

فالوسطية في علاقة حاضرتنا بماضينا تعنى التمييز بين «الثوابت» وبين «المتغيرات».. والالتزام بالدين - الذي هو وضع إلهي ثابت - مع الاستفادة بـ«الفكر الديني» دونما جمود مذهبي أو التزام باجتهادات السابقين للوقائع التي تجاوزها التاريخ.

والوسطية في علاقة «ذاتيتنا» الحضارية والثقافية بـ«الآخر» الحضاري والثقافي، تعنى التمييز في الفكر الإنساني بين علوم المادة، التي تمثل حقائقها وقوانينها المشترك الإنساني لكل البشرية، فعلى أن نسعى إلى طلبها والتعلم على علمائها، معيزين بينها وبين علوم العقائد والفلسفات والعلوم الاجتماعية والإنسانية والآداب والفنون والقيم والأخلاق.. ففي هذه المنظومات الثقافية تتمثل الخصوصيات التي تتمايز فيها وبها الأمم والحضارات.

والوسطية في العلاقة بين «العقل» وبين «النقل» تخرج الأمة من المعركة الوهمية التي تشل قدراتها، فالعقل - في ديننا وحضارتنا - لا يقابله «النقل»، وإنما يقابله «الجنون»! والعقل هو سبيلنا لفقه النقل، لكنه - ككل الملكات الإنسانية - تسبى الإدراك والعلم والمعرفة، فلا يد له من «الثقل» ليعلم به ما لا يستقل بإدراكه من نبا الغيب ووحى السماء.

وهذه الوسطية تخرجنا من غلو «الخصوصية الحرفية»، التي تتنكر لعقلانيتنا المؤمنة، ومن غلو «العقلانية المولهة للعقل» - كما هو الحال في العقلانية

اللاادينية الغربية - التي رفعت شعار «لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده»
والوسطية في العلاقة بين «الجوامع» الموحدة لأمتنا، وبين «التنوع» في
إطار هذه «الجوامع»، هي المنهاج الذي يحقق وحدتنا في: العقيدة، والشرعية،
والأمة، والحضارة، ودار الإسلام، مع التنوع والاختلاف والتعددية في إطار كل
جامع من هذه الجوامع الخمسة.. فمذاهب الفقه - علم الفروع - تتنوع في إطار
جامع الشريعة الإلهية الواحدة.. والشعوب والقبائل والقوميات الإسلامية تتنوع
في إطار الأمة الواحدة.. والأقطار والأقاليم والولايات والدول القطرية تتنوع في
إطار دار الإسلام، والعادات والتقاليد والأعراف تتنوع في إطار الحضارة
الإسلامية الواحدة.

وهذه الوسطية الإسلامية تخرجنا من غلو المركزية - النافية للتنوع - ومن
غلو التشردم - النافي للاتحاد -.

وإذا كان صحيحاً «أنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».. فليس
معنى ذلك صب الحاضر والمستقبل في قوالب تجارب الماضين.. وإنما المعنى
الصحيح لهذا القول، هو ضرورة سلوك منهاج النهوض الأول، حتى نصل به إلى
النهوض المنشود.

وإذا كانت الوسطية هي من أبرز معالم المنهاج الإسلامي الذي صنع
النهوض الأول لأمتنا وحضارتنا، فإن «الإحياء» بالإسلام إنما يمثل معلماً آخر
من معالم هذا المنهاج، وسبيلاً لتطبيق وسطية الإسلام.

إن جوامع رسالة الإسلام هو «الإحياء»، الذي يحرر طاقات وملكات الإنسان،
عندما يضع عن كاهله الأغلال، فيضع الأفكار والمناهج في الممارسة والتطبيق
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، «الذين
يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ فِي الشَّوَارِعِ وَالْأَنْجِلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ لِيُظْهِرَ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمَ عَلَيْهِمُ الْفُحْشَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...» [الأعراف: ١٥٧].

وإذا كان «الإحياء» هو أكثر المصطلحات تعبيراً عن فعل الإسلام في الإنسان
الذي يتدين التدين الصحيح بالإسلام.. فإن نقطة البداية لهذا الإحياء هي النفس
الإنسانية، تلك التي إذا أعاد الإسلام إحياءها وتغييرها استطاعت أن تقيم الدولة
وتغير الواقع وتبني الحضارة أو تجردها.. فكل مناهج التغيير ومشاريع التقدم

التي تقفز على تغيير النفس، وتربية الضمير، وإعادة صياغة الإنسان بالإسلام، هي حُرث في البحر، لا يتجاوز أثرها «النخبة» التي تبتشر بها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

قبالوسطية الإسلامية، وبالإحياء الإسلامي للنفس الإسلامية، نخطو نحو الإقلاع الحضاري، عندما نواجه التحدي الحضاري الذي يأخذ منا بالخناق، مجاهدين على جبهتي هذا التحدي: جبهة التخلف الموروث.. وجبهة الهيمنة الغربية، التي تحرس أمراض هذا التخلف، لتكرس الواقع البائس الذي تعيش فيه!



الوسطية الإسلامية (٢)

من المصطلحات التي عدت عليها العاديات فأصابتها بما يمكن أن نسميه «سوء السمعة»، مصطلح «الوسطية»! وذلك على الرغم من شرف هذا المصطلح ومضمونه، ومن الخطر الذي له في التصور والمنهج الإسلامي

ففي الوسطية، معناها الإسلامي الخالص والأصيل، تتمثل السمة والقسمة التي تعد بحق أخص ما يختص به منهج الإسلام في الفكر والحياة، في النظر والممارسة والتطبيق.. وفيها تتجسد أهم المميزات التي تميز هذا المنهج الإسلامي عن مناهج أخرى لمذاهب وشرائع وفلسفات.. بها انطبع الحضارة الإسلامية في كل القيم والمثل والمعايير والأصول والمعالم والجزئيات.. حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الوسطية الإسلامية - بالنسبة للمنهج الإسلامي وحضارته - هي عدسته اللامعة لأشعة ضوئه، وزاوية رؤيته كمنهج، وزاوية الرؤية به أيضاً!

والوسطية الإسلامية قد بلغت وتبلغ هذا المقام في حضارتنا، لأنها - بنفها الغلو الظالم والتطرف الباطل - إنما تمثل الفطرة الإنسانية الطبيعية في براءتها، وقبل أن تعرض لها وتعدو عليها عوارض وعاديات الآفات.. تمثل الفطرة الإنسانية في بساطتها، وبهايتها، وعمقها، وصدق تعبيرها عن فطرة الله التي فطر الناس عليها.. إنها صبغة الله، أراد سبحانه وتعالى لها أن تكون صبغة أمة الإسلام، وأخص خصوصيات منهج هذا الدين.. فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

إنها - في التصور الإسلامي - الحق بين باطلين.. والعدل بين ظلمين.. والاعتدال بين تطرفين.. والموقف العادل المتوازن الجامع لأطراف الحق والعدل والاعتدال، الراقض للغلو - إفراطاً وتفريطاً -؛ لأن الغلو الذي يتنكب الوسطية،

هو انحياز من الغلاة إلى أحد قطبي الظاهرة، ووقوف عند إحدى كفتي الميزان،
يفتقر إلى توسط الوسطية الإسلامية الجامعة وإلى توازنها وعدلها واعتدالها.

والوسطية الإسلامية الجامعة ليست هي ما يحسبه ويتوهمه العامة، من
المتعلمين والمثقفين: انعدام الموقف الواضح والمحدد أمام المشكلات والقضايا
المشكلة، بل إنها على العكس من ذلك، هي الموقف الأصعب، الذي لا يتحاز
الانحياز السهل إلى أحد القطبين وفقط.. فهي بريئة من المعاني «السوقية» التي
بشاعت عن دلالات ومضامين مصطلحها بين العوام وهي كذلك ليست «الوسطية
الأرسطية»، كما يحسب ذلك كثير من المثقفين ودارسي الفلسفة الغربية وطلابها،
لأن الوسطية الأرسطية، التي رأى بها أرسطو [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] أن الفضيلة هي
وسط بين رذيلتين، هي - في العرف الأرسطي - أشبه ما تكون، في توسطها،
بـ «النقطة الرياضية» الثابتة والمستقلة، والتي تفصلها عن القطبين - أي
الرذيلتين - مسافة متساوية، تضمن لها التوسط والوسطية.. إنها نقطة رياضية،
وموقف ساكن، وشيء آخر لا علاقة له بالقطبين اللذين تتوسطهما.. وليست هكذا
الوسطية الإسلامية الجامعة، كما حددها منهاج الإسلام.

إن الوسطية، في التصور الإسلامي، موقف ثالث، حقاً، وموقف جديد، حقاً.
ولكن التوسط بين النقيضين المتقابلين لا يعني أن هذا الوسط مثبت الصلة
بسمات القطبين المتقابلين وقسماتهما ومكوناتهما.. إنه مخالف لهما، لكن ليس
في كل شيء، وإنما خلافاً لهما منحصر في رفضه الانحصار والانغلاق على
سمات كل قطب من الأقطاب وحدها دون غيرها.. ينحصر في رفضه الإيثار
بعين واحدة، لا ترى إلا قطباً واحداً متحصر في رفضه الانحياز المغالي، وغلو
الانحياز. ولذلك فإن هذه الوسطية الإسلامية، كموقف ثالث، وجديد، إنما يتمثل
بميزها، وتتمثل جدتها في أنها تجمع وتؤلف ما يمكن جمعه وتأليفه - كنسق
غير متنافر ولا ملفق - من السمات والقسمات والمكونات الموجودة في القطبين
النقيضين كليهما.. وهي - لذلك - وسطية جامعة، تتميز في التصور الإسلامي
والمنهج الإسلامي عن تلك التي قال بها فيلسوف اليونان أرسطو.



الوسطية الإسلامية (٣)

إن «العدل» - والوسطية هي العدل بين ظلمين - لا يعتدل ميزانه بتجاهل كفتيه، والانفراد دونهما.. كما أنه لا يعتدل ميزانه بالانحياز إلى إحدى الكفتين دون الأخرى.. وإنما يعتدل الميزان فيتحقق العدل بالوسطية التي تجمع الحكم العادل من حقائق ووقائع وحجج وبيئات الفريقين المختصين - كفتي الميزان -.. ولهذا كان قول الرسول ﷺ «الوسط العدل. جعلناكم أمة وسطا» [رواه الإمام أحمد].

والعدل هنا - وبهذا المعنى - هو أبعد ما يكون عن «الاعتدال»، عندما يراد به الاستسلام للواقع إذا كان جائرا.. بل إن الوسط - العدل - في المفهوم الإسلامي - هو ضد «الاعتدال»، بهذا المفهوم!

و«الكرم» - وهو خلق وسلوك وسط - ليس غريباً تماماً عن القطبين النقيضين «الشح» و«الإسراف».. وإنما هو جامع منهما سمات ومكونات هذا الموقف - الكرم - الجديد.. إنه جامع لـ «التدبير» و«الاقتصاد» و«البذل» و«العطاء».

وكذلك «الشجاعة»، نجدها - كوسط - مغايرة لكل من «الجبن» و«التهور»، لا على النحو التام في المغايرة، وإنما على النحو الذي رفض الانحياز لقطب واحد، فجمع منهما «الحذر» و«الإقدام» ليكون الموقف الوسط الجديد.

في ضوء هذا المضمون الإسلامي المتميز لمصطلح «الوسطية» تفقه كل المأثورات الإسلامية التي أشارت إلى هذه الخصيصة من خصائص منهج الإسلام: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامٌ﴾ [الفرقان ٦٧]، ﴿وَأَتِذَا الْقُرْآنُ يُقْرَأُ وَالْمَسْكِينُ وَالْبَائِسُ وَالْأَسْرَىٰ فَسَلِّ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة ١٨٥] أي الاعتدال، الرفض لغلو الإفراط

والتفريط.. فلا الرهبانية المسيحية أو النسك الأعرجى، ولا الحيوانية الشهوانية والتحلل من التكليف.

وفي ضوء هذا المضمون للوسطية الإسلامية الجامعة، نقرأ أيضاً أحاديث رسول الله ﷺ «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» [رواه الإمام أحمد]، «إن دين الله عز وجل، يسر» [رواه البخاري والنسائي والإمام أحمد]، «إنكم أمة أريد بكم اليسر، وإن خير دينكم أيسره» (رواه الإمام أحمد)، «إن الله عز وجل لم يبعثني معنفًا، ولكن بعثني معلماً ميسراً» (رواه مسلم والإمام أحمد) وعن عائشة - رضي الله عنها - : «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين في الإسلام إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه» (رواه البخاري ومسلم وأبو داود والإمامان مالك وأحمد)، فهذا الإثم الذي كان الرسول ﷺ أبعد الناس عنه، هو المرفوض من سمات القطبين المتناقضين؛ لأنه الظلم والباطل والتطرف، المنحاز بعيداً عن العدل والحق واليسر والاعتدال.

وفي ضوء هذا المضمون للوسطية الإسلامية الجامعة، نبصر امتياز المنهج الإسلامي عندما قاد الأمة إلى إبداع حضارة وسط، كانت وسطيتها هذه هي طوق نجاتها من تمزق وثنائية وانشطارية «المتقابلات المتناقضة» على النحو الذي حدث في حضارات أخرى.. وفي الحضارة الغربية على وجه التحديد.

وفي ضوء هذه الحقيقة من حقائق المنهج الإسلامي - وخاصة إذا نحن خرجنا بها من الإطار النظري إلى ميادين الممارسة والتطبيق - سنبصر التغير الواضح والامتياز العظيم الذي تقدمه لنا الوسطية الإسلامية الجامعة، والشمول الذي تبلغه تأثيراتها، إذا نحن راعيناها، والتزمناها، وسرنا على ضوئها في البحث والممارسة والتطبيق.

لقد كانت هذه الوسطية الإسلامية في عصر تبلور وازدهار حضارتنا الإسلامية - وما تزال - المنهج الذي يؤلف في التصور الإسلامي بين الروح والجسد.. والدنيا والآخرة.. والدين والدولة.. والذات والموضوع.. والفرد والأمة.. والفكر والواقع.. والمادية والمثالية.. والواقع والمثال.. والمقاصد والوسائل.. والثابت والمتغير.. والقديم والجديد.. والأصول والفروع.. والعقل والنقل.. والخصوصية والعالمية.. والحق والقوة.. والاجتهاد والتقليد.. والدين والعلم.. والعامة والخاصة.. إلى آخر هذه الثنائيات - إن جاز تصور آخر لهذه الثنائيات!

تلك هي وسطيتنا الإسلامية الجامعة.. صبغة الله التي أرادها لأمة الإسلام..
والفطرة الإسلامية المظهرة من العوارض والآفات.. وعدسة الرؤية الالامية لقسمات
المتنهج الإسلامي ومعالم تصوره، إن في «الفكر» وإن في «الحياة»..
وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرِّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وصدق رسوله الكريم عندما قال:
«الوسط: العدل. جعلناكم أمة وسطا».



وسطية التجديد والاجتهاد

فى واقعنا الفكرى والثقافى المعاصر لدينا ألوان من «الهجرات»
وليس مرادنا هنا الحديث عن الجماعة التى اشتهرت - إعلاميًا - بـ«التكفير
والهجرة»، والتى كُفِّرت الأمة والدول والمجتمعات.. ثم هاجرت إلى المغارات حتى
تعود فاتحة للبلاد!

وانما مرادنا «هجرات» أخرى سببها أيضا الغلو الفكرى فى ميادين الثقافة
بوجه عام

■ فهناك الذين هاجروا من «التاريخ المعاصر والزمن الحاضر» إلى
«الماضى» يحلمون بصب حاضرننا ومستقبلنا فى «قوالب تجارب» الماضين
والخالين! فهجرتهم هجرة من «التاريخ»

■ وهناك الذين هاجروا من «جغرافيتنا الحضارية» إلى «الجغرافية الغربية»
يحلمون بصب حاضرننا ومستقبلنا فى «قوالب تجارب وفلسفات» النموذج
الحضارى الغربى! فهجرتهم هجرة من «الجغرافيا» وفى كلتا الهجرتين خلل فى
علاقة «الحاضر» بـ«الماضى» و«الجديد» بـ«القديم» و«الذات» بـ«الآخر».. وهذا
الخلل قد جعل فى واقعنا الثقافى نماذج ثقافية ثلاثة - فيها طرفا غلو، وبينهما
الوسط العدل المتوازن الذى يزكيه الإسلام.

(أ) فهناك غلو الإفراط، الذى يمثله الجمود والتقليد، ذلك الذى لا يميز - فى
الاعتصام بالماضى - بين «الثوابت» و«المتغيرات»، بين «الإلهى»
و«البشرى»، بين «المتاهج» و«التجارب» و«التطبيقات».. فيضفى القداسة
والثبات على الماضى جميعه، حتى ليكاد أهله أن يهاجروا إليه، مديرين
ظهورهم للحاضر والمستقبل والجديد.

(ب) وهناك غلو تفريط «الحداثة» - بالمعنى الغربي للحداثة - وهي التي أثمرتها فلسفة التنوير الغربي اللادينية، التي أقامت قطيعة معرفية مع الدين، عندما عزلت شرائعه عن ضيظ شئون العمران، وحررت السلوك البشري من أحكامه، وحالت بين السماء وبين تدبير الأرض والعالم. وكما يقول أحد دعاة «غيا» التنوير - [الغربي] - قد مثل القطيعة الأبستمولوجية - [المعرفية] - الكبرى التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الإكويني، وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.

فهنا غلو القطيعة مع الماضي.. وهناك غلو الهجرة إلى الماضي

(ج) وبين غلوى الإفراط والتفريط - في علاقة الحاضر بالماضي، والجديد بالقديم - يأتي الموقف الإسلامي المنحاز إلى «التجديد»، الذي هو تطور من داخل النسق الفكري، يميز بين الثوابت والمتغيرات في الموروث، فيفتح الباب للتطور مع الاحتفاظ بالمعالم. والسمات التي أعطت وتعطى النسق الحضاري خصوصيته المميّزة له عن الأنساق الحضارية الأخرى.. فيؤكد كل المستجدات - في ميادين المتغيرات - دون أن تتبدل «هويته»، أو يفقد «بصمته»، التي تمثل «مبادئه» و«مناهجه» و«حكّمه» و«مقاصده».

فهو لا يقيم قطيعة مع الموروث والماضي، وخاصة في «الثوابت» و«الأصول»، و«المناهج»، و«الروح الحضارية»، المميّزة للأمة. ولا يقيم - أيضا - قطيعة مع «الآخر الحضاري»، اللهم إلا في «ثوابته»، التي يؤدي تبنيها إلى هجرة من «الذات» إلى هذا «الآخر»!

وهذا التجديد الإسلامي - الذي هو وسط عدل متوازن - يعتد على «الاجتهاد» الذي يستنبط أحكام «الفروع» من «المبادئ والأصول»، فيمد الأغصان الجديدة لتظل المساحات المستجدة، في ارتباط بالأصول التي تسري روحها وتشيع ضوابطها وتتحقق مقاصدها في كل اجتهاد جديد.. فيتم به «النمو» الدائم، مع الاحتفاظ بـ «الشخصية» التي يمثلها هذا النسق الفكري والحضاري.

فالتجديد هو الاجتهاد عندما يوضع في الممارسة والتطبيق.. فيصبح تجديداً للحياة، وليس مجرد إبداع فكري معزول عن الفعل في واقع الحياة والمجتمعات. وفي الحياة الفكرية الإسلامية، يبلغ «التجديد» مرتبة «السنة.. والقانون» - وليس فقط مجرد حق ومباح - وذلك لأن تمثيل النموذج الثقافي الإسلامي

للشريعة الخاتمة يستدعى «التجديد» فيها، حتى لا ينسخها التطور ويطوى صفحتها.. ولأن «عالمية» هذه الشريعة الخاتمة تستدعى - هي الأخرى - «التجديد»، الذي يستجيب لجديد الأمم والبقاع والعادات والأعراف.. وعن هذه «السنة.. والقانون» يحدثنا رسول الله ﷺ فيقول: «يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها» (رواه أبو داود)؛ ولأن أنبياء بني إسرائيل كانوا «المجددين» لشريعة موسى - عليه السلام - أصبح علماء الإسلام - الحاملون لرسالة «التجديد» - كأنبياء بني إسرائيل - كما جاء في الحديث الشريف -.. فلو كانوا مجرد «حملة للعلم» لكانوا مثل «علماء» بني إسرائيل.. لكن نهوضهم بـ«التجديد» هو الذي ارتقى بهم إلى مرتبة أنبياء بني إسرائيل!



للإسلام عقلانية مؤمنة

لقد ذهب فلاسفة التنوير الغربي - وهو تنوير وضعى مبادئ علماني - منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر - إلى «تأليه العقل» حتى لقد رفضوا له - في أحداث الثورة الفرنسية - بفتاة حسناء عبدها... وجعلوا براهين «العقل» النقيض للوحي والدين، فدعوا إلى «تحرير العقل من سلطان الدين، وأعمال العقل دون معونة من خارجه، وجعل السلطان المطلق للعقل وحده، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلا للعقل»!

ولذلك جاءت عقلانية التنوير الغربي - الذي يبشر به عبید الحضارة الغربية بين صفوفنا الآن - عقلانية وضعية ومادية.

أما النموذج الثقافي للإسلام فإنه - وإن لم يتنكر للعقل - ما كان له أن يصنع ذلك وهو الذي جعله مناط التكليف وجوهر إنسانية الإنسان وامتيازته على سواه من المخلوقات - إلا أنه لم «يقوله» - وإنما سلكه كإحدى الهدايات مع «الخلق» و«التجربة» و«الوجدان»، ولذلك لم يعرف الإسلام هذه المقابلة المتناقضة بين «العقل» و«الإيمان الديني»، وإنما قدم للفكر والفلسفة والثقافة «عقلانية مؤمنة»، يحث عليها الدين، وتنهض بدورها في الدفاع عن الإيمان الديني.. فهي مناط التكليف، والحكم الذي به يتبين الإنسان ما في القرآن من محكم ومتشابه، بل وسبيل معرفة الذات الإلهية، التي تمثل جوهر الإيمان الديني! بل لقد تفرد الفكر الإسلامي عندما عقد أواصر الارتفاق بين «العقل» و«الشرع»، والتزمت ذلك أعرض تيارات الثقافة الإسلامية انتشاراً، حتى قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: «إن أهل السنة قد تحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغفل في تصرف

العقل، حتى صادموها به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأداء، ومثال القرآن، الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغنى إذا استغنى بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل، مكتفياً بنور القرآن، مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور!

هكذا رسم الغزالي للعقلانية الإسلامية المؤمنة هذه اللوحة الجميلة، فالعقل هو البصر، والشرع هو النور، ويصر بلا نور هو كالعشى! ونور بلا بصر لا قيمة له، ولا يتحقق الغرض من النور، والاستتارة والتنوير إلا إذا اجتمع نور العقل مع نور الشرع، فهما - معا - نور على نور! والآفة إنما تأتي من الغلو، غلو الإفراط عند الذين غالوا في العقل حتى «صادموها به قواطع الشرع» - كما فعل أهل التنوير الوضعي الغربي - الذين رأى الغزالي أن دوافعهم إلى ذلك إنما هي «خبث الضمائر»! وغلو التفريط عند الذين وقفوا عند ظواهر النصوص، لضعف عقولهم وقلة بصائرهم! أما الوسطية الإسلامية الجامعة بين «العقل» و«الشرع» فهي المعبرة عن امتياز الإسلام، وعبقورية الثقافة الإسلامية.

وانطلاقاً من هذا المنهاج الإسلامي - في تزامن العقل والنقل - العقلانية المؤمنة - رأينا رفض ونقض رفاعة الطهطاوي - وهو أول عين للشرق الإسلامي على الثقافة الأوربية، الوضعية العلمانية - رأينا رفضه ونقده لهذه الفلسفة الوضعية - التي قال عنها إن فيها حشوات ضلالية، مخالفة لكل الكتب السماوية - أي إنها فلسفة دهرية مادية، وليست نصرانية! - وهي تقف عند العقل والنواميس الطبيعية في معايير النظر والتحسين والتقبيح للأشياء، بينما الإسلام يضم إلى العقل والقوانين الكونية معيار الشرع والوحي والدين - في التحسين والتقبيح -.

انطلاقاً من المنهاج الإسلامي في المعرفة، وفي العقلانية المؤمنة، رفض الطهطاوي الفلسفة الوضعية الأوربية - منذ اللحظات الأولى للاحتكاك الثقافي مع هذه الفلسفة - فقال: «إنه لا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسباً وتقبيحاً.. فقالوا: إن كل عمل

يأذن فيه العقل صواب.. وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود.. فينبغي
تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، إذ لا عبرة
بالتحسين والتقبيح بالعقول والنواميس الطبيعية وحدهما، وإنما لابد من الشرع
معهما».

هكذا عرف الإسلام - وثقافته وفلسفته - العقلانية المؤمنة، التي جمعت بين
«العقل» و«الشرع»، فلم تقف عند «العقل» وحده - مثل الوضعية المادية الغربية -
ولا عند «الوجدان والقلب» وحده - كما صنعت الباطنية - في التصوف الفلسفي..
وفلسفة الإشراق.





تكامـل دوائر الانتماء: الوطني .. والقومي .. والإسلامي

على عكس الثقافات التي أقامت التناقضات بين دوائر الانتماء: «الوطنية» و«القومية» و«الحضارية»: لأنها اعتمدت «الأرض» وحدها مميّزاً ومحددًا للوطنية والوطن، وجعلت العرق والجنس مميّزاً ومحددًا للقوم والقومية.. على عكس هذه الثقافات، يأتي النموذج الثقافي الإسلامي - انطلاقاً من الفطرة - ليسلك هذه الدوائر كدرجات مترابطة ومتكاملة في سلم الانتماء الأكبر، الذي يضم دوائر فرعية ليس بينها وبين الانتماء الأكبر تناقض أو تضاد.

فالفطرة الإنسانية السوية، التي فطر الله الناس عليها، قاضية بوجود ولاءات وانتماءات متعددة للإنسان، لا تناقض بينها إذا خلت مضامينها ومفاهيمها مما يؤدي إلى تناقض أو تضاد.. فلإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته، لا يتناقض مع ولاءه وانتمائه إلى الوطن والإقليم الذي ولد وتربى ونشأ فيه، كما أنه لا يتناقض بين الانتماء للأهل والوطن وبين الانتماء والولاء للقوم الذين تُحدد اللغة دائرتهم.. وكذلك الحال مع الانتماء إلى الدائرة الحضارية - دائرة الجامعة الإسلامية - التي قد تجمع العديد من الأوطان والعديد من اللغات والقوميات، فإذا خلت مفاهيم مصطلحي «الوطن» و«القومية» من عصبية العرق والجنس، وإذا اتخذت مكان الانتماءات الفرعية في إطار الانتماء الجامع - الانتماء العقدي والحضاري - الذي يحدد الإسلام دائرته، فإن التناقض والتضاد سينتفيان في التصور الإسلامي لقضية الانتماء ودوائر الولاء.

إن الإسلام - وهو الصبغة التي صبغت ثقافة الأمة - يجعل الانتماء إليه والولاء له الجامع الأكبر والأشمل والأول للإنسان المسلم «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْرَبْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [التوبة: ٢٤]، «الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ وَازْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ» [الأحزاب: ٦]

فالنبي ﷺ - أي الرسالة والإسلام - أولى بالمؤمنين من أي ولاء فرعى آخر.. وفي ذات الآية بيان لولاء فرعى بين أولى الأرحام - ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ [الأحزاب: ٦] - ولا تعارض بين الولاءين، ما دام مثل الثاني - الفرعى - لبنة في الأول - الجامع - وانفتحت المضامين التي توجد التناقض بينهما.. ولذلك، تجاوزت وتساندت وتفاعلت في التاريخ الحضارى الإسلامى

■ وحدة دار الإسلام، ومعها - وفي إطارها - تمايزت الأوطان والأقاليم والولايات، دونما تناقض أو تضاد.

■ وحدة الحضارة - التي حددت العقيدة والشريعة والأمة دائرتها - وفي إطارها تنوعت اللغات - ومن ثم القوميات - وتمايزت العادات والتقاليد والأعراف

■ وحدة الأمة الإسلامية، ومعها - وفي إطارها - تمايزت الشعوب والقبائل والأجناس والألوان.. كل ذلك دونما تعارض أو تناقض أو تضاد بين الانتماء الإسلامى الأكبر والأول وبين ما ضم واحتضن من دوائر فرعية للولاء والانتماء

فالرسول ﷺ وهو الذى جسّد بالرسالة معالم الانتماء للإسلام والولاء له - حتى كانت طاعته طاعة لله، ومحبته محبة لله - هو الذى عبر عن حبه وولائه لمكة - وطن النشأة.. ووعاء الذكريات - حتى وهى على الشوك الذى بلغ فى عدائه له حد إخراجِه منها - فقال ﷺ: «مناجيا إياها فى لحظات الهجرة منها: «والله إني أعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى نفسي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».. ولقد كان يدعو ربه، فى المدينة، أن يحب إليه المدينة حبه لوطن المولد والنشأة ووعاء الذكريات»

وهكذا تجاوزت وتزاملت وتساندت وتفاعلت، فى التصور الإسلامى والثقافة الإسلامية، دوائر الانتماء للأهل.. والوطن.. والقوم.. ولجامعة الإسلام.. فتجاوزت الوطنية مع الجامعة الإسلامية، عندما برز الانتماء الإسلامى من «عصبية الجاهلية» ومن «جنسيات» القوميات التي سادت فى الدول القومية بالحضارة الأوروبية

وهكذا جمع الإسلام - فى حضارته الإسلامية - بين وحدة دار الإسلام وتمايز الأوطان فيها، وتجاوزت فيه الوطنية اللاعنصرية والأممية الحضارية - لا الأممية الطبقية التي ناصبت الوطنية والقومية العداء - جمع الإسلام وضم وألف بين كل دوائر الانتماء الإنسانى، لتساند كل منها الأخرى وتدعمها، دونما تناقض أو تضاد.



فلسفة السياسة بين الغرب والإسلام

على حين جعلت الفلسفة السياسية الغربية - الليبرالية منها والشمولية - وخاصة بعد سيادة المكيافيلية - جعلت «القوة» معياراً للسياسة، ففصلتها بذلك عن «القيم».. وجدنا الفلسفة السياسية في الإسلام تجعل «الاقتراب من الصلاح والابتعاد عن الفساد» معياراً للسياسة الشرعية، فتجعل - بذلك - القيم معياراً للسياسة، رابطة القوة السياسية بالتسامي الوجودي الإلهي، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، في سياسة الإسلام..

فالإسلام يضع «العدالة» هدفاً «للسياسة»، بدلاً من «القوة» التي هي هدف السياسة في المذاهب الغربية.. ومن هنا اتسعت في الفقه الإسلامي مساحة المبحث الراعى إلى إداة استخدام واستغلال السلطة - السياسية أو الاقتصادية - انطلاقاً من الموقف القرآني الذي أدان قرعون - لإساءته استخدام السلطة السياسية - وأدان قارون - لإساءته استخدام السلطة الاقتصادية - بينما امتدح ملكة سبأ - التي أحسنت التعامل مع السلطة السياسية عندما حكمت بالمؤسسة الشورية - وأثنى على الأنصار - الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

هكذا تتمايز الفلسفة السياسية الإسلامية عن نظيرتها في الفكر الغربي وفي الميدان الاقتصادي.. تقوم العقلية الغربية على أساس «أن ما يتم إنتاجه يجب أن يستهلك»، الأمن الذي أثمر ثقافة استهلاكية، يؤدي تعميمها عالمياً إلى القضاء على التعددية في أنماط العيش وفي الثقافة وفي القانون.. بينما تقوم العقلية الاقتصادية الإسلامية على أساس مبدأ «أن كل ما يحتاج إليه الإنسان ينبغي أن يتم إنتاجه»، وذلك انطلاقاً من الاقتصاد المعيارى، لا الاقتصاد الوضعى، فالؤمن يأكل في فبى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء - كما قال رسول الله ﷺ.

وعلى حين يقوم مفهوم «المواطنة» في النموذج السياسى الغربى، على معيار الأصل العرقى - الذى تأسست عليه القوميات - يقوم مفهوم «المواطنة»

فى النموذج الإسلامى على الهوية الاجتماعية السياسية، التى هى امتداد للإيمان
بوحدة مسئولية الإنسان، ووحدة الحياة. انطلاقاً من عقيدة التوحيد. فالأمة -
إسلامياً - بناء على هذا المعيار - مجتمع مفتوح أمام أى إنسان يقبل المسئولية،
التى هى أساس تحديد الهوية، وعملية العلاقات الاجتماعية السياسية، بصرف
النظر عن أصله أو جنسه أو لونه.

فوحدة الأمة - فى النموذج الإسلامى - تعتمد على الاتجاه الوجودى -
المؤمن بالله سبحانه وتعالى - واجب الوجود - والمتمثل فى منظومة القيم،
بأكثر من اعتمادها على العوامل اللغوية - فالأمة قد تتكون من تعددية لغوية
وقومية - وبأكثر من اعتمادها على العوامل الجغرافية - فلقد تتوزع الأمة بين
أقاليم وولايات متعددة - وبأكثر من اعتمادها على العوامل الثقافية - فقد
تتعدد فى الأمة العادات والتقاليد والأعراف - وبأكثر من اعتمادها على العوامل
«البيولوجية». ذلك أن وحدة الأمة - فى المفهوم الإسلامى - مرتبطة ارتباطاً
مباشراً بمفهوم هذه الأمة للألوهية، وبالتصور الإسلامى للكون والعالم، ذلك
الذى ينبع من عقيدة التوحيد.

إن أساس تمايز الفلسفة السياسية الإسلامية عن نظيرتها الغربية راجع إلى
تمايز رؤية كل من الفلسفتين وكل من النسقين الفكرين للعالم والكون والوجود،
حيث تنطلق الرؤية الإسلامية من التوحيد والتنزيه، عبر التدرج الوجودى -
باستخلاف الخالق للإنسان - إلى الأسس القيمية للتصورات والثقافة السياسية
- كما نزل بها الوحي السماوى فى الشريعة الإسلامية الخاتمة - بينما تعتمد
الرؤية الغربية على تقارب المستويات الوجودية - وليس تدرجها - وذلك من
خلال نظريات «الاتحاد»، و«الحلول» - المناقضة - بل والمناقضة للتوحيد
والتنزيه - الأمر الذى جعل الرؤية الغربية «علمانية»؛ لأنها جعلت الإنسان سيد
الكون، فهو مكثف بذاته عن التدبير السماوى الآتى من وراء الطبيعة. فهى تغتفد
على «مبحث القيم العقلانى»، وتضفى الإطلاق على سلطان العقل الإنسانى.
بينما تضفى النسبية والذاتية حتى على الدين. بينما تلتزم الرؤية الإيمانية
الإسلامية الثبات على منظومة القيم الدينية؛ لأنها تابعة من ثبات المطلق
الدينى، وتعالى - فى ذات الوقت - من سلطان العقل الإنسانى، شريطة أن تظل
مدركاته فى إطار النسبى؛ لأنه ملكة من ملكات الإنسان الخليفة. الخليفة لسيد
الكون والإنسان. الواحد الأحد، سبحانه وتعالى.

السياسة والدولة من الفروع

إن إخواننا الشيعة هم وخدمهم الذين جعلوا نظام الحكم والإمامة - الخلافة - والدولة والسلطة من العقائد والأصول، بينما اتفقت كل تيارات الفكر السني - بل كل من عدا الشيعة، حتى الخوارج والمعتزلة - على أن الحكم والدولة والسلطة والسياسة من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. وفي ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م]: «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات، والنظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد، وقسم يتعلق بالفروع، وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر، وما عداها فروع، والخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير».

فالحكم - بمعنى الدولة والسلطة والخلافة والإمامة - من الفروع والفقهيات - والفقه هو علم الفروع - وليس من العقائد والأصول؛ ولذلك فالخطأ والاختلاف فيه «لا يوجب شيء منه التكفير» - كما يقول الغزالي - بينما الشيعة - الذين جعلوه من العقائد والأصول - قد كفروا مخالفيهم في الإمامة.. ذلك أن معايير الاختلاف في العقائد والأصول هي «الكفر.. والإيمان»، بينما معايير الاختلاف في الفقهيات والفروع هي «الخطأ.. والصواب».. وإلى هذه الحقيقة أشار ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] فقال: «.. وشبهة الشيعة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين، وليس كذلك. إنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق».

وعلى هذا الرأي قام إجماع علماء السنة وأئمتها، فقال إمام الحرمين، «الجويني» [٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م]: «إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد».. وقال «الشهرستاني» [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ = ١٠١٦ -

١١٥٣ م]: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد».. وهو نفس الرأي الذي أكدته كل من «عصّد الدين الأيجي» [٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م] و«الشريف الجرجاني» [٧٤٠ - ٨١٦ هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣ م] - عندما قالوا في (شرح المواقف): «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين».

هذا هو إجماع أهل السنة على أن الحكم والإمامة والخلافة والسلطة والدولة من الفقهيات والفروع، وليست من العقائد والأصول.. بل إن الأستاذ البنا عندما يذكر أن علماءنا قد وضعوا هذا المبحث في «كتيبنا الفقهية» - والفقه هو علم الفروع - لابد أن يشير قوله إلى تناقض ذلك مع القول بأن هذا المبحث هو من مباحث «العقائد والأصول»!

ولا يحسن أحد أن تصنيف الحكم والدولة في الفروع الإسلامية يقلل من أهميتها، أو يفتح الباب لعلمانية تفصل بينها وبين الإسلام وعقائده، ذلك أن «نظام الحكم» - بل وكل «نظم العمران» - لابد وأن تكون من الفروع حتى يكون فيها مجال للاجتهاد، وللتطور الذي يواكب المستجدات والمصالح المتغيرة، عبر الزمان والمكان.. ف«النظم» مدنية يجتهد الفقه الإسلامي في إقامتها وتطويرها، وهي «إسلامية» - في ذات الوقت - لأنها محكومة بإطار تحقيقها لمقاصد الشريعة ومبادئ الدين في الشورى والعدل بين الناس، فالشورى من عقائد الإسلام وثوابت مبادئ الشريعة ونظامها من فقه الفروع المتطور عبر الزمان والمكان.. وكذلك العدل بين الناس - في مختلف الميادين - مبدأ إسلامي ثابت، بينما «النظام» المحقق لهذا المبدأ مدنى متطور؛ ولذلك فمكانته في الفروع المتطورة بالاجتهاد، وليس في ثوابت العقائد والأصول.

ثم إن الحكم الإسلامى - مع أنه من الفروع والفقهيات - هو قريضة إسلامية، لا لأنه من العقائد، وإنما لأنه الشرط الضرورى لإقامة عقائد الدين وفرائضه وثوابت شريعته الإلهية، وما لا يقوم الواجب الدينى إلا به فهو واجب ديناً، حتى لو لم يكن من ثوابت الأصول وأمّهات الاعتقاد.

ذلك مبحث دقيق، لكنه واضح كل الوضوح، ومحسوم كل الحسم فى عموم الفكر السنى. بل لقد أفردت له بعض التأليف النفيسة فى تراثنا الفقهى. وحينما لو اهتم الفكر الإسلامى المعاصر بمراجعة كثير من التصورات الشائعة فى الساحة الإسلامية حول هذا الموضوع،



الإسلام والسياسة (١)

هاتان الكلمتان - «الإسلام والسياسة» - تحملان علامات استفهام عن علاقة «الإسلام» بـ «السياسة».

وهذا الاستفهام والتساؤل شائع في الفكر الحديث والمعاصر، بل ويمتد ما قبل العصر الحديث.

لكن تحديد حقيقة علاقة الإسلام بالسياسة يقتضى - أولاً - التعريف بمصطلحات هذا العنوان.

■ فالإسلام ، هو الطاعة الواعية - أى المؤسسة على المعرفة - من الإنسان المخلوق للإله الخالق الواحد، وذلك بعبادته - سبحانه - على النحو الذى أوحى به فى شريعته السماوية إلى رسوله محمد بن عبدالله - عليه وعلى سائر الأنبياء والرسل الصلاة والسلام - . فهو إيمان وتصديق قلبى يبلغ درجة اليقين بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وطاعة لله تفصح عن هذا الإيمان، وتضعة فى الممارسة والتطبيق.

■ أما السياسة : فهي التدابير المدنية التى يدير بها الإنسان حياته الدنيوية، سواء أكانت سياسة فردية، يدير بها الفرد عالمه الخاص، أم سياسة منزلية، تدير بها الأسرة حياتها الأسرية، أم سياسة اجتماعية تدير بها الأمة والدولة شئون العمران الاجتماعى - فى الاقتصاد والاجتماع والتعليم والحكم والإدارة. إلخ - . أم كانت سياسة دولية - تدير بها الدول والأمم والحضارات - بالقانون الدولى والمنظمات الدولية والإقليمية - العلاقات الدولية التى تحافظ على سلام العالم، وأمنه، ورخائه، وصحة بيئته، وقضى المنازعات التى تنشأ بين الدول والحكومات.



وإذا كان العنوان: «الإسلام والسياسة» - يحفل التساؤل والاستفهام عن علاقة «الدين» - الذي هو وحى إلهي، وتنزيل سماوي، وتشريع رباني - «بالسياسة» - التي هي تدابير مدنية بشرية - .. فإن الإجابة على هذا التساؤل تتميز في الإسلام عنها في أنساق فكرية وفلسفات إنسانية وشرائع دينية غير دين الإسلام.

■ ففي الفلسفة اليونانية - مثلاً - : وخاصة في تصور «أرسطو» [٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م] لعلاقة الذات الإلهية بالعالم، كان الله - في ذلك التصور - مجرد خالق لهذا العالم، وقف نطاق عمله عند الخلق فقط. فهو قد خلق العالم، وأودع فيه الأسباب الذاتية التي تدبره وتسيّره، دونما حاجة إلى شريعة سماوية أو دين إلهي، أو قوة فوقية ما وراءية - من فوق الطبيعة وعن ورائها - .. فبالعالم مكثف بذاته، والإنسان مكثف بذاته، والاجتماع البشري مكثف بذاته. ومثل الذات الإلهية، في علاقتها بتدبير وسياسة العمران الإنساني، كمثل صانع الساعة، صنعها، وأودع فيها أسباب تدبيرها وسياستها. فلا مدخل للدين السماوي في السياسة الأرضية، بهذا التصور الأرسطي.

■ وفي الوثنية الجاهلية : عند العرب قبل الإسلام - كان التصور لعلاقة الخالق بال مخلوقات قريباً من هذا التصور الأرسطي.

فالوثنيون كانوا يؤمنون بالله خالقاً للكون والعالم، لكنهم كانوا يفتقرون بنطاق فعله عند حدود الخلق، وذلك عندما جعلوا تدبير حياتهم الدنيا وسياستها للأصنام - التي جعلوها شركاء لله في السياسة والتدبير - فله الخلق.. وللأصنام السياسة والتدبير.

والقرآن الكريم ينصفهم عندما يتحدث عن إيمانهم بالله خالقاً: ﴿وَلَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَشَجَرَ الشَّجَرِ وَقَالَ يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]

لكنه يعيب عليهم شركهم بالله، عندما جعلوا سياسة الدنيا وتدبير الاجتماع الإنساني للأصنام والآوثان - التي كانوا يلجئون إليها ويستشيرونها في تدبير السفر والإقامة.. والحرب والسلام.. والبيع والشراء.. والمخالفة والمناينة.. والزواج والطلاق.. والحب والكراهة.. إلخ. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ

بِرَغْمِهِمْ وَهَذَا لَشُرِّكَانًا فَمَا كَانَ لَشُرِّكَانِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرِّكَانِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ [الأنعام: ١٣٦]

قالوثنيون قد عزلوا السماء عن الأرض عندما آمنوا بالله خالقاً للكون والعالم، ثم وقفوا بفعله عند الخلق جاعلين تدبير الحياة الدنيا للأصنام والأوثان.

■ وفى النصرانية : كان هناك شيء من هذا التصور الذي يعزل التدبير الإلهي عن سياسة العمران الإنساني، وخاصة في الحكم والإدارة وسياسة الدول والمجتمعات.. صحيح أن النصرانية - لأنها دين سماوي - قد تميزت عن الفلسفة الأرسطية، واختلفت عن التصورات الوثنية عندما جعلت الخالق للكون شافعاً للقيم والأخلاق، وشارعاً للعبادات، لكنها عندما فصلت بين «ما لقيصر» - أي الدولة وسياسة المجتمع - وبين «ما لله» - أي الدين - قد جعلت مرجعية السياسة في الدولة والمجتمع - إدارة واقتصاداً واجتماعاً ونظماً - للإنسان وحده، فكان رضاها بأية سلطة وأية دولة وأية سياسة لو أنها من ألوان العزل الجزئي للسماء عن الأرض وللدن عن تدبير العمران الإنساني وسياسة المجتمعات. لقد وقفت بالقيم الدينية عند علاقة الفرد المخلوق بالله الخالق.. وتركت ما لقيصر لقيصر، دون أن تجعل قيصر وما له لله!

وهذا هو الذي جعل تدخل اللاهوت النصراني والكنيسة الكاثوليكية في «السلطة الزمنية» - بأوروبا العصور الوسطى - شذوذاً عن حقيقة الموقف النصراني؛ لأن ذلك التدخل قد قتل تجاوزاً من الكنيسة لرسالتها - التي هي روحية خالصة -، ولإطار عملها - الذي هو مملكة السماء - ولجماع مقاصدها التي هي خلاص الروح - . فتجاوزت ذلك عندما اغتصبت السلطة الزمنية - سلطة قيصر - التي دعا الإنجيل إلى تحريرها وفصلها عن «ما لله».





الإسلام والسياسة (٢)

■ ولقد جاء التصور العلماني - إبان النهضة الأوروبية الحديثة - رد فعل على تجاوزات الكنيسة الكاثوليكية لرسالتها. فردتها العلمانية إلى حدود «ما لله» - خلاص الزوج.. بالمعنى الفردي.. - وفصلت وعزلت عنه «ما لقيصر» - الدولة والسياسة وتبدير المجتمع وإدارة العمران منطلقاً في ذلك الفصل من التصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية - مجرد الخلق، دون التدبير والسياسة للدولة والعمران - فأصبحت السياسة في التصورات العلمانية شأنًا دنيويًا خالصًا، لا علاقة لها بالدين، وتديرًا إنسانيًا - بالعقل والتجربة وحدهما - غير محكوم بشريعة سماوية؛ لأن العالم - في فلسفة الأنوار الوضعية، التي انطلقت منها العلمانية.. كما هو في التصور الأرسطي - مكتفٍ بذاته، غير محتاج إلى شريعة سماوية تدبر شؤنه.. وكذلك الإنسان - ومن ثم الدولة والمجتمع - مكتفية بذاتها، يتم تدبيرها أو سياستها بالعقل الإنساني والتجربة الإنسانية، دونما حاجة إلى تدخل الدين في هذه السياسة وذلك التدبير؛ ولذلك، يُعبر عن العلمانية أحيانًا بمصطلح: «الدنيوية» - أي مرجعية الدنيا، لا الدين - وأحيانًا بمصطلح: «الإنسانية» - أي اكتفاء الإنسان في سياسة دنياه - بعقله وتجربته عن شريعة السماء.

فالعلمانية قد فكت الارتباط وفصمت العرى بين السماء والأرض، وحررت السياسة المدنية من القيم الدينية.. ولذلك تعايشت كنائس المجتمعات العلمانية مع «السياسة الميكافيلية»، التي جعلت الغايات مبررة للوسائل، يصرف النظر عن حظ هذه الوسائل من أخلاقيات الدين وقيمه ومثله، كما جعلت «القوة» - وليس «العدل» - المقصد الذي تتغياه أية سياسة لأية دولة من الدول؛

■ أما في الإسلام : فإن العلاقة بينه - وهو دين إلهي - وبين السياسة كتدبير للدولة والدنيا والاجتماع والعمران - هي علاقة متميزة عن كل هذه التصورات التي رأيناها في الأتساق الفكرية والفلسفية والدينية غير الإسلامية . فهناك علاقة بين «الإسلام» وبين «السياسة» ، لكنها علاقة وسط بين «الاتحاد والامتزاج والاندماج» وبين «الفصل والقطيعة والاقتراق» .

■ فالتصور الإسلامي لتطابق عمل الذات الإلهية، لا يقف فقط عند حدود عمل الخلق، وإنما لله أيضاً الرعاية والتدبير لكل عوالم المخلوقات، ومنها الاجتماع البشري والعمران الإنساني.. وفي القرآن الكريم حديث عن هذا التصور الإسلامي: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو - سبحانه - له الأمر والتدبير مع الخلق.. وله - سبحانه - الهداية والتسديد والرعاية والإرشاد، مع الخلق أيضاً: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] .

■ وللإنسان - في التصور الإسلامي - حرية وإرادة وقدرة واستطاعة وسلطة وفعل في سياسة حياته وتنظيم مجتمعه وتدبير عالمه ودنياه.. ولكنها حرية وإرادة وقدرة وسلطة الخليفة لله، المحكومة بحريته بعقد وعهد الاستخلاف الذي هو الشريعة الإلهية: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] .

فالشريعة الإلهية مدخل في السياسة لا يلغى حرية الإنسان وسلطاته وسلطاته في تدبير المجتمع وسياسته، ولكنه يضبط هذه الحرية وهذا السلطان بحدود الحلال والحرام الديني اللذين جاءت بهما قواعد ومبادئ وأحكام الشريعة وروحها ومقاصدها وفلسفتها في التشريع.

فلا الشريعة تلغى سلطة الإنسان وحرية في السياسة والتدبير للعمران الدنيوي، ولا هذه السلطة الإنسانية والحرية البشرية في سياسة الدولة والمجتمع متحرزة تماماً من إطار الشريعة الإلهية وحدود الله وأحكام الدين.. فالإنسان - لأنه خليفة الله - هو سيد في هذا الكون، محكومة سيادته وسلطاته بشريعة عقد وعهد الاستخلاف الإلهي له.. فهو حر في سياسة المجتمع والدولة، حرية لا تخرج به عن إطار حدود الوكيل والنائب والخليفة.. إنه سيد في الكون، لا سيد الكون.. إنه عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده.. والله - سبحانه - قد سخر له كل قوى

الطبيعة، لكنه هو وكل قوى الطبيعة لله - سبحانه وتعالى - «أقل إن صلائي ونسكى ومخباي ومماتي لله رب العالمين ١٦٢» لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

ولأن الدين هو «وضع إلهي ثابت».. بينما «السياسة» أغلبيتها تدابير متغيرة ومتطورة بحكم ارتباطها بالواقع الحياتي المتغير والمتطور، وقفت الشريعة الإسلامية - في سياسة وتدبير المعاملات الدنيوية المتغيرة والمتطورة - عند المبادئ والقواعد والمقاصد وفلسفة التشريع تاركة للعقل الإنساني والتجربة البشرية الإبداع والاجتهاد - في فقه المعاملات - للسياسات التي تواكب المتغيرات والمستجدات.. فمقاصد الشريعة وقواعدها ومبادئها وحدودها، وأحكامها ثوابت.. وفقه المعاملات تدبيرات سياسية واجتماعية واقتصادية متغيرة، ومحكومة بمقاصد الشريعة وحدودها.

فلا كل السياسة - كتدبير دنيوية - هي دين ثابت.. ولا هي منفصلة ومغايرة للدين الثابت.. ومن هنا كانت علاقة الإسلام بالسياسة هي علاقة «التمايز» لا علاقة «الوحدة والامتزاج» أو علاقة «المغايرة والانفصال».. فالسياسة - في التصور الإسلامي - هي: «تدابير مدنية».. بمعنى أنها تدبير اجتماع الإنسان، الذي هو «مدني» - أي «اجتماعي» - بطبيعته لكنها محكومة بالشريعة الإلهية الثابتة. ومن هنا سميت - في الإسلام - بـ «السياسة الشرعية» لأنها «مدنية» ذات مرجعية «دينية».. بل لقد عرف علماء الإسلام «السياسة الشرعية» بأنها: «السياسة المدنية» - ليس بمعنى أن «المدني» هو المقابل «الديني».. كما هو معناه في الفكر الوضعي الغربي - وإنما بمعنى أن «المدني» هو «الاجتماعي».. فالسياسة الشرعية هي: التدابير الإنسانية التي يسوس بها الإنسان الاجتماع البشري، في إطار ثوابت الشريعة ومقاصدها.

فلا هي علاقة «الكنانة الكتسية» - التي دمجت ومزجت السياسة بالدين، فثبتت المتغيرات الدنيوية بثبات الدين - ولا هي علاقة «العلمانية - الدنيوية» - التي فصلت السياسة عن الدين - وإنما هي السياسة الشرعية: أي «العلاقة» و«التمايز» - في ذات الوقت - بين السياسة والإسلام.

فالسياسة لا تقف فقط عند ما جاء في النصوص التي جاء بها الوحي الإلهي - في القرآن الكريم - وبيانه النبوي - في السنة النبوية - لأنها تدابير

للمتغيرات والمستجدات المتطورة دائماً وأبداً، بتطور وتغير الزمان والمكان
والمصالح والأعراف والعادات.. ولكنها - أي السياسة - لا تغاير ولا تخالف
ولا تصادم ما جاء به الوحي الإلهي والبلاغ الرباني أو السنة النبوية الصحيحة،
التي هي البيان النبوي للبلاغ القرآني

فكل التدابير التي تحقق المصالح الشرعية المعتمدة، هي سياسة شرعية،
يبدعها الاجتهاد الإسلامي، ليحقق بها مصالح الفرد والأسرة والأمة والدولة
والاجتماع الإنساني والعلاقات الدولية.. وهي إسلامية بقدر ما تحقق المصلحة
والعدالة للناس، ويقدر ما تنضبط بقيم الدين الإسلامي ومقاصد الشريعة
الإسلامية. بهذا تعتبر «السياسة» جزءاً من «الشريعة»، رغم أنها إبداع إنساني
ليشر فقهاء.



الإسلام والسياسة (٣)

ولهذه العلاقة بين الإسلام وبين السياسة تميزت السياسة الشرعية - بتفويض الإسلام كدين - عندما لم تقف مقاصدها - كما هو الحال في السياسة المنفصلة عن الدين - عند طلب الصلاح والنفع الدنيوي للحياة الدنيا وحدها. وإنما كانت مقاصد هذه السياسة الإسلامية تحقيق مصالح وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة معاً.

فالساسة التي لا علاقة لها بالدين قد تحقق من الغنى والوفرة والقوة والغلبة ما يحقق للإنسان والمجتمعات الرفاهية والترف والحدود القصوى في اللذات والشهوات.. تحقق «قانونية المال» و«فرعونية القوة».. وهنا يكون صلاحها دنيوياً صرفاً، يؤدي إلى ثدامة وخسران في الحياة الآخروية، يوم الدين، بل وإلى ثدامة وخسران في العواقب الدنيوية بعيدة المدى.

أما السياسة المحكومة بتدابيرها بالمقاصد الشرعية، فهي التي تستهدف سعادة الإنسان وصلاحه في الدنيا، باعتبار هذه الدنيا مزرعة الآخرة والمقدمة المفضية إليها.. ولهذا الخصيصة، جاء في تعريف السياسة بالموسوعات والمصادر الإسلامية أنها:

«استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المنجى في العاجل والآجل، وتدريب المعاش مع العموم على سنن العدل والاستقامة، [الكليات - لأبي البقاء الكفوي - طبعة دمشق سنة ١٩٨٢م].

وأنها: «ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، (إعلام الموقعين لابن القيم - جزء ص ٣٧٢ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م).

وأنها: «السياسة الدينية النافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة - فهي تدبير للاجتماع الإنساني على منهاج الدين» (المقدمة لابن خلدون - ص ١٥٠ - طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ).

فهى سياسة تدبير الدنيا وفق مقاصد الدين، لتكون السياسة - كالعبادة - سبيلاً لرضاء الله - سبحانه وتعالى - وسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة. وإذا كانت السياسة في «دولة الكهانة الكنسية» قد زعم أنها «دين خالص»، عندما ادعت «الدولة» أنها مقدسة، تحكم بالتقويض الإلهي، وبالحق الإلهي، وأن نياتها إنما هي عن السماء.. فغدت هذه «الدولة» - سواء عندما حكم البابوات المعصومون - بزعمهم - أو الأباطرة الذين أضفى البابوات على سلطتهم القداسة - غدت هذه «الدولة الدينية» لا تسأل عما تفعل، وفعالة لما تريد... الأمر الذي غيب الأمة تماماً عن معادلة السياسة، فوقفت هذه المعادلة عند: الله - فالدولة الدينية فقط، دون وجود للأمة وسلطانها.

فإن الدولة العلمانية - التي هي التقيض الكامل لدولة الكهانة الدينية - قد غابت الشريعة وانتفى الدين من معادلتها ففيها: الأمة - فالدولة - ولا مكان للدين والشريعة في معادلتها وسياستها.

أما الصيغة الإسلامية للسياسة، في الدولة الإسلامية، فإنها جامعة.. ففيها سيادة الشريعة الإلهية وخلافة الأمة لله، حال التزامها بالشريعة، وممارستها السلطات في حدود الشريعة - ونيابة الدولة عن الأمة ملتزمة - كالأمة - بإطار الشريعة وحدودها، وقائمة بما فوضت لها الأمة من مهام وسلطات.

فهى - الصيغة الإسلامية - الوحيدة الجامعة بين السماء، والأمة، والدولة - في السياسة الشرعية للدولة الإسلامية..



تلك هى علاقة «السياسة» بـ «الإسلام».. وهذا هو موقف «الإسلام» من «السياسة».. وهو موقف متميز عن مواقف الأنساق الفكرية الأخرى في هذا الموضوع. وعلى مر تاريخ الإسلام كان هناك «وعى نظري» - فى الفكر السياسى الإسلامى - لطبيعة وحقيقة هذه العلاقة بين «الإسلام» وبين «السياسة».. ولقد عرض الإمام «ابن القيم» [٦٩١ - ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] لهذه العلاقة عندما تحدث عن المناظرة التى دارت بين الفيلسوف الفقيه «أبو الوفاء ابن عقيل»

[٤٣١ - ٥١٣ هـ = ١٠٤٠ - ١١١٩ م] وبين بعض فقهاء الشافعية، عندما قال
الفقيه الشافعي:

— «لا سياسة إلا ما وافق الشرع».

— فقال له ابن عقيل: «إن أردت: أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن
أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغايط الصحابة والخلفاء الراشدين
ما اعتمدوا فيه على المصلحة، فالسياسة: ما كان من الأفعال بحيث يكون
الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يشرعه الرسول
ولا نزل به وحى».

عرض «ابن القيم» لنبا هذه المناظرة، وعلق عليها - منتصراً «لابن عقيل» - فقال:
«إن الله - سبحانه وتعالى - قد أرسل رسوله وأنزل كتبه ليقوم الناس
بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق،
وقامت أدلة العدل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه
وأمره، والله - تعالى - لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته في نوع واحد
وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر، بل بين بما شرعه من
الطرق أن مقصوده: إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط، فأبى طريق استخرج
بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها.

والطرق أسباب ووسائل لا تراك لذواتها، وإنما المراد غاياتها، التي هي
المقاصد، ولكنه نبه - سبحانه - بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها،
ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شرعة وسبيل للدلالة عليها، وهل
يُظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك؟

إننا لا نقول: إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة، بل هي جزء من
أجزائها وباب من أبوابها، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى، وإلا فإذا كانت عدلاً
فهى من الشرع - وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى: شريعة، وسياسة، كتقسيم
غيرهم الدين إلى: شريعة، وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلى: عقل، ونقل، وكل
ذلك تقسيم باطل، بل السياسة، والحقيقة، والطريقة، والعقل، كل ذلك يتقسم إلى
قسمين: صحيح، وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة، لا قسم لها، والباطل
ضدها ومنافيهها.

ومن له ذوق في الشريعة، وإطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد، ومجبتها بغاية العدل الذي يسع الخلائق، وأنه لا عدل فوق عدلها، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح، تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها، وفرع من فروعها، وأن من أحاط علماً بمقاصدها، ووضعها موضعها، وحسن فهمه فيها، لم يحتج معها إلى سياسة غيرها البتة، فإن السياسة نوعان:

- ١ - سياسة ظالمة، فالشريعة تحرّمها
- ٢ - وسياسة عادلة، تخرج الحق من الظالم الفاجر، فهي من الشريعة، علمها من علمها، وجهلها من جهلها.. وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها... [ابن القيم: إعلام الموقعين - جزء ص ٣٧٢ - ٣٧٣، ٣٧٥، و«الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» - ص ١٧ - ١٩، ٥ - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧م].



الإسلام والسياسة (٤)

وعندما جاء فقيه المالكية.. وقاضى قضاتها.. وقيلسوف العمران عبدالرحمن بن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] فتحدث عن أنواع السياسات، التي تمايز بين أنواع الملك، نبه على تميز السياسة الإسلامية، يتميز علاقتها بالدين.. فقال:

«وحقيقة الملك: أنه الاجتماع الضروري للبشر.. ويجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها كافة وينقادون إلى أحكامها.. وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استيلاؤها، سنة الله في الذين خلوا من قبل.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبُصرائها، كانت سياسة عقلية.

وإذا كانت مفروضة من الله، بشارع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل؛ إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والمقصود بهم إنما هو دينهم المقضى بهم إلى السعادة في آخرتهم ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]. فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم، من عبادة ومعاملة، حتى في الملك، الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأجرتة على منهاج الدين، ليكون الكل محوطًا بنظر الشارع، فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب وإهمال - (أي إطلاق) - القوة الغضبية في مرعاهها، فجور وعدوان، ومذموم عندي، كما هو مقتضى الحكمة السياسية، وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها، فمذموم أيضًا؛ لأنه نظر بغير نور الله ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]

لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم، من ملك غيره، قال ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]، ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء.

فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة

- ١ - فالملك الطبيعي : هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة.
- ٢ - والسياسي . هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار.

٣ - والخلافة : هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الآخروية والدنيوية الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي - في الحقيقة - خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به... [المقدمة - ص ١٥٠، ١٥١ - طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢هـ].

فالسياسة - كالمُلك.. والدولة - مصطلحات عامة في كل النظم والثقافات والحضارات.. لا مشاحة في وضعها ولا في استعمالها.. لكن المضامين، في هذه المصطلحات، تتمايز بتمايز النظم والفلسفات والشرائع والثقافات.

فالسياسة الشرعية، هي التي تتغيا بتدبير عمران الدنيا تحقيق سعادة الآخرة.. وإنسانها خليفة عن الله، يتعبده بسياسة العمران الدنيوي.. فهو عبد لله وحده، وسيد لكل شيء بعده.. بينما السياسة الدنيوية - العلمانية - التي تقف بمرجعيتها عند عقلاء الدولة وأكابر بصرائها، فإنها تتغيا - بتعبير ابن خلدون - «مصالح الدنيا فقط» ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.. فهي «دنيوية - دهرية - لا دينية».

■ فلما جاء رفاة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] وواجه تسلل المفهوم العلماني الغربي للسياسة نحو الشرق الإسلامي.. دافع عن

المضمون الإسلامي للسياسة في مواجهة المضمون «العلماني - الطبيعي» لهذه السياسة.. وكتب يقول: «إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع. والتكاليف الشرعية والسياسية، التي عليها نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة، الخالية عن الموانع والشبهات: لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمة المولى سبحانه، وليس لنا أن نعتد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.

والذي يرشد إلى تركية النفس هو سياسة الشرع. ومرجعها الكتاب العزيز. الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق، كشرع الزواج المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول، والأنساب، والأموال، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض: كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها. فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لا تثمر العاقبة الحسنى.

ولا عبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسيناً وتقبيحاً، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدى الحدود.

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة ومعلوم أن الشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد، ولا يتأفى المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة.

وإن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشاريعه، لم يترك من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية؛ لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع» [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي - ج ٢ ص ١٥٩، ١٦٠، ٧٩، ٣٢، ٤٧٧، ٣٨٦، ٣٨٧، وج ١ ص ٣٧٠ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣م]



الإسلام والسياسة (٥)

■ فلما جاء جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م]

دافع عن السياسة الشرعية وعن منهاج «الإصلاح بالإسلام»... وكتب:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها.. فهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. وبالإسلام كان النهوض الأول لهذه الأمة.. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزكّ للنفوس، مظهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبادئ الاجتماع البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع قروع المدنية.

وإذا كانت هذه هي سرعة هذه الأمة، ولها وردت، وعنّها صدرت، فما تراء من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونهضا ظهريا.. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته.. ولا سبيل لليأس والقنوط، فإن «أصول» الدين متأصلة في النفوس.. والقلوب مطمئنة إليه، وفي زواياها نور خفى من محبته، فلا يحتاج القائم بإحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت.. فإذا قاموا، وجعلوا أصول دينهم الحقّة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية، وانعكس فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد، ولا يزيد الأمة إلا نحسا، ولا يكسبها إلا تعسا.

ومن يعجب من قولي: إن الأصول الدينية الحقّة تنشئ للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل.

وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبي من
عجبه أشد!

ودونك تاريخ الأمة العربية.. وما كان عليه قبل الإسلام من الهمجية. حتى
جاءها الدين فوحدتها، وقوّأها، ونور عقلها، وقوّم أخلاقها، وسدّد أحكامها،
فسادت على العالم. [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني - ص ١٩٧ - ١٩٩
- طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م].

■ فلما جاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ -
١٩٠٥م] سار على ذات الدرب: «الإصلاح بالإسلام».. وبالسّياسة الشرعية.
فكتب يقول:

«إن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا مندوحة عنها؛ لأن
نفوسهم قد أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعاً فيها، فكل من طلب
إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذّر بذراً غير صالح للتربة التي أودعه فيها.
وإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء
بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً.

وإذا كان الدين كاقلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على
طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر
لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به، فلم العدول
عنه إلى غيره؟»

إن الإسلام دين وشرع، قد وضع حدوداً، ورسم حقوقاً، ولا تكتمل الحكمة
من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام.. والإسلام
لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ
على يده في عمله، فكان الإسلام بذلك، كمالاً للشخص، وألفة في البيت، ونظاماً
للملك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه.. فكان دين
الفطرة، والمدرسة الأولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدنية. [الأعمال
الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٣ ص ١٠٩، ٢٣١، ٢٢٥، ٢٢٦ - طبعة بيروت
سنة ١٩٧٢م].

وهكذا - وعلى مر تاريخ الفكر الإسلامي - ظل العلفاء واعين بتخيز الإسلام
كدين ودولة، ويتميز السّياسة الإسلامية عن سائر ألوان السّياسات الأخرى، فهي

سياسة شرعية بينها وبين الدين - الذي هو وضع إلهي ثابت - علاقة وثيقة،
هي علاقة الفروع - المتطورة - بالأصول الثابتة.. فلا هي ثابتة ثبات الدين..
ولا هي مقدسة قداسة الدين.. وإنما هي مدنية متطورة، محكومة في حركتها
ونموها بالمرجعية الدينية الثابتة - في الحدود.. والقواعد.. والقيم وفلسفة
التشريع.



الإسلام والسياسة (٦)

وكما امتازت «السياسة الإسلامية» في الفكر والتنظيم، امتازت دولتها الإسلامية - كذلك - عن دولة الكهانة الكنسية، فلم يعرف «تاريخنا» حكومة فقهاء - رغم أن الفقيه في الإسلام هو «عالم دين» وليس «رجل دين» - بالمعنى الكنسي الكهنوتي - وإنما كانت الدولة الإسلامية - على مر تاريخها - دولة مدنية مرجعيتها الشريعة الإسلامية.

ولذلك، أكد علماء أصول الدين - في الحضارة الإسلامية - على أن الدولة - الخلافة والإمامة - ليست من العقائد الثوابت، التي يكون الخلاف فيها كفراً وإيماناً، وإنما هي دولة مدنية، معايير الخلاف فيها «الضرر» والنفع» و«الخطأ» والصواب».

■ وفي ذلك يقول الشهرستاني [٤٧٩ - ٥٤٨ هـ = ١٠٨٦ - ١١٥٣ م]: «إن الإمامة ليست من أصول الاعتقاد» [نهاية الإقدام في علم الكلام، لألفريد جيوم - ص ٤٧٨]

■ ويقول عضد الدين الإيجي [٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م] والجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦ هـ = ١٣٤٠ - ١٤١٣ م]: «إن الإمامة ليست من أصول الديانات والعقائد، بل هي من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين.. وإنما ذكرناها في علم الكلام تأسيساً بمن قبلنا؛ إذ قد جرت عادة المتكلمين بذكرها في أواخر كتبهم» [شرح المواقف ج ٣ ص ٢٦١ - طبعة القاهرة، سنة ١٣١١ هـ].

■ ويقول حجة الإسلام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م]: «إن نظرية الإمامة ليست من المهمات، وليست من فن المعقولات فيها، بل من الفقهيات» [الاقتصاد في الاعتقاد، ص ١٣٤].

■ ويقول إمام الحرمين الجويني [٤١٩ - ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥ م]: «إن الكلام في الإمامة ليس من أصول الاعتقاد» [الإرشاد، ص ٤١٠ - طبعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م].

■ وينفى شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] أن تكون الإمامة من أركان الإسلام الخمسة.. أو أركان الإيمان الستة.. أو من أركان الإحسان.. [منهاج السنة - ج ١ ص ٧٠ - ٧٢ - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م]

■ ويعيب ابن خلدون على الشيعة جعلهم الإمامة من أركان الدين وأصوله.. فيقول: «وشبهة الشيعة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين.. وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المقبوضة إلى نظر الخلق» [المقدمة، ص ١٦٨]

■ حتى إذا جاء الإمام محمد عبده، وجدناه يفصل في القضية فصلاً حديثاً «قال الإسلام: دين وشرع.. كمال للشخص، وألفة في البيت، ونظام للعالم.. ومع ذلك، فهو ينكر السلطة الدينية التي عرفتها أوربا.. فليس في الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة، والدعوة إلى الخير، والتنقيح عن الشر.. وهي سلطة حولها الله لكل المسلمين، أدناهم وأعلاهم.. والأمة هي التي تولى الحاكم.. وهي صاحبة الحق في السيطرة عليه، وهي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها، فهو حاكم مدني من جميع الوجوه، ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة.. عند المسلمين، بما يسميه الأفرنج «ثيوكرتيك» أي سلطان إلهي.. فليس للخليفة - بل ولا القاضي، أو المفتي، أو شيخ الإسلام - أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام: وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية، قدرها الشارع الإسلامي.. فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه.. بل إن قلب السلطة الدينية، والإتيان عليها من الأساس، هو أصل من أجل أصول الإسلام» [الأعمال الكاملة - ج ٢ ص ٢٢٣، ٢٨٦، ٢٨٥، ٢٨٨]



تلك هي علاقة السياسة بالدين في الرؤية الإسلامية.. وهذا هو مفهوم السياسة في الإسلام، بمقارنا بمفهومها في الأنساق الفكرية والفلسفية والدينية الأخرى.. وهو مفهوم متميز، يسقط كل حجج المعارضين لعلاقة السياسة بالدين الإسلامي، سواء كان هؤلاء المعارضون من أنصار الدولة الدينية - بالمعنى الكنسي الأوربي - أو من العلمانيين، الذين يريدون علمنة السياسة، بدعوى المخافة من السلطة الدينية التي عرفتها أوربا في عصورها الوسطى.. فلا شريعة الإسلام كغيرها من الشرائع الأخرى.. ولا مضامين المصطلحات - ومنها مصطلح «السياسة» - كمضامينها في الحضارات الأخرى.. لذلك لزم التحرير لمضامين المصطلحات، والله أعلم.



كيفما تكونوا يؤل عليكم!

ولقد كانت الخلافة الراشدة شورية، يقول خليفتها الأول - الصديق أبو بكر - « وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم! » ويقول خليفتها الثاني - الفاروق عمر - : «رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها! »

كانت هذه الخلافة على هذا النحو من الشورى - وتأسست على البيعة والاختيار - اللذين شاركت فيهما الأمة جمعاء - لأنها كانت صورة تعكس «الجماعة» التي صاغها الإسلام، وتولى تربيتها الرسول ﷺ وفق المنهاج الإسلامى فى التربية والتغيير، ذلك المنهاج الذى يبدأ بإعادة صياغة النفس الإنسانية، حتى إذا ما تم إنجاز هذا التغيير النفسى - العقدى... والفكرى... والثقافى - استطاعت هذه الجماعة أن تختار «الدولة» المعبزة عن صورتها، لتقود الأمة والمجتمع فى ملحمة تغيير الواقع، وتطبيق الشريعة، وبناء الحضارة، وتغيير مجرى التاريخ!

لكن.. لماذا تبدل الحال.. فقراجعت الشورى فى «الدولة»، وحلت الخلافة الناقصة محل الراشدة، وساد «الملك العضوض» بدلاً من الاختيار الحقيقى والبيعة الحرة الصارقة؟

إن التغيير السلبى الذى حدث فى «القاعدة» - الأمة - هو الذى أثمر هذا التغيير السلبى فى «القمة» - الدولة - وذلك وفق قاعدة وقانون: «كيفما تكونوا يؤل عليكم».. فالأمة التى مثلها الملك العضوض، والخلافة الناقصة، غير الشورية، قد اختلفت عن الأمة التى أثمرت الخلافة الشورية الراشدة، اختلافاً كبيراً.. وكانت

الأسباب التي صنعت هذا التغيير - في الأمة والقاعدة - وثيقة الصلة بالتحديات الكبرى والشرسة التي واجهت الإسلام ودولته ونموذجه في ذلك التاريخ - فإلى جانب الشرك العربي - الذي قاد الأعراب في الارتداد على الإسلام ودولته، عقب وفاة الرسول ﷺ - كانت هناك تحديات القوى العالمية العظمى - قوى الفرس والروم البيزنطيين - وبسبب من مخاطر هذه التحديات العظمى، كانت الفتوحات الإسلامية الكبرى، لازاحة الهيمنة الكسروية والقيصرية عن المحيط الإسلامي، ضرورة حياة لهذا النموذج الإسلامي الوليد. وبسبب من عقيدة الجهاد وروح الاستشهاد، وتقشف العرب - القوى الضاربة للإسلام ودولته - كانت السرعة القياسية التي تمت بها وفيها هذه الفتوحات الكبرى، تلك التي حررت الشرق من هيمنة استعمار الكسروية الفارسية والقيصرية الروماتية.. حتى لقد سجل التاريخ معجزة هذه الفتوحات، التي فتحت فيها العرب المسلمون في ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان - وهم سادة الفتح في التاريخ - في ثمانية قرون!

لكن هذه السرعة في الفتح - التي تمثل إيجابية، تفخر بها ونعتز.. كما تمثل ضرورة سياسية لمعالجة المخاطر المهددة لوجود النموذج الإسلامي - لكن هذه السرعة في الفتح قد أثمرت واقعاً سلبياً خطيراً، وذلك عندما أدخلت في إطار الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وضمن رعية الدولة، أمماً وشعوباً وقبائل وملاً ونحلاً لم تتم صياغتها، ولم يحدث تغييرها وتربيتها بمناهج الإسلام. فدخلت - بل أدخلت - في باطن الجسد الإسلامي أشياء غريبة عن طبيعته ومزاجه وهويته وثقافته ومثله الإسلامية.. وبدأت هذه «الطوائف» التي طرأت على «الجماعة - الأمة» تحدث الأحداث في داخل أحشاء الاجتماع الإسلامي..

وزاد من فعل وتأثير هذا «الجسم الغريب» عن النموذج الإسلامي، الذي أدخل في أحشائه، أن الإسلام قد قرر لهذه الأمم والشعوب والحلل والنحل حرية الاعتقاد، وذلك وفقاً للمبدأ القرآني: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ فَمَنْ فُضِّقَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فبقيت قائمة - في الواقع الإسلامي - المؤسسات الدينية والفلسفية والثقافية الغريبة عن الهوية الإسلامية، والرامية لهذا «الجسم الغريب» الذي أدخل في أحشاء «الجسد الإسلامي»! فبدأ هذا الجسد الإسلامي، ونموذجه في «الدولة»، يعاني من تأثيرات

هذا الجسم الغريب، الذي أدخلته سرعة الفتوحات في أحشاء النموذج الإسلامي قبل أن تتم صياغته وفق مناهج الإسلام في الصياغة والتغيير.

وإذا تذكرنا دور الفرس المجوس في مقتل الراشد الثاني عمر بن الخطاب.. ودور ثوار الأقاليم والأطراف في الثورة على عثمان واستشهاده، أدركنا دور هذا «الجسم الغريب» في إحداث الفتنة الكبرى، تلك التي انتهت بحلول الخلافة الناقصة والملك العضوض محل الخلافة الشورية الراشدة.. فعندما لم تعد «الأمة - الجماعة» هي الأمة التي تمت صياغتها إسلامياً، وفق مناهج الإسلام في التغيير، لم تعد «الدولة» هي دولة الخلافة الشورية الراشدة.. لقد تغيرت «القاعدة» فتغيرت «الثمرات»، وذلك وفقاً لقانون: «كَيْفَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّ عَلَيْكُمْ»، وذلك كانت بداية التراجع في تاريخ «دولة» الإسلام.



المساجد والسياسة

أذكر - في إحدى زياراتي للجزائر، للمشاركة في ندوة علمية، قبل أحداثها الدامية - أن دعيت - مع بعض العلماء والمفكرين - للمشاركة في مهرجان إسلامي، دعت إليه جبهة الإنقاذ في مدينة «سطيف»، إحياء لذكرى شهدائها سنة ١٩٤٥م.. فسافرنا، في صحبة الدكتور عباس مدني، إلى هناك.. وكان يوماً مشهوداً وشاهداً على الجماهيرية الكاسحة لعباس مدني والجبهة الإسلامية للإنقاذ.

وقبل ذهبنا إلى ساحة المهرجان - في ملعب الكرة - عرجنا على المسجد - أكبر مساجد «سطيف» - للصلاة.. وعقب الصلاة - التي أمها إمام المسجد - تقدم عباس مدني ليلقي كلمة في هذه المناسبة السياسية، فامتعض إمام المسجد، وزمجر معبراً عن اعتراضه على استخدام المسجد في السياسة الحزبية.. لكن عباس مدني أزاحه - برفق - وألقى كلمته.. ثم انطلقنا إلى المهرجان

وأذكر - كذلك - أن بعض الصحفيين الغربيين قد سألوا عباس مدني عن ما أسموه «احتكار المساجد» للدعاية لجبهة الإنقاذ، الأمر الذي رأوه مغللاً بتكافؤ الفرص بين الجبهة والأحزاب الأخرى.. فقال: لقد تركنا لهم الخانات!

إذن نحن أمام «مشكلة مثارة» لا تعنى الحكومات وحدها، بل ومختلف تيارات الفكر والسياسة في بلادنا.. مشكلة مشروعية استخدام المسجد كمسبر سياسي.. الأمر الذي يستدعي تقديم وتقرير بعض الضوابط في عدد من النقاط.

■ إن المساجد هي بيوت الله في الأرض، يعمرها المؤمنون بالله ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].. والدعاء في هذه المساجد، وكذلك الدعوة يجب أن تكون خالصة لله ﴿وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]

■ ولقد كان المسجد - منذ بداية الإسلام - مصدر إشعاع التوحيد الإسلامي، كما كان هذا التوحيد الديني هو مصدر التوحيد للأمة الإسلامية في «الجوامع الخمسة» الجامعة لأهل هذا الدين: الوحدة في العقيدة.. والشرعية.. والأمة.. والحضارة.. ودار الإسلام.. وتحت هذه الجوامع الخمسة، الموحدة للأمة، هناك تعددية وتنوع واختلاف في الفروع المتعلقة بالمتغيرات، التي تقتضيها ظروف ومصالح الزمان والمكان والأفهام والعادات والتقاليد والأعراف.

فوحدة الأمة فريضة إلهية ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: ٩٢] - وفي إطار وحدة الأمة، هناك التنوع والتعدد في الشعوب والقبائل والألسنة واللغات والقوميات والأجناس.. ولذلك، فإن وظيفة المسجد هي الحفاظ على وحدة الأمة؛ لأنه يستقبل كل المسلمين، على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم وألوانهم، ويجب أن يكون خطاب منبر المسجد جامعاً، فلا يجوز أن تتحول المساجد إلى ساحات خاصة، وفق التعددية، أو إلى ساحات للتدافع أو الصراع بين الفرقاء المختلفين.

والشرعية الإسلامية واحدة، عبر الزمان والمكان؛ لأنها وضع إلهي ثابت.. وفي إطار الشريعة الواحدة هناك تعددية وتنوع واختلاف في المذاهب الفقهية.. ودور المسجد لا بد أن يكون جامعاً للأمة بالشرعية الواحدة، ولا يجوز أن تخصص المساجد بالمذاهب الفقهية، أو أن تتحول إلى ساحات صراع بين المختلفين في الفقهيات.. ولذلك، استن الفقه الإسلامي في الإفتاء مراعاة مذهب المستفتي - لا المفتي - وعادات بلد المستفتي - لا المفتي - حفاظاً على عوامل الوحدة، التي هي جامعة، ومقدمة على التنوع والاختلاف..

■ ولأن الإسلام منهاج شامل لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدين والدنيا، للدنيا والآخرة، للأمة والدولة، للفرائض العينية والاجتماعية.. فإن سياسة الدولة والمجتمع هي مهمة من مهام الدين، بها تُسَاس الدولة، التي تقوم - هي الأخرى - بحراسة الدين.

وهنا نجابه المشكلة.. ويأتى السؤال: هل لأن السياسة بُعدٌ من أبعاد المنهاج الإسلامى، يجوز أن تكون موضوعاً للخطاب على منابر المساجد؛ لأنها جزء من الدين، الذي قامت له المساجد في ديار المسلمين؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من التمييز في السياسة بين مستويين:

(أ) مستوى السياسات الكلية، الممثلة للمصالح العامة لجمهور الأمة، من مثل تلك التي نسميها السياسات الوطنية والقومية والحضارية، التي تتعلق بالقضايا التي اجتمع عليها جمهور الأمة.. ولهذه السياسات مكانها على منابر المساجد وفي ساحاتها. والأمة تمارس ذلك - واقعياً - عندما يتحدث الخطباء عن قضايا التحرر الوطني والقومي والإسلامي، ومشكلات التقدم والنهوض الحضاري.

(ب) ومستوى السياسات الجزئية، التي تختلف فيها المذاهب والأحزاب.. وهذه يجب أن يكون مكانها المنتديات الحزبية، والمنابر الإعلامية الحزبية.. فالانتصار لقضايا الأمة له مكان على منبر المسجد، بينما الانتصار لمرشح في الانتخابات مكانه خارج المسجد.. والانتصار للشريعة مكانه المسجد، بينما الانتصار لمذهب فقهي بعينه ليس مكانه المسجد، وذلك حتى يظل المسجد بيت الله، الجامع لكل الأمة، والمزكى لعوامل الوحدة بين جميع المسلمين.



قانون التنوع والاختلاف

يؤمن المسلمون - بحكم دينهم - بوحدة الإنسانية في الخلق.. وتساوي كل الناس في التكريم الإلهي.. وفي التكليف.. والحساب.. والجزاء..

وهذه الوحدة للإنسانية، هي آية من آيات الله، سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وفي العهد الذي كتبه الإمام علي بن أبي طالب - رضى الله عنه وكرمه وجهه - إلى واليه على مصر - الأشتر النخعي [٣٧هـ - ٦٥٧م] - يقول له: «الناس صنفان: أخ لك في الدين، ونظير لك في الخلق».

■ ويؤمن المسلمون أن الإنسانية قد بدأت حياتها على هذه الأرض أسرة واحدة.. وجماعة واحدة.. وأمة واحدة.. ثم كان التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف في إطار الإنسانية الواحدة، وذلك حتى يتم التسابق والتدافع والتنافس في الخيرات، ويتم التعارف والتعايش ويتحقق التعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان.

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْقِ السَّيِّئِ وَالْطَّيِّبِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ ١١٨ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيهَا إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تُكَذِّبُوا يَأْتِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

فالإنسانية واحدة... والتكريم الإلهي شامل لكل بنى آدم... والتنوع والاختلاف قانون كونى وسنة إلهية، حتى يكون هناك تداق وتسايق فى الخيرات، وتعاون على عمران الكوكب الذى يعيش عليه الإنسان.

■ لقد سلك الإسلام تعدد النبوات والرسالات - ومن ثم تعدد أعم هذه الرسالات - وكذلك تعدد الشرائع الإلهية فى إطار وحدة أسرة دين الله الواحد، الذى تتعدد فيه الشرائع مع وحدة الدين.. فكان الإسلام - وحده - هو الرسالة التى تؤمن أمتها بكل النبوات، والتى لا تفرق بين أحد من رسل الله، عليهم الصلاة والسلام.. وكان القرآن الكريم هو الكتاب المصدق بكل الكتب السماوية، والجاعل من الشرائع السماوية السابقة - شريعة من قبلنا - جزءاً من الشريعة الإسلامية الخاتمة، وذلك باستثناء الأحكام التى نسخها التطور من تلك الشرائع السابقة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَإِنَّا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

﴿أَمِنَ الرُّسُلَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) قَوْلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلِ هَٰذَا هَدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٢ - ٤].

وفى الحديث النبوى الشريف تعبير عن وحدة الدين، وتعدد الشرائع فى إطار الدين الواحد، يشبه الأنبياء جميعاً بأبناء أسرة واحدة. أبوهم - دينهم - واحد. وأمهاتهم - شرائعهم - شتى. فقال ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، الأنبياء أولاد علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد، وليس بيننا نبى» (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والإمام أحمد).

ولذلك، سلك الإسلام كل المتدينين بالشرائع السماوية فى سلك واحد هو سلك المتدينين بالشرائع الكتابية، وسأوى رسول الله ﷺ بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات، عندما نص - فى العهد الذى كتبه لنصارى نجران، ولكل المتدينين بالنصرانية - على «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم»، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم، وفيما عليهم.

■ أما الخيرية - سواء كانت للفرد، أو الأمة - فإنها لا تؤسس على عنصرية الخنفات اللصيقة - يحكم الجنس أو اللون، أو حتى الانتساب إلى دين من الأديان - وإنما هى خيرية مشروطة بتقوى الله، والنهوض برسالة الإنسان فى عمران هذه الحياة: «إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣]. «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» [آل عمران: ١١٠]. «لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزَنَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» [النساء: ١٢٢].

فكل المؤمنين - على اختلاف شرائعهم - أسرة التدين بالدين الإلهى الواحد. وأكرمهم عند الله أتقاهم لله.



واحدية الحق .. وتعددية الخلق

إن جماع هذا الوجود - في النظرة الإسلامية - هو «الحق» - الخالق - و«الخلق» في كل عوالم المخلوقات

وإذا كان هذا التصور قد بلغ قمة التنزيه والتجريد في «وحدانية الخالق» - التي تفردت عن التعدد والتركيب - فإنه قد أمن بأن التعددية هي السنة والقانون في سائر عوالم الخلق، التي فطرها خالقها على التنائية والازدواج والاشتراك والارتفاق، فطرة وسنة لا تبديل لها ولا تحويل.

فتعددية الازدواج سنة إلهية حكمت خلق الله لجميع المخلوقات. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وتعددية الذكر والأنثى سنة إلهية قد حكمت خلق الله للحيوان والنبات وللأنفس والبشر. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ [الحجرات: ١٣]. وفي بقية هذه الآية القرآنية، التي تحدثت عن سنة التعددية في خلق الإنسان من ذكر وأنثى، إشارة إلى سنة أخرى هي تعددية الإنسانية والبشرية إلى شعوب وقبائل، أي تعددية في الأمم والجماعات. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكما اقتضت السنة الإلهية تعدد البشر إلى شعوب وقبائل وأمم وجماعات، كذلك اقتضت تعدديتها في القوميات - التي تحددها تعددية الألسن واللغات - وفي الأجناس - التي تشير إليها الألوان - سنة حاكمية وقانونية عاملاً وآية من آيات الله. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وإذا كانت سفينة نوح - عليه السلام - قد مثلت «الحياة» الناجية من الطوفان، فلقد حكمت التعددية والازدواج عناصر ومكونات هذه الحياة. ﴿وحتى إذا

جاء أمرنا وفار الثور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴿هود: ٤٠﴾.

وكما قام الخلق على التعددية، كذلك حكمت سنتها وساد قانونها في «عالم الأفكار». فالاختلاف في الشرائع والمناهج، والتعددية في المذاهب والتيارات الفكرية، هي الأخرى سنة إلهية، لا تبدل لها ولا تحويل، في «عالم الأفكار» - «كعالم الخلق» سواء بسواء - ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ ۝ ١١٨ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيمخلفون» [المائدة: ٤٨].

فالتعددية بين الأمم في الشرائع والمناهج سنة إلهية. تنذر الابتلاء والاختبار الحافز على الاستباق في طريق الخيرات.. بل إن هذه التعددية، وهذا الاختلاف قد بلغ - برأي العلماء من مفسري هذه الآية القرآنية - إلى درجة اعتباره «حكمة الخلق» ومقصده.. فقالوا: «وللاختلاف خلقهم» الله - سبحانه وتعالى -

وإذا كانت التعددية هي منطلق التدافع الحضاري والاجتماعي والفكري، فإن هذا التدافع - الذي لا وجود له بدون فرقاء متعددين - هو سبب وطريق الإصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الإنساني من فساد وإفساد: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَهَاسَتْ صَوَامِعُ وَبُيعَ صَلَوَاتٌ وَمَنَاجِدٌ يُدْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠].

وحتى في إطار الأمة الواحدة - ووحدتها فريضة إلهية - فإن هذه الوحدة إنما تكون فيما هو معلوم من الدين بالضرورة، أي ما اتفقت فيه الفطرة السوية - دون اختلاف - من الوحدة في العقيدة والشرعية والأمة والحضارة والدار - وفي ثوابت الوضع الإلهي القطعي الدلالة والثبوت - أما فيما عدا هذه الجوامع للوحدة، فإن التعددية هي السنة التي تحكم تنوع الأمة إلى اجتهادات في الفروع والمذاهب ومدارس الفكر وتيارات الاجتماع.. ففي الفكر تنوع في إطار وحدة الأصول.. وفي الاجتماع طبقات وشرائح اجتماعية في إطار الأمة والجماعة.. وكون الإسلام دين «الجماعة»، لا يلغي تميز «الفرد» ولا تمايز «الطبقات» وإنما تتميز التعددية - في التصور الإسلامي - بالجامع الذي يجمع فرقاءها،

والأصول التي توحد جماعاتها وتياراتها ومذاهبها وطبقاتها.. فلا هي «الوحدة» التي لا تعدد فيها.. ولا هي «التعددية» التي لا جامع لأجزائها.. وإذا كانت التعددية الفكرية إنما هي تنوع في الاجتهاد، بإطار وحدة التصديق بالبلاغ القرآني والبيان النبوي لهذا البلاغ، فإن معايير الاختلاف في هذا الاجتهاد هي «الصواب»، و«الخطأ»، و«النفع»، و«الضرر»، وليس «الإيمان» و«الكفر»؛ لأن «الإيمان» و«الكفر» هما معيارا الاختلاف فيما هو معلوم من الدين بالضرورة - وهو ما لا يجوز الخلاف فيه - لأنه الجامع لوحدة الأمة، التي هي فريضة إلهية، وبدونها لا يكون معنى للتعددية والاختلاف.

فكما تفردت الذات الإلهية - الحق - بالواحدية - التي لا تركيب فيها ولا تعدد - كانت التعددية السنة الإلهية في كل عوالم المخلوقات.





الإسلام والتعددية (١)

لكل دين من الأديان.. أو فلسفة من الفلسفات.. أو نسق من الأفكار، فلسفته في رؤية الكون، التي تحدد مكانة الإنسان في هذا الوجود.. وعلاقته بالموجودات. وإذا كان الإسلام - ككل الديانات السماوية - يرى الله - سبحانه وتعالى المطلق، واجب الوجود، والخالق لكل الموجودات، فإنه يرى الإنسان خليفة لله في الأرض، حاملاً لأمانة إقامة العمران، حتى تأخذ الأرض زخرفها وزينتها.. وحتى تنهذب النفس الإنسانية وترتقي وتسد، عندما تتوازن علاقاتها مع الفرائز والملكات والموجودات.

كذلك، يرى الإسلام في الذات الإلهية: المطلق المفارق لساير أنواع ألوان المخلوقات.. فهو - سبحانه - ليس كمثله شيء.. وكل ما خطر على بالك، قاله ليس كذلك!

وفي موضوعنا - موضوع: «التعددية والتنوع والاختلاف في إطار الوحدة» - يرى الإسلام في هذا الوجود:

* إلهاء انفرد وينفرد بالواحدية والوحدانية، التي لا تعرف أي لون من ألوان التعدد أو الازدواج أو التركيب.

* وموجودات ومخلوقات ومحدثات، تقوم جميعها على التعدد والازدواج والتركيب والتساند والتسخير والارتفاق. فالتعددية في كل الموجودات: الحية والجمادة.. الإنسانية والنباتية والحيوانية، العلوية والسفلية.. وكذلك في عالم الأفكار والفلسفات والمذاهب والتوجهات.. وأيضاً في الألوان والأجناس والألسنة واللغات والقوميات.

كل هذه العوالم، يراها الإسلام قائمة على سنة التعددية، وقانون التنوع، وقاعدة الاختلاف.

ليس باعتبار هذه التعددية وذلك التنوع مجرد اختيار بشري، أو حق من حقوق الإنسان، وإنما باعتبارها القانون الحاكم لوجود الموجودات.. وسنة من سنن الله في سائر المخلوقات، لا تبدل لها ولا تحويل



ولأن الإسلام هو دين الوسطية الجامعة.. التي لا تعرف الثنائيات المتناقضة؛ ثنائيات: «الدين.. والدنيا».. أو «الدين.. والدولة».. أو: «الدنيا.. والآخرة».. أو «الفرد.. والمجموع».. أو «الذات.. والآخر».. أو «الحرية.. والمسئولية»

ولأن هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، تجمع من أطراف وأقطاب هذه الثنائيات عناصر الحق والعدل، فتؤلف منها موقفاً وسطاً جامعاً.. متوازناً.. ومتميزاً.. فليدنا.. فلقد التزم الإسلام – بهذه الوسطية الجامعة في التعددية – مذهباً متميزاً، رفض فيه وبه غلو الإفراط وغلو التفريط.

فهو، مع التعددية في كل عوالم المخلوقات، لا يرى الواحدية والأحادية إلا في الذات الإلهية وحدها.. وهو – أيضاً – لا يطلق للتعددية العنان، الذي يجعلها تشرداً وقطيعة بين أجزاء الظواهر والموجودات

وإنما يراها: تنوعاً واختلافاً وتميزاً في إطار الوحدة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف.

فالوحدة – في أي ظاهرة من الظواهر – تعني التعددية والتنوع والاختلاف والتمايز في إطارها.. ولا بد لهذا التنوع والاختلاف والتمايز من وشائج جامعة، وعدسة لامة، تؤلف بين التنوع، وتجمع بين المختلف، وتوجد الأرض المشتركة بين المختلفين.. المتميزين.. المتنوعين.. المتعديدين.





الإسلام والتعددية (٢)

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - البشر جميعاً من نفس واحدة.. ثم جعل كل فرد من أفراد هذه الإنسانية عالماً قائماً بذاته .. فيه - وهو الجرم الصغير - انطوى العالم الأكبر!

ففى إطار وحدة الإنسانية - الموحدة فى أصل الخلقة.. وفى الإنسانية.. وفى الكرامة والتكريم.. وفى الحقوق.. وفى التكليف.. وفى الحساب.. وفى الجزاء - فى إطار هذه الوحدة، تتمايز وتتعدد هذه الإنسانية الواحدة إلى شعوب وقبائل وأمم وأفراد.. وإلى ألوان وأجناس وألسنة ولغات وقوميات وحضارات.. وإلى ملل ونحل ومذاهب وديانات وفلسفات وثقافات.

فلا غلو فى التعددية، والتنوع يقطع روابط الوحدة، ويدخل بها فى نطاق العنصرية والتعصب وإنكار العلاقات بالآخرين.. ولا غلو فى عوامل الوحدة ينكر أسباب التنوع والتميز والاختلاف.



وبسبب من هذه الوسطية الإسلامية الجامعة، فى رؤية علاقة الوحدة بالتعددية.. والواحدية بالتنوع.. والأحادية بالاختلاف.. ينكر الإسلام «نزعة المركزية المفرطة» التى تريد العالم نمطاً واحداً، والإنسانية قالباً واحداً، منكرة على الآخرين حق التمايز والاختلاف.

«فالمركزية الدينية».. التى تريد العالم ديناً واحداً، ينكرها الإسلام، عندما يرى فى تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى، لا تبديل لها ولا تحويل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِلُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۚ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

فهو - سبحانه - قد خلقهم للتنوع والاختلاف.. لكنه يريد لكل المثل والشرائع والديانات وحدة جامعة لتنوعها، ورابطة ضابطة لاختلافها وحدة في توحيد الخالق المعبود، وفي الإيمان بالغيب.. وفي العمل الصالح.. فهذه هي أصول الدين الإلهي الواحد، التي اتفقت فيها وعليها كل الشرائع والنبوءات والرسالات، من آدم.. إلى إبراهيم.. إلى موسى.. إلى عيسى.. إلى محمد - عليهم جميعاً الصلاة والسلام



وانكار الإسلام «المركزية الدينية»، إيماناً منه بتعددية الشرائع الدينية، بتعدد أمم الرسالات السماوية.. يعنى - أيضاً - رفضه «المركزية القانونية» التي تريد العالم كله خاضعاً لمنظومة قانونية واحدة، حتى لتثير الاعتراضات، وتكبل الاتهامات ضد فلسفات التشريع في المنظومات القانونية الأخرى، بل وتجرح أحكام القضاء التي تصدر انطلاقاً من فلسفات التشريع التي لا تنتمي إليها.

ودعاة هذه «المركزية القانونية» في دوائر السياسة والإعلام - يتجاهلون أن فقهاء القانون العالميين، قد استقر رأيهم - في مؤتمراتهم العالمية - منذ عقد الثلاثينيات من القرن العشرين - على اعتماد منظومات قانونية ثلاث.. يجرى الرجوع إليها، والاستفادة منها، والمقارنة فيما بينها.. وهي القانون الرومانى، واللاتينى، والشرعية الإسلامية.

فدعوى «المركزية القانونية»، يرفضها - أيضاً - علماء القانون.



■ والإسلام ينكر «المركزية الحضارية» التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلط سبل الصراع - صراع الحضارات - لقسر العالم على نمط حضارى واحد.. لأن الإسلام يريد العالم «متعدى حضارات» متعددة.. ومتغيرة.

لكنه، لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب الشوفينى بالمركزية الحضارية القسرية.. وإنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتساند في كل ما هو مشترك إنسانى عام.

فقنى العلوم الطبيعية - علوم المادة الدقيقة والمحايدة - وفقى علوم تمدن الواقع - التى تحقق زينة الأرض، ورجاء البشر، وسلام الإنسانية، والحفاظ على البيئة - ميادين واسعة للوحدة، والتفاعل، والتساند بين كل الحضارات. وفقى الثقافات والفلسفات والمواريث الثقافية، ومتظومات القيم، والهويات الحضارية والقومية، ميادين للتنوع والتمايز، فى إطار المشترك الإنسانى العام بين مختلف الحضارات.



والإسلام ينكر «مركزية العرق والجنس واللون» التى أثمرت العنصرية العرقية، حتى جعلت فى العالم طبقية للألوان والأجناس، تركت آثارها الكريهة حتى فى المعابد والعبادات، فضلاً عن الأندية والفساكن والمدارس والمصانع، ناهيك عن القوانين والحقوق والواجبات والامتيازات!

بل رأينا من يدعى أنه من «شعب الله المختار»، يحكم الولادة من رحم يعينها، حتى ولو كان ابناً غير شرعى.. بل حتى لو كان ملحدًا!

ينكر الإسلام هذه «المركزية العرقية»، عندما تكون مركزية الجنس الأبيض.. أو الأسود.. أو الأصفر.. أو أى عرق من الأعراق.. فاختلاف الألوان - فى إطار الإنسانية الواحدة - وتساويها جميعاً - فى هذا الإطار الإنسانى الواحد - هو سنة من سنن الله، وآية من آيات الخالق لكل هذه الألوان والأعراق والأجناس «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» [الروم: ٢٢].



إن الإسلام ينكر «المركزية اللغوية» التى تريد العالم لغة واحدة، فتتكرز على الأمم والقوميات حقها فى تعدد الألسنة واللغات.. بل ينكر هذه «المركزية اللغوية» فى إطار الدولة الواحدة، إذا هى حرمت الأقليات اللغوية من حقها فى تعلم لغاتها القومية، كى تحافظ على مواريتها الثقافية.

وفى ذات الوقت، ينكر الإسلام تحول التعددية اللغوية أو الدينية إلى قطيعة، تفصم - بالشيغونية القومية أو التعصب الدينى - عرى التفاعل والترابط بين الدوائر اللغوية والطوائف الدينية فى الأمة الواحدة أو الدولة الواحدة.. فالأمة

وحدة تضم تنوعاً في الملل والأعراق واللغات.. والوسطية الإسلامية تحمي وحدة الأمة من أن تفتتها التمايزات اللغوية أو التعددية الدينية.. كما تحمي هذه الوسطية التنوع اللغوي والديني من أن تقهره وحدة الأمة أو الدولة.

يريد الإسلام - بمنهاجه في التعددية - للعالم الذي نعيش فيه

أن تعتني ثقافته المتعددة بالتعددية اللغوية والتعددية في الموارد الثقافية والفكرية للأمم وقومياته.. لأن اختلاف وتعدد الألسنة واللغات هو آية من آيات الله في المخلوقات.



والإسلام ينكر «المركزية في السلطة».. داخل الدولة، تلك التي تفرض وحدة الرأي والاتجاه والموقف والاجتهاد، قاهرة الأمة على حزب واحد.. ورأي واحد.. وحاكم فرد.

ينكر الإسلام هذه «المركزية السلطوية» التي تبعث «الفرعونية» من جديد.. وفي ذات الوقت، لا يريد الإسلام للتعددية - في المجتمع - غلو التشردم والقطيعة والتفتت بين تيارات الأمة وطبقاتها وأحزابها ومدارسها الفكرية.. وإنما يريد تنوع الاجتهادات والتنظيمات في الفروع والمتغيرات والمتاهج والآليات، وذلك في إطار ثوابت الأمة، ومقومات المجتمع، ومكونات الهوية، ومعالج المسروع الحضاري للأمة.



ولأن هذه هي وسطية الإسلام الجامعة بين عناصر الحق والعدل من أقطاب الثنائيات، وهي الوسطية التي جعلت من التعددية تنوعاً في إطار الوحدة.. وجعلت الوحدة ترعى وتحضن التمايز والاختلاف

ولأن الإسلام ليس «اليوتوبيا» الحاملة أحلام فلاسفة «المدن القاضية» - التي عزت على التحقيق منذ أقدم العصور - وإنما هو الدين الجامع بين «المثالي» الملهم، وبين «الواقعية» الساعية أيذاً إلى الاقتراب من «المثالي».. فلقد أدرك الإسلام أن حياة الأمم والشعوب والمجتمعات والبول، لا بد وأن تشهد التناقضات.. وأن تمتزج فيها نوازع الخير والشر، والإيجاب والسلب.. والاستعلاء والاستضعاف.. والأثرة والإيثار.. إلخ.. إلخ.

فكانت دعوة الإسلام - بوسطيته - إلى حل التناقضات بين الأفراد والطبقات والأمم والدول والحضارات بنفس منهجها المتميز في التعددية.

فهو يرفض «الصراع» سبيلاً لحل التناقضات؛ لأن «الصراع» يقضي إلى إفناء طرف للطرف الآخر، وفي ذلك قضاء على التعددية، عندما يتفرد المنتصر - الذي صرع خصمه - بالساحة والميدان، ويرث كل الإمكانيات

والإسلام - أيضاً - عندما يرفض الصراع، لا يرضى بالسكون والاستسلام؛ لأنه يؤدي إلى تقليد الضعفاء للأقوياء، وتشبه المستضعفين بالمستكبرين، وتبعية المهزومين للمنتصرين. وهو يفضي - أيضاً - إلى زوال التنوع وتبول التعددية. يرفض الإسلام ذلك. ويدعو - بدلاً من الصراع المدمر والسكون المقلد - إلى «التدافع الحضارى» الذى هو «حرك» وسط بين «دمار الصراع» و«موات السكون والتقليد».

فالتناقضات يجب أن تحل بالحراك الاجتماعى والسياسى والحضارى، الذى هو تناقض وتسابق بين الأفراد والطبقات والأحزاب والأمم والدول والحضارات.. تناقض لا ترتفع حرارته إلى «حدة» الصراع، الذى يصرع فيه طرف الطرف الآخر، فيلغى تعددية الفرقاء والأطراف والأقطاب.

وأيضاً، لا تنطفئ حرارته، فيتحول إلى سكون، هو - فى الحقيقة - استسلام الضعفاء للأقوياء، وتقليد المهزومين للمنتصرين.



هكذا يرى الإسلام قضية التعددية

■ قانوناً إلهياً.. فى كل عوالم المخلوقات.. وسنة من سنن الله التى لا تبدل لها ولا تحويل.

■ ويراه وسطاً.. عدلاً.. متوازناً.. جامعة للتنوع والاختلاف فى إطار الوحدة، فالوحدة تعنى: التركيب من الأجزاء المتنوعة.

والتنوع لا يد أن يكون فى إطار الوحدة الجامعة للفرقاء المتمايزين.

■ وعموم هذا القانون - فى قضية التعددية - يعنى شموله لكل عوالم الخلق.. من الذرة إلى العالم.. من الفرد إلى الإنسانية.. من الأحياء إلى الجماد إلى النبات.. من الملل والشرائع إلى الفلسفات والأفكار والأحزاب..

وصدق الله العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلَئِنَّكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].



فهي التعددية في إطار الوحدة.

وهي الوحدة الجامعة للتنوع والتمايز والاختلاف.

إنها الجدلية الوسطية، التي تمثل - في واقعنا المعاصر - طرق نجاة الإنسانية من غلوى الإفراط والتفريط.





عن الشريعة الإسلامية

الشريعة - فى اللغة - : هى مشرعة الماء، أى مورد الشارنين من الماء الجارى.. ثم استعيرت كلمة الشريعة ومصطلحها للدلالة الاصطلاحية على كل طريقة موضوعة بوضع إلهى ثابت، جاءتنا بواسطة نبي من الأنبياء.

فالشريعة - بالمعنى الاصطلاحي - هى ما شرعه الله - سبحانه وتعالى - لعباده من الأحكام التى جاء بها نبي من الأنبياء أو رسول من الرسل.. فهى وضع إلهى وليست اجتهاداً إنسانياً، وهى ثابتة، وليست متغيرة... ومن هنا تميزت «الشريعة» عن «الفقه»، الذى هو اجتهاد إنسانى فى إطار ثوابت الشريعة الإلهية.. وهى - أى الشريعة - ثابتة؛ لأنها دين وأصول، بينما الفقه متطور؛ لأنه فروع تواكب مستجدات الزمان والمكان والوقائع والمصالح والأفهام.. ولذلك، كان الشارع للشريعة هو الله - سبحانه وتعالى - وهو لا يوصف «بالفقيه»، والرسول مبين للشريعة الإلهية.. أما الفقيه فليس شارعاً، وإنما هو مجتهد فى فقه الشريعة

والشريعة تشمل ما تعلق «بكيفية العمل» - وتسمى: فرعية وعملية - ولها دُون علم الفقه - فهو علم الفروع.. كما تشمل الشريعة ما تعلق «بكيفية الاعتقاد» - وتسمى أصلية واعتقادية - ولها دُون علم الأصول - أى أصول الدين - الذى هو «علم الكلام» أو «علم التوحيد».

والإسلام عقيدة وشريعة. وإذا كان جوهر العقيدة هو التوحيد، الذى يفرد الذات الإلهية بالعبودية والأحدية فى الذات والصفات والخلق والأفعال.. فإن الشريعة هى كل المعالم والضوابط والوصايا والأحكام والقيم والأخلاقيات التى جاء بها الإسلام، ليستقيم بها المسلم على طريق ومنهاج الوصول إلى تحقيق الاعتقاد الدينى، وهى بذلك تشمل العبادات والمعاملات والقيم، سواء فتنها ما

وفى الشريعة الإسلامية، أيضاً، أحكام جزئية كانت معروفة فى الجاهلية،
هى من بقايا الشرائع الدينية السابقة، أو مما جاء ثمرة للصواب العقلى والحكمة
الإنسانية.. ولقد أقرها الإسلام، واحتضنتها واعتمدتها شريعته لاتساقها مع
فلسفة الإسلام فى التشريع، وذلك انطلاقاً من أن الرسالة الخاتمة - قد جاءت
مصدقّة ومهيمنة على كل ميراث النبوات والرسالات والشرائع السابقة، ومتممة
لما جاء فيها من مكارم الأخلاق.

ففى الإسلام - كعقائد - أصول الإيمان التى اتفقت فيها كل الرسالات
السماوية.. وفى الإسلام - كشريعة - ختام الشرائع السماوية، المتميزة عن
الشرائع السابقة بالعالمية والخلود، والتى ضمت من الشرائع السابقة ما صلح
للاتساق مع هذا التميز والامتياز.





الشرعية الإسلامية .. والتححرر من الاستعمار

بسبب من أن الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة، ولأنها عالمية - لعالمية الإسلام - رأيناها قد وقفت في التشريع للوقائع المتغيرة والمتطورة عند الإجمال والكماليات وفلسفة التشريع، وذلك حتى تفتح الطريق دائماً وأبداً أمام الفقه الإسلامي لتنمية القانون الذي يواكب المتغيرات ويستجيب للمستجدات.. بينما وجدناها قد فصلت الأحكام في الأمور الثوابت، التي مثلت ضرورات إنسانية لا تتغير بتغير الزمان والمكان - من مثل الضرورات الخمس: الحفاظ على النفس، والدين، والعقل، والعرض والنسب، والمال - ومن مثل: القيم - وبذلك جمعت الشريعة الإسلامية بين ثبات الفلسفة الإسلامية في التشريع والتقنين، وبين تطور الفقه وأحكام الفروع والمتغيرات، تلك التي اكتسبت وتكتسب إسلاميتها من التزامها بروح الشريعة، وحدود الله فيها، وفلسفة الإسلام المتميزة في التشريع.

وفي الشريعة الإسلامية، ارتبطت القيم والمقاصد الأخلاقية بكل الأحكام، فتميزت فيها «المصلحة» بـ «الاعتبار الشرعي»، ولم تنفصل عن القيم والأخلاق، كما حدث في المنظومات القانونية الرومانية واللاتينية التي تغيت ضبط حركة الواقع وتحقيق المصلحة الإنسانية، بالمعنى الدنيوي، غير الملتزم بأحكام الدين وحدود الله وقيم الأخلاق، فمنطلقات المنظومات القانونية الوضعية هي «العالم» و«الواقع».. أي عالم الشهادة، وحقائق وقوانين علومه، والمنافع الدنيوية.. بينما تضيف منطلقات الفقه الإسلامي في المعاملات إلى ذلك: عالم الغيب ووحى الله وشرعته السماوية، بما فيها من قيم وأخلاق هي التي تحدد نطاق وزوج القانون، وكذلك، تقف المنظومات القانونية الوضعية، في معايير «التحسين والتقبيح»، عند «العقل المجرد»، و«الحواس وتجاربها»، بينما تضيف الشريعة

الإسلامية ومنهاجها في التقنين إلى هذه المعايير «للتحسين والتقبيح»: معيار «الشرع» بأوامره ونواهيه، وذلك انطلاقاً من تميز النظرة الإسلامية إلى مكانة الإنسان - صاحب «العقل»، و«التجربة» - في هذا الكون.. فهو خليفة لله في استعمار الأرض، محكوم عقله وتجربته - وهما نسبيتا العلم والإدراك - بحدود وحقوق الله - سبحانه وتعالى - وبالعلم الإلهي الكلي والمطلق والمحيط.

ولقد ظلت الشريعة الإسلامية - في التطور والتاريخ الحضاري للأمم الإسلامية - متفردة بالمرجعية والحاكمة، في فقه الأمة، وفي قضائها، وفي مرجعية اجتهادات مجتهديها، وتجديد مجديها، دون شريك أو مزاحم لها في هذه المرجعية والحاكمة، منذ ظهور الإسلام إلى أن وفد إلى البلاد الإسلامية - في ركاب التفوذ والغزو الاستعماري الغربي - القانون الوضعي الغربي، ذو الفلسفة الدنيوية - العلمانية - في التشريع - منذ قرابة القرنين من الزمان - فبدأ هذا القانون الوضعي الغربي - مستعيناً بسلطان الاستعمار ونفوذ التغريب - يزاحم الشريعة الإسلامية وفقهها في كثير من المؤسسات الحقوقية والمجالس التشريعية والدوائر القضائية.

فالاستعمار قد شرع في تغيير «واقعنا»، ليكون على النمط الغربي، وبقدر ما أحدث من تغييرات في هذا الواقع بقدر ما حكم هذا الواقع المتغرب بقانونه الوضعي الغربي.. ولذلك كانت الدعوة إلى استرجاع كامل المرجعية للشريعة الإسلامية في حياتنا الإسلامية واحدة من مقاصد دعوات اليقظة الإسلامية الحديثة، طلباً لتحرير العقل والواقع الإسلاميين من هذا الاختراق القانوني، المخالف - في فلسفته والكثير من أحكامه - للمنظومة الإسلامية في التشريع والتقنين.. فالعودة إلى حاكمية الشريعة الإسلامية هي عنوان لعودة الواقع الإسلامي إلى خصوصياته الإسلامية: أي إن هذه العودة هي جزء من التحرر الوطني ضد الاستعمار الغربي، الذي شوه الواقع الإسلامي، وغير الشريعة التي تحكم حركة هذا الواقع.

كذلك، أصبحت الدعوة إلى الاجتهاد الإسلامي المعاصر، الذي يستنبط من الأصول والمبادئ الشرعية، الأحكام التي تحكم حركة المستجدات في الواقع الإسلامي الجديد، أصبحت هذه الدعوة، هي الأخرى، مطلباً من مطالب الأمة، التي تريد الاحتكام إلى شريعتها، مع مواكبة الواقع الجديد بفقه إسلامي جديد.. ذلك أن

تطور الواقع - في المتغيرات الدنيوية - هو سنة من سنن الله التي لا تبدل لها ولا تحويل.. فإذا لم يواكب الاجتهاد الإسلامي - في فقه المعاملات - هذا الواقع المتطور، فسيُفتح الباب للوافد القانوني الغربي.. شاء الناس أم أبوا.. ومن هنا كان الاجتهاد الإسلامي للمستجدات الدنيوية ضماناً من ضمانات الاستقلال القانوني لمجتمعات الإسلام.. فهو شرط من شروط الحرية والتحرير!

ولعل مما ييسر هذا الاجتهاد الفقهي المعاصر: النهوض بالتقنين الحديث لقراء الفقه الإسلامي في المعاملات، ففيه ثروة غنية من الاجتهادات والأحكام، يمكن - بالتقنين الحديث - أن تصبح منظومة قانونية حديثة ومضبوطة، تسد فراغاً كبيراً.. وأيضاً تحرك العقل المسلم لاجتهادات جديدة للمستجدات الجديدة. إن العودة إلى حاكمية الشريعة الإسلامية - علاوة على تحريرها للعقل المسلم - فإنها تحرير للواقع الإسلامي من الاحتلال التشريعي الذي جاءنا في ركاب الغزو الاستعماري الحديث.



وحدة الأمة الإسلامية (١)

لقد خلق الله - سبحانه وتعالى - الناس من نفس واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

ويتكاثر الناس توزعوا إلى شعوب وقبائل وأمم مختلفة ومتمايزة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّفَاقُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وإذا كانت الإنسانية قد بدأت بلغة واحدة، فلقد أصبح التعدد في الألسنة واللغات أمراً طبيعياً، بل آية من آيات الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

ولقد تبع التنوع في الأمم واللغات تنوع في الثقافات والفلسفات والشرائع والحضارات، ومن ثم تنوع واختلاف في المفاهيم والمضامين لعدد من المصطلحات التي يتم تداولها في هذه اللغات والثقافات والحضارات. صحيح أنه لا مشاحة في استخدام المصطلحات، أي في وحدة الفاظها وشيوع تداولها من قبل جميع الأمم، لكن عدداً من هذه المصطلحات - ومنها مصطلح «الأمة» - تتميز مضامينه بتمايز الثقافات والفلسفات والحضارات.

فالذين يتطلقون من الفلسفات المادية - شمولية أو ليبرالية - قد رأوا «الأمة» ثمرة ل«وحدة السوق» وال«اقتصاد»، فالحياة الاقتصادية المشتركة - عندهم - هي الرحم التي ولدت منها الأمة، وعلى أرض السوق المشتركة تنمو اللغة المشتركة، التي تثمر - في الميدان الفكري والثقافي - تكويناً نفسياً مشتركاً يربط الأمة بروابط المشاعر والمثل والقيم والذكريات والمواثيق والآلام والأمال.

وفى الأنساق الفكرية والدينية التى انحرفت إلى العنصرية - والمغلقة - يكون العنصر والعرق والدم هو معيار الانتماء إلى الأمة وتكوينها. ونموذج ذلك فى اليهودية التلمودية، التى أرادت تحويل الأقليات اليهودية إلى شعب وأمة، فجعلوا اليهودى هو المولود من أم يهودية، بصرف النظر عن العوامل الأخرى المكونة لثقافته وهويته، بل حتى بصرف النظر عن مدى إيمانه وتدينه باليهودية! ولقد تحت هذا النحو الأيديولوجيات النازية والفاشية، وتلك التى تقسم الإنسانية على أسس عرقية، آرية وسامية وحامية وغيرها.

وهناك قواميس غربية ومتأثرة بالتغريب خلطت بين «الأمة» وبين «الدولة»، على ما بينهما من تمايز واختلاف.. فقد تضم «الدولة» الواحدة أمماً متعددة.. وقد تتجزأ «الأمة» الواحدة وتتوزع على عدة «دول» - كما هو حال الأمة الإسلامية الآن. وفى الإسلام، حيث تنطلق المفاهيم من القرآن العربى المبين، يتميز مفهوم الأمة ومضمون مصطلحها.. فليست السوق الاقتصادية والعوامل المادية هى المعايير الأولى والحاكمة لتكوينها.. وليس العرق ووحدة الأصل والنسب ونقاء الدم من عوامل نشأتها.. لأنها - فى النسق الإسلامى - كيان مرن الضوابط والمعالم والسمات والقسمات.. ومن ثم قابوياً مفتوحة دائماً، ودوائرها متداحة أيداً، وتحققها متطور باستمرار وفق حيوية الجوامع التى تميز أهلها.

إن الأمة كما يقول الراغب الأصفهاني [٥٠٢هـ - ١١٠٨م]: هى «كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك تسخييراً أم اختياراً».

ولقد كان هذا المعيار المرن.. والمتطور، هو الذى حكم تبلور الأمة الإسلامية على مر التاريخ.. فلقد بدأت بأمة الدين - الجماعة المؤمنة بالإسلام - ثم استوعبت وضمت - بعامل الوطن - العرب غير المسلمين فى دار الإسلام.. ثم جمعت - بعامل الدين - الأقوام غير العرب الذين دخلوا فى الإسلام.

وهى - فى ذلك - قد وظفت العديد من الجوامع - التى انغلقت فيها وعليها أumm أخرى - وظفتها كليات فى إطار جامعها الأول الإسلام.. صنعت ذلك مع جامع «القبيلة» و«الشعب»، و«اللغة» و«الجنس» و«اللون»، فكانت - الأمة الإسلامية - «المحيط» الذى احتضن هذه «الجزر»، دون تناقض مع أى منها.. ودون وقوف عند حدود أى منها كذلك.

وحدة الأمة الإسلامية (٢)

لقد رفضت الأمة الإسلامية الوقوف عند عصبية «القبيلة»، لكنها لم تلغ القبيلة، وإنما جعلتها لبنة في جدار الأمة، وصنعت ذلك وظلت تصنعه مع العشيرة والأسرة الممتدة.. ورفضت الوقوف عند حدود «الوطن - الإقليم»، ووظفت هذا الوطن لبنة في محيط «دار الإسلام»، الجامعة للأقاليم والأوطان، ورفضت الوقوف عند حدود «الدولة»، عندما استمرت وحدتها - وحدة الأمة - في ظل تجزئة دار الإسلام إلى دول وطنية.. ورفضت الوقوف عند حدود اللغة، عندما جعلت - انطلاقاً من القرآن الكريم - تعدد الألسنة واللغات آية من آيات الله، قضت الأمة لغات عدة، واحتضنت ثقافات قرعية متنوعة في العادات والتقاليد والأعراف، ورفضت الوقوف عند العنصر والعرق، عندما اعتبرت ذلك «جاهلية منتنة»، أزلتها إنسانية الإسلام وعالميته.. بل ورفضت الأمة - في المفهوم الإسلامي - الوقوف عند وحدة الدين - حتى ولو كان هذا الدين هو الإسلام - وذلك منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام.. فهو الذي أعلن أن دين الله واحد أزلاً وأبداً.. وأن شرائعه متعددة أزلاً وأبداً: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه قد جاء متمماً لمكارم الأخلاق.. ومصدقاً لما بين يديه من الكتب.. لا يفرق بين أحد من رسل الله وداعياً كل أصحاب الشرائع الأخرى إلى كلمة سواء - هي: التوحيد الخالص.. والعمل الصالح.. والإيمان بالغيب والجزاء الآخروي -.. وجاعلاً الاختلاف سنة من سنن الله التي لا تبدل لها ولا تحوّل.. وتاركاً الحساب على هذه الاختلافات الدينية إلى البارئ - سبحانه وتعالى - يوم الدين.. ومقررّاً كامل المساواة في الحقوق والواجبات بين الأمة - المتعددة دينياً - في الدولة.. والسياسة.. والاجتماع.. والمعاملات.. فمبني تأسيس دولة المدينة المنورة سنة [١ هـ - سنة ٦٢٢ م] ضمت الأمة يهود المدينة - العرب ومواليهم العيرانيين - ونص دستورهما - الصحيفة - على «أن

يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم..».

وفى أول لقاء مع النصاري - نصارى نجران سنة [١٠ هـ - سنة ٦٣١ م] أصبحوا جزءاً أصيلاً من الأمة.. ونصن العهد النبوي الذي أعطى لهم: «على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم».

وعندما انداحت دائرة الأمة الإسلامية - بالفتوحات التي خزرت الشرق من قهر الروم والفرس - تقررت هذه الحقوق كاملة لأهل الديانات الوضعية أيضاً، الذين غدوا جزءاً من رعية دار الإسلام، وذلك وفقاً لما قرره رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عبدالرحمن بن عوف: «سُئِلُوا فِيهِمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ».

وفى حديث الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ - ٨٦٩ م] عن العوامل المكونة «للجماعة - الأمة - نجد عامل اللغة وليس الجنس.. فإسماعيل وإسحق - عليهما السلام - أخوان، لكن اللغة فارتقت بين أمتيهما.. كما تجد «التربية والشمائل والهمة والأخلاق والسجية هي التي تشبك الأمة سبكاً واحداً، فتجعل القالب واحداً، تتشابه داخله الأجزاء والأخلاق، فتثمر ولادة جديدة أخرى».

هكذا تميز المفهوم الإسلامي للأمة - في النشأة والتاريخ الحضاري - فكانت فيه: «الأمة - الأممية»، التي استوعبت الأديان والشعوب والقبائل والأقاليم، مع موارثها الحضارية القديمة.. وظلت - على مر تاريخها - دائمة الامتداد والاحتضان والاستيعاب لكل من يدخل في «دار» الإسلام أو في «دائرة» الإسلام.



وحدة الأمة الإسلامية (٣)

واليوم.. تتنوع شعوب الأمة الإسلامية في الأجناس والألسنة والأقوام.. وتتوزعها الأقاليم والأوطان والدول.. لكن هذا التنوع لا يعدو أن يكون تمايزاً في إطار «الأمة الواحدة» التي وحدها الإسلام في العقيدة والشريعة والحضارة ومنظومة القيم والأخلاق المعيارية.

أما وحدة هذه الأمة - أي الجماعة - الإسلامية، فإنها - من الناحية الشرعية - حقيقة قرآنية، تعبر عن إرادة إلهية: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٩٢]، «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ» [المؤمنون: ٥٢]. ومع كونها فريضة شرعية فهي ضرورة حياتية أيضاً.. وهذه الوحدة، التي صنعها الإسلام، وصبغها بصبغته، قد أهلت الأمة الواحدة لأن تعيش في وطن واحد، سماه علماء الإسلام ومؤرخوه «دار الإسلام».. ولقد عاش هذا الوطن الإسلامي حيناً من الدهر تحت سلطة «دولة» واحدة.. وحيناً آخر تعددت فيه «الدول».. لكن كل تاريخ الإسلام والمسلمين، إلى ما قبل التجزئة التي فرضتها الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة على دار الإسلام، قد احتفظ - حتى مع تعدد «الدول» - بوحدة «الدار - الوطن».. فكان المسلم - بل والمواطن من أهل الكتاب - ينتقل بحرية تامة عبر الأقاليم والإمارات والولايات - فيما بين المحيطين - ويقيم أنى شاء وحيث أراد، قيعامل - دون إجراءات جديدة - معاملة المواطنين في المكان الذي يستقر فيه، له كل حقوقهم وعليه ما عليهم من واجبات.. فجمعت «دار الإسلام» بين «الوحدة» في حقوق المواطنة وواجباتها، وبين «تنوع الدول والحكومات».. ولا تزال أسماء العائلات والأسر المنسوبة إلى أقاليم دار الإسلام، والتي تعيش في بلاد إسلامية أخرى، شاهدة على هذه «الأمية» التي ميزت دار الإسلام.. أممية في الأمة، وليس لطبقة من الطبقات!

ولذلك، استقر الرأي في الفكر السياسي الإسلامي - السياسة الشرعية - منذ بداية تاريخه وحتى عصرنا الحديث - على أن الإسلام جنسية ووطن ودار واحدة لأمة واحدة، لا تمزقها «الجنسيات» - بالمعنى الغربي، الذي عرفته الدولة القومية الغربية -، ولا «الامتيازات» الخاصة بالجنسيات المختلفة.

وعندما ورد إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] - وهو مفتي الديار المصرية - سؤال «فني المسلم إذا دخل بمملكة إسلامية، هل يعد من رعيته؟ له ما لهم وعليه ما عليهم، على الوجه المطلق؟ وهل يكون تحت شرعها فيما له وعليه، عمومًا وخصوصًا؟ وما هي الجنسية عندنا؟ وهل حقوق الامتيازات، المعبر عنها «بالكيبيتولاسيون» [Capitulations] موجودة بين ممالك الإسلام مع بعضهم بعضًا؟».

جاء في فتوى الأستاذ الإمام، على هذا السؤال:

«... إن وطن المسلم من البلاد الإسلامية هو المحل الذي ينوي الإقامة فيه، ويتخذ فيه طريقة كسبه لعبته، ويقر فيه مع أهله، إن كان له أهل، ولا ينظر إلى مولده، ولا إلى البلد الذي نشأ فيه، ولا يلتفت إلى عادات أهل بلده الأول، ولا إلى ما يتعارفون عليه من الأحكام والمعاملات، وإنما بلده ووطنه الذي يجري عليه عرفه وينفذ فيه حكمه هو البلد الذي انتقل إليه واستقر فيه، فهو رعية الحاكم الذي يقيم تحت ولايته، دون سواه من سائر الحكام، وله من حقوق رعية ذلك الحاكم ما لهم وعليه ما عليهم، لا يميزه عنهم شيء، لا خاص ولا عام.

أما الجنسية، فليست معروفة عند المسلمين، ولا لها أحكام عليهم، لا في خاصتهم ولا عامتهم، وإنما الجنسية عند الأمم الأوروبية تنسب ما كان يسمى عند العرب عصبية، وهو ارتباط أهل قبيلة واحدة أو عدة قبائل بنسب أو حلف يكون من حق ذلك الارتباط أن ينصر كل منتسب إليه من يشاركه فيه، وقد كان لأهل العصبية ذات القوة والشوكة حقوق يمتازون بها على من سواهم.

جاء الإسلام فألغى تلك العصبية، ومحا آثارها، وسوى بين الناس في الحقوق، فلم يبق للنسب ولا لما يتصل به أثر في الحقوق ولا في الأحكام. فالجنسية لا أثر لها عند المسلمين قاطبة، فقد قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ - [أَيَ عَظَمَتِهَا] وَفَخَرَهَا بِالْأَبَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُؤْمِنٌ تَقَى وَفَاجِرٌ شَقَى.

الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب» (رواه أبو داود) .. وروى كذلك عنه، «ليس منا من دعا إلى عصبية».

وبالجملة، فالاختلاف في الأصناف البشرية، كالعربي والهندي والرومي والشامي والمصري والتونسي والمراكشي، مما لا دخل له في اختلاف الأحكام والمعاملات بوجه من الوجود. ومن كان مصرياً وسكن في بلاد المغرب وأقام بها جرت عليه أحكام بلاد المغرب، ولا ينظر إلى أصله المصري بوجه من الوجود.

وأما حقوق الامتيازات، المعتبر عنها «بالكابيتولا سيون»، فلا يوجد شيء منها بين الحكومات الإسلامية قاطبة.. هذا ما تقضي به الشريعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبها.

لا جنسية في الإسلام، ولا امتياز في الحقوق بين مسلم ومسلم، والبلد الذي يقيم فيه المسلم من بلاد المسلمين هو بلده، ولأحكامه عليه السلطان دون أحكام غيره، والله أعلم».

هكذا استقر الفكر السياسي الإسلامي على أن وحدة الأمة الإسلامية في الدين والحضارة قد أثمريت واستلزمت وحدة دار الإسلام، حتى مع تعدد الإمارات والولايات والحكومات.. بل إننا نستطيع أن نقول إن الخلافة الإسلامية، حتى عندما كانت واحدة وكاملة، قد تمايزت في دار الإسلام - تحت حكمها - الولايات والأقاليم.



وحدة الأمة الإسلامية (٤)

عندما فرض الاستعمار الغربى - وخاصة بعد إسقاط الخلافة العثمانية [١٢٤٢هـ - ١٩٢٤م] - التجزئة الكاملة على عالم الإسلام وأقام جوايز «الجنسية» - بمعناها الغربى - بين دوله وأقاليمه، ذهب الفكر الإسلامى لبحث عن شكل جديد يحقق «وحدة» دار الإسلام، ويحافظ على وحدة الأمة، دون تجاهل لواقع التجزئة، وتعدد الدول والحكومات، وتزايد النزعات القومية.. ودونما تقف على «الواقع» الذى كرسه الاستعمار.. وكان من أبرز الاجتهادات الإسلامية فى هذا الميدان، كتاب فقيه الشريعة الإسلامية والقانون المدنى الدكتور عبدالرزاق السنهورى باشا [١٣١٣ - ١٣٩١هـ = ١٨٩٥ - ١٩٧١م]: «فقه الخلافة وتطورها».. وفى هذا الاجتهاد الحديث لإحياء شكل جديد للخلافة الإسلامية، يحقق وحدة الأمة.. وتكامل دار الإسلام.. وتحكيم الشريعة الإسلامية.. قال السنهورى باشا: «بما أنه يستحيل اليوم تصور إقامة نظام الخلافة الراشدة أو الكاملة، فلا مناص من إقامة حكومة إسلامية ناقصة، وذلك على أساس حالة الضرورة، للظروف التى يمر بها العالم الإسلامى حالياً.

وهذا النظام الإسلامى الناقص يجب اعتباره نظاماً مؤقتاً، وهدفنا المثالى هو السعى إلى العودة مستقبلاً للخلافة الراشدة (الكاملة).

إن نظام الخلافة الراشدة التى يجب إقامتها مرة أخرى فى المستقبل يجب أن يتصف بالمرونة، إن الشريعة الإسلامية لا تفرض شكلاً معيناً لنظام الحكم.. وأنه يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار الاتجاهات القومية والنزعات الانفصالية فى بعض البلاد الإسلامية، وهى اتجاهات تزداد يوماً بعد يوم؛ لذلك فإنه يجب علينا أن نجد حلاً يمكن أن يضمن صورة من الوحدة بين الشعوب الإسلامية مع إعطاء كل بلد نوعاً من الحكم الذاتى الكامل.

إن وحدة الإسلام في صورة متطرفة غير مرتبة لدولة مركزية لم تعد ممكنة الآن، وإن فكرة تكوين منظمة للشعوب الشرقية يمكنها أن توفق بين الاتجاهات القومية الناشئة، مع ضرورة تأمين قدر من الوحدة بين الشعوب الإسلامية..

على أن الخلافة الكاملة يمكن تحقيقها إذا اجتمعت كلمة المسلمين، لا على أن تكون لهم حكومة مركزية واحدة، فذلك قد يصبح مستحيلاً، بل يكفي - على ما أرى - أن تتقارب حكومات الإسلام المختلفة وأن تتفاهم، بحيث يتكون منها هيئة واحدة شبيهة (بعصبة أمم إسلامية) تكون على رأس الحكومات، وتكون هي هيئة الخلافة، ولا سيما إذا ألحق بهذه الهيئة مجلس مستقل منها، يكون قاصراً على النظر في الشؤون الدينية للمسلمين..

هكذا قدم الدكتور عبدالرازق السنهوري يأساً - سنة ١٩٢٦م.. عقب إسقاط الخلافة العثمانية - اجتهداً «فقهياً» وسياسياً» لتجديد الخلافة الإسلامية. وتوحيد الأمة الإسلامية، في شكل «عصبة أمم إسلامية»، توحيد الأمة، وتحقيق تكامل «دار الإسلام»، ولكامل النهضة الإسلامية الحديثة، مع مراعاة التعدد في الحكومات والتنوع في الأوطان، تلبية للواقع الجديد، والتيارات القومية الصاعدة في محيط عالم الإسلام.

ونحن عندما نتأمل اجتهد السنهوري هذا - عقب سقوط الخلافة العثمانية - نجد له نظيراً في أدبيات اليقظة الإسلامية إبان مرحلة ضعف هذه الخلافة، وذلك بهدف تجديد شباب تلك الخلافة، لمواجهة المخطط الاستعماري الغربي الساعي إلى التهام أقاليم تلك الخلافة، تمهيداً لإسقاطها ووراثتها تركتها. في النصف الأول من عقد الثمانينيات - في القرن التاسع عشر الميلادي - كتب جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] في «العروة الوثقى» يدعو إلى تكامل وتضامن دار الإسلام وأمة الإسلام، فقال: «إن الدول الإسلامية متصلة الأراضي، متحدة العقيدة، بجمعهم القرآن، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبرسالة، أليس لهم أن يتفقوا على الذب والإقدام كما اتفق عليهم سائر الأمم؟! ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم، فالاتفاق من أصول دينهم. أليس لكل واحد أن ينتظر إلى أخيه بما حكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من كل الجوانب؟»

لا ألتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً، فإن هذا ربما كان عسيراً، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه. يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه. ألا إن هذا، بعد كونه أساساً لدينهم، تقضى به الضرورة، وتحكم به الحاجة في هذه الأوقات».

ثم عاد جمال الدين الأفغاني ليصوغ هذا الاقتراح في شكل نظام لا مركزي، تصلح به الخلافة العثمانية إدارة أقاليمها وولايتها، وتجدد به شباب تلك الولايات، وتفتح أبواب النهوض أمام الشرق الإسلامي، كي يستطيع التصدي للزحف الاستعماري الغربي.. ولقد قدم هذا المشروع إلى السلطان عبدالحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] في العقد الأخير من القرن التاسع عشر.





وحدة الأمة الإسلامية (٥)

اليوم.. تتحرك خريطة عالمنا المعاصر نحو إقامة التكتلات والاتحادات، سواء بروابط إقليمية، أو حضارية، أو أيديولوجية.. فالوحدة الأوروبية، وإن استهدفت المصالح المادية - اقتصادية وعسكرية - إلا أن الأيديولوجية الليبرالية، والتراث المسيحي، والبعد الحضاري الغربي هي منطلقات ومكونات في صنع هذه الوحدة.. وإلا فليست مصادقة أن يكون القادة الثلاثة المؤسسون للاتحاد الأوروبي - الألماني «أديناور» [١٨٧٦ - ١٩٦١م] والإيطالي «دي جاسبري» [١٨٨١ - ١٩٥٤م] والفرنسي «شومان» [١٨٨٦ - ١٩٦٣م] - هم من الديمقراطيين المسيحيين، ومن الكاثوليك المخلصين!

بل إن هذه العوامل - الأيديولوجية.. والدينية.. والحضارية - هي التي تجعل الاتحاد الأوروبي يفتح أبوابه لشعوب أوربا الشرقية والوسطى، التي تشترك مع شعوبه في هذه المنطلقات.. بينما يمانع في دخول تركيا المسلمة إلى «ناديه المسيحي»!



وعندما حدث حريق المسجد الأقصى [في جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩هـ - ٢١ أغسطس ١٩٦٩م] اهتز ضمير العالم الإسلامي، فانعقد أول مؤتمر قمة للبلاد الإسلامية [في رجب - سبتمبر من نفس العام].. وتأسست - في العام التالي - «منظمة المؤتمر الإسلامي» وهي التي تمثل - في حالة ما إذا دبت فيها الروح والحيوية - عصبه الشعوب الإسلامية.. فإذا حدث وعادت حكوماتها عن خلط الإسلام بالعلمانية في تشريعاتها، والتزمت بالإسلام عقيدة وشرعية وحضارة وقيماً، وغدت - بذلك - «دولاً» إسلاميةً كاملةً إسلاميةً أمكن - يومئذ - أن تتطور «منظمة المؤتمر الإسلامي» إلى «منظمة الدول الإسلامية».. وبهذا التطور،

تكون قد استجابت لضرورات الواقع المعاصر وتحدياته، في التكتل على أساس المصالح المادية، وحققت - أيضاً - المبدأ الإسلامي في وحدة الأمة الإسلامية، وتكامل دار الإسلام.



إن أمتنا الإسلامية تملك وطنًا تبلغ مساحته ٣٥.٠٠٠.٠٠٠ كيلو متر مربع.. تعيش فيه أمة يبلغ تعدادها مليارًا ونصف المليار - أي نحو ربع البشرية. ونصف المتدينين بالديانات السماوية! - وهي تملك - مع وحدة العقيدة والشريعة والحضارة والقيم والتراث الفكري - من الثروات المادية ما يؤهلها لأن تكون العالم الأول - بل إنها قد كانت العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من عشرة قرون.. بينما عمر الغرب كعالم أول لا يتعدى قرنين من الزمان!

إن الأمة الإسلامية - التي يمتد وطنها من «غانة» إلى «فرغانة» غربًا وشرقًا، ومن حوض نهر الفلجا إلى جنوبي خط الاستواء شمالًا وجنوبًا، تملك:

■ أطول أنهار الدنيا.. وأقدم فلاح علم الدنيا فن الزراعة.. وفي بلد واحد من بلادها - هو السودان - أكثر من مائتي مليون فدان صالحة للزراعة بأرخص التكاليف، ومهيأة لأن تكون سلة غذاء لعالم الإسلام.

■ كما تملك من طول الشواطئ - البحرية - والنهرية - ما يؤهلها لأن تكون مصدرًا غنيًا للثروات البحرية بكل أنواعها، السمكية والمعدنية.

■ ووطن هذه الأمة هو العالم الأول في البترول، والغاز، والمنجنيز، والكروم، والقصدير، والنيوكسيت.

وهو العالم الثاني في: النحاس، والفوسفات.

وهو العالم الثالث في: الحديد.

وهو العالم الخامس في: الرصاص.

وهو العالم السابع في: الفحم.

وهو ينتج ثلثي الإنتاج العالمي من البترول والغاز.. و٢٤٪ من المنجنيز.. و٤٠٪ من الكروم.. و٥٦٪ من القصدير.. و٢٣٪ من النيوكسيت.. و٢٥٪ من النحاس.. و٢٥٪ من الفوسفات.. و١٢٪ من الحديد.. و١٠٪ من الرصاص.

■ ولأن أغلب ثروات العالم الإسلامى مركوزة فى باطن الأرض؛ ولأن زكاة الركاز الخمس - وفق حديث رسول الله ﷺ «فى الركاز الخمس» - رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والإمام مالك والإمام أحمد - فإن هذا «البند» من بنود الزكاة وحده ٢٠٪ من قيمة هذه الثروات المستخرجة من باطن الأرض - لو قامت عليه مؤسسة تنموية إسلامية، لاستطعنا تنمية عالم الإسلام اقتصادياً واجتماعياً. وبالحلال ننمى مجتمعات الأمة الإسلامية. مع عتق رقابنا من الأغلال التى يكبلنا بها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى!

وجدير بالذكر، أن وحدة أمة الإسلام، وتكامل دار الإسلام، وسلوك السبيل الإسلامية فى التنمية والنهوض، وإقامة العدالة الاجتماعية فى الثروات والأموال وفق فلسفة الإسلام فى الاستخلاف.. لا يعنى أى من ذلك ولا كل ذلك عزلة المسلمين عن المشاركة فى الحياة الدولية، سواء من خلال المنظمات الإقليمية مع الدول غير الإسلامية، أو من خلال المنظمات الدولية.. بل ومن خلال الانفتاح والتفاعل مع الحضارات غير الإسلامية.. ففقهنا المعاصر يرى العالم كله «دار عهد» تحكمها القوانين الدولية، التى يجب أن يشارك العالم كله فى صياغتها.. وينزل على احترامها.. والله - سبحانه وتعالى - قد خلقنا شعوباً وقبائل لنتعارف.. وإذا كانت الموازنة بين المصلحة وبين المفسدة هى معيار الحلال والحرام والمستحب والمكروه فى أغلب ميادين السياسة الشرعية، فإن تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة للمسلمين وللإنسانية كلها، ودفع المضرة والمفسدة عن المسلمين وعن الإنسانية، هما معايير الموالاة والمعاداة فى علاقات المسلمين بغير المسلمين.. وهذه هى المعايير التى أوجزت التعبير عنها آيات القرآن الكريم التى تقول: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَتَّهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَتَّهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٧ - ٩].

إن الأمة الإسلامية، تريد العالم «مفتدى حضارات»، تتفاعل فيه كل حضارات الأمم والشعوب، مع تمايز كل هذه الأمم فى الهويات الثقافية والخصوصيات العقدية والحضارية.. مثلها فى ذلك مثل الإنسان الذى يصافح كل

الناس مع احتفاظه «بالصفة» التي تميزه عن الآخرين.. فالتعاون مع الآخرين فريضة إسلامية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].. وليس مجرد مباح من المباحات..

والتنوع والتعدد والتمايز بين الأمم والحضارات - بل وكل الكائنات والمخلوقات - سنة من سنن الله التي لا تبدل لها ولا تحوّل.. وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، والله أعلم.

إنسانية الحضارة الإسلامية

لو شئت أن أكتف مفهومي الحضارة الإسلامية في كلمة جامعة، لقلت:
إن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الإنسانية.. ذلك أن «خصوصية»
الحضارة الإسلامية هي عين «إنسانيتها».

■ فهي عندما تدعو الناس إلى لبها وجوهر مكوناتها، وهو دين الإسلام، إنما
تدعوهم إلى الدين الجامع للشرائع والمثل والنبوات والرسالات.. أي إلى كل
موارث الإنسانية في الدين والتدين عبر التاريخ الإنساني الطويل..

تدعوهم إلى الإسلام الجامع، الذي هو اكتمال وإكمال لدين الله الواحد،
والمصدق لما بين يديه، والمهيمن على ما بين يديه.. أي المتضمن له، والمضيف
إليه.. وليس الناقض له، أو الناقض لما فيه..

وعن هذه الحقيقة أفصح حاطب بن أبي بلتعة [٣٥ ق.هـ - ٢٠ هـ = ٥٨٦ -
٦٥٠ م] عندما حمل رسالة النبي العربي، ورسول الإنسانية محمد بن عبد الله ﷺ،
إلى «المقوقس» - عظيم القبط - فقال له

- «إن لك ديناً لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما
سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا بشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن
إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولستنا ننهك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به».
وصدق الله العظيم: «أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله
وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله» [البقرة: ٢٨٥]. وصدق رسوله
الكريم: «الأنبياء إخوة لعلات، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى».

■ وإنسانية الحضارة الإسلامية، نابعة من إنسانية الإسلام وعالميته، تلك
التي جاءت لتسلك الشرائع المحلية في شريعة عالمية.. والديانات القومية في دين
إنساني.. والنبوات المرحلية في نبوة خاتمة خالدة.

أى إنها جاءت لتنتقل بالإنسان من ضيق الأفق المحلي إلى استشراف الأفق
الإنسانى، وتنتقل بالإنسانية من التشردم والتعصب القبلى إلى أفق الوحدة
الإنسانية والعالمية.

وعن هذا المعنى عبر «ربيعى بن عامر التميمى» - فى جوابه عن سؤال:
«رستم».. قائد القرس الأكاسرة:

- ما الذى جاء بكم؟

فكان جواب «ربيعى»:

- «إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن
ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

وصدق الله العظيم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُونًا عِنْدَهُمْ
فِي الْكَوْثَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْفَحْشَاءَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

■ وإنسانية هذه الحضارة الإسلامية، هى الإنسانية التى لا تلغى
الخصوصيات، ولا المحليات، ولا القوميات، ولا التنوع، ولا الاختلاف،
والاجتهاد... وإنما هى الإنسانية الجامعة، التى تسلك مختلف أنواع التنوع، وكل
ألوان الاختلاف، وجميع صور التمايز فى الإطار الإنسانى الجامع.. والقواسم
الإنسانية المشتركة.. فالناس: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق - كما
قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

والتعددية فى الملل والشرائع تتعايش فى إطار أصول الإيمان: بالخالق
المعبود الواحد.. وبالغيب واليوم الآخر.. وبالعمل الصالح، معياراً للنجاح فى
المران الدنيوى، وفى النجاة يوم الدين.

والتعددية فى المذاهب، تتعايش فى إطار الشريعة الإلهية الواحدة
والتعددية فى الأمم والشعوب والقبائل والأجناس واللغات والقوميات
والمناهج والحضارات والثقافات، آية من آيات الله وسنة من سننه التى لا تبدل
لها ولا تحوّل.. وهى تتعايش فى إطار الإنسانية الواحدة، والمشارك الإنسانى فى
الفطرة الإنسانية السوية، وفى المعارف المعطومة من العقل بالضرورة، والتى
لا يختلف فيها العقلاء.

■ وإسلامية هذه الحضارة، تجعل العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. فتحرر المؤمنون بها من ذل الطواغيت واستكبارهم.. في ذات الوقت الذي تضمن فيه لغير أهلها حريتهم وعزتهم.. وفق إعلان الفاروق عمر بن الخطاب:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟» فهي لا تقيم تناقضا بين عزة أهلها وعزة أمم حضارات الإنسانية جمعاء.

■ إنها حضارة الوسطية المتوازنة الجامعة.

- الجامعة بين الفرد والطبقة والأمة.. فالإسلام دين الجماعة.

- والجامعة بين الدولة المدنية والمرجعية الإسلامية، التي لا كهانة فيها.

- والجامعة بين ملكية الله للأموال والثروات.. وبين اختصاص الإنسان بالحيازة وملكية المنفعة الاجتماعية، بحكم استخلافه عن الله، مالك الرقبة في الثروات والأموال.

- والجامعة بين الوحدة في العقيدة، والشريعة، والحضارة، والأمة، ودار الإسلام.. وبين التمايزات والخصوصيات في المذاهب والشعوب والأقاليم والأوطان والأعراف.. وصدق الله العظيم، الذي أنزل الكتاب كما أنزل الميزان، والذي جعل الوسطية جعلا إلهيا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

■ وهذه الحضارة الإسلامية - كلغتها العربية - مستثناة من قانون شيخوخة وموت الحضارات.

ذلك لأنها - رغم مدنية علومها.. ونسبية معارف أهلها - مؤسسة على المطلق الخالد والكلّي المحيط وحى الله ونبا السماء العظيم..

فبالإسلام الخالد.. الخاتم.. المحفوظ إلهيا اصطيفت روح هذه الحضارة الإسلامية.. ولذلك فإنها تجري عليها سنن النهوض والتراجع.. والصحة والمرض.. لكن تتجدد بتجدد الإسلام الخالد، فلا تموت.. فهي - والعربية - خالدتان يخلود القرآن الكريم.



هكذا، نجد أن إسلامية حضارتنا هي عين إنسانيتها.

- إنها الكلمة السواء التي إليها ندعو عقلاء كل الحضارات في عالمنا المعاصر .

- وهي الأرض المشتركة التي تتعايش عليها الثقافات الإنسانية المتفايزة .

- وهي طوق النجاة لعالم اليوم من الصراعات المدمرة، التي يبشر بها مفكرون.. وتسهر عليها مراكز أبحاث ودراسات.. ويخطط لها باحثون استراتيجيون.. وتسعى لإيقاد نيرانها حكومات ومنظمات وأحلاف وجيوش.





طبيعة الاجتهاد الإسلامى الحديث

إن طبيعة الاجتهاد الإسلامى، وأفاقه، وأدوات هذا الاجتهاد، وشروط أهله.. كلها - بالطبع - مرتبطة بطبيعة الإسلام.. الإسلام الدين، والإسلام السياسى والاجتماعى والاقتصادى والحضارى، فالإسلام - كدين وضعه الله سبحانه وأوحى به إلى رسوله ﷺ - قد اكتملت أصوله وأركانه وعقائده وشعائره، وكذلك منهاجه الذى هو شريعته، يوم أن اكتمل نزول القرآن الكريم، الذى بينت مجمله السنة النبوية الشريفة (وبالتحديد ما هو تشريعى منها).. وفى ذلك جاء قول الله سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة ٣]، وقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وسنتى».

لكن الإسلام الدين - كما هو معروف - لا يقف عند العقائد والشعائر، وإنما يفضى ليتخذ موقفاً من شئون الحياة الدنيا وتنظيم حياة الإنسان الاجتماعية.. ولما كانت شئون الدنيا متغيرة ومتطورة دائماً وأبداً، فلقد وقف فيها الوحي والسنة التشريعية عند الكليات والمثل والمناهج والفلسفات والمقاصد والغايات، دون النظم والتفاصيل والجزئيات.. ومن هنا كانت ضرورة الاجتهاد ملحة ودائمة حتى تستوعب روح الشريعة الواقع المتجدد، وحتى لا يخرج هذا الواقع عن النسق الإسلامى العام، وحتى تستجيب التشريعات لما يستجد من المستجدات.

وقديماً، عندما كانت الحياة بسيطة، وعندما كانت «الثقافة الموسوعية» هى الطابع الذى يميز الأعلام من كبار المفكرين الإسلاميين، عرف تاريخنا الفكرى المفكر الموسوعى، الذى استوعب علوم الشريعة ومشكلات الواقع الذى عاش فيه، فاجتمعت له وفيه كل مؤهلات وأدوات الاجتهاد.

أما اليوم.. وبعد أن ضم الإبداع الفكري الإسلامي منذ العصر المملوكي
 فالعثماني.. وبعد أن تطور واقعنا دوننا مراعاة لروح الشريعة بفعل تأثير
 الاستعمار والحضارة الغربية، وبعد أن تعقدت شئون الواقع، فلم يعد بإمكان
 المفكر الفرد أن يلم بحقائقها وحده، وبعد أن غدا «التخصص» هو طابع
 العصر، سواء في العلوم أو في تطبيقاتها أو في مجال العمل الإنساني... اليوم،
 وأمام هذا التطور الجديد في ميادين الفكر وميادين الواقع، فلا بد وأن يتخذ
 الاجتهاد الإسلامي أسلوباً جديداً ليلبي احتياجات هذا الواقع الجديد.. فأهل
 الذكر.. وأولو الأمر.. وأصحاب الحل والعقد.. لم يعودوا هم الأفاضل من علماء
 الشريعة وحدهم، بل لابد أن يشملوا كل خبراء «الدنيا» مع الأفاضل من علماء
 «الدين».. ولابد أن تتبلور المؤسسات الفكرية التي تجمع هذه الخبرات،
 الدنيوية والدينية معاً، حتى يمكن تألق الاجتهاد الإسلامي من جديد.. إن
 الاجتهاد هو «عقد قران» بين روح الشريعة ومقاصدها وبين الواقع المتطور
 والمصالح المتجددة، على النحو الذي يحقق مصلحة مجموع الأمة، بما لا
 يخرج عن روح الشريعة ومقاصدها.. وكما يلزم لمؤسسات الفقهاء الذين
 يعرفون القرآن وعلومه والسنة وعلومها، والمحكم والمتشابه، والمطلق
 والمقيد، والمجمل والمفصل، والعام والخاص، وقرات الأولين في التشريع..
 إلخ.. إلخ.. كذلك يلزم لهذه المؤسسات أهل الذكر والخبرة بعلوم الواقع
 وتجاريه، تلك التي تعقدت إلى الحد الذي يستحيل أن يقطع فيها العالم
 الموسوعي - كما كان في القديم -.. إن الاجتهاد الإسلامي هو - بالتعبير
 الحديث - «صنع القرار الإسلامي» في قضايا الواقع المتطور.. والذين
 يحترمون عقولهم، ويعرفون مقدار تعقد الواقع ومشكلاته، يعرفون أن صنع
 القرار لابد له من جهود جماعية تنتظمها وتنظمها المؤسسات.. وهذا لا يعني
 الحجر على الإبداع الفردي، فهو المنطلق الذي لابد وأن تنحاز لأصحابه كل
 الفرص والإمكانات، وإنما الذي أعنيه هو استقطاب صنّاع «الفكر» وأربابه
 وخبراء «الواقع» وأهل الذكر في مشكلاته، لبيأتى الاجتهاد - أو صناعة القرار
 الإسلامي - عبر المؤسسات القادرة على تنظيم هذه العملية - أقرب ما يكون
 إلى الدقة والصواب.

هذا ملمح من ملامح الاجتهاد كما أراه.

وملمح آخر، أود أن أسلط عليه بعض الضوء. فنحن نرفض «العلمانية» التي هي وافد غربي، وحل أوربي لمشكلة أوربية. نرفضها؛ لأنها تعنى، ليس فقط الفصل بين الدين الإسلامى والواقع الذى يحيا فيه المسلمون، بل لأنها أيضاً - وهذا هام، بل خطير - تعنى فصل حاضر أممتنا ومستقبلها عن تراثها الحضارى، وتحويلنا إلى هامش للحضارة الغربية، الأمر الذى يفقدنا جوهر استقلالنا، وهو الاستقلال الحضارى. نحن نرفض هذه «العلمانية»، لكن رفضها يجب ألا يتخذ صورة «رد الفعل الغاضب»، الذى يدفعنا للتمسك بكل قديم لمجرد أنه قديم!.. إننا يجب أن نميز بين «النصوص» وبين «مقاصد» هذه النصوص... وشريعتنا مقاصد، وأهم مقاصدها هو العدل - كما يقول الإمام السلفى ابن القيم - وليست مجرد نصوص! ويجب أن نميز بين نصوص الوحي، القطعية الدلالة والثبوت، وبين النصوص الأخرى، وخاصة أحاديث الآحاد، أو الموضوعية، أو الضعيفة، أو تلك التى لا يتسق منطقتها عندما تعرض على روح الشريعة ومنطق القرآن الكريم، ويجب أن نميز، فى السنة النبوية الشريفة، بين ما هو «تشريعى» يتعلق بتبليغ الوحي وتفصيله وتبيينه، وبين «غير التشريعى»، المتعلق بأمور دنيوية يتجاوزها التطور الذى هو قانون وسنة من سنن الله فى هذا الكون، ويجب أن نميز بين الشريعة - التى هى نهج ومقاصد - وبين تطبيقات السلف واجتهادات الأقدمين، فالشريعة «دين وضعه الله» وهى من الثوابت، أما تطبيقات السلف واجتهادات الأقدمين فإنها ليست ديناً، وهى ليست ثوابت ملزمة لمن يعيش واقعاً مغايراً للواقع الذى عاشوا فيه واجتهدوا له.

قد تبدو هذه القضايا، عند المستنيرين الذين يفقهون الإسلام ويعون حكمته، بديهيات - وهى كذلك بالفعل -.. لكن.. ما الحيلة؟!.. ونحن نشهد من مظاهر الغضب، على طوفان «العلمانية» والانزعاج من شيوع الانفلات من روح الإسلام.. نشهد «ردة فعل نصوصية»، تعتصم، فى جمود، بكل ما هو قديم.

نشهد جماعات تتكون، وتحكم على كل المسلمين بالكفر والجاهلية، بل تستبيح جرمات الدم والمال؛ انطلاقاً من نصوص هى أقرب ما تكون إلى القصص والإسرائيليات، يسمونها «أحاديث آخر الزمان»! ونشهد جماعات تعتزل مساجد المسلمين، وتنهض لبناء مسجد خاص بها، فيسير شبابها - كما حدث فى مدينة الجزائر منذ سنوات - خلف ناقة، ينتظرون أن «تبرك» حتى يبنيوا مسجدهم فى

المكان الذي «تبرك» فيه!! وتشهد جماعات يبلغ بها الغلو إلى الحد الذي يجعلها «تتعيد» لا بالنصوص الدينية فقط، وإنما «بوقائع التاريخ»! فإذا كانت دعوة الإسلام قد انتصرت في جيل، فإن الدعوات التي لا تحقق الانتصار في جيل هي - بنظرهم - غير إسلامية!! وإذا كان صلح الحديبية قد استهدف مهادة قريش لعشر سنين، فإن المعاهدات المشابهة إذا زادت مدتها عن عشر سنوات تصبح غير إسلامية!!... إلخ... إلخ.

نعم... نحن نشهد «العلمانية»، التي تتحطل من كل الموروث الإسلامي - بينما تجمد أنصارها عند «نصوص» المفكرين الغربيين! - ونشهد رد الفعل الغاضب ضدها الذي يجمد أصحابه عند كل موروث! والمطلوب هو التمييز بين «الدين» الذي وضعه الله وأوحى به، وتطبيقات السلف لهذا الدين على واقع عصرهم - الذي تغير وانقضى -، التمييز بين «الثوابت» و«المتغيرات»، التمييز بين «المقاصد» وروح الشريعة وظواهر النصوص، التمييز بين النصوص المتعلقة بالعقائد والأصول والزهج والحدود والحلال والحرام وتلك التي جاءت تقنيناً لواقع دنيوى هو متغير بالضرورة، فذلك ملمح آخر من ملامح الاجتهاد، كما أراه. بالطبع، هناك ملامح أخرى، لكن لنقف عند هذه الأمثلة - وهي كافية في الدلالة وصالحة كي يقاس عليها - حتى لا يطول بنا الحديث، فيخرج عن حيز المقام!

في النموذج الثقافي

على المستوى الإنساني، وفي مختلف الميادين، ينهض «النموذج» بدور محوري في تحديد «الأسوة» و«القدوة» التي تنهض بدور «اليوصلة» المحددة والمرشحة لتوجهات الإنسان في مختلف ميادين الحياة.

ففي الأسرة «نموذج الأب»، وفي الأمة «نموذج البطل».. وفي التاريخ «نماذج الانتصارات».. وفي العلاقات الدولية والإقليمية «نموذج الوطن».. وفي العقائد والأيدولوجيات «نموذج الدين» إلى آخر النماذج التي تأسر الإنسان على توجهه بعينه وطريق بذاته عند مفترق الطرق، وتعدد الخيارات.. وفي اللحظة التي يتم فيها اختيار «النموذج» يحدث الإفصاح والإعلان عن انتماء «الذات»، ومن ثم تميزها عن «الآخر»، الذي عدلت عن اختياره «نموذجاً» في هذا الميدان من ميادين الاختيار.

والميدان الثقافي ليس فقط واحداً من هذه الميادين التي يتم فيها اختيار الإنسان «نموذجاً» دون الآخر، بل إن «النموذج الثقافي» يكاد أن يكون، بعد اختياره، والانتماء إليه، والولاء له، المعيار الذي يحدد ويرجح «النماذج» التي يختارها الإنسان في العديد من المجالات والكثير من الميادين.

فالثقافة التي صنعت هوية الإنسان هي الموجة لاختياراته لنماذج الأسوة ومناهج القدوة والمثل والمعالم التي تجعله يوالى هذا ويعادى ذاك، وينشط لهذا المقصد ويعدل عن سواه، ويضحى في هذا السبيل ولا يلتفت إلى ما عداه، والنموذج الثقافي هو المحدد «لنموذج المستقبل» الذي يسعى الإنسان إلى صنعه، وتحقيقه في الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه.

وإذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد خلق الناس جميعاً من نفس واحدة، فلقد اقتضت حكمته، وحتى يتم استباق الناس على طرق الاستعمار للأرض، وتنافسهم في تحصيل المنافع، وتدافعهم لحيازة الخيرات المادية والمغنوية.. شاء الله - سبحانه - أن تتوزع البشرية إلى تعددية في الشعوب والقبائل والأمم

والألسن - اللغات - والمناهج والشرائع، ومن ثم على الملل والقوميات والحضارات والثقافات.

وإذا كانت «الذات» إنما تُعرف بالسمات الثوابت التي تميزها عن «الآخر»، وليس بالمشترك الذي يجمعها بهذا «الآخر». وبما أن واقع أمّتنا العربية الإسلامية، الحديث والمعاصر، هو واقع الاختكاك والتدافع الثقافي والحضارى مع النموذج الغربى تحديداً، وقبل - بل ودون - أى نموذج «آخر» سواء. فإن الحديث عن «الذات» و«الآخر» ثقافياً، لابد وأن يقود إلى تحديد المعالم المميزة للنموذج الثقافى الإسلامى عن النموذج الغربى - دون أن يعنى ذلك إنكار ميادين المشترك الإنسانى العام فى العديد من العلوم والمعارف التى لا تدخل حقائقها وقوانينها وثمرات معارفها وتجاربها فى «المميز للذات الثقافية»، وإنما تدخل فى «الجامع» الذى تتفاعل فيه وتتشارك «الذوات الثقافية» للإنسانية جمعاء.

فالإسلام هو المكون لذاتيتنا الثقافية، والمحدد لمعالم نموذجنا الثقافى، وتميزنا عن «الآخر» الغربى قائم فقط حيث يكون التمييز والافتراق؛ الأمر الذى يجعل علاقة نموذجنا الثقافى - الذات الثقافية - بالآخر هى علاقة «التمييز» والتفاعل»، التى هى وسط عدل متوازن بين غلوتين: غلو الإفراط، الذى يرى هذه العلاقة علاقة «قطيعة»، وتضاد... وغلو التفريط، الذى يرى هذه العلاقة علاقة «مماثلة»، ومحاكاة».

فكما تميز «البصمة» الإنسان عن بنى جنسه، مع اشتراكه معهم فى جنس الإنسان، كذلك تتميز الذات الثقافية للأمة عن الذوات الثقافية الأخرى بتمييز النماذج التى يجمع كل منها معالم المغايرة والسمات الفارقة لنموذج ثقافى عن سواء، وذلك دون إنكار أو إغفال لميادين الاشتراك الإنسانى فى كثير من حقائق وقوانين الكثير من التجارب والخبرات والعلوم والفنون.

لقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن تختص ذاته وتتفرد بالواحدية التى لا تعدد فيها ولا تركيب، وأن تقوم سائر المخلوقات على التعدد والتنوع والاختلاف، وأن يكون هذا التنوع عامّاً فى عوالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان والأفكار.

وليس كالنموذج والقذوة والأسوة. معايير للتمييز فى عالم الثقافات والأفكار والحضارات.. إنه المدخل والمعيان لتمييز «الذات» عن «الآخر».. ولإدراك ما بين «الذات» و«الآخر» من تميز أو اشتراك.

النموذج الثقافي .. ماذا يعنى؟

«النموذج» هو التصور والمثال الذى يتحول إلى «معيان» فارق ومميز - فى النسق الفكرى - لمنظومة فكرية أو عقيدية أو حضارية أو ثقافية عن غيرها من المنظومات المتميزة - هى الأخرى - فى النموذج والتصور والمثال.

و«الثقافى» هو جماع ما يعمر النفس الإنسانية ويصوغها ويهذبها من سائر ألوان الإبداع والعطاء.. إبداع الإنسان، وعطاء المحيط، وهو - «الثقافى» - مع «المدنى» - الذى هو جماع ما يتجدد به ويعمر الواقع المادى، ويرتقى ويتهذب - يمثلان جماع «الحضارة» و«العمران»، فالثقافة عمران النفس الإنسانية، والتمدن عمران الواقع المادى؛ ولذلك كان الاشتراك الإنسانى، فى «التمدن» - أى فى عمران الواقع المادى - أكثر مما هو فى «الثقافة» التى هى عمران النفس الإنسانية؛ إذ فيها تتجلى الخصوصيات بين الأمم والحضارات، لاستعصاء النفس، ومن ثم مقومات تهذيبها وعمرانها، على النمطية والقولية والتكرار الوارد فى عمران الواقع المادى.

ولأن الإسلام - كمنظومة عقيدية، تكوّن من حولها نسق فكرى - قد مثل «الرحم» الذى ولدت منه الأمة الواحدة.. والدولة الواحدة.. والدار الواحدة.. والصيغة التى صبغت حضارة الأمة وميزتها، عبر الزمان والمكان.. وذلك فضلاً عن الوحدة فى العقيدة والشرعة، حتى لكأنما قد خرجت أمته من بين دفتى قرآنه الكريم؛ لأن هذه هى المكانة المحورية للإسلام فى حياة الأمة، فلقد صاغ الإسلام إنسان هذه الأمة، وحدد له معالم الطريق لبناء العمران الدنيوى، ولضمان النجاة الأخروية صاغ الإسلام لإنسانه وأمته المعايير التى لوّنت الثقافة التى نهضت بمهام العمران والتهذيب للإنسان المسلم، إن فى لحظات التزامه بالنموذج والمعيان والمثال والتصور، وإن فى لحظات انحرافه عنه؛ لأن «الضمير» الذى

صاغه النموذج الإسلامي يظل واعياً بأن الانحراف عن هذا النموذج هو الاستثناء الشاذ والحرام الذي ينتقص من تهذيب النفس وعمرانها؛ أي من ثقافتها التي لا بد وأن تلتزم التصور، وتتغيا المثال.

تلك هي مكانة الإسلام في صياغة النموذج الثقافي للأمة.

ولعل الإسلام قد بلغ على هذا الدرب - درب صياغة النموذج الثقافي للأمة الإسلامية - وصيفه بصيغته - أكثر من المنظومات العقدية والفكرية الأخرى، دينية كانت أو وضعية؛ لأن الدين في تلك المنظومات الأخرى قد وقف - في الغالب - عند مهام «خلاص الروح» و«مملكة السماء» دون الشؤون الحياتية والدنيوية. بينما توجهت المنظومات الوضعية إلى «شئون الدنيا» دون سواها. أما الإسلام، الذي مثل متهاجراً شاملاً وجامعاً للروح والجسد، للفكر والمادة، للدين والدولة، لعالم الغيب وعالم الشهادة، للدنيا والآخرة، للذات والآخر، للفرد والطبقة والأمة، للتكاليف الفردية والكفائية (الاجتماعية)، حتى لقد جعل الاستمتاع الحلال بزينة الدنيا وطيبات الحياة عبادة لله، وضئف إمطة الأذى عن الطريق في شعب الإيمان!

إن الإسلام الذي مثل بمنهاجه الشامل هذا الروح السارية في الحياة الإنسانية، وفي محيطها الطبيعي، وفيما وراء الحياة والطبيعة، قد بلغ - في صبح الثقافة الإسلامية بصيغته المتميزة - الدرجات التي لم تبلغها المنظومات العقدية الأخرى.. لقد صاغ النموذج والمثال والتصور والمعياري الذي كان التزامه من قبل الإنسان المسلم السبيل لأسلمة الثقافة التي صاغت النفس المسلمة.

وحتى الأعراف - التي لم يصنعها الإسلام - رأينا يضبطها، ثم يجعلها مصدراً من مصادر التشريع، وحتى «الحكمة» التي هي الصواب البشري الذي يصل إليه العقل الإنساني، رأينا الإسلام يجعلها مناهجاً للتكليف الشرعي، ويحدثنا عن أنها - كالكتاب - كلاهما تنزيل إلهي: ﴿كُنَّا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٢٩].

لقد كانت الصناعة الثقيلة للإسلام هي تغيير النفس الإنسانية، وصياغتها صياغة إسلامية؛ أي تهذيبها وتعميرها تهذيباً وعمراناً إسلامياً، وذلك لتصوغ هذه النفس - بعد أسلمتها - واقعها المادي صياغة إسلامية كذلك؛ أي ليقوم العمران الإسلامي، في النفس والواقع، أي في الثقافة والتعدن - وهما جماع

الحضارة - وذلك حتى تتحقق المقاصد الإلهية من وراء خلق الإنسان واستخلافه في الأرض لاستعمارها وعمرائها ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فالإسلام هو صانع وصانع هذا النموذج الثقافي للأمة الإسلامية التي تصوغ - وفقاً لمعاييرها - تمدن واقعها الدنيوي، فيتحقق بذلك النموذج الإسلامي في الحياة.



من أين تأتي معارف الإنسان؟

لقد أقام الغرب نهضته الثقافية الحديثة والمعاصرة على «المذهب الوضعي» وذلك إبان ثورة فلسفة التنوير الأوربية على الكنيسة والمقدس واللاهوت والوضعية: هي المذهب الذي يرى أن الفكر الإنساني لا يمكن أن يسمى علماً ولا معرفة حقيقية إلا إذا كان مصدره الواقع.. فالظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين، هي مصدر المعرفة الحقّة والحقيقية، فالحق هو تصرة التجربة، وحتى العقل، فليس له من عمل إلا مجرد تنسيق معطيات التجربة وتنظيمها.. والمثل الأعلى - في الثقافة الوضعية الغربية - لليقين المعرفي هو للعلوم التجريبية.. أما غير الظواهر المحسوسة فوهم؛ ولذلك رأى المذهب الوضعي وفلاسفته أن تاريخ العقل قد مر بحالات ثلاث: الحالة اللاهوتية.. ثم الحالة الميتافيزيقية.. ثم الحالة الواقعية الوضعية التي تأسس عليها النموذج الثقافي لعصر النهضة الأوربية.

فالفلسفة الوضعية الغربية - ومن ثم نموذجهما الثقافي الذي شاع في كل أرجاء الحضارة الأوربية - قد أقامت المعرفة على مصدر واحد هو الواقع المادي، وحقائق عالم الشهادة؛ لأنها جاءت ثمرة للتنوير الأوربي الذي أجل العقل والعلم والفلسفة محل الله والدين واللاهوت، والذي اعتبر أن المرحلة اللاهوتية من مراحل تطور العقل البشري هي مرحلة طفولة هذا العقل، تجاوزها إلى المرحلة الميتافيزيقية، ثم إلى المرحلة الواقعية والمادية.. فالكون والواقع هما المصدر الحق للمعرفة الحقّة.

لكن التصور الإسلامي لم يقف بمصادر المعرفة عند العالم والكون وحدهما.. وأيضاً لم يهمل هذا الكون أو يخرج من نطاق مصادر المعرفة والعلوم.. وإنما جاء حديث القرآن الكريم عن أن هذا المصدر الكوني لا يقف وحده بتفسير حقائق

المعرفة، عبر تاريخ المعارف الإنسانية.. فقال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)،
 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ يَتفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ
 اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ
 لَكَافِرُونَ (٨) أُولَئِكَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ
 قُوَّةً وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
 وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿[الروم: ٦ - ١١].

فبمعارف ظاهري الحياة الدنيا وعالم الشهادة - الوضعية - وحدها، لا سبيل
 إلى معارف خلق الله السموات والأرض وما بينهما وحقائقها.. ومعارف لقاء الله
 في الدار الآخرة بعد هذه الحياة الدنيا.. ولا سبيل إلى تفسير عاقبة الأمم التي
 أخذها الله بذنوب تكذيبهم الرسل، وظلمهم لأنفسهم، مع ما كانوا عليه من قوة
 وعمران، لا يفسر هلاكهما بمعارف الواقع المادي وحدها.

لا سبيل إلى تفسير هذه العواقب - التي تحدث عنها الوحي الإلهي - بمعارف
 عالم الشهادة وحدها.. فنحن هنا أمام سنن غير معتادة، لا سبيل إلى معرفتها
 بحقائق الواقع المادي وحدها.

ولذلك، فإن النموذج الثقافي الإسلامي، في مصادر المعرفة، وإن لم يهمل
 عالم الشهادة والواقع المادي، كمصدر للمعرفة، فإنه لم يكتف بهذا المصدر، وإنما
 أضاف إليه عالم الغيب، ونبأ السماء، وكتاب الوحي، والأدلة والمعارف والحقائق
 السمعية. مصدراً للمعارف التي لا تصدر عن الواقع المادي، ولا يستقل العقل
 بإدراكها، ولا تخضع لتجارب الحواس.. فأقام هذا النموذج الثقافي الإسلامي
 ثقافته على ساقين اثنتين. واعتمد للمعارف مصدرين. كتاب الوحي المسطور،
 وكتاب الكون المنظور، الأمر الذي ضمن التوازن لهذا النموذج الثقافي الإسلامي
 وذلك بدلاً من إقامته على ساق واحدة، كما هو الحال في النموذج الثقافي الذي
 أثمرته الوضعية الغربية.

بل لقد اعتبر القرآن الكريم أن هؤلاء الذين لا يعتمدون للمعرفة إلا كتاب
 الكون، إنما يقفون بعلمهم عند «ظواهر الحياة الدنيا»، مغفلين معارف الوحي
 والغيب ونبأ السماء، وما لا تدركه العقول والحواس: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٦)،
 يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿[الروم: ٦، ٧].

فالإسلام - ونموذجه الثقافي والفلسفي - لم يبخس الكون والعالم والواقع حقه - كمصدر للمعرفة - ولكنه لم يكتف به وحده مصدراً للمعرفة، وإنما أضاف إليه آيات الوحي الإلهي لتتضمن إلى آيات الله في الأنفس والآفاق.

وكذلك كان حال التصور الإسلامي مع سبل المعرفة وأدواتها.. فعلى حين وقفت الفلسفة الوضعية عند «العقل»، و«التجربة» - كسبل للمعرفة - وجدنا الإسلام يضيف إليهما «النقل» و«الوجدان» - وهي السبل التي سماها الإمام محمد عبده «الهدايات الأربع» التي تتعاون وتتساند وتتفاعل لتجعل للثقافة الإنسانية التوازن الجامع بين «العقل»، و«القلب»، وبين «التجارب المحسوسة» وبين «نبأ السماء».

علاقة المعارف بالإسلام

في العقود الأخيرة عقدت الكثير من المؤتمرات، بل وقامت عدة مؤسسات تدعو إلى «إسلامية المعرفة» وعلى الرغم من أبحاث ومناقشات هذه المؤتمرات، وجهود هذه المؤسسات لا تزال هذه الدعوة محاطة بكثير من الغموض.. وقوق ذلك تأثير الكثير من الجدل بين أنصارها وخصومها.. حتى ليكشف هذا الجدل - وتلك هي المفارقة الأكبر - أنها غير مفهومة على النحو الجيد عند كثيرين من هؤلاء الخصوم والأنصار على حد سواء!

فالبعض - من خصوم إسلامية المعرفة - يظن أنها تعنى الدعوة لاكتفاء المسلمين بعلوم حضارتهم عن علوم الحضارات الأخرى، بل والحكم «بكفر» علوم تلك الحضارات! والبعض - من رافعي شعارات إسلامية المعرفة - يكتفون - في تقديم نماذجها - بنقل نظريات العلوم الغربية - الاجتماعية والإنسانية والطبيعية - وينثرون عليها مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ثم يقدمونها إلى القراء، على أنها هي «المعرفة الإسلامية»!

لذلك، كانت ولا تزال هذه القضية في حاجة إلى الجلاء الذي ينصف حقيقتها من ظلم كثير من الخصوم والأنصار على حد سواء!

وإذا نحن شئنا تعريفاً - بسيطاً.. ودقيقاً.. ووافياً - لإسلامية المعرفة أو للتأصيل الإسلامي للمعرفة - فإننا نستطيع أن نقول: إنها الإيمان بوجود علاقة ما بين المعارف والعلوم التي يكتسبها الإنسان وبين الإسلام الذي يتدين به هذا الإنسان، الذي يكتسب هذه المعارف ويحصل هذه العلوم.. وذلك انطلاقاً من تأثيرات عقائد الدين وأحكام شريعته ومعايير التدين به على العادات والتقاليد والأعراف والمواريث والآداب والفنون التي صاغت وتصوغ «النموذج الثقافي» لهذا الإنسان الذي يخوض ميادين البحث والاكتساب للمعارف والعلوم فالمعتقد الديني يلون نظرة الإنسان للحياة، ويطبع فلسفة رؤيته للكون، ويؤثر

فى تحديد مقاصده من وراء العلاقات الاجتماعية، وينهض بدور رئيسى فى تحديد معايير الحلال والحرام، والمقبول والمرفوض، والولاء والبراء، والانتماء والمقارفة، وقسمات «الذات» وقسمات «الآخر» إلخ.. إلخ.. ومن ثم يسهم هذا المعتقد الدينى فى تمييز الثقافة التى تمثل المعارف والعلوم أبرز قطاعاتها وأخطر ميادينها.

وإذا كان التصنيف الموضوعى للمعارف والعلوم يميز - انطلاقاً من موضوعات مباحث هذه المعارف والعلوم - بين:

■ العلوم الشرعية.. ومن ثم علوم العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن الكريم وعلومه.. والحديث النبوى الشريف وعلومه.. إلخ.

■ والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. من مثل الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والفلسفة، والنفس، والآداب والفنون... إلخ.

■ والعلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة - من مثل علوم الفيزياء، والكيمياء، والفلك، وطبقات الأرض، والهندسة، والطب، والصيدلة، والرياضيات.. إلخ.

إذا كان تصنيف العلوم - تبعاً لتمييز موضوعات هذه العلوم - لا يضع كل هذه العلوم فى خانة واحدة.. فإن نوعية ونسبة العلاقة بين الدين وبين المعارف والعلوم تتمايز وتختلف هى الأخرى.. فنسبة العلاقة - أى نسبة إسلامية المعارف والعلوم - بين الدين وبين العلوم الشرعية عميقة وعالية وشاملة وكلية ومحيطية؛ لأن الشرع والوحي والدين - أى الوضع الإلهى المطلق - هو موضوع هذه العلوم الشرعية، حتى لتسمى هذه العلوم: علوماً شرعية ومعارف دينية بإطلاق وتعميم، ودونما خلاف على هذه التسمية بين أحد من العلماء والباحثين.. حتى إن الاجتهاد البشرى فيها، والفكر الإنسانى فى ميادينها - أى المعرفة الإنسانية المكتسبة فى علومها - محكومة بثوابتها وأحكامها وقواعدها ومبادئها التى هى وضع إلهى ثابت، ووحى سماوى خالص يمثل الإطار الحاكم لأى تفكير أو اجتهاد وتجديد فى هذه المعارف والعلوم.

فإسلامية معارف العلوم الشرعية كاملة وشاملة.. كما أن مسيحية اللاهوت النصرانى كاملة وشاملة.. وكما هو الحال مع مادية المعارف الماركسية تماماً!

فلا خلاف على العلاقة العضوية، والعروة الوثقى بين الإسلام وبين معارف العلوم الشرعية.. لكن حال هذه العلاقة، ودرجة هذه الأسلمة تختلف إذا كان الحديث عن معارف العلوم الاجتماعية والإنسانية.. وفى حال العلوم الطبيعية أيضاً.



الإسلام وفلسفة العلوم

الدين الإسلامي - وهو وحى الله - سبحانه وتعالى - وتباً السماء العظيم - هو موضوع العلوم الشرعية الإسلامية - العقيدة وأصولها.. والفقه وأصوله.. والقرآن وعلومه.. والسنة وعلومها... إلخ،... إلخ؛ فغاية هذه العلوم هي إقامة الإسلام.. ومن ثم فدرجة الإسلامية في معارف هذه العلوم كاملة.. وليس على هذه الإسلامية للمعارف الشرعية خلاف بين العقلاء.

لكن حال علاقة الإسلام بمعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية تختلف عن حال علاقته بهذه العلوم الشرعية؛ أى إن نسبة إسلامية المعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية - اقتصاداً، واجتماعاً وسياسة، وفلسفة، ونفساً، وآداباً وقانوناً... إلخ - ليست كاملة ولا شاملة ولا متطابقة؛ لأن موضوع هذه العلوم الإنسانية ليس هو دين الإسلام، وإنما هو النفس الإنسانية التي ليست ديناً خالصاً، لكن تجاربها وخبراتها واختياراتها وفلسفاتها وأحلامها وأشواقها تتأثر وتتلون وتنطبع بعقائد الدين ومبادئه وأحكامه وفلسفته في التشريع.. فمتناهج وتجارب وحقائق ومقاصد هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية موضوعها النفس الإنسانية - على المستوى الفردى والاجتماعى - ولأن هذه النفس الإنسانية قد اضططبت وتأثرت وتلونت بعقائد المطلق الدينى، ومعايير الحلال والحرام الشرعية، وصاغتها العادات والتقاليد والأعراف والمواثيق المصطنعة أو المتأثرة بمطلقات الدين.. وأيضاً، لتتووع وتعقد عوالم النفس الإنسانية، وفراة واختلاف تجاربها الاجتماعية والروحية والفنية، كان تلون وتمايز المعارف الإنسانية في ميادين هذه العلوم.. فمهما بلغت ضوابط موضوعيتها تظل مستعصية على الحياد الذى تتميز به حقائق وقوانين ومعارف العلوم المادية - الطبيعية - ومن هنا فإن نسبة الإسلامية لمعارف العلوم الإنسانية والاجتماعية هي حقيقة لا يمارى فيها العقلاء.. وإن كانت درجتها أقل من إسلامية العلوم الشرعية

بل إن تأثيرات المعتقد الديني تظل قاعلة في نفوس الذين مرقوا من الدين وألحدوا فيه. تظل - كما يقول جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] كأثر الجرح المتقدم فإذا هم مرقوا من روحانية الدين وغيبياته ومناسكه وشعائره، تظل فيهم ثقافته وعاداته وعصبيته... وحتى إذا فارقهم الحب له، فسيظل الكره له شاعلاً لنفوس هؤلاء الملحدين فيه.

فالعروة وثقى، إلى حد كبير، بين المطلق الديني وبين النسبي الإنساني في معارف العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ويلي هذه العلوم الإنسانية والاجتماعية، في العلاقة بالمطلق الديني، حقائق ومعارف وقوانين العلوم الطبيعية.. ففي هذه العلوم - التي تمثل المادة موضوعاتها - يكون الحياء كاملاً، والموضوعية تامة في الحقائق والمعارف والقوانين المستخلصة من التجارب في موضوعات هذه العلوم.. فحقائق تجارب الطب والوراثة والفيزياء والكيمياء والفلك وتطبيقات الأرض.. إلخ موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية.. وما التطور فيها والتراكم المعرفي والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب في ميادين هذه العلوم.

فلا أسلمة على الإطلاق في الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما تأتي الأسلمة - فقط - في توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين - على المستوى الفردي والاجتماعي - يضبط توظيف هذه الحقائق المحايدة بأخلاقيات الدين وقيمه، لتحقيق مقاصد الشرعية، بينما الانفلات من الدين قد يوظفها فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلاً - لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعتها.. لكن هذه العقائد هي التي تحدد اختيارات وتضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة.. فالبعض يوظفها لاستثمار العنب كي يكون خمرًا، والبعض يقف بوظائفها - في زراعة العنب - عند الطيب الحلال.

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهي ثابتة ومحايده - تقف العقائد عند حدود ضوابط وظائفها. فالبعض يشوه بها خلق الله، ويخلط بها الأنساب... بينما تضبط الأسلمة وظائفها وتطبيقاتها بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين، وقيم الإيمان الديني.

قياسامية المعرفة - أي العلاقة بين المطلق الديني وبين المعارف الإنسانية النسبية - قائمة دائماً وأبداً. لكن نسبتها وميادينها هي التي تتفاوت وتختلف - في الدرجة - وذلك باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية. فهي عالية جداً في العلوم الشرعية، وكبيرة في العلوم الإنسانية، وواقفة في العلوم الطبيعية عند فلسفات تطبيقات قوانين هذه العلوم.



عن إسلامية المعارف والعلوم (١)

بعض الخبيثاء - وبعض الجهلاء - يحاولون تشويه قضية إسلامية المعرفة، وعلاقة الإسلام بالمعارف والعلوم بادعاء أن هذه الإسلامية تعنى وجود «كيمياء مسلمة» وأخرى «كافرة».. وتعنى وجود «فيزياء مسلمة» وأخرى «كافرة».. وهكذا فى سائر العلوم الطبيعية.

بينما الذى تعارف عليه، ويلج عليه دعاة إسلامية المعرفة، هو أن الإسلامية أى علاقة الإسلام بمعارف وقوانين وحقائق العلوم الطبيعية لا تعدو ضبط فلسفات ومقاصد تطبيقاتها بأخلاقيات الإسلام فى الاجتماع والعمران.

ذلك أن حقائق تجارب علوم من مثل الفيزياء والكيمياء والطب والوراثة والفلك وطبقات الأرض... إلخ، هى حقائق موضوعية وثابتة ثبات موضوعاتها المادية، وما التطور فيها والتراكم المعرفى والتجديدات والإضافات إلا ثمرات لنمو القدرات الإنسانية على سبر أغوارها، والتقدم على درب كشف أسرارها، وليست نابعة من اختلاف أو تمايز ديانات وعقائد وفلسفات وثقافات القائمين على البحث والتجريب فى ميادين هذه العلوم.. فلا أسلمة على الإطلاق فى الحقائق والقوانين والمعارف المستخلصة من التجارب العلمية على مواد وموضوعات هذه العلوم الطبيعية.. وإنما ترد الأسلمة - فقط - فى توظيف هذه الحقائق المحايدة، والقوانين الموضوعية.. فالتدين - على المستوى الفردى والاجتماعى - يضبط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة بأخلاقيات الدين وقيمه فى الاجتماع والعمران، لتحقيق مقاصده الشرعية ومثله الإلهية، بينما الانفلات العلمى من الدين قد يوظف هذه الحقائق العلمية فيما يخالف أحكام الدين.

فحقائق تجارب زراعة العنب - مثلاً - لا تختلف باختلاف عقائد القائمين بزراعته، لكن هذه العقائد هى التى تحدد وتضبط اختيارات الزارعين لهذا العنب..

أى تضبط توظيفهم لحقائق علم زراعة العنب.. فالبعض قد يوظفها للاستثمار الأكثر ربحاً، وفق قواعد المنفعة الدنيوية البحتة، فيرى فى جعل العنب خمرًا التوظيف المختار لحقائق علم زراعته.. بينما يقف البعض - انطلاقاً من أخلاقيات الدين وقيمه وأحكامه - عند توظيف ثمرات علم زراعة العنب فى الطيب الحلال، حاكماً وظيفة العلم الطبيعى بأخلاقيات الدين.

وكذلك الحال مع حقائق وقوانين علوم الوراثة والجينات - وهى ثابتة، لا تتغير بتغير عقائد علمائها - تقف العقائد عند حدود ضوابط توظيف هذه الحقائق العلمية المحايدة. فالبعض يوظفها - إذا كان منفصلاً من ضوابط الدين - فى تشويه خلق الله، وخلق الأنساب.. بينما تضبط الأسلمة وظائف وتطبيقات هذه العلوم المحايدة بمقاصد الشريعة الإلهية، وأخلاقيات الدين.

ومثل ذلك علوم الطاقة الذرية. تلك التى يدرسها المسلم على يد اليهودى، ويتلمذ فيها النصرانى على يد الملحد، ويأخذها الشرقى عن الغربى.. والتى تتميز حقائقها وقوانينها بالثبات والتكرار. فلا أثر للإسلامية ولا للقيم الدينية فى تلوين الحقائق واختلاف المعارف بهذه العلوم.. وإنما تتدخل الإسلامى والقيم الدينية - فقط - فى وظائف وتطبيقات هذه العلوم؛ أى إن التمايز - بين الإسلامى وعدمها - يأتى فى فلسفة المقاصد من وراء التوظيف والتطبيق. فالبعض - من اللادينيين.. أو الذين لا يحتكمون إلا إلى المنفعة الدنيوية البحتة - يوظف ثمرات هذه العلوم الذرية فى الخراب والدمار.. بينما تقف بها التطبيقات المضبوطة بالإسلام وقيمه عند العلاج والبناء والتعمير.

فالأسلمة للمعرفة، فى ميادين العلوم الطبيعية - الدقيقة والمحايدة - لا دخل لها ولا تأثير فى حقائق وقوانين هذه العلوم.. وعلاقتها بهذه العلوم خاصة - فقط - بفلسفة توظيف الحقائق والقوانين المحايدة.. وبمقاصد هذا التوظيف، فقط لا غير.

وهكذا.. فإن إسلامية المعرفة - بمعنى العلاقة بين «المطلق الدينى» والوضع الإلهى الثابت، وبين المعارف الإنسانية التى هى كسبية ونسبية؛ هذه العلاقة قائمة دائماً وأبداً. لكن نسبة هذه العلاقة، وميادينها هى التى تتفاوت وتختلف - فى الدرجة - وذلك باختلاف حقول وموضوعات المعارف الإنسانية.

فنسبة الأسلمة للمعارف والعلوم عالية جداً في العلوم الشرعية؛ لأن الإسلام - الدين - هو موضوع هذه العلوم. ونسبة هذه الأسلمة كبيرة في العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ لأن كون موضوع هذه العلوم النفس الإنسانية يحد من حياد وموضوعية حقائقها، ويفتح الباب واسعاً لعلاقة الدين بحقائقها ومعارفها. بينما تقف الإسلامية والأسلمة - في العلوم الطبيعية، الدقيقة والمحايمة - عند فلسفة التوظيف والتطبيق للحقائق المحايمة في هذه العلوم، وذلك عندما تضبط وتحكم تطبيقاتها ووظائفها بمقاصد الإسلام

عن إسلامية المعارف والعلوم (٢)

إذا كانت إسلامية المعرفة لا تعنى أكثر من إدراك العلاقة بين دين الإسلام - بضوابط قيمه وأحكامه ومنظومة أخلاقه - وبين المعارف الإنسانية - المكتسبة والنسبية - وذلك على نحو متفاوت ومتدرج يتفاوت أصناف المعارف والعلوم حيث تكون نسبة الأسلمة عالية وشاملة في العلوم الشرعية - لأن الدين هو موضوعها - وحيث تكون نسبة الأسلمة كبيرة وملحوظة في العلوم الإنسانية والاجتماعية - لأن النفس الإنسانية هي موضوعها - بينما تقف نسبة الأسلمة في العلوم الطبيعية عند فلسفة تطبيقاتها وتوظيف حقائقها المحايدة.

إذا كانت هذه هي حقيقة إسلامية المعرفة - التي تبدو يديهة من اليديهييات - فإن إنكار هذه الإسلامية يبدو أمراً غريباً، خصوصاً في إطار الإسلام الذي يكاد الإجماع أن يتعقد على أنه منهاج حياتي شامل، ومن ثم فإن علاقاته ملحوظة - وإن تفاوتت - بمختلف ألوان المعارف والعلوم.

لكن العجب يتزايد أكثر وأكثر عندما نرى أن المنكرين لوجود علاقة للإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية لا ينكرون وجود علاقات للفلسفات والأنساق والمرجعيات الفكرية غير الإسلامية بذات المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية!!

■ فلا أحد ينكر وجود فلسفة مادية؛ أي وجود علاقات وثمرات وتأثيرات للنزعة المادية والتمهيج والمعتقد المادي في تميز نسق فلسفي - أي علم اجتماعي - بالصبغة المادية .. فلم يكون الإنكار والاستنكار - فقط - للعلاقات والتأثيرات بين الإيمان والنزعة الإيمانية الإسلامية وبين الفلسفة، على النحو الذي يثمر معرفة فلسفية إسلامية مؤمنة^{١٨}، أم إن «حلال المادية» حرام على «الإيمانية»، عند المنكرين لإسلامية المعرفة^{١٩}!

■ ولا أحد ينكر وجود فلسفة وضعية، تقف بحقائق العلم عند الواقع وقوانينه ومعارفه.. فلم يكن الإنكار لتمييز معرفي يحدثه العالم والعارف إذا هو أضاف إلى «آيات الكون» «آيات الوحي».. وضم إلى معارف الواقع المادي نبأ السماء عن المغيبات التي لا يستقل بإدراكها عقل الإنسان وتجاربه الحسية؟ أم أن تأثير «الواقع» في الفلسفة أمر مقبول.. وتأثير «الدين» في هذه الفلسفة هو وحده المرفوض؟

■ ولا أحد قد أنكر أو استنكر وجود «علم اجتماع ماركسي» تلون بالفلسفة المادية الماركسية - المادية الجدلية، والمادية التاريخية - وبالمقاصد الشيوعية في إقامة مجتمع البروليتاريا اللاتقي.. فلم يكن الإنكار والاستنكار - فقط - لوجود «علم اجتماع إسلامي»، كثمرة لعلاقة الإسلام بمناهج وحقائق هذا العلم في عقول ومجتمعات المتدينين بالإسلام، وكثمرة لإعمال سنن الله وقوانينه في الاجتماع وال عمران؟

■ بل لقد قبل الذين ينكرون ويستنكرون إسلامية المعرفة وجود علم اجتماع للاهوت التحرير - أي التفسير الاجتماعي للإنجيل، المنحاز إلى الفقراء، في الأوساط الكاثوليكية بأمريكا اللاتينية - بل وحاول بعضهم استلهاهم وتوظيف هذا اللون من الفلسفة في العلوم الاجتماعية بواقعنا الإسلامي.

فلم يستنكر هذا البعض الصيغة الإسلامية في علم اجتماع إسلامي؟ أم إن تأثير «لاهوت التحرير» في علم اجتماع أمريكا اللاتينية خلال، وتأثير الإسلام في علم الاجتماع عندنا حرام؟

■ ولا أحد ينكر ولا يستنكر ما قرره «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م] عن علاقة البروتستانتية بالرأسمالية - فلسفة واقتصادًا واجتماعًا - بل لقد غدا هذا الذي قاله «ماكس فيبر» إحدى المسلمات عند الذين ينكرون ويستنكرون وجود علاقة بين الدين الإسلامي وبين وجود فلسفة واجتماع واقتصاد متميزة معارفها بالإسلام، ومصطبغة بفلسفة الإسلام المتميزة في علاقة المسلم - فردًا ومجتمعًا - بالتروات والأموال.. وذلك انطلاقًا من نظرية الخلافة والاستخلاف الحاكمة للعلاقة بين المالك الحقيقي للثروة - وهو الله سبحانه وتعالى - وبين الخليفة والنائب والوكيل - وهو الإنسان مالك المنفعة - في التروات والأموال.

فلم يكن «حلال» البروتستانتية - الذي قرره «ماكس فيبر» - رغم أن هذه البروتستانتية تدع ما لقيصر لقيصر، ولا تجعله لله - لم يكن «حلالها» هذا «حراماً» على الإسلام - رغم منهاجه الشامل للدين والدنيا، بل والدنيا والآخرة - ورغم تقرير القرآن الكريم لفلسفة متميزة في علاقة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - بالثروات والأموال؟

إن العجيب.. والغريب.. والذي يستحق كل الإنكار والاستنكار هو أمر هؤلاء المنكرين لإسلامية المعرفة.. فهم - مثل قوى الاستكبار في الحضارة التي اتخذوها لهم مرجعية - قد افتقدوا الاتساق في المعايير التي يصدرون بناء عليها المواقف والآراء والأحكام!



عن إسلامية المعارف والعلوم (٣)

إذا كان «التغريب» هو الداء الذي صنع ويصنع ذلك الشذوذ الفكرى الغريب، لدى الذين يقبلون بتأثيرات البروتستانتية فى فلسفة الليبرالية.. بينما ينكرون إسلامية المعرفة الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية كثمرة لتأثيرات الإسلام فى الاجتماع والعمران.

ومثلهم أولئك الذين قبلوا ويقبلون تأثيرات المادية فى الفلسفة والاجتماع الماركسى.. ومع ذلك ينكرون ويستنكرون تأثير الإيمان الإسلامى فى أسلمة المعارف الاجتماعية الإسلامية.

إذا كان «التغريب» هو الداء الذى صنع هذا الشذوذ الفكرى.. فلقد يكون مفيداً فى علاج هؤلاء المرضى - الذين لا يستشهدون إلا بكل ما هو غربى.. ولا يحتاجون إلا بما هو غربى.. ولا يسلّمون إلا بما هو غربى - قد يكون مفيداً فى علاج مرضهم هذا - الغربى الغريب! - أن نلجأ إلى «الصيدلية الغربية» لتأتى منها بعلاج لهذا المرض الذى بلغ بهم هذا الحال الشاذ والعجيب.

■ فالمستشرق الإيطالى «كارل نلّينو» [١٨٧٢ - ١٩٣٨ م] قد كتب دراسة عن «محاولة المسلمين إيجاد فلسفة شرقية» أثبت فيها أن للإسلام علاقة بالفلسفة، وأن هذه العلاقة - وذلك التأثير - هو الذى ميز هذه الفلسفة الإسلامية عن الفلسفة اليونانية: أى إن هناك - برأى هذا المستشرق - إسلامية للمعرفة الفلسفية فى حضارة الإسلام ومعارف المسلمين.

■ والمستشرق الإنجليزى «ألفريد جيوم» يؤكد على أن الوسطية الإسلامية، التى جعلت الإسلام يؤلف بين العقل والنقل، ويواخى بين الحكمة والشريعة، قد صبغت الفلسفة الإسلامية بهذه الصبغة المتميزة.. فتميزت المعرفة الفلسفية الإسلامية بسمّة التدين، وامتازت بهذه السمة عن الفلسفات الأخرى التى انحازت

إلى العقلانية الفادية المجردة - وحدها - أو إلى المثالية الباطنية الخالصة - وحدها - فأصبح للإسلام - كما يقول «جيوم» - «فلسفة متطرفة.. تُدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية».. فلقد أثمر الإسلام معرفة إسلامية في هذا العلم الاجتماعي - الفلسفة -.

■ والمستشرق الفرنسي «سانتيلانا» [١٨٤٥ - ١٩٣١م] - وهو حجة في القانون الروماني وفي الفقه الإسلامي - يؤكد على علاقة التزعة الدنيوية الغربية بالطابع النفعي الدنيوي للقانون الروماني.. وعلى علاقة الوسطية الإسلامية - الجامعة بين الدنيا والآخرة - يتميز القانون الإسلامي وفقه المعاملات الإسلامي، عندما ارتبطت فيه كل مسألة قانونية بالضمير الديني والمقصد الأخلاقي؛ أي إن هناك تأثيراً للإسلام في المعرفة القانونية - وهي علم اجتماعي - وإسلامية للمعرفة القانونية في حضارة الإسلام.. يؤكد «سانتيلانا» على هذه الحقيقة المعرفية التي مايزت بين القانون الإسلامي وبين القانون الروماني - فجعلت الأول إسلامياً، والثاني علمانياً - فيقول: «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا وإلى الأسلاف [في الحضارة الغربية] مجموعة من القوانين السائدة التي أقرها الشعب، إما رأساً أو عن طريق ممثله، وسلطانه مستمد من الإرادة والإدراك وأخلاق البشر وعاداتهم.. إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك.. فالخضوع للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمة لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترب خطيئة دينية أيضاً، فالنظام القضائي والدين، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه، فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، والصيغة الأخلاقية تسود القانون لتوحد بين القواعد القانونية والتعاليم الأخلاقية توحيداً تاماً، والأخلاق والآداب في كل مسألة ترسم حدود القانون، فالشريعة الإسلامية شريعة دينية، تغاير أفكارنا أصلاً».

فالدين الإسلامي وشريعته الإلهية قد صيغت القانون الإسلامي بصيغة ميزته عن القانون الروماني؛ أي إننا بإزاء إسلامية للمعرفة في هذا العلم الاجتماعي - علم القانون وفقه المعاملات - يؤكد عليها هذا المستشرق الكبير.

فهل تجدى هذه الشهادات الغربية - بحسبانها «روشتات» من «الصيدلية - الغربية» - لعلاج ذلك المرض التغريبي الشأن، الذي جعل نفراً من مثقفينا يقبلون بوجود العلاقات بين مختلف الفلسفات والمرجعيات الفكرية - وبعضها ديانات - وبين المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية.. اللهم إلا إذا كان الأمر بإزاء الإسلام، فإنهم ينكرون ويستنكرون أية علاقة له بالمعارف والعلوم! إن علاقة الإسلام - كدين، وفلسفة في رؤية الكون، والبدء، والمسيرة.. والمضير.. والحكمة من وراء الخلق.. ومكانة الإنسان في هذا الوجود - إن علاقة هذا الإسلام بالمعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية هي بديهية من البديهيات.. يشهد عليها نفر من علماء الغرب.. فهل يراجع الموقف منها هذا نفر من مثقفينا الذين تغربوا؟! أم إن علم «الأئمة» لم يصل بعد إلى هؤلاء «المقلدين»؟





الاختلاف حول المرجعية الحضارية

قبل الاحتكاك الفكرى بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية - التى وقد إلينا نموذجها فى ركاب الغزوة الاستعمارية الأوربية الحديثة - كانت المرجعية الحضارية الإسلامية منفردة بمبادئ الإصلاح الإسلامى جميعها، فكل تيارات الفكر ومذاهبه كانت مرجعيتها الإسلام، ولا شىء غير الإسلام، وكانت الخلافات بين «أهل رأى» و«أهل الأثر» و«الذين يوازنون بين رأى والأثر» جميعها فى إطار المرجعية الإسلامية، تحكمها جميعاً التصورات والاجتهادات والتأويلات التى تتخذ من حاكمية الإسلام - فى العقيدة والشريعة والقيم - الإطار المرجعى الذى لا تتعداه. وذلك بصرف النظر عن حظ هذه الاجتهادات من الخطأ والصواب، ومدى قربها أو بعدها من التصورات الأدق لحقيقة الإسلام. المهم أنه لم تكن هناك «شرعية معترف بها» لمرجعية فكرية فى التقدم والإصلاح لغير مرجعية الإسلام.

ولذلك لم نجد - عبر تاريخنا الحضارى والفكرى الطويل - ورغم التمايزات الفكرية، والتدافع المذهبى - إطلاق قريب من الفرقاء وصف «الإسلامى» على مذهب أو فرقته أو اجتهاداته. فجميعها كانت «إسلامية» دون حاجة إلى هذا الوصف «بالإسلامية» اللهم إلا عندما كان الحال مع «المقالات» - أى النظريات - غير الإسلامية - أى ذات المرجعية اليونانية أو المجوسية أو الغنوصية - التى تحدثت عنها كتب [الملل والنحل] فلقد حرص علماء الأمة على وصف مختلف التصورات النظرية الإسلامية بوصف «الإسلامى» - تمييزاً لها عن التصورات النظرية غير الإسلامية فكان التأليف فى ذلك تحت عناوين [مقالات الإسلاميين].

- من مثل ما كتبه أبو القاسم البلىخى [٣١٩ هـ - ٩٣١ م] وأبو الحسن الأشعرى [٢٦٠ - ٣٢٤ هـ ٨٧٤ - ٩٣٦ م] تحت هذا العنوان.

كان هذا هو واقع فكرنا الإسلامى قديماً.. عندما كانت «السيادة الشرعية» للمرجعية الإسلامية وحدها فى طول وعرض دار الإسلام وتاريخ الإسلام والمسلمين لكن هذا الحال قد تغير بعد وفود المرجعية الغربية - ذات الطابع المادى والوضعى والعلمانى - إلى بلادنا العربية والإسلامية - منذ قرنين من الزمان - فلقد تخلق فى واقعنا الفكرى تيار ثقافى وفكرى مؤثر - بل وحاكم ومسيطر فى بعض الأحيان - يذهب فى التقدم والإصلاح مذاهب الغربيين لا مذاهب الإسلاميين، وذلك عندما يدعو إلى استلهام النموذج الغربى - فلسفة وتطبيقاً - مرجعية ينطلق منها فيما يدعو إليه من نهوض حضارى لأممتنا.

وإذا كان التنوير الغربى، الذى أحل العقل محل الدين، ووضع العلم مكان الوحي، واستبدل الفلسفة باللاهوت، عندما أعلن فلاسفته «أنه لا سلطان على العقل إلا للعقل وحده».. والذى اعتبر الدين صفحة من صفحات طفولة العقل البشرى قد طوتها الفلسفة الوضعية - التى لا تعترف بغير معارف وحقائق وآيات عالم الشهادة والكون المادى.. ولا تستعين بغير العقل والتجربة فى إدراك المعارف والعلوم، منكراً معارف عالم الغيب وآيات الوحي الإلهى، وضاربة عرض الحائط «بالنقل» و«الوجدان» - كسبل للمعرفة - إذا كان هذا التنوير الغربى - بسبب صراعه مع الكنيسة ولاهوتها - قد أقام «قطيعة معرفية» مع الموروث الدينى للحضارة الغربية إبان عصر نهضتها.. فلقد رأينا أنصاره فى بلادنا يسبغون فى ذات الطريق، وذلك عندما استبدلوا فلسفته العلمانية فى التقدم والإصلاح والنهضة بالمرجعية الإسلامية فى النهوض والتجديد.. فتخلقت لدينا تيارات «اليمين» و«اليسار».. «الليبرالية» و«الشمولية».. «الاشتراكية» و«الرأسمالية».. «الجمود» و«التقدم» تعود جميعها إلى النظائر الغربية - الوضعية العلمانية - لهذه المذاهب والتيارات! فهم يختلفون لكن فى إطار المرجعية الحضارية الغربية.

وفى مواجهة هذه التيارات التى استعارت النموذج الغربى مرجعية لمذاهبها فى التقدم والنهوض، تبلور فى واقعنا الفكرى تيار الإحياء والنهضة والتجديد والتقدم والإصلاح، انطلقاً من مرجعية الإسلام.. بل وأخذ هذا التيار يميز نفسه بصفة «الإسلامى» وذلك تمييزاً لمرجعيته الإسلامية عن المرجعية الغربية - الوضعية العلمانية المتحللة من ضوابط الإسلام.

ولقد عرف هذا التيار الإسلامي - أيضًا - تمايز الفصائل، لكن.. في إطار مرجعية الإسلام.. وذلك عندما تفاوتت مواقع هذه الفصائل وحظوظها من «التقليد» أو «التجديد» إزاء الموروث الإسلامي.. وعندما تمايزت مواقفها من الوافد الغربي.. وعندما اختلفت حظوظها من العقلانية والتأويل.

فالدراسة «الخارطة» الفكر المعاصر في واقعنا العربي والإسلامي يجب أن تبدأ بتحديد وتمييز «المرجعيات الفكرية» أولاً.. وبعد ذلك يتم التحديد والتمييز للفصائل والتيارات في إطار كل مرجعية من المرجعيات الحاكمة لمذاهب الساعين إلى التقدم والنهوض والإصلاح.



وتطبيقاً لهذا المنهاج القرآني في عدم التعميم والإطلاق، فإننا مطالبون اليوم بالتمييز بين اليهودي - هذا إذا وجدناه! - الذي يتلو آيات الله، ويسجد له، ويؤمن به وباليوم الآخر، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويسارع في الخيرات.. نميز بينه وبين «اليهود» الذين عصوا، واعتدوا، ولا يتناهون عن منكر فعلوه بل والذين قالوا سمعنا وعصينا وليس سمعنا وأطعنا! وأشربوا في قلوبهم العجل الذهبي وربا البنوك!

بل إننا مدعوون إلى التمييز بين «اليهودية» كدين سماوي، جاء بشريعته موسى عليه السلام، والله فيه هو إله العالمين، الواحد الذي لا شريك له - فهذه اليهودية لا يكتمل إيماننا الإسلامي إلا إذا آمنّا بها وبرسلها وأنبيائها - لا نفرّق بين أحدهم - .. نميز بينها وبين «اليهودية» التي نواجهها اليوم عند الصهاينة وفي إسرائيل - اليهودية الحاخامية والتلمودية -.. تلك التي تعرّف دائرة معارفها «اليهودي» ليس بأنه المؤمن بالإله الواحد، وبشريعة موسى وهارون - وإنما بأنه: «المولود من أم يهودية».. فاليهودي في هذه «اليهودية» يحدده معيار عنصري - هو الولادة من أم يعينها - فهو يهودي بسبب الولادة، لا بسبب الدين، بل إنه - في هذا المفهوم - يكون من شعب الله المختار، بسبب هذه الولادة وحدها، حتى ولو كان ابن زنا أو غير مؤمن بالله ولا متدين بالدين! فالتمييز - وعدم التعميم والإطلاق - الذي نتعلمه من القرآن الكريم - فضلاً عن أنه الدين الذي نتدين به فإنه هو المنهاج العلمي الدقيق، وسبيل الإنصاف لمن يستحق الإنصاف.. وأيضاً هو سبيلنا إلى عقول وقلوب الآخرين، أولئك الذين خدعتهم الصهيونية فأخذوا يتحاشون أي نقد لأي من ممارسات اليهود.. كما أخذوا يحسبوننا معادين لكل اليهود!

وكذلك الحال - حال المنهاج القرآني - مع نصارى أهل الكتاب.. فهم - الآخرون - ليسوا سواء.. فمذهب من هم أقرب الملل مودة للمسلمين ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَن مِنْهُمْ قسيسين وَرهباناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ١٨٢١﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتنبا مع الشاهدين﴾ [المائدة: ٨٢، ٨٣] ومن نماذج هؤلاء كان النجاشي - ملك الحبشة على عهد رسول الله - ﷺ - وكل «الآريوسيين» الذين يؤمنون بالله واحداً، ويعيسى ابن مريم عليهما السلام - نبياً ورسولاً.

أما الذين حولوا النصرانية من التوحيد إلى الشرك، وجعلوا عيسى معبوداً مع الله، فإن القرآن يميزهم عن هؤلاء الموحدين، ويضعهم - رغم أنهم أهل كتاب - في حافة وزمرة الكفر والشرك، عندما يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ٧٢﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا الله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴿ [المائدة: ٧٢، ٧٣] وصدق الله العظيم. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهج العلمي في التمييز الدقيق، الذي يرفض التعميم والإطلاق





المنهاج النصوصي

إذا كان الإمام أحمد بن حنبل قد قنن أركان «المنهاج النصوصي» على النحو الذي أشرنا إليه.. فلقد صاغه شعراً كذلك، عندما قال :

دين النبي محمداً آثار نعم المطية للفتى الأخبار

لا تخذعن عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهارا

ثم إن هذا المنهج عندما طبقه أهله في ميدان العقيدة أثمر تصورها على هذا النحو - في فكر الإمام أحمد أيضاً:

■ الإيمان : قول وعمل.. وهو يزيد وينقص، تبعاً لنقاء العقيدة أو شوبها، وتبعاً لزيادة العمل أو نقصانه.

■ والقرآن : كلام الله، وفقط.. فليس بمخلوق - كما تقول المعتزلة - وليس شريكاً لله في قدمه، كما يلزم المعتزلة نفاة القول بخلق القرآن.

■ وصفات الله : التي وصف بها نفسه وأثبتها لذاته، نحسبها بها ونثبتها لذاته، على النحو الذي وردت عليه في النصوص والمأثورات لا نلجأ في بحثها إلى «رأي» أو «تأويل».

■ وعالم الغيب : لا ينبغي أن نخوض في بحث شيء منه، بل يجب أن نفوض حقيقة علمه إلى الله سبحانه.

■ ورؤية أهل الجنة لله : عقيدة حق يجب أن يؤمن بها المؤمن، دون «تأويل» أو «تمثيل» كما وردت بها ظواهر النصوص.

■ وعلم الكلام : منكر، منكر الاشتغال به منكر، وأخذ العقائد بأدلتها منكر، بل ومجالسة أهله منكر، مهما كان دفاعهم به عن الإسلام!

■ والقضاء والقدر : لا يكتفى الاعتقاد بدون الإيمان بهما.. وهما من الله.

■ والذنوب الكبائر لا تجعل المؤمن كافراً ولا تخلده في النار ، على عكس قول الخوارج في الأمرين وقول المعتزلة في الثاني.

■ و«خلافات الصحابة» : لا يصح الخوض فيها، بل يجب العدول عن ذكرها، والوقوف عند محاسنهم وفضائلهم

■ وترتيب الخلفاء الراشدين في الفضل : وفق ترتيبهم في تولي الخلافة.

■ «وطاعة ولي الأمر واجبة» : حتى ولو كان قاجراً قاسقاً، والخروج عليه منكر، لما يجلبه ذلك من الأخطار، وما يعطله من مصالح الناس في حياتهم اليومية

■ «والضرائض .. والمعاملات .. والجهاد» تؤديها ونمارسها على النحو الذي جاءت به النصوص في القرآن والسنة ... إلخ ... إلخ.

ذلك هو منهج مدرسة أهل الحديث... وتلك نماذج لتطبيقات هذا المنهج على نماذج من ميادين الفكر، في السياسة... وفي الاعتقاد... ونماذج من الممارسات العملية التطبيقية لهذه الأفكار.

ومن أبرز ملامح الفكر السياسي التي اتفق عليها أعلام هذا التيار: رفض استخدام القوة.. وتجريد السيف سبيلاً لتغيير نظم الجور والفساد، حتى ولو قامت هذه النظم على التغلب واغتصبت السلطة اغتصاباً! وفي ذلك يقول الإمام أحمد: «ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة، وسمى أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه، برأ كان أو فاجراً، فهو أمير المؤمنين».

ويبدو أن هذا الموقف الذي اتخذته هذا التيار من هذه القضية قد جاء تعبيراً عن «الواقع» الذي سادت فيه نظم الجور، حتى غدت هي القاعدة، أكثر من كونه تعبيراً عن أصول ومبادئ الفكر الإسلامي في هذا الموضوع.. فوازن أهل الحديث بين الجور السائد والراسخ والقوى وبين الثورات غير المضمونة الانتصار، فاختاروا الخضوع الصابر على التمرد والثورة.. وعن هذه الموازنة يتحدث ابن تيمية فيقول: «إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج - الثورة - على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم.. لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى! إن ستين سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان!».

ويزيد ابن القيم هذه القضية وضوحاً، عندما يؤكد على أن مصدر هذا الموقف هو «الواقع» وليس «الواجب - الدين»! فيقول: «إن الواجب شيء، والواقع شيء». والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع، فلكل زمان حكم، والناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم، وإذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وقتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام، وقسد نظام الخلق، وبطلت أكثر الحقوق.. فأمام الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار..» أي الإنكار بالقلب!

ونحن نعتقد أن حدة الخطر الخارجي الذي هدد وجود الدولة والأمة والعقيدة لعدة قرون الخطر البيزنطي.. والتتري.. والصليبي.. هي التي جعلت التناقض الرئيسي بين الأمة وبين هذا الخطر، المهدد للوجود، وليس بين الأمة ونظم الجور والفساد المهددة للحرية والعدالة بين الناس!

فكان هذا الفكر وهذا الموقف السياسي لأهل الحديث - والذي تتفق الأشعرية معهم فيه - كان تعبيراً عن «الواقع» وليس تعبيراً عن «الواجب - الدين»!



التوحيد الإسلامى

لقد بلغ الإسلام على درب عقيدة التوحيد، الذروة فى تنزيه الذات الإلهية عن أى تعددية أو تركيب أو مماثلة أو شبه لأى من المخلوقات والمحدثات - وكل ما عدا الذات الإلهية مخلوقات ومحدثات - وصاغ الإسلام للخالق - سبحانه - تصوراً تجريدياً، بلغ فى التجريد أقصى ما يطيقه عقل الإنسان ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤] وهو - سبحانه - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

حتى لقد اجتهد علماء أصول الاعتقاد الإسلامى كى يعبروا - باللغة البشرية - عن هذا التصور التنزيهى التجريدى الذى جاء به الإسلام للذات الإلهية، فلم يجدوا إلا طريق الوصف بالسلب.. فقالوا عبارتهم الشهيرة «كل ما خطر على بالك فإله ليس كذلك»!

فهو - سبحانه - مفارق، ليس فقط للمخلوقات، وإنما - أيضاً - لكل التصورات الإنسانية عن هذه المخلوقات، قدم الإسلام هذا النموذج للتوحيد، فى مقابل اليهودية التى تحولت - بالتحريف - إلى وثنية صورت الإله مصارعاً وجعلته إلهاً لبنى إسرائيل وحدهم، وللشعوب الأخرى آلهتها الأخرى - وفى مقابل نصرانية اغتالت الغنوصية والفلسفات الباطنية والحلولية توحيدها، فسقطت فى التجسد وتعددية التثليث!

ولم يقف الإسلام بهذا التصور التنزيهى والتجريدى للتوحيد عند نطاق الاعتقاد الدينى فى ذات المعبود وفقط، وإنما أشاعه روحاً سارية فى ثقافة الإنسان المسلم، وذلك عندما جعل من عقيدة التوحيد ثورة لتحرير الإنسان الموحد من العبودية لساتر الطواغيت.. ففى العبودية للمعبود الواحد قمة التمرد من أسر واستعباد كل مَنْ وما عدا الله.. ومن هنا تحول التوحيد ويتحول إلى حياة

يحييها الإنسان دائماً وأبداً، وليس فقط إلى تصور عند الشعائر والعبادات ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]﴾

وهذا التصور الإسلامي الذي يخلص العبودية لله الواحد في كل الميادين - الدينية: والدنيوية: والأخروية- ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٢﴾ لا شريك له - هو الذي ميز النموذج الثقافي الإسلامي بتصور متفيز لنطاق عمل وفعل الذات الإلهية، انفردت به الثقافة الإسلامية عن غيرها من الثقافات.

■ ففي الأرسطية اليونانية، كان التصور للذات الإلهية باعتباره مجرد خالق للعالم.. خلقه وانتهت علاقته به.. وتدبير هذا العالم موكل إلى الأسباب الطبيعية والمادية المودعة في ظواهره وقواه.

■ وفي الوثنية الجاهلية، كان التصور لنطاق عمل وفعل الذات الإلهية قريباً من هذا التصور الأرسطي.. فالوثنيون في الجاهلية لم يكونوا يتكبرون الله خالقاً للمخلوقات ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِقَوْلِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٦٣] لكنهم كانوا يشركون معه - سبحانه وتعالى - الطواغيت والأوثان في تدبير العمران الدنيوي، فيلجئون إلى هذه الأوثان إذا أرادوا الحرب أو السلم، السفر أو الحبل، الإقدام أو الإحجام.. إلخ.. إلخ.. فجعلوا الله خالقاً ووقفوا بنطاق عمله وفعله عند الخلق لا يتعداه وجعلوا تدبير العمران للشركاء والطواغيت ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]

■ وقريباً من هذا التصور - الذي يعزل الذات الإلهية عن تدبير العمران الإنساني، ويحرر سياسة هذا العمران من شريعة السماء وتدبير الخالق - قريباً من هذا التصور جاء التصور اللاهوتي النصراني، عندما قال: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله» فحرر «قيصر» - أي الدولة - والمجتمع والعمران - من قانون الله وشريعة السماء وتدبير الخالق، جاعلاً ذلك إلى المرجعية الإنسانية وحدها

■ ولذلك كان التصور العلماني الغربي - الوضعي - والمادي - طبيعياً في ذلك الإطار، فهو عندما رأى العالم مكتفياً بذاته، والطبيعة تدبرها الأسباب المادية المركبة فيها وفي ظواهرها وقواها، والدولة والاجتماع البشري يدبرهما ويسوسهما الإنسان - بالعقل والتجربة - إنما كان هذا التصور العلماني -

إحياء حديثًا للتصور الأرسطي لنطاق عمل الذات الإلهية – الخلق دون الرعاية والتدبير – كما كان صحيحًا رد الكنيسة – التي تجاوزت رسالة النصرانية، عندما جمعت السلطة الزمنية إلى السلطة الروحية، ردها إلى نطاق التصور اللاهوتي لرسالة نصرانيتها ولنطاق عمل إلهها «دع ما لقيصن لقيصن وما لله لله».

■ أما التصور الإسلامي، فقد جاء متميزًا عن جميع تلك التصورات فالتوحيد فيه يفرد الذات الإلهية لا كمجرد خالق وفقط، وإنما هو الخالق والراعي والمدير لجميع المخلوقات، فالأمر والتدبير له سبحانه وليس الخلق فحسب ﴿الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ۚ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وبهذا التصور الإسلامي للتوحيد، تميز النموذج الثقافي الإسلامي، وسرى هذا التفسير روحًا سارية في كل مناحي ثقافة الإنسان المتدين بهذا التوحيد.



الخلافة .. والاستخلاف

فى التصور الإسلامى، لا يقف نطاق فعل الذات الإلهية عند «الخلق» وإنما له - سبحانه - مع الخلق «التدبير» لكن ذلك لا يعنى تجريد الإنسان من الفعل والقدرة والاستطاعة؛ لأن نظرية «الاستخلاف» الإسلامية تحدد مكانة الإنسان فى هذا الكون خليفة الله فى استعمار الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

وحتى ينهض الإنسان بتكاليف إقامة العمران، وأمانات الاستخلاف ميره خالقه بالاختيار والحرية والقدرة والاستطاعة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فكانت مكانته هى مكانة الخليفة - وهى وسط بين ادعاء السيادة فى الكون، وصورة المخبر المجرد من أى سلطان، فهو سيد فى الكون، لا سيد الكون وهو - بعبارة الإمام محمد عبيد - : «عبد لله وحده، وسيد لكل شئ بعده»؛ فقدرة الإنسان ليست على حساب القدرة الإلهية كما أن قدرة الله لا تنفى قدرة الإنسان؛ لأن القدرة الإنسانية هى إرادة إلهية، خلقها للإنسان كي ينهض بأمانة الخلافة والاستخلاف.

ولقد عبر الإمام ابن حزم الأندلسى عن هذا الاستخلاف الذى جعل الله فيه الإنسان «حاكمًا» كمستخلف عن الله الذى له الحكم والحاكمية والأمر والتدبير فقال: «إِنَّ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَ الْحُكْمَ لغيرِ اللَّهِ»!

فلا تناقض بين حاكمية الله وبين حاكمية الإنسان؛ لأن حاكمية الإنسان هى قضاء إلهى، ويدونها لا تتحقق المسئولية، ولا يتم العمران ولا يقوم الاستخلاف.

وانطلاقاً من هذه الرؤية الإسلامية لفلسفة الخلافة والاستخلاف - والتي تمثل «منظار الرؤية» للعلاقة بين المخلوق والخالق - تتميز الرؤية الإسلامية لكثير من القضايا والمشكلات.

■ **فحقوق الإنسان -** التي ارتفع الإسلام بدرجاتها إلى مراتب القرائض والواجبات والضرورات - هي حقوق الإنسان الخليفة، ولذلك فهي محكومة بحقوق الله، وليست - كالحال في التصورات الأخرى - محكومة فقط بالمصلحة الدنيوية والمنفعة المادية.. بل إن المصلحة ذاتها - في التصور الإسلامي - لا بد وأن تكون «شرعية - معتبرة» فينود عقد وعهد الاستخلاف أي الحلال والحرام الديني - الشريعة - هي الضابط والسقف لهذه الحقوق الإنسانية.

■ **وحظ الإنسان من الثروات والأموال، وموقعه منها، هو موقع الخليفة المستخلف فيها.. وحرية في الاختصاص والاستثمار والاستمتاع محكومة ببند عقد وعهد الاستخلاف.. ذلك أن المالك الحقيقي - مالك الرقبة - في هذه الأموال، هو الله - الخالق لها والمفيض لها في الطبيعة - وللإنسان فيها مكاة الخليفة والنائب والوكيل - له فيها ملكية المنفعة - المجازية - وحرية الاختصاص والاستثمار والاستمتاع بها محكومة بحدود الله - في الحيازة وفي الإنفاق، وفي التكافل الذي يحقق وحدة الجسد الإسلامي .. إلخ «أمتوا بالله ورسوله وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ» [الجديد: ٧].**

■ **«وإذا كانت الأمة - الجماعة - هي المستخلفة لله فإن «الدولة» في التصور الإسلامي هي دولة الخلافة: أي المستخلفة عن الأمة للنهوض بالمهام الموكولة من الأمة إليها.. فتميز التصور الإسلامي للدولة والنظرية السياسية بالجمع بين «الله» - الشريعة - ولها السيادة والحاكمية.. وبين «الأمة» - المستخلفة لله - ولها السلطة والسلطان - .. وبين «الدولة» - المستخلفة عن الأمة.. والمفوضة منها وهي - كالأمة ملتزمة بالشريعة التي هي بنود عقد وعهد الاستخلاف.**

وهذا التصور الإسلامي في الدولة والنظرية السياسية متميز عن التصورات غير الإسلامية جميعها فدولة الكهانة الكنسية كان فيها «اللاهوت» و«الكنيسة» التي تحكم بالحق الإلهي - ولا وجود «للأمة».. والدولة العلمانية - التي هي نقيض دولة الكهانة الكنسية - فيها «الأمة» مصدر السلطات - «الدولة» التي تختارها الأمة ولا وجود للشريعة الإلهية.. بينما جمع التصور الإسلامي -

بنظرية الخلافة : الاستخلاف بين «الشريعة» وسيادتها - وبين «الأمة» وسلطاتها - وبين «الدولة» التي هي مستخلفة عن «الأمة» تحكم باسمها، ونياية عنها، وليست مستخلفة - دون الأمة - عن الله!

ولذلك، فإنها لم تكن صدفة تسمية الدولة الإسلامية: دولة «الخلافة»، وفي ضوء هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة - في الدولة والنظرية السياسية - نفهم حديث رسول الله ﷺ - الذي يتحدث فيه عن هذا التمييز للنظام السياسي الإسلامي، فيقول: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى، إنه سيكون خلفاء» (رواه البخاري وابن ماجه والإمام أحمد). ولذلك كانت الخلافة الإسلامية هي الدولة التي تحرس الدين، وتسوس الدنيا والأمة بهذا الدين!

فبالتمييز الإسلامي في حقوق الإنسان... والثروات والأموال... والنظرية السياسية... هي آثار وتحليلات لفلسفة الإسلام في الخلافة والاستخلاف.



دعوى تاريخية أحكام القرآن الكريم

فى علاقة «النص الدينى» - كتاباً وسنة - «بالاجتهاد»، واجه الفكر الإسلامى ويواجه - قديماً وحديثاً - نزعات من الغلو، تراوحت بين الإفراط والتفريط. فهناك النزعة «النصوصية الحرفية» التى وقف أصحابها عند ظواهر النصوص رافضين التأويل بإطلاق. بل ومنكرين المجاز فى النص الدينى، ومتخذين موقفاً غير ودى من «الرأى» و«النظر العقلى» فى النصوص الدينية، بسبب الخلط عندهم ما بين «الرأى» و«الهوى»!

وهناك النزعة «الباطنية» التى دعت إلى لون من الغلو فى «التأويل» وإلى تعميم هذا «التأويل» المغالى وغير المضبوط بضوابط اللغة العربية وثوابت الإسلام فزعمت أن لكل «ظاهر» «باطناً» ولكل تنزيل تأويلاً، حتى لقد تجاوزت كل المعانى والأحكام التى جاء بها القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف!

واليوم وبعد أن «رشحت» «فلسفة» التنوير الغربى - الوضعى العلمانى على شرائخ من النخب الثقافية العربية والإسلامية، التى تغربت، فتبنت مقولات فلسفة التنوير الغربى إزاء النص الدينى، وهى الفلسفة التى رأت فى هذا النص وضعاً بشرياً، ناسب طور الطقولة للعقل البشرى، ثم تجاوزه هذا العقل إلى حد ما فى مرحلة «الميتافيزيقا» ليتجاوزه تماماً - بالحكم عليه «بالتاريخية» - فى المرحلة الوضعية - اليوم، يواجه نفر من مثقفينا المتغربين النص الدينى الإسلامى بما واجه به فلاسفة التنوير الغربى - فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - النص الدينى فى اليهودية والنصرانية داعين إلى «تاريخية» معانى وأحكام القرآن الكريم باعتبارها معانى وأحكاماً تجاوزها الواقع الذى تطور، وعفا عليها التاريخ!

فالشريعة الإسلامية - عندهم - هي شريعة مرحلة البداوة «لا تصلح لمرحلة الحضارة.. وكذلك الشورى التى يجب أن تحل محلها الديمقراطية الغربية ... إلخ... إلخ.. وهم يتخذون لهذه الفزعة «التاريخية .. أو التاريخية» صياغات عدة لكنها تفضى جميعاً إلى ذات المقاصد والغايات.

فالمستشار محمد سعيد العشماوى - مثلاً - يدعى إلى ربط أحكام القرآن وتشريعاته «بتاريخ النزول للآيات، وبأسباب النزول» وصولاً إلى ادعائه «بوقفية أحكام القرآن الكريم» لا استمراريتها وخلودها حتى ليصل فى ذلك إلى حد القول بأن الحكم بما أنزل الله قد كان خاصاً بالرسول - ﷺ - وأن الخطاب به غير موجه إلى الأمة ولا ملزم لها بعد وفاة الرسول!!

والعشماوى - لذلك - يرفض القاعدة الأصولية - التى أجمعت عليها الأمة - والقائلة : «إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» وهى القاعدة التى تخضع بين عموم اللفظ وبين سبب النزول، فتفسر اللفظ العام فى ضوء سبب النزول - عندما يوجد - ... يرفض العشماوى تلك القاعدة، زاعماً أنها قد نشأت فى فترات الظلام الحضارى والانحطاط العقلى» مع أنها ثمرة لإبداع الأمة فى أزهى عصور التألق الحضارى!

لكنه يصنع ذلك ليؤسس على هذا الزعم دعواه فى تاريخية أحكام تشريعات القرآن، فيقول: «فأحكام التشريع فى القرآن ليست مطلقة.. فكل آية تتعلق بحادثة بذاتها، فهى مخصصة بسبب التنزيل وليست مطلقة.. وكل آيات القرآن نزلت على الأسباب - أى لأسباب تقتضيها سواء تضمنت حكماً شرعياً أو قاعدة أصولية أو نظاماً أخلاقية .. إنها أحكام مؤقتة ومحلية، تنطبق فى وقت محدد وفى مكان بعينه.. وبوفاة الرسول انتهى التنزيل.. وانعدم الوحي.. ووقف الحديث الصحيح.. وسكنت بذلك السلطة التشريعية الإلهية»!!

والذين يتأملون عبارة العشماوى هذه، سيجدون فيها من الأكاذيب الفجة والمغالطات الشنيعة يعدد ما فيها من الكلمات!

فأحكام القرآن موجهة للعالمين - عبر الزمان والمكان - ومن ثم لا يمكن أن تكون «مؤقتة ومحلية» كما يقول .. وانتهاء التنزيل هو «اكتماله» وليس «انعدامه» كما يقول!

وأسباب النزول هي - في تعريف علماء هذا العلم - «مناسبات نزول الأحكام وليست علة في نزول الآيات وتشريع ما فيها من أحكام». وبعبارة «الزركشي» و«السيوطي» - وهما أبرز من ألفت في أسباب النزول - «فلقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها، فالذي يتجرر في سبب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه فلقد نزلت آيات في أسباب، واتفق الصحابة والتابعون على تعديتها إلى غير أسبابها» أما قول العشماوي: «إن كل آية تعلقت بحادثة بذاتها، فهي مخصصة بسبب التنزيل» فإن واقع أسباب النزول يكذبه.. فالآيات القرآنية التي لها سبب نزول لا تتعدى ٧,٥٪ من آيات القرآن! فأين هي «التاريخية» التي ربطت كل آيات القرآن بتاريخ وأسباب النزول؟

ورحم الله ابن تيمية الذي قال عن مثل هذا الذي يقول به العشماوي: «إنه قول لا يقول به مسلم ولا عاقل على الإطلاق!» ولا حول ولا قوة إلا بالله.



في التزوير الفكري!

لقد أراد المزورون لكتاب محمد عبده عن (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) - بهذا التزوير - التعمية على ما كتب الأستاذ الإمام عن «أصول الإسلام» وما أنتجت هذه الأصول الإسلامية المتميزة من نموذج حضارى متميز، ومن علاقة متميزة بين الدين والدولة - أفاض الإمام في الحديث عنها في هذا الكتاب

كما أرادوا التعمية على ما كتبه الأستاذ الإمام عن «أصول النصرانية» وما صنعتها هذه الأصول من اضطهاد للعلم والعلماء، ومن رجعية وتخلف وتجمود دخلت بالحضارة الأوروبية عصورها المظلمة، التي لم يخرجها منها سوى حضارة الإسلام.. الإسلام الذي صنع الإصلاح الدينى والأوروبى وفتح به باب أوربا إلى النهضة الحضارية الحديثة.

وإذا كان هذا الكتاب (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) قد جاء آية من آيات الفكر المقارن بين الإسلام والنصرانية.. والمقارن بين حضارة الإسلام والحضارة الأوروبية.. وكذلك بين تاريخنا الإسلامى وتاريخ أوروبا النصرانية.. فلقد كانت للأستاذ الإمام - فى آثاره الفكرية الأخرى - نظرات عبقرية ونافذة وموضوعية فى تقويم المعتقدات الدينية لغير المسلمين..

فهو القائل: «إن اليهود» قد اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية، ولم يجعلوه هداية روحية، لذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء، ويحرقون كلمه عن مواضعه بحسب الأهواء»، أى إنهم فرغوا اليهودية الحق من جوهرها - من الدين: - وذلك عندما حولوها إلى عصبية عنصرية، ومجرد «تراث تاريخى»! أما النصرانية - برأى الأستاذ الإمام - فلقد تحولت - فى صورتها الرومانية - إلى وثنية حاربت التوحيد الذى جاء به عيسى - عليه السلام - ثم

فرض الرومان والبيزنطيون هذه الصورة الوثنية على الكنائس الكبرى، بواسطة قرارات المجامع المسكونية التي فرضت هيمنتها على كنائس الشرق بالاضطهاد والترهيب والترغيب.

وبعبارة الإمام محمد عبده: «فإن النصرانية قد انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين» [٢٧٤ - ٣٣٧ م] بعد المسيح بثلاثة قرون. فقسطنطين كان ملكاً وثنياً، وأدعى الدين بالنصرانية سياسة لأجل الاستعانة بمتحليها على خصمه «ليكتيوس». ونجح في ذلك، ثم إن قصص العهدين العتيق والجديد التي يسمى مجموعها «الكتاب المقدس» ليست وحياً من الله. وليس لها أسانيد متصلة متواترة ولقد أثبت القرآن الكريم أن الله تعالى أعطى موسى - عليه السلام - التوراة، وهي الشريعة، وأن أتباعه حفظوا منها نصيباً ونسوا نصيباً، وأنهم حرقوا النصيب الذي أوتوه، وأنه أعطى عيسى - عليه السلام - الإنجيل، وهو فواعظ وبشارة وقال في أتباعه مثل ما قال في اليهود: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٤].

ومع هذا النقد الذي وجهه الأستاذ الإمام لما أصاب اليهودية والنصرانية من تحولات وتحريفات أخرجتهما عن أصولهما.. فإن الرجل قد ظل وقياً لعدل الإسلام مع أهل الكتاب في شئون الدولة والسياسة والاجتماع والمعاملات والحقوق.. ذلك أن رفض عقائد دين من الأديان - وكل متدين بدين هو رافض لعقائد غيره من الأديان - لا يعنى الجور على أهل هذا الدين.. وتلك هي سنة الإسلام التي سنّها رسول الله ﷺ والتي طبقها المسلمون - في التعامل مع غير المسلمين - على امتداد تاريخ حضارة الإسلام.

جدل الإيجابيات والسلبيات في التاريخ

صحيح أن التغيرات السلبية التي حولت الخلافة الراشدة الشورية إلى خلافة ناقصة وملك عضوض، قد تمت منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام.. لكن هذه التغيرات لم تمثل «كارثة عظمى» في ذلك التاريخ.. ذلك أن «الدولة» التي حدث في إطارها الانحراف كان حجمها محدوداً، وتأثيرها ليس كتأثير الدول الأخطبوطية التي نعرفها منذ عصرنا الحديث.. فلقد كانت «الأمة» أعظم من «الدولة» وكثير من المهام والبيادين والمسئوليات التي تتولاها «الدولة» الآن، والتي تصلح بصالح الدولة وتفسد بفسادها، كانت تتولاها «الأمة» وتمولها تمويلًا أهلياً - بواسطة الأوقاف - حتى إن صناعة الحضارة الإسلامية وازدهارها قد حدثا في ظل انحراف «الدولة»: لأن هذه الحضارة قد صنعتها «الأمة» لا «الدولة».. بل إن الجهاد الذي كانت تقوده «الدولة» كان إنجازاً شعبياً يحارب فيه الناس أداء لفريضة دينية، وتمول الأوقاف الخيرية المرابطين في سبيل الله على ثغور دولة الإسلام.

ولقد عظم من دور «الأمة»، ورجح كفتها على «الدولة» - فلم تعم الكارثة بانحراف الدولة عن الشورى - عظم من دور «الأمة» أن علماءها وفقهاءها - في جملتهم - لم يستنفدوا طاقاتهم في مصارعة «الدولة» وإنما شغلوا أنفسهم بتربية الأمة، ونشر الإسلام ولغته العربية، وصناعة الحضارة، فلقد امتدت الأمة وقامت القربية وازدهرت الحضارة، وتم الإبداع للعلوم الحضارية - الشرعية منها والمدنية - رغم ما أصاب «الدولة» من تراجع عن الشورى وما اعتصمت به من «الملك العضوض».

لكن هذه الجهود الحضارية العملاقة، التي قاد الفقهاء صناعتها، والتي أبدعتها الأمة، كانت تواجه - غير انحراف الدولة والمخاطر الخارجية - العديد من المعوقات والسلبيات.

فانغماس كثير من العرب في الترف - الذي وجدوا أسبابه في غنى الأقاليم التي فتحوها - قد حولهم من قوة جهادية حثيئة وضاربة دون الدولة والأمة وفكريتها الإسلامية إلى مواطنين شواغل الدنيا عن حياة الجهاد.. لقد اشغلوا بالطيبات المباحة عن مكاره قريضة القتال الذي كتب على المؤمنين بالإسلام!

وصاحب ذلك، استمرار وتصاعد التحديات الخارجية.. فالقسطنطينية - عاصمة الروم - ظلت تجيش الجيوش ضد الدولة الإسلامية.. ثم جاءت حقبة الحملات والغزوات الصليبية التي امتدت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] وزاد من مخاطر هذه التحديات الخارجية ذلك الحلف الذي استعانت فيه الصليبية بالوثنية المغولية التي دمرت بغداد [٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م] واجتاحت المشرق الإسلامي، وهددت حتى الوجود الإسلامي، لولا أن شاء الله هزيمتها في «عين جالوت» [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] ولقد ألحّت هذه المخاطر الخارجية - التي تطاول بها الزمان - والتي انضمت إلى مخاطر الصراعات الداخلية - شعوبية وعربية ومذهبية - ألحّت هذه المخاطر - في ظل ترف العنصر العربي - دولة الخلافة العباسية، منذ خلافة المعتصم العباسي، إلى اتخاذ الترك المماليك قوة ضاربة للدولة، بحسبانهم الأكثر طواعية للخلافة من العرب ومن الفرس.. فلما تضخمت مؤسستهم العسكرية أصبحت الخلافة لعبة في أيديهم «فتعسكرت الدولة» وامتدت «العسكرة» إلى «الفكر» عندما تضاعفت الدولة بأهل العقلانية المؤمنة، فأحلت محلهم «التصووصيين الحرفيين».. وبدلاً من الوسطية التي كانت تجمع بين العقل والقلب، وتؤلف بين «الرأي والأثر» أضر الصراع والفصام النكد بين الفقهاء والصوفية ثقافة «إسلامية» قاصرة أو مغشوشة عرفنا فيها: فقهاء لا قلوب لهم.. وصوفية لا عقول لهم! وفقهاء وقف عند شكل الشعائر والعبادات.. وتصوفاً باطنياً منقلبتاً من ضوابط الشريعة وحدودها..

ولقد أخذت هذه المخاطر والتحديات - الخارجية والداخلية، العسكرية والفكرية - تغالب قوى الإبداع والاجتهاد والتجديد والإزدهار الحضاري الإسلامي، حتى استطاعت أن تدخل بالحضارة الإسلامية دور التراجع والركاكة والجمود والتقليد.

فلما كان العصر الحديث.. ونهض الغرب نهضته الحديثة.. وبدأت غروته التي
التفت بها حول عالم الإسلام - عقب سقوط غرناطة [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] - ليُنتفى
بضرب قلب العالم الإسلامي - بحملة بونابرت على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م]
أصبحت محاولتنا في اليقظة والتجديد والتهوض تواجه تحدياً ذا جناحين:
جناح التخلف الموروث عن مرحلة التراجع الحضاري - وهو خطر ذاتي - وجناح
الهيمنة الغربية - في الفكر والعسكرية والاقتصاد -.. وبدون الجهاد على
الجهتين سنظل أسرى للقيود التي تحول بيننا وبين الإقلاع الحضاري من
المأزق الذي تردينا فيه!



الرأسمالية ليست نهاية التاريخ!

على المستوى العالمي، أفلس وتقلس وتراجعت وتتراجع، وسقطت وتسقط الفلسفات و«الأيديولوجيات» والنظم «الدينيوية» التي وقفت عند الدنيا وحدها عازلة لها عن الآخرة، ومانعة هدى الله عن تدبير العمران البشرى وحاجزة ثبأ السماء العظيم عن أن يكون دليل عمل الإنسان في هذه الحياة الدنيا..

فسقوط الشيوعية وهروب كهنتها من «معابدها - الملحدة!» وتحول «حلمها» في العدل الاجتماعي إلى «كابوس رهيب» لم ولن يكون نهاية السقوط لهذه النظم الدينيوية - العلمانية - الوضعية - المادية..

وإنه «لعيث - خالم» و«حلم - عبث» تصوير سقوط الشيوعية باعتباره الانتصار التاريخي والأبدى للرأسمالية وتسفية ذلك بـ «نهاية التاريخ» في «المرفأ» النهائي والأمن للبشرية لا يمكن أن يكون هذه «الرأسمالية المتوحشة» التي تجعل ٢٠٪ من أبناء الشمال في الحضارة الغربية - يملكون ويتحكمون ويستهلكون ٨٦٪ من ثروات هذا العالم.. والتي جعلت وتجعل الملايين - في بعض الحواضر الإسلامية - يسكنون المقابر - مزاحمين الأموات - بينما تباع «البشقة» السكنية بأكثر من ستين مليوناً من الجنيهات!! والتي جعلت وتجعل التفاوت الفاحش في دخل الفرد يصل في الأمة العربية المسلمة ما بين ٢٢,٠٠٠ دولار و ١٠٠ دولار فقط لا غير!!

فمأزق الإفلاس والعجز عن تحقيق حلم الإنسان في العدل الاجتماعي، ذلك الذي أسقط الشيوعية، حتماً سيأخذ بخناق هذه «الرأسمالية - المتوحشة» وخاصة في وطن العروبة وعالم الإسلام.. ذلك أنه إذا كان قطاع من المسلمين قد عانوا ويلات الشيوعية نحواً من سبعين عاماً، فإن كل المسلمين - ومعهم أمم وشعوب وحضارات الجنوب - قد اكتتروا بنيران الرأسمالية واستعمارها وإمبريالياتها منذ قرنين من الزمان!

فلسنا - ولا يمكن أن نكون - بإزاء «نهاية التاريخ» المكرسة لانتصار الرأسمالية وإنما نحن مقبلون - إن شاء الله - على «تاريخ النهاية» لهذه الرأسمالية المتوحشة.. مثلها كمثل كل النظم التي غالت في «الديوية» فتعاملت مع الجانب الحيواني في الإنسان وحده، محاولة طمس الروحانية والريانية في هذا الإنسان.

وإذا كانت الخديعة الكبرى التي زيفت بها الشيوعية وعي الجماهير، إنما كانت دعوى تحقيقها ملكية الجماعة بدلاً من الفرد، وسلطان الأمة على الثروات والأموال، بدلاً من استبداد الفردية بها، وطغيانها بهذا الاستبداد.. فلقد كان سقوط الشيوعية حتمًا عندما اكتشفت الجماهير أن الشيوعية قد تكشفت عن لون جديد من الرأسمالية؛ رأسمالية الدولة، رأسمالية البيروقراطية الحاكمة «رأسمالية الحزب الفتك» ولم تبلغ حتى رأسمالية طبقة البروليتاريا، فضلاً عن أن تكون ملكية الأمة والجماعة - كما كان الزعم والحلم الذي اتخذت به قطاعات عريضة من الجماهير.

وإذا كان من العيب أن يستجير العقلاء من «رمضاء الشيوعية» بنار «الرأسمالية المتوحشة» فلقد كان ذلك هو سر النهوض للصحوات الإيمانية في كل الديانات.. صحوات تسعى إلى هدى السماء لتدبر به شئون العمران الأرضي خروجاً من هذا الكابوس الذي تجسد في إخفاقات وإفلاسات الفلسفات «والأيديولوجيات» والنظم الدنيوية التي أفرزتها الحضارة الغربية، ورزأت بها الإنسانية المعاصرة جمعاء..



لذلك كان انعطاف اليقظة الإسلامية المعاصرة - منذ عدة عقود إلى إحياء نظام الوقف الإسلامي والدراسة الدورية في تجديد الحضارة الإسلامية، وهو الذي نهض بالدور الأعظم في صناعة حضارتنا لأكثر من عشرة قرون.. فالوقف الإسلامي:

■ الذي هو إعادة المال من ملك الإنسان، وملكته المجازية، إلى ماله الحقيقي - الله سبحانه وتعالى - هو المحقق دون كل النظم الدنيوية - ملكية الأمة والجماعة في الثروات والأموال.. لأن الأمة هي المستخلفة عن الله في هذه الأوقاف..

■ وهو - لذلك - يعظم دور « الأمة » في مواجهة « الدولة » التي عدت « أخطبوطًا » يقلص مبادئ الحرية الإنسانية - وخصوصًا هذا الشكل « للدولة » الذي نقلناه عن الدولة القومية في الحضارة الغربية، فالوقف عندما يحقق جوهر ملكية الأمة في الثروات والأموال إنما يوسع في ذات الوقت مساحة سلطان « الأمة » مقاصًا بذلك طغيان « الدولة » واستبدادها..

■ وهو - الوقف - مع ذلك ، وفوق ذلك آلية فعالة من آليات التنمية المستقلة في عالم الإسلام الذي يشكو من قيود التبعية التي تكبل مشاريعه التنموية، بل إن التنمية بالوقف تتعدى حدود الاستقلال بالمعنى الاقتصادي إلى حيث تمثل نمطًا مستقلًا بالمعنى «الفكري» أيضًا، فالتنمية به هي تنمية بآليات ومذاهب الإسلام، تميز هذا النمط من التنمية عن نظائره في الفلسفات والحضارات غير الإسلامية.. فهو استقلال اقتصادي، وخصوصية مذهبية وعزة فكرية أيضًا!

■ وأخيرًا - وليس آخرًا - فهو سبيل للرخاء الدنيوي والعدل الاقتصادي، يقضي إلى سعادة في الدار الآخرة التي هي خير وأبقى، فهو نموذج من العدل الاجتماعي الذي يوضع في ميزان أصحابه يوم الدين!



النهوض بالمرأة .. ووسطية الإسلام

يقول الله - سبحانه وتعالى - في محكم التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

أى أن الوسطية فى أمة الإسلام هى «جعل» إلهى وليست مجرد «خيار» أو «اختيار» يأخذ به المسلمون أو يدعو، فهى صفة من صفات الأمة الإسلامية، وشرط من شروط شهودها على الناس.. ومن ثم فبدونها لا تتحقق العدالة - عدالة الشهود فى أمة الإسلام..

ولأن هذا هو المعنى القرآنى لمصطلح «الوسطية» كان البيان النبوى لهذا البلاغ القرآنى، فى حديث رسول الله - ﷺ - الذى يقول فيه: «الوسط: العدل، جعلناكم أمة وسطا» رواه الترمذى. ولما كنا نقول فى «مأثورات الحكمة»: «العدل أساس الملك» فلقد رمزنا إلى هذا العدل بالميزان الذى اعتدلت كفتاه. والكفتان فى ميزان العدل، لا يمكن أن تعتدلا إلا إذا جمع القاضى والحاكم والراعى بين عناصر الحق والعدل من كل من المدعى والمدعى عليه.. فالعدل لا يقوم ولا يتحقق إذا نظر القاضى بعين واحدة إلى طرف واحد من أطراف الاختصاص.. وكذلك الفكر لا يكون عادلاً ولا منصفاً إذا تجاهل جانباً من جوانب الواقع.. وكذلك الثقافة لا تكون عادلة ولا منصفة إذا هى تجاهلت حقيقة من حقائق المعارف والعلوم.. وكذلك الاجتماع الاقتصادى والمعاشى لا يمكن أن يكون عادلاً إذا تجاهل طبقة من الطبقات فى المجتمع الذى تتفاوت فيه الطبقات فى أمور المعاش..

وقياساً على هذه الحقيقة من حقائق الوسطية الإسلامية المميزة لأمة الإسلام - لا يمكن أن يكون اجتماعنا إسلامياً كاملاً، وعادلاً حقاً، إذا قام على إنصاف الرجال دون النساء، وعلى مراعاة الذكور دون الإناث.. فالوسطية - أى العدل - المحققة لشهود الأمة الإسلامية على الناس، لا تقوم إلا إذا تحقق التوازن بين الفرقاء المختلفين، والأقطاب المتمايزين، والأركان المتغايرين فى كل ميدان من ميادين

الفكر.. والواقع.. والاجتماع.. فالوقوف على «ساق واحدة» هو لعبة مؤقتة للبهلوانات وإغفال التوازن - أى العدل والإنصاف - بين فرقاء الاجتماع الإنسانى هو الظلم المضاد للعدل الذى هو فريضة إلهية، واسم من أسماء الله - سبحانه وتعالى - والروح السارية فى حضارة الإسلام والمميزة لها عن غيرها من الحضارات..

ولهذه الحقيقة من حقائق إسلامية الاجتماع، استحالت النهضة الإسلامية إذا أردناها إسلامية حقاً إذا هى قامت على الرجال دون النساء.. فبدون النهوض بالمرأة يستحيل أن تتحقق نهضة للرجال، خصوصاً وأن الفطرة التى قطر الله الناس عليها قد جعلت من الرجال «صناعة» تقوم بها النساء!

فبدون النهوض «بالصناع» يستحيل النهوض «بالمصنوعات»!

ومن هنا يكون الفقه الحقيقى لمعانى الآيات القرآنية التى أقامت الحياة السوية على الرجال والنساء جميعاً «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» [التوبة: ٧١] «لَهُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» [البقرة: ١٨٧] - «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» [النساء: ٢١] - «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» [الروم: ٢١] - «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا رُوحَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» [الأعراف: ١٨٩] «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ» [البقرة: ٢٢٨].

ومن فقه هذا البلاغ القرآنى يأتى الفقه للبيان النبوى لهذا القرآن، والذى يقول فيه المعصوم - عليه السلام - «النساء شقائق الرجال» رواه الترمذى والدارمى و«رفقا بالقوارير» - رواه البخارى - و«خيركم خيركم لأهله» رواه ابن ماجه والدارمى - وهو الفقه الذى تجسد فى مدرسة النبوة التى صنعت وخرجت - فى أقل من ربع قرن - أكثر من ألف قيادة نسائية من جملة ثمانية آلاف من الصحابة، الذين مثلوا الريادات والقيادات والصقوة الذين قادوا النهضة التى أقامت الدين.. وأسست الدولة.. وغيرت اتجاه التاريخ.. وصنعت حضارة الإسلام.. وإذا كانت القاعدة الذهبية فى النهضة والتقدم تقول لنا: «إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» فإن النهضة الإسلامية المنشودة والإقلاع الحضارى الذى نسعى إليه، لن يتحقق إلا إذا قام على ساقين اثنتين: المرأة والرجل كما حدث فى النهضة الأولى التى تحققت يوم ظهر الإسلام.. فذلك هو الطريق للنهضة الإسلامية المتوازنة.. أى العادلة.. أى المحققة لمعنى الوسطية الإسلامية فى الاجتماع الإسلامى الذى تنهض فيه الأمة بالإسلام.

شبهات حول مكانة المرأة في الإسلام

لقد ظهر الإسلام ونطاق الرق شائع وسائد في كل المجتمعات العالمية، منذ قرون وقرون... ولقد ضبط الإسلام نظام الرق على النحو الذي يؤدي إلى تصفيته ويطي صقحته، ولكن بالتدريج، وذلك عندما أغلق وحرّم الأبواب والمصادر والروافد التي كانت تزيد من الاسترقاق، وتمعد «نهر» الرقيق، صباح مساء، بالمزيد من الأرقاء - من مثل الحروب غير المشروعة، والإغارات العدوانية، واختطاف الصغار، والاسترقاق عند العجز عن سداد الديون، وبيع الآباء والأمهات - المعدمين - لأنفسهم ولأولادهم... إلخ... إلخ - فلم يبق الإسلام من مصادر الرق القديم إلا الحرب المشروعة وحدها.. ثم ثنى على ذلك قوسع المصنجات التي تحرر جموع الرقيق - بالقربيات والكفارات.. بل وجعل ذلك مصرفاً من مصارف الزكاة وبيت مال الأمة والدولة - ثم هو - بالإضافة إلى ذلك - قد جعل للأرقاء حقوقاً مدنية قاربت بين وضعهم الاجتماعي ووضع الأحرار - فضلاً عن المساواة في التكاليف الشرعية - حتى تحول الاسترقاق إلى عبء مادي على مالكي الأرقاء بعد أن كان مصدرًا للثراء والاستغلال..

هذا هو موقف الإسلام من الرق والاسترقاق.. وإذا كانت التطبيقات والممارسات التاريخية - وخاصة بعد الفتوحات.. وأوضاع الرق في البلاد المفتوحة.. وتراجع التطبيقات للمثال الإسلامي - إذا كانت هذه التطبيقات التاريخية لم تنسق مع المقاصد الإسلامية في تحرير الأرقاء بالتدريج، الأمر الذي مد في عمر نظام الرقيق حتى إغائه في العصر الحديث، فإن وضع الأرقاء في الحضارة الإسلامية قد ظل متميزاً ومعتزلاً عن وضعهم في الحضارات الأخرى بما لا يقبل الجدل ولا المقارنات..

ولقد عرف نظام الرق حالات «التسرى» أى اتخاذ مالك الأمة والجارية منها «سرية» أى مملوكة، يعدها مالكا ويهيئها للمعاشرة - الجماع - على نحو ما بين الزوج وزوجه. ويتم ذلك عند بعض الفقهاء ليس بمجرد الجماع، وإنما بإحصانها، أى جعلها محصنة، أى رفعها إلى منزلة الزوجة الحرة، من حيث علو منزلتها، واختصاصها به، وحجبها عن الخروج من حرمة - كما كان حال الزوجات فى تلك العصور - وفى ذلك يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «حصنوا هذه الولائد» فهدف التسرى فى الإسلام - فضلاً عن الإحصان الجنىسى والعفة للرجل وأمتة - اختيار أمهات الأولاد، وليس مجرد المتعة الجنسية. ويشهد على ذلك أن الكثير من الأمراء والخلفاء والقواد والعلماء كانت أمهاتهم «سرارى» أى «أمهات أولاد». وفى هذه التسمية «أمهات أولاد» شهادة على أن هذا كان المقصد الأول من نظام «التسرى»..

ولقد وضع الإسلام للتسرى ومعاشرة ملك اليمين ذات القواعد التى وضعها لمنع اختلاط الأنساب، ولتحقيق الاختصاص بين الرجل ومن يعاشر من النساء.. فمنع مجامعة الأمة المملوكة إذا كانت حاملاً حتى تضع حملها وتظهر من نفاسها، ولغير الحامل اشترط الإسلام انقضاء عدتها، وذلك حتى يبرأ رحمها من احتمال الحمل..

ونظام التسرى هذا نظام قديم قدم العبودية فى تاريخ الحضارات والمجتمعات، لم يبتدعه الإسلام ولم تبتدئه الشريعة الإسلامية.. ففى التاريخ القديم تسرى إبراهيم الخليل عليه السلام بهاجر المصرية التى وهبها له ملك مصر، فولدت له إسماعيل عليه السلام أبى العرب العدنانيين.. وفى التاريخ القديم - أيضاً - تسرى سليمان بن داود عليهما السلام بثلاثمائة سريّة.. وكذلك كان الحال فى الحضارة الفرعونية والفارسية، وفى مختلف حقب حضارات التاريخ القديم..

وعندما جاء الإسلام تعامل مع هذه الظواهر والنظم الاجتماعية الموروثة والسائدة على النحو الذى هذبها، وضبط فوضاها، فأعطى الكثير من الحقوق للإماء والسرارى، وفتح أمامهن أبواب العتق والتحرير.. فقديمًا كانت السرية لمجرد المتعة الجنسية، لكن الإسلام جعل إحصانها - أى رفع منزلتها إلى ما يقرب من منزلة الزوجة الحرة - لونا من التكريم.. وقديمًا كانت السرية تظل فى

الاسترقاق حتى لو ولدت الأولاد من مالكها، بل ويسرى الرق على أولادها أيضاً.. فلما جاء الإسلام قررت شريعته أن السرية تصبح «أم ولد» عندما تلد من مالكها، وتصبح حرة بعد وفاته، وكذلك أولادها يكونون أحراراً منذ الميلاد.. وتلك نماذج وسيل للإلغاء التدريجي لنظام الرق، كما شرعه الإسلام..

ومن مقاصد التسرى إحصان الإماء واستعفاف الإماء عن الفجور، ورفع مكانتهن الاجتماعية، وكذلك إحصان المالك لهن بالمعاشرة والجماع، فضلاً عن الإنجاب.. فهو قريب من نظام الزواج، وإن تميز عنه في بعض الأمور.. حتى أن بعض الفقهاء طبق على السراي قاعدة تعدد الزوجات، فوقف بعددهن عند الأربع، كما هو الحال في الزوجات.

ويشترط في الأمة التي يتسرى بها مالكها ألا تكون محرمة عليه بسبب النسب والرضاع - كما هو الحال في الزواج من الحرة - وكذلك يترتب على التسرى ما يترتب على الزواج من الحرامات التي جاء بها القرآن الكريم ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣] فالتحريم بالمصاهرة والنسب والرضاع يسرى على التسرى كما يسرى على الزواج..

ولقد دعا الإسلام إلى تخير السرية كما يتخير الإنسان الزوجة، لأنها ستصبح «أم ولد» ولياساً للرجل، وهو لباس لها، تفضى إليه كما يفضى إليها، وذلك وفق القاعدة النبوية: «تخيروا لنطفكم» رواه ابن ماجه. ولقد أصبح هذا النظام - ككل نظام الرق - جزءاً من التاريخ، ذلك أن إلغاء الرقيق في العصر الحديث، هو تحقيق للمقاصد الإسلامية التي كان مفروضاً أن تتحقق قبل ذلك بقرون طوال..



أما المعاملات الأجنبية في بلادنا العربية والإسلامية فهن خرائ، تسرى عليهن أحكام الإسلام في العفة والعورات وتحريم الزنا وغيض البصر، ولا تجوز معاشرتهن إلا بالزواج الشرعي إذا كن كتابيات محصنات عفيفات كما هو حكم القرآن الكريم ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ مِنْ قُلُوبِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وإذا كان الإسلام يحترم أموال غير المسلمين، حتى لو كانت خمرًا أو خنزيرًا، فإنه من باب أولى أشد احتراماً لأعراض غير المسلمين.



ميراث المرأة وتحريرها

عندما كتبت كتابي: «هل الإسلام هو الحل.. لماذا.. وكيف؟» عقدت فيه فصلاً عنوانه: «التحرير الإسلامي للمرأة» وعرضت فيه لمشكلات المرأة في عالم الإسلام، والحاجات الماسة إلى تحريرها من القيود والأغلال التي حملت منها أكثر مما حمل الرجال، ثم أبرزت الفلسفة الإسلامية المتميزة في هذا التحرير، والنموذج المتميز الذي قدمه الإسلام - منذ عصر صدر الإسلام - لعلاقة النساء بالرجال، وتساويهما كشقيين متكاملين.. وليس كخدين متماثلين - ودور كل منهما في بناء العمران الإنساني..

وفي صفحات ذلك الفصل، ناقشت العديد من الشبهات المثارّة في هذا الميدان سواء منها تلك التي يثيرها - ضد الإسلام - نفر من المتغربين والعلمانيين - من أنصار النموذج الغربي لتحرير المرأة - أو تلك التي يثيرها - باسم الإسلام - نفر من أهل الجمود والتقليد - الذين يتعبدون بألوان من العادات والتقاليد والأعراف، التي أضفوا عليها - زوراً وبهتاناً - قدسية الدين! ومن الشبهات التي عالجتها - في ذلك الفصل - شبهة التمايز بين الرجال والنساء في الميراث، والتي يزعم مثيروها أنها دليل على انتقاص الإسلام من مكانة المرأة وكرامتها، وانتفاء المساواة بين النساء والرجال.. ولقد أثبت في الرد على مثيري هذه الشبهة - أن التمايز في الميراث لا تحكمه الذكورة والأنوثة، وأنه محكوم بمعايير ثلاثة:

أولها : درجة القرابة بين الوارث - ذكراً أو أنثى - وبين المورث - المتوفى - فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب في الميراث..

وثانيها : موقع الجيل الوارث من التتابع الزمني للأجيال.. فالأجيال التي تستقبل الحياة عادة يكون نصيبها في الميراث أكبر من نصيب الأجيال

التي تستدير الحياة، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين..
فالبنات ترث أكثر من الأم - وكلتااهما أنثى - بل وترث أكثر من الأب!
والابن يرث أكثر من الأب - وكلاهما من الذكور!

وقالتهما : العبد المالي الذي يوجب الشرع على الوارث القيام به حيال الآخرين..
وهذا هو المعيار الذي يتمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي
أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ [النساء: ١١].

لأن الذكر الوارث هنا - في حالة تساوى درجة القرابة والجيل - مكلف
بإعالة زوجة أنثى.. بينما الأنثى - الوارثة - إعالتها فريضة على الذكر المقترن
بها- وحالات هذا التمييز محدودة جداً إذا ما قيست بعدد حالات المواريث..
وبهذا المنطق الإسلامي يكون الإسلام قد ميز الأنثى على الذكر في الميراث،
لا ظمناً للذكر، وإنما لتكون للأنثى ذمة مالية تحميها من طوارئ الأزمان
والأحداث وعاديات الاستضعاف!



وإبان الإعداد والاستعداد لانعقاد مؤتمر المرأة - في «بكين» ٢٠ - ٢٥
سبتمبر ١٩٩٥م زارتني مجموعة من السيدات الفضليات العاملات في الحقل
النسائي وكن يرتبن أوراقهن وأفكارهن للاشتراك في المؤتمر.. ودار التساؤل
والحوار حول حقيقة الرؤية الإسلامية والموقف الشرعي الذي يجب تقديمه لهذا
المنتدى العالمي في مشكلات المرأة وقضايا تحريرها..

وعندما طرحت عليهن الرؤية التي كتبتها في كتابي (هل الإسلام هو الحل)
بدت الدهشة على وجوههن جميعاً، لأنها كانت المرة الأولى التي يسمعن فيها هذا
«المنطق الإسلامي» الذي لا يقف من هذه الشبهة العثارة والشائعة موقف الدفاع
أو الاعتذار! أو التردد لمقولة: إن الإسلام قد أنصف المرأة فجعلها ترث نصف
نصيب الذكر بعد أن كانت لا ترث مطلقاً!

ويومئذ أدركت أن هذه القضية - ومثلها من القضايا المشككة - في حاجة
إلى المزيد من الدراسة غير التقليدية، بمنطق غير تقليدي، وب عقل إبداعي، غير
اتباعي، وبأسلوب لا يكتفى بترديد المتعارف عليه في الساحة الفكرية.. ثم إذاعة
وإشاعة هذا المنطق الإسلامي الجديد بين كل المهتمين بقضية المرأة وأوضاعها

ومشكلات حريتها وتحريرها، الإسلاميين منهم والعلمانيين على حد سواء. وذلك حتى يثوب الجميع إلى الحقيقة الإسلامية، ويقترب الفرقاء المختصمون من الكلمة السواء التي جاء بها الإسلام.

وهكذا نجد أن الكثير من الشبهات المثارة ضد المذهبية الإسلامية - في قضية المرأة ومكانتها من الرجل في الرؤية الإسلامية - هي ثمرة للجهل أو التجاهل لحقيقة موقف الإسلام وفلسفته المتميزة في مساواة النساء بالرجال.





عن الجهاد .. والقتال .. والإرهاب

فى الأغلبية الساحقة من وسائل الإعلام - المقرؤة.. والمسموعة.. والمرئية- وفى الكثير من دوائر الفكر والثقافة والسياسة، هناك خلط شديد وكبير بين مفاهيم مصطلحات:

١ - الجهاد.

٢ - القتال.

٣ - الإرهاب.

وهذا الخلط، وإن بدأ فى دوائر الفكر والإعلام الغربى، إلا أن إعلامنا العربى والإسلامى قد تبناه، وشارك فيه بغية الببغاوات!

بل وسقطت فى هذا الخلط كذلك جماعات كثيرة تمارس نشاطاتها تحت رايات الإسلام، الأمر الذى جعل مصطلحاً محورياً فى الفكر الإسلامى، مثل مصطلح «الجهاد» كاد أن يصبح محملاً بظلال سلبية كثيرة لدى كثير من الدوائر السياسية والإعلامية، حتى لقد ذهب «متظمة المؤتمر الإسلامى» إلى حذف هذا المصطلح من البيان الختامى لمؤتمرها الذى انعقد فى «داكار» بالسنگال سنة ١٤١٢هـ سنة ١٩٩١م.. أى قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر - بأمريكا- بعشر سنوات! الأمر الذى يشهد على سبق هذا الخلط فى المفاهيم - مفاهيم هذه المصطلحات - لتلك الأحداث!

■ لقد خلطت دوائر الفكر الغربى - الدينية والسياسية، وكذلك وسائل الإعلام الغربية - بين المفهوم الإسلامى للجهاد، وبين «الحرب المقدسة» فى اللاهوت الكنسى الأوروبى.. وهذا خطأ فادح فى الخلط بين المفاهيم المختلفة تعام الاختلاف..

■ وخلطت كثير من جماعات العنف العشوائى - التى لبست لباس الإسلام - بين هذا العنف العشوائى، الذى حاولت به هز الاستقرار السياسى والاجتماعى

والاقتصادي والأمني لعدد من الدول الإسلامية، والذي هو ترويع للأمنيين وعدوان على الأبرياء.. خلطت بين هذا العنف العشوائي وبين المفهوم الإسلامي للجهاد، حتى لقد أطلقت كثير من هذه الجماعات ولا تزال على تنظيماتها اسم «الجهاد»!

ولقد سار الإعلام على هذا الدرب في خلط المفاهيم.. حتى حسب الكثيرون من ضحايا وسائل هذا الإعلام أن كل قتال في الإسلام هو جهاد.. وأن كل عنف له علاقة بالجهاد.

ثم جاءت الحملة الغربية على ما يسمونه «بالإرهاب» الذي لم يتم تعريفه دولياً حتى الآن!

لتلصق مفهوم هذا المصطلح بالإسلام الدين، بدعوى أن «الجهاد» الذي هو ذروة سنام الإسلام هو العنف القتالي أي الإرهاب الذي يروع الأمنيين ويعتدى على الأبرياء..

الأمر الذي يوجب على العقل العربي والعلم تحريز مفاهيم مصطلحات:

(أ) الحرب المقدسة في اللاهوت الكنسي النصراني الأوربي.

(ب) والجهاد الإسلامي - الذي هو أوسع كثيراً جداً من مفهوم القتال..

(ج) والقتال، الذي هو - في الإسلام - مجرد شعبة من شعب الجهاد.. وضرورة لا يجوز اللجوء إليها إلا رداً للعدوان على عقيدة المسلمين أو أوطان دار الإسلام والذي ضبط الإسلام ممارساته بدستور الفروسية الإسلامية، المحكوم بمنظومة القيم الإسلامية.

(د) والإرهاب، الذي لا علاقة لمفهومه الإسلامي كما جاء في القرآن الكريم - بمفهومه الغربي، الذي شاع في الثقافة الغربية منذ «عصر الإرهاب» الذي عرفته الثورة الفرنسية، في العقد الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي..

وذلك وصولاً إلى المفاهيم الصحيحة والدقيقة لهذه المصطلحات على أمل أن يسهم ذلك في تصحيح الطرح الإعلامي حول هذه الموضوعات التي تعقد حولها المؤتمرات وتدير بصدها الحوارات، وتملاً لقضاءات الإعلام الذي نعيش تحت قصفه هذه السنوات؟

أخلاقيات القتال

التعددية، والتنوع والاختلاف - في كل عوالم الخلق، العادية والحيوانية والنباتية والإنسانية والفكرية - تصل في الرؤية الإسلامية إلى مرتبة السنة الكونية، والقانون الذي لا تبدل له ولا تحويل، فالواحدية والأحدية للحق سبحانه وتعالى، وحده والتعددية هي السنة في كل عوالم المخلوقات.

ولهذه الحقيقة، يرفض الإسلام «فلسفة الصراع» لأن الصراع يعنى أن يصارع طرف الطرف الآخر، فينهي وينفرد بالساحة، والانفراد والاستغناء في الرؤية الإسلامية - هو المقدمة للطغيان، وصدق الله العظيم:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧)﴾ [العلق: ٦، ٧]

ولأن هذه هي ثمرة الصراع، جاء في القرآن الكريم: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزَ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (٧) فَبَلَّ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

وفي مقابل الحضارة الغربية القائمة على فلسفة الصراع، في عالم الأحياء، حيث البقاء للأقوى بدعوى أنه الأصلح والصراع الطبقي في الاجتماع الإنساني، بدعوى أنه هو سبيل التقدم والتطور والمحرك للتاريخ، في مقابل هذه النزعة الصراعية يقدم الإسلام فلسفة «التدافع» الذي هو وسط بين «السكون والموت» وبين «الصراع» والذي هو حراك اجتماعي، يُعدّل المواقف لتصل إلى لحظة الوسط والعدل، دون إنهاء للتعددية والتمايز والاختلاف.. فتستعاش المذاهب والأفكار والفلسفات والطبقات والحضارات حتى إذا ما اختلفت العلاقات بين أطراف التعدد، قوصلت إلى الظلم بدلا من العدل، أو إلى الغلو بدلا من التوسط، كان التدافع سبيلاً لإعادة الفرقاء إلى لحظة العدل والوسطية والتوازن مع بقاء التنوع والاختلاف..

وعن هذه الفلسفة الإسلامية المتميزة تحدث القرآن الكريم

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾
 وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
 حَمِيمٌ ٣٤ وَمَا يُلْقَاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥]

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾
 [البقرة: ٢٥١]

﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغِيرَ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ سُرَاطِعُ الْأَرْضِ وَقِصَاصُ مَنْ سَاجِدٍ يَذْكُرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَقَبُورٌ غَرِيبٌ ٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ غَافِقٌ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١]

والحفاظ على سنة التعددية كانت المقاصد الإسلامية في العلاقة مع
 «الآخر» هي التعايش، والمودة، والبر، والقسط (العدل) حتى مع الأعداء الذين
 يؤمل في تغير مواقفهم المعادية: ﴿غَنَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ
 مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ عَلَى الْأَعْدَاءِ أَنْ تَعْدِلُوا إِلَى الْأَعْدَاءِ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]
 ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومَ أَنْ حَذَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْدِلُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ
 وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]

حتى إذا قرص الأعداء القتال على المسلمين بأن فتنوهم في دينهم، أو
 أخرجوهم من ديارهم.. فإن الإسلام يضع لهذا القتال الضوابط والأخلاقيات التي
 صارت - في التاريخ الإسلامي - دستوراً للقروسية الإسلامية..

وهذه الضوابط والأخلاقيات - في القتال - هي فرائض إسلامية، وواجبات
 دينية، وليست مجرد «حقوق للإنسان» يجوز له التنازل عنها إذا أراد واختار..

■ فالمسلمون لا يجهزون على جريح.. ولا يمثلون بجثة قتيل.. ولا يقتلون
 أسيراً، بل ولا يضيقون عليه في ضروريات وحاجيات الحياة: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ
 عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]

■ والمسلمون لا يقاتلون ولا يقتلون غير المقاتلين.. فلا قتال ولا قتل للنساء
 غير المحاربات.. والأطفال.. والشيوخ المسنين.. والمسالمة.. والرهبان والعباد..

والمنصرفين عن القتال إلى الزراعات والتجارات والصناعات والحرف وشؤون
ال عمران المدني غير الحربي..

■ بل إن المسلمين - عندما يفرض عليهم القتال - مطالبون بالحفاظ على
الطبيعة والرفق بمكوناتها قدر الإمكان.. فهم لا يقطعون شجراً، ولا يقتلعون
زرعاً، ولا يدمرون البيئة.. ولا يذبحون حيواناً إلا لضرورات الحفاظ على الحياة
لأن الطبيعة في الرؤية الإسلامية كالإنسان هي خلق الله لها حياتها، بل إنها
تسبح الله سبحانه وتعالى، وإن لم يفقه الإنسان لغة هذا التسبيح.. فالعلاقة بين
الإنسان المسلم وبين الطبيعة هي علاقة مواخاة وارتفاق لا علاقة قهر وتدمير..
ولقد صاغت السنة النبوية الشريفة دستور الفروسية الإسلامية هذا في
أحاديث نبوية، كما وضعت السنة العملية في الممارسة والتطبيق..

- فعن عبد الرحمن بن كعب أن رسول الله ﷺ «نهى عن قتل النساء والولدان»
رواه مالك في الموطأ.

- ولقد كتب عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - إلى أحد ولاته فقال: «إنه بلغنا
أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: «اغزوا باسم الله، في سبيل
الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً»
رواه مسلم ومالك في الموطأ.

- ولقد صاغ أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - هذه الأخلاقيات الإسلامية في
دستور للفروسية الإسلامية عندما أوصى «يزيد بن أبي سفيان» (١٨هـ -
٦٣٩م) وهو يودعه أميراً على الجيش الناهب لرد عدوان الروم البيزنطيين في
الشام فقال: «إني أرى قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذهبهم وما زعموا
أنهم حبسوا أنفسهم له.. وإنى موصلك بعشر: لا تقتلن امرأة.. ولا صبياً..
ولا كبيراً هرمًا.. ولا تقطعين شجراً مثمرًا.. ولا تخربين عامراً.. ولا تعقرن شاة
ولا بعيراً إلا لمأكلة.. ولا تحرقن نخلاً.. ولا تفرقنه.. ولا تغلن.. ولا تجبن» رواه
مالك في الموطأ.

فكان ذلك أول دستور لأخلاقيات القتال، قبل اتفاقيات «جنيف» بأربعة عشر
قرناً من الزمان!

■ ولقد سجل التاريخ أن الغزوات العشرين، التي رد بها رسول الله ﷺ عدوان المشركين ومن تحالف معهم من اليهود، لم يقتل فيها سوى ٣٨٦ قتيلاً، منهم ٢٠٣ هم قتلى المشركين و ١٨٣ هم شهداء المسلمين.. بينما الحروب الدينية، داخل النصرانية، بين الكاثوليك والبروتستانت والتي دامت أكثر من قرنين قد أبعد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا.. ونخصيهم «قولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨] فيقول إنهم عشرة ملايين! فالحمد لله على نعمة الإسلام.





من آداب القتال في الإسلام

في جميع الآيات القرآنية التي تحدثت عن القتال - سواء عن الإذن به، أو الوجوب له، أو التحريض عليه - كان التشريع والشرعية للقتال خاصاً بمن يفتن المسلمين في دينهم - والفتنة أكبر من القتل - وبمن يخرجون المسلمين من ديارهم: ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير﴾ (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠].

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (٢١٦) يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وأخرج أهله من أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴿[البقرة: ٢١٦، ٢١٧].

ولقد وضع الإسلام للحرب آداباً ومعايير، منها أن يكون رد العدوان بمثل ما حدث به العدوان، وذلك حتى لا يستبيح الناس في الحرب غير المباح، ولأن الحرب - في الرؤية الإسلامية - هي جراحات استثنائية، يجب الوقوف في آلياتها ومقاصدها ونطاقها عند المداواة للداء الذي فرضها دون الآليات والمعاصد التي توسع أبوابها فتحول الداء إلى أدواء. ولذلك جاء في القرآن الكريم عن هذه الضوابط: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتذوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤].

والأصل في القتال هو مقاتلة المقاتلين من الأعداء المعتدين، وليس قتال ولا قتل النساء والأطفال وعموم غير المقاتلين وعن هذه الشمائل الفروسية الإسلامية تحدثت وصايا رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين للجيوش والسرايا والبعوث القتالية: «لا تقتلوا شيخاً، ولا امرأة، ولا صبياً ولا عبداً أو راهباً في صومعته».

بل وتحدثت هذه الشمائل وآداب القروسية الإسلامية عن الاحترام والرفق والحفاظ على الحيوانات والنباتات، فدعت إلى عدم قطع الأشجار أو ذبح الحيوانات إلا لضرورة الطعام..

وفي هذه الشمائل سبق الإسلام المعاهدات الدولية مثل معاهدة «جنيف» لسنة ١٩٤٩م التي تحرم قتل المدنيين، بمن فيهم النساء والأطفال في أثناء الحروب وحتى في الأسرى، يميز الإسلام بين المقاتلين وغير المقاتلين، فيجعل الأسرى والأسرى فقط للمقاتلين للمسلمين إذا ظفر بهم المسلمون أحياء بيثما يعد النساء والأطفال «سبايا» بلغة وقواعد التاريخ القديم، وهذا التمييز تظهر آثاره في أن المقاتلين يجب أسرهم بينما غير المقاتلين وخاصة النساء والأطفال لا يجوز أسرهم في بعض المذاهب الإسلامية - طالما لا يخشى المسلمون ضرراً من تركهم أحراراً..

وإذا كان أسرى الحروب - المقاتلون - تتم تصفية أوضاعهم عند انتهاء الحروب، وفق المعاملة بالمثل بين الفرقاء المتحاربين فليدفع القرآن لذلك قاعدة: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْبَتْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الرِّبَاطَ ثُمَّ إِذَا بِكُمْ مِنْهُمْ عَدُوٌّ يُفَوِّتُكُمْ فَاقْتُلُوا قَاتِلَكُمْ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ قَاتِلٌ فَلَكُمْ مَا فَتَكْتُمُ وَالْأَمْلَاقُ فَكَانَتْ نِصْفًا لَكُمْ وَمِنْهُمْ مَن مَّا يَفْتَنُ الْغُلَامَ وَلَئِنْ لَّمْ يَجِدْكَ الْغُلَامَ يَفْتَنِهِ الْغُلَامَ فَأَنْتُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [محمد: ٤].

فإن من باب أولى تصفية أوضاع من يقعون في أيدي المسلمين من النساء والأطفال وفق المعاملة بالمثل.. مع تحريم قتلهم في كل الحالات لأن الإسلام يحرم قتل غير المقاتلين، ولا يجوز قتل المقاتلين إلا لضرورة القتال وفي أثناء هذا القتال وفي القتال المشروع، وليس في أي قتال وإذا كانت الحروب الحديثة، بأسلحتها التي تعمم القتل والدمار لم تعد تميز في الكثير من الأحيان بين المقاتلين وغير المقاتلين، ولا بين الكبار والصغار ولا بين الرجال والنساء بل ولا بين الأهداف العسكرية والمدنية بما فيها المستشفيات ودور العبادة فإن المعاهدات الدولية التي تحرم وتجرم قتل المدنيين واستهداف الأهداف المدنية، متمشية تماماً مع مقاصد الإسلام في هذا الموضوع.



الجهاد في سبيل الله (١)

الجهاد من جهد - هو كل جهد يوجه إلى غرض معين وبذل ما في الوسع من القول والفعل والدعوة إلى الدين الحق.

وفي عرف الصوفية: مجاهدة النفس هي الجهاد الأكبر.. أما القتال فهو الجهاد الأصغر، والجهاد بصوره المختلفة، بما فيها الصورة القتالية فريضة إسلامية عند توفر دواعيها واكتمال شروطها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وهو فريضة كفائية - اجتماعية إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإذا لم تنهض به الأمة وقع الوزر والإثم على الأمة جمعاء - ففروض الكفاية - الاجتماعية - أشد تأكيداً وخطراً من فروض الأعيان - الفردية! ودليل كفايته قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فهو كالعلم المتخصص وكالدعوة من فروض الكفاية الاجتماعية ومن الأدلة على كفايته أيضاً قول الله سبحانه وتعالى ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥] فقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ دليل على أنه فرض كفاية..

ويتعين الجهاد فيصبح فرض عين على كل مسلم ومسلمة - حتى ليباح للمرأة أن تخرج إليه دون إذن زوجها وهي التي لا يباح لها ذلك في أدائها لفريضة الحج! يتعين الجهاد إذا وطئت قدم الأعداء أرض الإسلام.. فيكون الجهاد فرض عين على أهل البلد الذي غزاه الكفار وفرض كفاية على غيرهم من أهل

الأوطان الإسلامية الأخرى إلا إذا عجز أهل البلد المغزى عن إجلاء العدو فإن
الجهاد يتعين على أهل من يليهم من البلاد..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ويشترط فيمن يجب عليه الجهاد أن يكون: مسلماً.. بالغاً.. حراً.. عاقلاً.. قادراً
على أداء مهمة الجهاد.. وإذا كان الجهاد قرص كفاية يزداد شرطه إذن الوالدين
لمن والداه - أو أحدهما - على قيد الحياة!



وفريضة الجهاد إسلامية خالصة، تميزت بها الشريعة الإسلامية عن الشرائع
الدينية لأمم الرسالات السماوية السابقة.. لعموم الرسالة المحمدية إلى كل البشر
وخلودها كخاتمة لرسالات السماء.. فعمومها يقتضى الدعوة إليها بين كل
الأقوام والأوطان، الأمر الذى يستلزم الجهاد لحماية الدعوة والدعاة.. وخلودها
كخاتمة للرسالات السماوية يقتضى حمايتها من العدوان عليها وعلى أمتها
بالجهاد.. فبدون حمايتها بالجهاد سيرد - بحكم سنة الصراع بين الحق والباطل
- عدوان الباطل عليها، الأمر الذى يؤدى إلى الزهاب بها وبأمتها حيث لا نبى
بعد محمد ﷺ ولا شريعة بعد شريعته ولا كتاب بعد القرآن.. فعمومها، والتبليغ
بها، والدعوة إليها فريضة والحفاظ على خلودها فريضة.. ووجوبها يقتضى
فريضة الجهاد سياجا للعموم والخلود!



الجهاد في سبيل الله (٢)

ويسبب من اختصاص الشريعة الإسلامية، وأمتها بفريضة الجهاد، ويسبب من تاريخ هذه الأمة الحافل بالقتال والجهاد، الذي فرضه عليها الأعداء، البيزنطيون، والتتار، والصليبيون القدماء، والمحدثون؛ فلقد تعرضت الشريعة الإسلامية وأمتها لاقتراءات من كثير من غير المسلمين الذين كتبوا عن الجهاد، وكانت أبرز الاقتراءات تلك التي زعم أصحابها أن انتشار الإسلام قد تم بالسيف. سيف الجهاد الإسلامي! وبعبارة المستشرق ماكدونالد Macdonald, D.B [١٢٨٠ - ١٣٦٢ هـ = ١٨٦٣ - ١٩٤٣ م]: فإن «نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة»! وسبب هذه الفرية - إذا افترضنا حسن النية - هو الخلط بين استخدام سيف القتال في إقامة «الدولة» وبين استخدام سيف الجهاد لنشر وإقامة «الدين» فالمسلمون - وهذه حقيقة تاريخية - قد فتحوا بالعنوة أو بالصلح بعض البلاد، وأدخلوها في إطار الدولة الإسلامية.. وكانوا بذلك يحررون أوطاناً شرقية من موجة الغزوة الغربية - في صورتها وطورها البيزنطي فالسيف قد استخدم في إقامة «الدولة» لكن هل استخدم في نشر «الدين»؟

هنا ترد الحقيقة الفكرية التي تميز بها الإسلام.. حقيقة تحريره للضفير ليؤمن أو ليكفر بالحرية والاختيار:

﴿اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

[يونس: ٩٩].

﴿فَذَكَرْنَا إِلَهُكَ أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ (٢١١)، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

وهذه الحقيقة الفكرية الإسلامية، قد تأسست على حقيقة طبيعية نبعت من مفهوم ومعنى «الإيمان» في الإسلام. فالإيمان: تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين.. ومن ثم فإنه يستحيل تحصيل وامتلاك اليقين القلبي بالإكراه! إن الإكراه قد يثمر نفاقاً.. «شكلاً للإيمان» لكنه لا يثمر اليقين القلبي الخالص لوجه الله.. والذي هو حقيقة «الإيمان» في عرف الإسلام.. وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]: «... فالقهر لا يحدث إيماناً والإكراه لا أثر له في الدين»..

وهذه الحقيقة الفكرية الإسلامية، لم تكن مجرد «موقف نظري» غايره واقع المسلمين.. بل لقد وضعت وساندت في الممارسة والتطبيق، ليس فقط بدليل بقاء الكتابيين على أديانهم وشرائعهم في دولة الإسلام - وهو أمر انفردت به دولة الإسلام دون دول الديانات الأخرى! وإنما بدليل أن المؤمنين بدين الإسلام قد ظلوا أقلية عديدة في الإمبراطورية العظمى التي فتحتها المسلمون لعدة قرون! لقد استخدم السيف، أحياناً في إقامة «الدولة» لكن رعية هذه «الدولة» من غير المسلمين، قد ظلوا على دياناتهم القديمة، لعدة قرون حتى دخلوا في الإسلام بالموعظة الحسنة، والقدوة الطيبة.. بالتدريج.. وكما لم تنتشر «العربية» بسيف الجهاد الذي أقام «الدولة» فكذلك كان الحال مع انتشار «دين الإسلام»!

بل إن قصة الإسلام وجهاده مع «الشرك» والمشركين قد شابهت قصته مع «أهل الكتاب» لقد اضطهدوا الرسول ﷺ والمسلمين والإسلام.. وقتلوه في الدين.. وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم.. حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. فتركوا أوطانهم مهاجرين، عبر البحار والغياقي.. وجرى عليهم قهر الاستضعاف حتى لقد كانوا ينثنون منه داعين ربهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْغَرَّةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصْرًا﴾ [النساء: ٧٥].

ومع كل هذا، وحتى بعد أن فر المسلمون بدينهم تاركين الوطن والدار والمال والأهل ظل الجهاد الإسلامي سياجاً لحماية حرية الدعوة والدعاة ولحفظ الدولة الوليدة من عدوان المشركين.. فكان «الإن» بالقتال انتصافاً للمعتدى عليهم، الذين ظلموا.. وظل الوفاء بعهد المشركين موقفاً وخلقاً إسلامياً مرغياً.. واستمر الجهاد رداً للعدوان، وليس مبادأة بالعدوان.. ولم يحدث أن كان السيف والإكراه سبيلاً للإيمان بالدين الجديد!



الجهاد في سبيل الله (٣)

لقد بدأت قصة الإسلام مع فريضة الجهاد بالآيات الثلاث التي صاحب نزولها تمام حدث الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة، وبدء قيام الدولة الإسلامية.. وهي الآيات التي «أذنت» مجرد الإذن للمسلمين في استخدام القتال للانتصاف من الظالمين لهم، الذين استغزوه من الأرض فأخرجوهم من الديار. وذلك إعمالاً لسنة الله في التدافع الفكري والحضاري ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (٣٨) أدن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغیر حقٍ إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الصرامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصرة إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٨ - ٤٠].

لقد أذن - مجرد إذن - للمظلومين الذين يقاتلون في استخدام وسيلة القتال لرد ظلم المقاتلين المعتدين!

وفيما بين السنة الأولى من الهجرة والسنة السابعة التي أعقبت صلح الحديبية والتي تمت فيها عمرة القضاء في هذه السنوات السبع شهد المسلمون أكثر من عشرين غزوة، مارسوا القتال في عدد منها.. ومع ذلك، فلقد ظل قتالهم هذا طوال هذه السنوات محكوماً «بالإذن» الإلهي للمظلومين في أن يستخدموا أدوات «الصراع» في ردع الظالمين الذين أخرجوهم من الديار!

فلما كانت السنة السابعة من الهجرة، وتجهز المسلمون للسفر من المدينة قاصدين مكة لأداء عمرة القضاء وفقاً لصلح الحديبية، توجس المسلمون خيفة من غدر المشركين بهم عند أدائهم مناسك العمرة فهم سيدخلون مكة معتمرين وليس معهم من السلاح سوى سلاح المسافرين.. وهم في الأشهر الحرم، التي لا يحل فيها القتال وفي البيت الحرام، الذي لا يجوز فيه القتال! وأمام خشية المسلمين

هذه من غدر المشركين ونقضهم عهد الحديبية.. نزلت الآيات التي تسمى «الإذن» بالقتال ردا للعدوان حتى ولو كان ذلك عند البيت الحرام وفي الشهر الحرام لقد ظل التكليف عند حدود «الإذن» مع إضافة حله عند البيت الحرام وفي الشهر الحرام مادام القتال ردا للعدوان! ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنِ اللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠ - ١٩٤].

فأمام عدوان المشركين، ونقضهم العهد، واستحلالهم حرمة الشهر الحرام والبيت الحرام على المؤمنين قتال الذين أخرجوهم من ديارهم، واجتهدوا في فتنتهم عن دينهم دونما تخرج من «الحرمات» ذلك أن (الحرمات قصاص) وفي القصاص حياة لأولى الألباب!

بل وأكثر من ذلك، فإننا عندما نتأمل آيات «القتال» في سورة «براءة» - التوبة. تلك التي يرجف المغرضون في دعاوى انتشار الإسلام بسيف الجهاد فيقولون إنها تشرع لنشر الإسلام بالسيف، وإنها لذلك قد حلت من «البسمة» حتى لا تفتتح بذكر «الرحمن الرحيم»! حتى آيات القتال في هذه السورة تراها تأمر المسلمين بقتال من نقض العهد وغدر بالمواثيق دون الذين استقاموا على عهدهم، رغم أنهم مشركون؟! فهي تشرع للفتح حتى يعود المهاجرون الذين أخرجوا من ديارهم إلى تلك الديار.. وحتى ينال الناكثون للعهود ما يستحقون من القصاص والقاديب.. وحتى تأمن الدعوة الإسلامية غدر هؤلاء الناكثين.. فما في آيات هذه السورة - عن القتال - لا علاقة له «بالعدوان» إلا من حيث كونه ردا له! ولا علاقة له من تم بنشر «الدين» عن طريق «القتال» ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ (١) فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخبري الكافرين (٢) وأذن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم (٣) إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم

يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (١٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا مِنْهُمْ وَاحْصَرُواهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (١٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿[التوبة : ١ - ٧]﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمُّوا الْكُفْرَ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٧) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٨) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ مَنَازِلِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٩) وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿

[التوبة : ١٢ - ١٥]

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبِضُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ أَنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اغْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اغْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿

[البقرة : ١٩٠ - ١٩٤]



الجهاد في سبيل الله (٤)

مناسبة فتح مكة سنة ٨ هـ

وهكذا، فرغم أن المناسبة كانت محاطة بنضج الظروف السياسية لفتح المسلمين لمكة، وهو الفتح الذي يمثل «عودة» المهاجرين إلى الوطن الذي «أخرجوا» منه قسرا وظلما وعدوانا. ورغم ما يمثله هذا «الفتح» من شرط ضروري لتأمين الدعوة الإسلامية وضمان حرية دعائها في شبه الجزيرة العربية، بالقضاء على البؤرة المشتركة المحركة للقوى المتناوئة للدين الجديد. رغم كل ذلك، فلقد ظل الأمر الإلهي للقتال في سورة التوبة محكوماً بالمنهج الإسلامي الأصيل للجهاد أن لا عدوان إلا على المعتدين الظالمين الناكثين للعهود

وحتى عندما جاء نصر الله والفتح.. ودخلت مكة في الدولة الإسلامية.. لم يفرض رسول الله ﷺ «الإيمان الديني» على أهلها بسيف الجهاد. وإنما خطبهم سائلا

« ما تظنون أني فاعل بكم؟ »

فأجابوه وهم الذين صنعوا به وبأصحابه ويدعوته ما صنعوا - أجابوه

« أخ كريم وابن أخ كريم »

فقال لهم عليه الصلاة والسلام

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »

فأين هو نشر الإسلام بالسيف الذي يرجف به المرجفون؟

إن ملايسات القضايا التي تثار والأفكار التي تلقى هي مما يساعد على فهم طبيعة ومقاصد هذه القضايا والأفكار. وكذلك معرفة حظ هذه القضايا والأفكار من الصدق والموضوعية والاتساق.

والأمر الملحوظ في ملايسات الدعاوى التي زعمت أن «نشر الإسلام بالسيف هو فريضة كفائية على المسلمين كافة» هو ارتباط هذه الدعاوى - التي أرادت تشويه حقيقة الجهاد الإسلامي - بالقرون التي شهدت الغزوة الاستعمارية

الغربية الحديثة لعالم الإسلام واحتواء الاستعمار الغربي لأوطان المسلمين.. فأتساقاً مع الاحتلال العسكري.. والنهب الاقتصادي والاستلاب الحضاري.. جاء تبشويه «الجهاد الإسلامي» لصرف المسلمين عن استخدامه أداة للتحرر من الاستعمار وسبيلاً لرد العدوان!

وفي الوقت الذي كان تفر من المستشرقين يصنعون ذلك.. كانت الفرق المارقة التي صنتها الاستعمار على عينه من مثل «الأحمدية» في الهند و«البابية» و«البهائية» في فارس تنكر شرعية ومشروعية الجهاد!

لقد كان الخوف من إحياء المسلمين لهذه القريضة التي ضمنت للمسلمين - عندما أحيوها - العزة التي كتبها الله لذاته ورسوله عليه الصلاة والسلام ﷺ العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴿ [المنافقون: ٨].

لقد كان الخوف من إحياء الجهاد الإسلامي وراء كل هذه الادعاءات! فبالجهاد يحافظ المسلمون على مقومات الحياة الإسلامية ومقاصدها: وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد». رواه الترمذي. فهو سبيل الحفاظ على مقومات الحياة لأنه سبيل القصاص من المعتدين وفي القصاص الحياة!

وأخيراً.. فإن الجهاد في الإسلام ليس مرادفاً للقتال.. بل هو أوسع من القتال بكثير.. حتى يمكن أن نقول إن ٩٩٪ من ميادين الجهاد هي ميادين سلمية.. فهو بذل الوسع واستفراغ الجهد في أي ميدان من ميادين الإصلاح: إصلاح النفس.. وإصلاح الواقع.. وإصلاح الاجتماع.. فمجاهدة النفس جهاد.. ومجاهدة الشيطان جهاد.. والعلم والتعليم جهاد.. وعمران الأرض وتنمية المجتمع بالمعنى الشامل جهاد.. وبر الوالدين جهاد.. والرفق بالإنسان.. وبالحیوان.. والنبات.. والبيئة والطبيعة جهاد.. والحج والعمرة جهاد..

ولذلك كان الجهاد بهذا المعنى الشامل فرض عين على كل مسلم ومسلمة أن يبذل جهده في أداء الأمانة التي حملها كإنسان لعمران هذه الأرض.. أما الجهاد الذي هو فرض كفاية فهو القتال دفاعاً عن حرية الاعتقاد وحرية الوطن الذي هو الوعاء لإقامة الدين وحياة الإنسان.



عن الشهادة.. والاستشهاد (١)

«الشهيد».. اسم من أسماء الله الحسنى.. لأنه - سبحانه وتعالى - عالم الغيب والشهادة. والغيب: هو ما بطن وخفى.. أما الشهادة: فهي ما ظهر.. فهو - سبحانه - الشاهد المشاهد.. والذي يشهد على خلقه يوم القيامة بما علم وشاهد منهم..

ولقد سمي المؤمن، الذي يقدم روحه فداء لله «ودينه» وأمة رسوله - ﷺ - ودار الإسلام، شهيداً؛ لأنه يشهد ويشاهد مكانته في الجنة في ذات اللحظة التي تنبتق من جسده أول قطرة من الدماء! وفي الحديث النبوي الشريف: قال رسول الله - ﷺ - «لشهداء عند الله ستة خصال: يغفر له أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الخور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه» رواه ابن ماجه.

ولهذه الحقيقة، قرر القرآن الكريم أن الشهداء ليسوا أمواتاً وإنما هم أحياء عند ربهم يرزقون فرحون بهذه الحياة الخالدة التي صاروا إليها - بعد الحياة الفانية - لأن شهودهم وشهادتهم ومشاهدتهم لمكانتهم في الجنة لحظة انبثاق أول قطرة دم من أجسادهم، معناه أن حياتهم الخالدة قد بدأت في ذات اللحظة التي بدأوا فيها المغادرة لحياتهم الفانية والتحول عنها.. فحياتهم موصولة ليس فيها أي انقطاع ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحياءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩)، فرحون بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٧٠). يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ [آل عمران ١٦٩ - ١٧١].

لقد تفردوا بمشاهدة مكانتهم في الجنة - دار الخلد - قبل مغادرتهم دار الفناء.. ومن ثم تفردوا بتجاوز الموت، عندما أقضت حياتهم الدنيا - الفانية - إلى حياتهم الأخرى - الباقية - في جنات النعيم، ولأن الإسلام يريد الإنسان ربانياً، يتسامى على الجانب الطيني في خلقه وخلقه، ليصعد وينطلق من

الجانب الزوجي الذي تفخه الله فيه من زوجه - سبحانه وتعالى - فلقد دعا الإسلام هذا الإنسان إلى الارتفاع والارتقاء بحياته وخلقه وسلوكه من درك الحيوانية إلى آفاق التخلق النسبي والممكن بأخلاق الله وصفاته - المطلقة - ومنها صفة الشهيد فالتخلق بأخلاق الله بمعنى السعي على درب اكتساب الممكن من صفاته - سبحانه - هو سبيل التسامي بالإنسان.

وفي هذا المعنى يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ - ١١١١ م] «إن كمال العبد وسعادته [هي] في التخلق بأخلاق الله تعالى والتخلي بمعاني صفاته وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه ومن لم يكن له حظ من معاني أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم في اللغة تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه في الله تعالى فهو مبخوس الحظ، ونازل، ليس يحسن به أن ينتجج بما ناله، فإن سماع اللفظ لا يستدعي إلا سلامة حاسة السمع التي يدرك بها الأصوات، وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها، وأما فهم وضعه في اللغة فلا يستدعي إلا معرفته العربية وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوي، بل الغبي البدوي، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعي إلا فهم معاني هذه الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها المحامي بل الصبي، فإنه بعد فهم الكلام إذا لقي إليه هذه المعاني تلقاها وتلقنها واعتقدها بقلبه وصمم عليها، ومن حظوظ المقربين من معاني أسماء الله الحسنى.. استعظامهم ما ينكتف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام يشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقتربوا بها من الحق قريباً بالصفة لا بالمكان، فيأخذوا من الاتصاف بها شيها من الملائكة المقربين عند الله تعالى ولن يتصور أن يمتلك القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلي بذلك الوصف إن كان ذلك ممكناً للمستعظم بكماله، فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة.. فيالسعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتخلي بمحاستها يصير العبد ربانياً أي قريباً من الرب تعالى..»

تلك هي ثقافة المسلم وتلك هي آفاق المثل الإسلامية، حيال التخلق بمعاني صفات الله وأسمائه الحسنى ومنها صفة الشهيد، فحتى يكون المسلم شاهداً على الناس.. ومشاهداً لمقعده من الجنة لا بد أن يسعى لبذل جهده ووسعه بما في ذلك الروح والدم ليكون من الشهداء الأحياء الفرحين عند ربهم في جنات الخلود.



عن الشهادة .. والاستشهاد (٢)

ولأن الإسلام دين ودنيا وآخرة.. وفرد وجماعة وأمة.. ودين ودولة ونظام واجتماع.. ولأن مقاصد الشريعة الإسلامية لم تقف فقط عند حفظ الدين.. وإنما أضافت إليه حفظ النفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. فلقد فتح الإسلام أمام المسلم أبواباً كثيرة وواسعة للشهادة والاستشهاد.. فكل ميادين الحفاظ على الدين.. والنفس.. والعقل.. والعرض.. والمال.. هي ميادين للشهادة.. والمقبلون على بذل النفوس والأرواح فيها هم الشهداء الأحياء عند الله الفرحون بما أعد لهم مولاهم في دار الخلود وجنات النعيم.

ولقد جاء في الحديث النبوي الشريف: «من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد» (رواه الترمذي) وأول الناس دخولا في الجنة هم «الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم العكاز» (رواه الإمام أحمد).

فالتضحية بالنفس في جميع ميادين الحفاظ على مقاصد الشريعة - الدينية والدنيوية هي أبواب للشهادة والاستشهاد، تفضي إلى الحياة الحقة الخالدة للشهداء في جنات النعيم..

بل إن هذه الميادين - ميادين الشهادة والاستشهاد التي يحافظ بها المسلم على مقاصد الشريعة الإسلامية - إنما تتسع وترحب بتعدد وتنوع لوازمها وضروراتها..

فالحفاظ على الدين لا يقف عند التمكن من الاعتقاد.. والعبادات.. وإنما يمتد ليكون النظام الحاكم والمحقق لسعادة الدنيا والآخرة..

والحفاظ على النفس لا يقف عند صيانة حياة الأفراد، وإنما يمتد ليشمل كل ما يحقق فاعلية الأنفس والأمم والشعوب وعزتها وكرامتها وحرقاتها.

والحفاظ على العقل لا يقف عند صيانته من السكر والجنون، وإنما يمتد ليشمل كل الميادين والعلوم والفنون والآداب التي تصون العقل والقلب عن التدنى والانتحطاط.

والحفاظ على العرض لا يقف عند الحريم الفردى، وإنما يمتد إلى صيانة جميع الأغراض من كل ما ينتهك حرمتها.. بل وحياءها.. مسلمة كانت تلك الأغراض أم على غير الإسلام من المعتقدات..

والحفاظ على المال لا يقف عند صيانة ما فى الحوزة من الأموال والثروات وإنما يمتد إلى سائر الميادين التي يتحقق بها العدل الاجتماعى بين الناس.. كل الناس.. ففى ذلك يقول العلامة ابن حزم الأندلسى [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م]: «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك، وإن لم تقم الزكوات بهم، ولا فى أموال المسلمين بهم فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكتفون من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.. ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاماً فيه فضل [زيادة] عن صاحبه لمسلم أو ذمى.. وله أن يقاتل عن ذلك فإن قتل فعلى قاتله القود [الدية] وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه مانع حقاً. وهو طائفة باعية قال تعالى: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله﴾ [الحجرات: ٩]

ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق وبهذا قاتل أبوبكر الصديق، رضى الله عنه مانع الزكاة..»

فالاستشهاد فى ميادين تحقيق العدل الاجتماعى داخل فى ميدان صيانة النفس كمقصد من مقاصد شريعة الإسلام.

بل إن تكامل هذه الميادين - على اتساعها - ليبلغ الحد الذى جعل فيه الإسلام صيانة النفس بتحقيق ضروريات حياتها - الشرط لإقامة الدين وهو المقصد الأول لشريعة الإسلام! وفى ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالى: «إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا، فنظام الدين بالمعرفة والعبادة لا يتوصل إليها إلا:

— بصحة البدن.

- وبقاء الحياة.

- وسلامة قدر الحاجات من:

(أ) الكسوة.

(ب) والمسكن.

(ج) والأقوات.

(د) والأمن.

ولعمري إن من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وله قوت يومه فكأنما
حيزت له الدنيا بحذافيرها. ولا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهمات
الضرورية وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقاً بحراسة نفسه من سيوف الظلمة
وطلب قوته من وجوه الغلبة متى يتفرغ للعلم والعمل وهما وسيلتاها إلى سعادة
الآخرة؟ فإذن، بأن أن نظام الدنيا، أعني مقادير الحاجة، شرط لنظام الدين...»
فكل ميادين الصلاح الدنيوي هي ميادين لصلاح الدين، وجميعها مقاصد
للشريعة الإسلامية والجهاد فيها أبوابه مشرعة للشهادة والاستشهاد.



عن الشهادة .. والاستشهاد (٣)

ولهذه الحقيقة ربط القرآن الكريم القتال المشروع، الذي هو ميدان للشهادة والاستشهاد بالحفاظ على حرية الدين والتدين كي لا يفتن المؤمن في دينه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

وبالحفاظ على حرية الوطن الذي هو الوعاء الضروري لإقامة الدين والشرط اللازم لكماله واكتماله.. والذي بدون حريته لا يتم الحفاظ على مقاصد الشريعة الأخرى: النفس .. والعقل .. والعرض .. والمال .. ولذلك بدأ «الإن» في القتال زمن البعثة النبوية للحفاظ على حرية الدين .. وحرية الوطن، منعا للفتنة في الدين.. وللإخراج من الديار ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرون الله من يتصرف إن الله لقوي عزيز﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وكان «الأمر» بالقتال خاصا بذلك أيضا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (١٩٠) وَاَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٢].

وكذلك كان «فرض القتال وإيجابه» مقصورا على هذه الأغراض: حماية الدين من الفتنة وحماية الوطن من العدوان - : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦) يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن

سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل»
[البقرة: ٢١٦، ٢١٧].

فالإخراج من الديار، والفتنة في الدين هما سبب الأمر بالقتال والإيجاب لهذا القتال وكذلك كانت معايير المصالاة والمعاداة مع الآخرين - كل الآخرين - :
﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨١ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَبِئْسَ لَهُمُ الظَّالِمُونَ﴾
[الممتحنة: ٨، ٩].

هكذا وقفت مقاصد القتال عند حماية حرية الدين والتدين.. وحرية الوطن الذي هو الوعاء الضروري لإقامة كامل الدين.. واتسعت ميادين الشهادة والاستشهاد لتشمل كل ميادين الجهاد، الذي هو بذل الوسع واستفراغ الجهد في كل ميادين الصلاح والإصلاح..

ولهذه الحقيقة حقيقة أن حرية الوطن هي الشرط لحرية الدين والتدين.. كانت صيانة الحرية لدار الإسلام باباً عظيماً وواسعاً من أبواب الشهادة والاستشهاد..

إن كثيرين من الجاهلين أو الغافلين يققون اليوم عاجزين عن استيعاب مكانة ثقافة الشهادة والاستشهاد في النسق الفكري الإسلامي، تلك التي جعلت وتجعل «ناشئة الليل» يذيقون الفرغونية الجديدة كتوس المنية في ساحات الجهاد الإسلامي على امتداد ديار الإسلام التي عدت عليها عاديات آلات الحرب الصليبية الصهيونية.. إنهم عاجزون عن فهم قول الشهيد - سيحاته وتعالى: ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ [الزمل: ٦] وعاجزون عن فهم مكانة الوطن في ثقافة الشهادة والاستشهاد الإسلامية.. فالوطن عندهم «تراب» بينما هو في الإسلام «الوعاء الضروري لإقامة الدين وكل مقاصد شريعة الإسلام».



عن الشهادة.. والاستشهاد (٤)

لقد جعل الإسلام حرية الوطن مرادفة ومساوية للحياة ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ أَن
أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].
﴿وَأَذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ يَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تَفَادَوْهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَلَا تُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى
أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فالإخراج من الديار، كالإخراج من الحياة إعدام! تقابله الحياة المتمثلة في
حرية المواطن، التي لا تتحقق إلا في وطن حراً

وإذا كان الإخراج القسري من الديار إعداماً، فإن التفريط في حرية الوطن هو
موت لهؤلاء المفرطين حتى ولو ظل الجانب الحيواني منهم «حياً» يأكلون به
ويشربون! ذلك أن ذهاب منعتهم، وذوبان ذاتيتهم وهويتهم في الغزاة هو موت
حكمي، لا يعوضه بقاء الجانب الحيواني لهؤلاء الذين قرطوا في حرية الأوطان..

ولقد أبدع الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ -
١٩٠٥ م) في تقرير هذه الحقيقة التي رفعت حرية الوطن إلى مرتبة الحياة..
وجعلت الخروج منه، بالتفريط في حريته موتاً ومواتاً، فقال - في تفسيره قول
الله - سبحانه وتعالى - في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ
أَلَوْفٌ حَذَرُ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَشْكُرُونَ ٢٤٣١ وَقَالُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٣، ٢٤٤].

فقال الأستاذ الإمام: «تلك سنة الله - تعالى - في الأمم التي تخين فلا تدفع
العادين عليها.. وحياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى

موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها وذهبت جامعتها فكل من بقوا من أفرادها خاضعون للغالبين ضائعون فيهم، مدغمون في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم ومعنى حياتهم: هو عودة الاستقلال إليهم..

إن الجبن عن مدافعة الأعداء وتسليم الديار، بالهزيمة والفرار هو الموت المحفوف بالخزي والعار. وإن الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة المليئة المحفوظة من عدوان المعتدين..

والقتال في سبيل الله، أعم من القتال لأجل الدين لأنه يشمل أيضا الدفاع عن الحوزة إذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا والتمتع بخيرات أرضنا أو أراد العدو الباغى إذلالنا، والعدوان على استقلالنا، ولو لم يكن ذلك لأجل فتننا في ديننا.. فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق، كله جهاد في سبيل الله. ولقد اتفق الفقهاء على أن العدو إذا دخل دار الإسلام يكون قتاله فرض عين على كل المسلمين..».

فالحفاظ على حرية الوطن هو حفاظ على الوعاء الذي بدونه لا يمكن أن نقيم كامل دين الإسلام.. فانتهاك حوزة الوطن هو المعادل للفتنة في الدين كلاهما يوجب الجهاد القتالي لتحرير الضمير وتحرير الديار..

ولأن الإسلام هو الإحياء للقلوب.. وللأوطان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

كانت ثقافة المقاومة والشهادة والاستشهاد هي السبيل إلى حياة الفرد والأمة والحضارة. وبهذه الحقيقة التي تجسدت منذ صدر الإسلام ديناً وأمة ووطناً، حقق المسلمون - وسيظلون - العزة الإسلامية التي نشأ الله - سبحانه وتعالى - أن تكون من عزته. ومن عزة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وإذا كانت آلة الحرب الباغية والمدمرة للفرعونية الصليبية تحاول وأد اليقظة الإسلامية المعاصرة واغتيال حرية دار الإسلام، فإن ثقافة الشهادة والاستشهاد ثقافة [ناشئة الليل] هي التي تحقق الآن واحدة من أعظم معجزات الإسلام على امتداد أرض المواجهة بين أمة الإسلام وبين فراغنة القرن الواحد والعشرين ﴿وَلَيَنْصَرِنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].



فى التدافع بين الحق والباطل

إذا كان عمر الإسلام قد أكمل الآن أكثر من أربعة عشر قرناً فلقد أمضى المسلمون أغلب هذا العمر فى مواجهة التحديات التى فرضها عليهم الغرب والحضارة الغربية!

فالقرن الأول من عمر الإسلام قضاه المسلمون فى فتوحات تحرير الشرق من الاحتلال البيزنطى الذى امتد من القرن الرابع قبل الميلاد - غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] - وحتى القرن السابع للميلاد.

وما إن أوشك القرن الحادى عشر الميلادى على الرحيل، حتى عاد الغرب تحت أعلام الصليب - فى الحملات الصليبية المتعددة - ليقوم الدول والإمارات الاستيطانية فى قلب العالم الإسلامى على امتداد قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] وإبان هذه الغزوة الصليبية أقام الغرب النصرانى بقيادة البابوية مع الوثنية التنترية حلقاً ضد الإسلام وأمتة وعالمه!

وفى العقد الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى نجح الغرب فى اقتلاع الإسلام من الأندلس عندما سقطت غرناطة (٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م) وليبدأ حرب القرون الخمسة من يومها وحتى الآن الملتفاف حول العالم الإسلامى تم غزو قلب هذا العالم، واحتلال واحتواء أقاليمه وأقطاره.. وفى هذه الغزوة أيضاً استعان الغرب باليهودية بل وبالمدادية والإلحاد.. فى الصراع مع الإسلام والمسلمين!

ولقد تميزت هذه «الدورة» من دورات هذا الصراع «الحضارى - التاريخى» بدخول «الفكرة» جبهة من جبهات هذا الصراع عندما نهض «التبشير التنصيرى» و«الاستشراق السياسى» و«الغزو الفكرى» بأدوار رئيسية على ثغرات هذه الجبهة الفكرية فى الميدان الواسع والممتد لهذا الصراع.

ورغم تعدد أدوات الفكر الغربي ومدارسه ومناهجه، ومنطلقاته، فلقد اتفقت مؤسساته ومذاهبه على اعتبار الغرب عند النظر إلى الإسلام - هو «المعيار» الذي يتم الوزن والقياس بالنسبة إليه.. وهو «المطلق» ونحن «النسبي».. وهو «المركز» ونحن «الهوامش.. والأطراف»!

فإسلامنا «هرطقة نصرانية»! وحضارتنا «ساعى يزيد» نقل علوم الإغريق إلى الأوروبيين المحدثين، وشرقنا «أدنى» أو «أقصى» أو «أوسط» بحسب موقع أجزائه من «المركز الأوربي»!

لكن هذا الادعاء الغربى لم ينجح فى إخفاء مخاوفه من الإسلام وحضارته ولا فى التغطية على حجم هذه المخاوف التى لم يستشعر الغرب مثلها، بل ولا بعضاً منها تجاه غير الإسلام من الديانات والحضارات.

فالتخبرة التاريخية قد جعلت الغرب يرى فى الإسلام «تفجير الإحياء والتحرير» للشرق من قبضة الهيمنة والاستغلال الغربيين.. إن فى التاريخ القديم، أو الوسيط أو حتى هذه اللحظات.. والتدافع الحضارى علم الغرب أن الحضارة الإسلامية هى المنافس الحضارى الوحيد - على الساحة العالمية - لحضارته الغربية.. فحضارات الهند والصين واليابان حضارات «محلية» لا تمتلك العطاء الحضارى المصالح للاستلهاهم فيما وراء حدود أوطان هذه الحضارات ولذلك فإن منافسة أممها للغرب لا تتعدى مزاحمة «مصانع» و«مراكز إنتاج» فى «سوق الاقتصاد»... وليس هكذا حضارة الإسلام، المالكة لوسطية التوازن والعدل المفتقدة فى الصيغة الحضارية الغربية، تلك التى تفتح لها أبواباً حتى فى قلوب الشعوب الغربية ذاتها، وعلى النحو الذى يجعل الغرب يخشاهما لا كمجرد «منافس» وإنما «كيدىل»!

ولهذه الخصوصية من خصوصيات الصراع بين الغرب والإسلام وحضارته وأمنه وعالمه كان اهتمام الغرب «بالتفجور الفكرية» على جبهة هذا الصراع..

فالاستشراق القديم مثل «الثغرة الفكرية» فى جبهة الزحف الغربى على ديار الإسلام، وأعان بامتلاك مفاتيح التعامل مع العقل المسلم - أعان دوائر الاستغلال الاقتصادى والاحتلال العسكرى على إلحاق الشرق بالغرب، واليوم، وأمام فشل «النخب العلمانية» المحلية التى صنعها الغرب على عينه.. وصاغ عقولها ومناهجها وتوجهاتها وخياراتها وفق مذاهبه وفلسفاته - أمام فشل

هذه «النخب العلمانية» فى الحفاظ على ثمرات التحرر الوطنى وفى إقامة المشروع الحضارى المستقل. تتعاضد ظاهرة الإحياء الإسلامى، وتتقدم قواها لتنهض بالدور الذى فشلت فيه النخب العلمانية: تحرير الأوطان.. واستخلاص الثروات.. وأيضاً استرجاع الهوية.. واستكمال إسلامية الفكر والواقع وبعث الحضارة الإسلامية كنموذج متميز فى التقدم والنهوض والتجديد.. الأمر الذى أبرز دور الإسلام فى المواجهة مع الغرب من جديد.. والذى استنفّر «العقل الاستشراقى الغربى» فوظف مراكز أبحاثه ودراساته وجامعاته ومعهده وكنائسه لدراسة ظاهرة الإحياء الإسلامى محاولاً تطويقها وإجهاض مشروعها وتزييف الوعى بحقيقتها استنقاراً لشعوبه كي تتخذها عدواً، وصرفاً لشعوبنا عن السير فى طريق هذا الإحياء:



وإذا كان الباطل قد استنفّر قواه لتزييف الوعى بحقيقة ظاهرة الإحياء الإسلامى، فإن على قوى الحق إعمالاً لسنة التدافع الفكرى والحضارى أن تواجه «الكلمة الخبيثة» بـ «الكلمة الطيبة» حتى يذهب «الزبد» جفاء ويبقى ويمكث ما ينفع الناس!





صراع له تاريخ! (١)

انطلاقاً من القرآن الكريم يرى المسلمون ويريدون هذا العالم «منتدي» ثقافات.. وحضارات.. وشرائع.. وملل.. ونحل.. وفلسفات.. وأصم وشعوب وقبائل.. وأجناس وألوان.. ولغات وقوميات..

ويريد المسلمون لأعضاء هذا «المنتدي الإنساني» «التفاعل» فيما هو مشترك إنساني عام «والتمايز» فيما هو من الخصوصيات الثقافية والعقدية والفلسفية وذلك لتحقيق مقاصد التعارف والتعايش والتعاون على البر والتقوى في القيام برسالة الاستخلاف الإلهي للإنسان كي يعمر هذه الحياة الدنيا، طلباً للسعادة الآخروية فيما وراء هذه الحياة..

هكذا يرى المسلمون العالم، ويريدونه انطلاقاً من الآيات المحكمة في القرآن الكريم..

■ فالواحدية والأحدية هي فقط للذات الإلهية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

■ والتنوع والتمايز والتعدد والاختلاف، سنة إلهية كونية لا تبديل لها ولا تحويل في سائر عوالم المخلوقات والشرائع والثقافات والحضارات والأفكار والفلسفات. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

■ وهذا التنوع والاختلاف.. وهذا التعايش والتعارف والتعاون بين المختلفين هو في الرؤية الإسلامية للعالم الشرط الأول للتسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء والخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ

أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيهَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنشِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٨].. ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

■ وهذا التنوع والتسابق على طريق التقدم والخيرات هو النقيض «للصراع» الذي يفضى إلى أن يصرع طرف الطرف الآخر فينتهى التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُغِجَارٌ نَحْلٌ خَاوِيَةٌ (٧)﴾ فهل ترى لهم من باقية؟ [الحاقة: ٨، ٧].

■ وفي هذا «المتنبدى الإنسانى» للحضارات العالمية يرى المسلمون - انطلاقاً من القرآن الكريم - أن التكريم الإلهى إنما هو لمطلق الإنسان.. لكل بنى آدم وليس وفقاً على جنس أو لون أو حضارة أو ثقافة أو أبناء دين من الأديان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وفى التسابق والتدافع على طريق التقدم والارتقاء تكون التقوى وليست الصفات اللصيقة - العنصرية - هى معيار التفاضل بين الأفراد والجماعات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

تلك هى الفلسفة القرآنية المكونة لرؤية المسلمين للكون والعالم والإنسانية والوجود «فهم يرون العالم ويريدونه متنبدى أمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها «المصالح» - لا «القوى» - وتتعارف وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان».

■ وبسبب من هذه الفلسفة - وثمرة من ثمراتها - لا يتحقق الإيمان الإسلامى إلا إذا آمن المسلم بكل الكتب السماوية، وبكل النبوات والرسالات والشرائع التى تنال وتوالت على امتداد تاريخ الإنسان: ﴿الْم ١١﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ١٢ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يتفقون ١٣ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ١٤ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ [البقرة: ١ - ٥].

﴿أَمِنَ الرُّسُلَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولهذه الحقيقة الإيمانية تميزت الرؤية الإسلامية بالاعتراف بكل الآخرين، كجزء من ذات الخلق الإلهى الواحد والدين الإلهى الواحد.. والتكريم الإلهى الشامل لكل بنى آدم.. كما تميز هذا الإيمان الإسلامى بإيجابه على المسلمين أن

يمكنوا كل الآخرين من حرية إقامة مقومات تميزهم الديني والثقافي والحضاري حتى ولو كان هذا الذي يتميز به الآخرون مخالفاً لمقومات الاعتقاد الإسلامي، بل ومنكراً للاعتراف بالمقومات الإسلامية وحتى لو كان هذا الإنكار في دار الإسلام!

■ ولم تقف هذه الرؤية الإسلامية عند حدود البلاغ القرآني، والبيان النبوي لهذا البلاغ القرآني.. وإنما بسبب من أن الإسلام قد أقام دولة، وأبدع ثقافة ومدنية، وبنى حضارة، وكون أمة وطباً، وصنع تاريخاً، بسبب من ذلك وضعت هذه الرؤية القرآنية في الممارسة والتطبيق فتعايشت وتعارفت وتفاعلت في دار الإسلام كل ألوان الشرائع - السماوية منها والوضعية - والشعوب والقبائل والأمم.. فقامت الأمة والدولة، منذ فجر الإسلام وحتى الآن، على التنوع في إطار الوحدة، كما قامت النظرة الإسلامية للعالم على هذا الأساس.



صراع له تاريخ ! (٢)

ولأن الإسلام، وهو يتطلع إلى «المثال» لا يغفل «الواقع»، فلقد علم أمته كيف تتعامل مع «الواقع» الذي يقرض عليها خلاف هذا «المثال».

فالإسلام يرفض «الصراع» ليحافظ على التنوع والتمايز والاختلاف... وهو يقرر - ربما دون كل الفلسفات - أن القتال ليس القاعدة وإنما هو الضرورة المفروضة والاستثناء المكروه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومع ذلك فهو يوجب على المسلمين النهوض والجهاد لصد العدوان على مقومات تميزهم الديني، وعلى وعاء أمتهم وثقافتهم وحضارتهم - الوطن الذي يعيشون فيه - فإذا فرض الآخرون المواجهة على المسلمين وإذا قاتلوهم في دينهم أو أخرجوهم من ديارهم وأوطانهم، أو ظاهروا على إخراجهم من الديار..

فهنا يتعامل المسلمون مع «واقع» الصجابه والمواجهة والصراع والعدوان والقتال الذي يفرضه عليهم الآخرون، وفق التوجيه القرآني: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ [البقرة: ١٩٠].

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ [البقرة: ١٩٤].

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٨١﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].



بهذه الرؤية القرآنية، وهذه الفلسفة الإسلامية في رؤية العالم، وفي التعامل مع ما يفرض على المسلمين من مواجهات وتحديات يجب أن يتعامل المسلمون - اليوم - مع التحديات التي يفرضها الغرب على الإسلام وأمنه وثقافته وحضارته وعالمه، كما تعامل أسلافهم - تاريخياً - مع نظائر وأشياء هذه المواجهات والتحديات. لا طمعاً في إزالة هذا الغرب المعتدى من الوجود، أو طموحاً إلى الحل محل حضارته وثقافته ومقومات نموذجيه.. فهذا علاوة على عدم إمكانه - هو مما يرفضه منطق الإسلام وفلسفته في التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف كسفة إلهية كونية دائمة ومطرودة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وإنما الهدف هو رد العدوان عن مقومات الإسلام وعن ديار الإسلام وصولاً إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين كل الآخرين ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٢٤].

بهذا الموقف المتطلق من هذه الفلسفة تعامل المسلمون - تاريخياً - مع التحديات التي فرضها الغرب على الشرق فكسروا شوكة موجات العدوان التي قام بها الغزاة الغربيون على ديار الإسلام..

■ فالغرب الإغريقي و«الروماني» قد فرض على الشرق احتلال الأرض ونهب الثروات وقهر الديانات والثقافات عشرة قرون من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] في القرن الرابع قبل الميلاد إلى هرقل [٦١٠ - ٦٤١ م] في القرن السابع للميلاد - فكانت الفتوحات الإسلامية تحريراً لضمائر الشرقيين من هذه الفتنة في الدين ومن القهر الثقافي والحضاري وتحريراً للأوطان والثروات من هذا العدوان والاحتلال والنهب والاستغلال..

■ ولأن هذا الغرب - كمشروع استعماري طامع في الشرق وثرواته، وفي احتواء ثقافات شعوبه وحضاراتها لتأبيد الاحتلال والاستغلال فلقد اعتبر تحرير الإسلام للشرق من القهر «الروماني - البيزنطي» بداية «لمشكلة» هذا الغرب المزمنة مع الشرق الإسلامي - كما قال القائد والكاتب الإنجليزي الجنرال «جلوب باشا» [١٨٩٧ - ١٩٨٦ م]:

«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن الرابع الميلادي»!!! فلقد كانت عيون المطامع الاستعمارية الغربية موجهة دائماً وأبداً إلى محاولات

استعادة الهيمنة الغربية على ديار الإسلام.. وإلى كسر شوكة المقاومة عند المسلمين، المتعذلة في الإسلام.

وعبر هذا التاريخ من التحديات تكسرت على أرض الشرق الإسلامي موجات وموجات من العدوان الغربي حتى لقد تحول الشرق الإسلامي إلى مقبرة لموجات وإمبراطوريات الغزاة الغربيين.

■ فالموجة الاستعمارية الصليبية التي شاركت فيها كل أوروبا بقيادة الكنيسة الكاثوليكية وتمويل المدن التجارية الأوربية، وسيوف فرسان الإقطاع الأوربيين، والتي دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ = ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] قد انتهت بالهزيمة المنكرة، عندما اقتلعت الفروسية الشرقية الأيوبية المملوكية قلاعها وهدمت حصونها وأزالت كل أثارها.

■ والضوجة التترية التي جاءت إلى الشرق الإسلامي، بدعوة من الصليبيين الذين تحالفوا مع الوثنية التترية ضد الإسلام؛ والتي غاثت فساداً ودماراً ضرب بهما المثل في التاريخ وذلك عندما دمرت الثقافة وأسالت الدماء أنهاراً.. هذه الموجة التترية قد ذاقنا الهزيمة في عين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) ثم انتهت بدخول التتر في الإسلام وتحولهم إلى سيوف للإسلام!





صراع له تاريخ! (٣)

■ ومنذ سقوط غرناطة، ونجاح الصليبية الأوربية في اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة من الأندلس [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] بدأت مرحلة جديدة في هذه الحرب الاستعمارية - الصليبية «ضد الشرق والإسلام».

بدأت بالالتفاف حول العالم الإسلامي، واحتلال أطرافه الآسيوية.. ثم ثنت بغزو قلب العالم الإسلامي - الوطن العربي - منذ الحملة الفرنسية التي قادها «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣ - ١٧٩٨م].

وإبان هذه المرحلة، تميز التحدي الغربي الحديث عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكري المصاحب لاحتلال الأرض ونهب الثروة.. وهو تحد لم يكن موجوداً في الحقبة الصليبية الأولى، التي قادتها كنيسة جاهلة، وفرسان إقطاع، صدق فيهم وصف الأمير الفارس الكاتب «أسامة بن منقذ» [٤٨٨ - ٥٨٤هـ = ١٠٩٥ - ١١٨٨م] عندما قال عنهم: «إنهم بهائم ليس لديهم سوى فضيلة القتال».

ذلك أن الغزوة الغربية الحديثة قد جاءت مسلحة بأدوات النهضة الأوربية الحديثة وإنجازاتها الفكرية، بالرأسمالية الإمبريالية وبالليبرالية الرأسمالية وبالثقافة العلمانية.. وبالفلسفة الوضعية والمادية اللادينية - فمثلت - مع احتلال الأرض ونهب الثروة - غواية التغريب للعقل والتبعية في الثقافة.. بل حتى التنصير في الدين، ذلك الذي حاوله المنصرون.. مثلت الغزوة الغربية الحديثة كل ذلك في ديار الإسلام!

وإبان هذه الموجة الممتدة حتى صورتها المعاصرة: «عولمة» الإمبريالية الأمريكية المتحالفة مع العنصرية الصهيونية.. مثل الشرق الإسلامي مقبرة الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية - الإنجليزية والفرنسية وأشباه الإمبراطوريات مثل البلجيكية.. والبرتغالية.. والهولندية.. والإسبانية.. فطوت المقاومة وحركات التحرر الوطني الإسلامية صفحات هذا الاستعمار، وإن بقي

التحدي التغريبي يقاوم اليقظة الإسلامية والمشروع الحضاري الإسلامي حتى هذه اللحظات.

■ ومنذ نهاية الحرب الاستعمارية العالمية الثانية (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م) بدأت حقبة القيادة الأمريكية، المتحالفة مع العنصرية الصهيونية لمحاولات الغرب التاريخية احتواء الشرق الإسلامي ومغالبة المقاومة الإسلامية لهذا الاستعمار وهذا الاحتواء.

ولأن الأمريكان هم «رعاة بقر» بلا تاريخ! فلقد كرروا ويكررون المحاولات الفاشلة التي مرت بها الإمبراطوريات الاستعمارية الأوربية في التعامل مع الإسلام والحضارة الإسلامية عبر ذلك التاريخ.

وإذا كانت «القوة الأمريكية» قد تدرجت وتضاعدت في التعامل مع الشرق الإسلامي من «سياسة القوة» إلى «غطرسة القوة» حتى وصلت بعد سقوط الشيوعية، والانفراد بقيادة «النظام» العالمي إلى مرحلة «جنون القوة» فإن تعاملها مع الإسلام قد تدرج - هو الآخر - من محاولة «استغلال الإسلام» إلى أن وصلت الآن إلى «إعلان الحرب داخل الإسلام».

وعن المرحلة الأولى - مرحلة الاستغلال الأمريكي للإسلام - كتب المرحوم الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ = ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] في كتابه [أمريكا من الداخل] سنة ١٩٥١م: «إن الإسلام الذي يريده الأمريكان، وحلفاؤهم في الشرق ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذي يقاوم الشيوعية، إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطبقون من الإسلام أن يحكم لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالاستعمار وياء، فكلاهما اعتداء.. الأمريكان وحلفاؤهم إذن يريدون للشرق «إسلاما أمريكانيا» يجوز أن يستفتى في منع الحمل، ويجوز أن يستفتى في دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يستفتى في نواقض «الوضوء» ولكنه لا يستفتى أبدا في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي ولا يستفتى أبدا في أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات، فالحكم بالإسلام والتشريع بالإسلام والانتصار للإسلام لا يجوز أن يمسها قلم، ولا حديث ولا استفتاء في مذهب الأمريكان»^(١).

(١) د. جابر فميحة «سيد قطب والإسلام الأمريكي» صحيفة أفاق عربية في ٢٧/١٢/٢٠٠١ وهو ينقل عن مجلة (الرسالة) ١٩٥١/١٩٥٢م - التي نشر بها سيد قطب أجزاء من مخطوطة كتابه.



صراع له تاريخ! (٤)

■ فلما سقطت الشيوعية.. وانتهت المرحلة التي حاولت فيها أمريكا استغلال الإسلام في حربها ضد الشيوعية كما استغلت المسيحية وكنائسها في ذات الحرب - بذات المرحلة ورأت أمريكا أن الإسلام يحث الخطأ في إيقاظ أمته، لا لتحرير الأرض والثروة فقط، كما هي حدود «الوطنية العلمانية» في بلادنا وإنما تريد اليقظة الإسلامية تحرير العقل المسلم من التغريب، وبعث الحضارة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، بدأت أمريكا مرحلة «الحرب داخل الإسلام» كي يظل كما أرادته - في مرحلة «استغلاله» - مجرد شعائر وعبادات ورسوم وطقوس ودروشات وشعوذات، وذلك حتى يقف أثره - مثل النصرانية في ظل العلمانية - عند مملكة السماء، والخالص الروحي وعالم الغيب والدار الآخرة تاركاً عالم الشهادة ودنيا المسلمين وأوطانهم وثرواتهم للهيمنة الأمريكية والعلو الصهيوني وعولمة الشركات متعددة الجنسيات وعابرة القارات!

ولقد تحدث الرئيس الأمريكي الأسبق «ريتشارد نيكسون» وهو مفكر استراتيجي عن هذه اليقظة الإسلامية التي يقودها - في العالم الإسلامي - من أسماهم «الأصوليون الإسلاميون» الذين - كما يقول: «هم مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضي ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!

ودعا «نيكسون» إلى اتحاد الغرب - الأمريكي «والأوروبي» - والروسي - لمواجهة هذا البعث الإسلامي، وإلى «تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة! ليكون «نموذج تركيا العلمانية المتحازة نحو الغرب والساعية إلى ربط

المسلمين بالغرب سياسياً واقتصادياً» وذلك حفاظاً على مصالح الغرب في الشرق الأوسط لأن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل.. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جداً، قلنح لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق نحن مرتبطون معهم ارتباطاً أخلاقياً.. ولن نستطيع أي رئيس أمريكي أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل»^(١)

ولقد أقصص «نيكسون» عن الموقف الأمريكي الذي اتخذ الإسلام والمسلمين عدواً، عندما قال: «إن الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين.. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة حتى بالنسبة للصين الشيوعية - في ذهن وضمير المواطن الأمريكي عن العالم الإسلامي ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب.. متضادان.. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة.. وأنه مع التزايد السكاني والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطراً كبيرة.. وأنهم يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب.. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو لمواجهة الخطر العدواني للعالم الإسلامي»^(٢)

كل هذا الذي كتبه «نيكسون» بالطبع كان قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م ونحن خمسة عشر عاماً بل وكان ما كتبه استشرافاً للمستقبل.. مستقبل الحرب الغربية - بقيادة أمريكا - المعلنه على الإسلام منذ سقوط الشيوعية.. والتي تصاعدت بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م واجتمعت فيها على الإسلام القوى الغربية التي تحدث عنها «نيكسون» منذ ذلك التاريخ!

(١) نيكسون : (الفرصة الساتحة) ص ٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ . ترجمة أحمد

صدقى مراد - طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م

صراع له تاريخ! (٥)

■ وهذا الذي خطط له «نيكسون» قبل سقوط الشيوعية، نظرت له وعللت لأسبابه مجلة «شئون دولية» التي تصدر في «كمبريدج» - بإتجلترا في يناير سنة ١٩٩١م - عقب سقوط الاتحاد السوفيتي مباشرة عندما تحدثت عن «الأفكار الرائجة في الغرب حول الإسلام والعالم الإسلامي». وعندما عللت لإعلان الغرب أن الإسلام هو العدو الذي حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية وتحدثت عن الأسباب الثقافية لهذا العداء وهذا الإعلان للحرب على الإسلام.. ففى «الملف» الذي نشرته المجلة ومن خلال دراستين علميتين رصيتين إحداهما عن «الإسلام والمسيحية» كتبها العالم البارز «إدوارد مورتيمر» وثانيتها عن «الإسلام والماركسية» كتبها عالم الأنثروبولوجيا «إرنست جيلز» قالت المجلة: «لقد شعر الكثيرون - في الغرب بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة الغربية ذلك أن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع والتي تقول إن المجتمع الصناعي العلمى الحديث يقوض الإيمان الدينى - مقولة العلمنة - صالحة على العموم.. فالتأثير السيكولوجى للمدين قد تناقص عمليا فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة.. لكن عالم الإسلام قد مثل استثناء مدهشا وتاما جدا من هذا، فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام.

إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية وهى بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من ١٠٠ سنة مضت إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعا ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحا فى ظل مختلف النظم السياسية وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامى من أن يفلت من معضلة تقليد

العلمانية الغربية.. وإن عملية الإصلاح الذاتى استجابة لدواعي الحداثة يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. وإن أوروبيين كثيرين يتساءلون: عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمع لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديمقراطية علمانية..»

هكذا حدثت هذه الدراسة العلمية لمجلة «شئون دولية» أن استعصاء الإسلام على العلمنة، وعلى التحول إلى صورة من النصرانية الغربية، التى اكتفت بما لله وتركت ما لقيصر لقيصر بعد سلسلة من الصراعات الكثيرة والطويلة والمؤلمة! حدث أن هذا الاستعصاء الإسلامى على التبعية الفكرية والثقافية للغرب هو السبب فى اتحاذ الغرب من الإسلام عدواً، بعد سقوط الشيوعية وهدفاً مباشراً للحملة الغربية الجديدة على الإسلام!

كل ذلك كتب وأعلن.. ووضع فى التطبيق على أرض اليوسنة والهرسك سنة ١٩٩٢م - فى ذكرى ٥٠٠ عام على سقوط غرناطة واقتلاع الإسلام من أوربا سنة ١٤٩٢م - أى قبل قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م بأكثر من عشر سنوات! وقبل ظهور الحركات التى يزعم البعض أنها المستولة عن عداء الغرب للإسلام. وإذا كان المفكر الأمريكى «فرانسوا فوكوياما» قد كتب قبل سنوات عديدة من قارعة سبتمبر عن الليبرالية الرأسمالية الأمريكية [المتوحشة] باعتبارها «نهاية التاريخ الإنسانى» والنموذج الذى يجب تعميمه فى كل أرجاء العالم، بما فيه العالم الإسلامى فلقد كتب بعد قارعة سبتمبر عن: «الحداثة التى تمثلها أمريكا والغرب والتى ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية.. وعن مبادئ الغرب التى ستستمر فى الانتشار عبر العالم...»

وكتب عن استعصاء الإسلام وحده على الخضوع لهذه الحداثة الأمريكية، والقبول بهذه المبادئ الغربية «التي تلقى قبولا كبيرا لدى الكثيرين من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها بينما الإسلام هو الحضارة الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الغربية.

فالعالم الإسلامي لا يرفض فقط السياسات الغربية وإنما يرفض المبدأ الأكثر أساسية للحدثا الغربية وهو العلمانية نفسها. وإن الصراع الحالي ليس معركة ضد الإرهاب ولكنه ضد الأصولية الإسلامية التي تقف ضد الحدثا الغربية. وهذا التحدي بالنسبة لأمريكا وهو أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية. وإن التطور الأهم يجب أن يأتي من داخل الإسلام نفسه، وعلى المجتمع الإسلامي أن يصل إلى وضع سلمي مع الحدثا وخاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسي حول الدولة العلمانية».

فعلمنة الإسلام ومن ثم إلحاق الإسلام بالنصرانية الغربية، لإلحاق العالم الإسلامي بالغرب هو الهدف الأول المعلن في كتاب «نيكسون» قبيل سقوط الشيوعية وفي دراسة مجلة «شئون دولية» فور سقوط الشيوعية. وفي كتابات «فوكوياما» قبل قارة سبتمبر وبعدها!





صراع له تاريخ! (٦)

■ وإذا كان الكاتب الاستراتيجي الأمريكي - اليهودي - «صموئيل هنتجتون» قد كتب عقب سقوط الشيوعية فكشف عن واقع ممارسة الغرب لصدام الحضارات، وصراع الثقافات وأشار على صانع القرار الأمريكي أن يبدأ مسلسل صدام الحضارات بالحرب على الإسلام، لتمييز ثقافة الإسلام عن الثقافة الغربية، ودعا إلى ما دعا إليه: «نيكسون» من تحالف كل مراكز الغرب في هذه الحرب الحضارية، لتكريس الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية الغربية على العالم فلقد عاد وكتب «هنتجتون» بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م داعياً إلى «حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الإسلام الحداثة الغربية والعلمانية الغربية. والمبدأ المسيحي: فصل الدين عن الدولة»^(١)

تلك هي حقيقة القضية وهذا هو سبب التحدي.. وجوهر المواجهة التي فرضها الغرب ويفرضها على الإسلام وأمتة وعالمه وثقافته وحضارته ومنظومة قيمه، عبر هذا التاريخ الطويل من الصراع، الذي كتبه الغرب على الإسلام وأمتة.. وفرضه علينا ونحن كارهون.

وكما قاتل المسلمون، امتثالاً لأمر ربهم، عندما كتب عليهم القتال الذي يكرهون فلقد وجب الدفاع عن الإسلام الذي اتخذته الغرب عدواً لا شيء إلا لاستعصائه على العلمنة التي يريدون فرضها على المسلمين، لتكريس تبعيتها للحضارة الغربية.

لقد علمنا رسولنا ﷺ فلسفة الموقف إزاء مثل هذه التحديات التي يفرضها علينا الأعداء، الذين يرون في «الصراع» سر البقاء.. بل ويرون أن الأقوى هو الأصح الذي يستحق وحده البقاء! علمنا رسولنا ﷺ فلسفة الموقف إزاء هذه

(١) انظر دراسات «فوكوياما» و«هنتجتون» في العدد السنوي من «نيوزويك» الأمريكية - ديسمبر ٢٠٠١م، فبراير سنة ٢٠٠٢م.

المواجهات، عندما قال لأمتهم: «لا تَتَمَنُّوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ. لَكِنْ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْبَتُوا، وَكَثَرُوا ذِكْرَ اللَّهِ» رواه الدارمي.

فإذا فرضت علينا التحديات والمواجهات، فلا بد من الثبات في مواجهة هذه التحديات.. ولا بد للذين يرابطون على ثغور الإسلام من الإكثار من ذكر الله، أي إخلاص العبودية لله، ومن ثم رفض جميع الطواغيت التي تفرض علينا التحديات، وتعلن الحرب على الإسلام وتطمع في تغيير طبيعة الإسلام.



وإذا كان الفقه هو «الفهم» «والوعي» فإن للاختصار في هذه المواجهة على هذه التحديات «فقها» تحتاج الأمة بمختلف فصائلها، وعلى اختلاف ميادين هذه المواجهة بين الغرب والإسلام.

فقه سنن هذه المواجهة هو الوعي الذي ينير للأمة المسالك والدروب وهي تخوض هذه المواجهات التي فرضها عليها الأعداء.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ منذ اللحظة الأولى التي دعا فيها قومه إلى الإسلام «إن الرائد لا يكذب أهله» ومكانة العلماء وأهل الفكر من الأمة هي مكانة الرواد والقادة المرابطين على ثغور الإسلام، ينبرون لأمتهم دروب الجهاد، بالفكر الذي هو من أمضى الأسلحة في بعث الطاقات وحشد الإمكانيات.. فالمعركة التي فرضها علينا الأعداء هي - بالدرجة الأولى - معركة «إرادة» في الصمود والانتصار، وبهذه «الإرادة» تكون «الإدارة» التي ترتب البيت وتعظم الإمكانيات.

ولربما قادنا هذا الاستعداد - بصمود الإرادة الواعية.. والإدارة التي تعظم الإمكانيات - إلى الموقف الذي يجعل الأعداء يراجعون مواقفهم الظالمة من الإسلام فيستجيبون إلى الكلمة السواء.. أن يكون عالمنا «مفتدي» حضارات وثقافات وأمم وشعوب ولغات وقوميات وأجناس وألوان، تتعايش وتتعارف وتتفاعل وتتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.



فى أى صراع من الصراعات، وأية مشكلة من المشكلات، هناك أهمية كبرى لأن تظل ذاكرة الأمة واعية بحقيقة وطبيعة المشكلة والصراع. وذلك حتى لا ينجح الخصم - كما هو حادث الآن فى القضية الفلسطينية والصراع مع المشروع الصهيونى - حيث سحب اليهود أطرافاً عربية كثيرة إلى تفاصيل وفروع وجزئيات - بل ومتاهات لا علاقة لها بجوهر المشكلة وطبيعة الصراع، حتى كاد هذا المنهاج اليهودى أن ينسى هذه القطاعات العربية حقيقة وجوهر هذا الصراع.

إن مشكلتنا - فى هذا الصراع المعقد والمركب والتاريخى - لم ولن تكون مع «اليهودية» التى جاء بها موسى عليه السلام، فنحن نؤمن باليهودية رسالة سماوية من رسالات السماء، بل لا يكتمل إيمان المسلم إلا إذا آمن بها كمعلم من معالم طريق الدين الإلهى الواحد، وشريعة متميزة لبنى إسرائيل.

ومشكلتنا - كذلك - ليست مع «توراة موسى» فقرآننا الكريم يعلمنا أنها تنزيل إلهى، فيها هدى ونور: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بَهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

ومشكلتنا - أيضاً - ليست مع «الإنسان اليهودى» فحضارتنا الإسلامية هى التى جعلت من تعددية الشرائع والملل والشعوب والقبائل والأصم والأجناس والألوان والألسنة واللغات والقوميات والمناهج والثقافات والحضارات سنة من سنن الله التى لا تبدل لها ولا تحويل. ووضعت هذه السنة الإلهية فى الممارسة والتطبيق قروناً طويلاً، تمتع فيها اليهود بكنف الحضارة الإسلامية وأحضانها كما لم يحدث لهم فى أى وطن من الأوطان أو حضارة من الحضارات، فأنثروا وتأثروا، وفتحت أمامهم كل ميادين التفاعل الحضارى، حتى غدت فلسفتهم فرعاً

من الفلسفة الإسلامية، ولاهوتهم متأثراً بعلم الكلام الإسلامي، وعروض شعرهم متأثراً بعروض الشعر العربي، وأجرومية عبريتهم متأثرة بأجرومية العربية.. فاستظلوا، لأكثر من عشرة قرون، بمظلة التعددية، في إطار الأمة الواحدة، وحراسة المبدأ الإسلامي: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» الذي لم تصل إلى مستوى سموه حضارة من الحضارات الأخرى حتى الآن!

إذن.. فمشكلتنا ليست مع اليهودية الدين.. ولا مع التوراة وشريعتها.. ولا مع اليهود.. وإنما مشكلتنا هي مع «الصورة التلمودية لليهودية» تلك التي نسخت ومسخت توحيد اليهودية، فحولته إلى وثنية أحلت «يهوه» محل الله ثم جعلته إلهاً لبنى إسرائيل وحدهم، من دون الشعوب الأخرى، التي جعلت لها آلهتها المعاصرة والمتعددة!

ومشكلتنا - أيضاً - هي مع «اليهودية الصهيونية» التي جردت اليهودية من «عقوم الدين» وجعلتها ذروة «العنصرية» عندما عرفت اليهودي بأنه: هو المولود من أم يهودية، وجعلته - بحكم وحق - «الولادة البيولوجية» من شعب الله المختار، حتى ولو كان ملحدًا أو ابن زنا.

ومشكلتنا - كذلك - هي مع «المشروع الصهيوني» الذي تبني - أو استثمر - عنصرية «اليهودية» التلمودية ووظف إمكانات الجماعات اليهودية في «الشركة» التي دعت إليها الإمبريالية الغربية في مرحلة زحفها الاستعماري الحديث على وطن العرب وعالم الإسلام؛ لأن هذا المشروع الصهيوني ذو طبيعة استيطانية، تناقض وتنفي الوجود الوطني والعربي والإسلامي في فلسطين وما حولها، و ذو وظيفة إمبريالية غربية، تجعل من الكيان الصهيوني جسمًا غريبًا - وغريبًا - مزروعًا بالقسر في قلب وطن أمتنا يقطع وحدة أرضها ويجهض محاولات نهوضها ويتصدى بالعداء لصيغة يقظتها، قومية كانت تلك الصيغة أو إسلامية.

فتحن - في هذا الصراع - بإزاء «مشروع استيطاني» عنصري غربي النشأة والطبيعة والمقاصد، تبلور أول ما تبلور في «اللاهوت البروتستانتي» الغربي، انطلاقاً من الفكر الأسطوري حول «رؤيا يوحنا» وعودة المسيح - عليه السلام - ليحكم الأرض ألف سنة سعيدة، بعد معركة «هزمجدون»، والذي جعل من جمع اليهود وحشرهم في فلسطين، وتهويد القدس، وإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.. أي جعل من تحقيق العلو والهيمنة الصهيونية ديثاً

يتدين به البروقستانت في الغرب.. ثم حدث التبشير بهذا المشروع الديني بين
الجماعات اليهودية.. فتلقفته الصهيونية - كحركة قومية عنصرية -
والإمبريالية الغربية - إبان زحفها على الشرق الإسلامي وبحثها عن أقلية
توظفها كمواطني أقدام، في المشروع الاستعماري ومن هنا، فلقد اجتمعت في
المشروع الصهيوني الذي نصارعه الآن على أرض فلسطين، عناصر متعددة
ومركبة منها: البعد الديني في لاهوت النصرانية الغربية.. والبعد الإمبريالي
الغربي، الذي جعل من الكيان الصهيوني رأس حربة في قلب وطن أمتنا.. والبعد
العنصري اليهودي الذي تغذيه القومية الصهيونية وأولى أوليات الذاكرة
العربية الإسلامية أن تظل واعية بنجوى الصراع وذلك حتى لا تنسى الجواهر،
وتغرق في الفروع والهوامش والتفاصيل!





البعد الدينى فى الصراع العربى - الصهيونى

للمصراع العربى - الصهيونى بعد دينى، يمثل «ثابتاً» من ثوابت اللاهوت الغربى، ويكسب كل يوم المزيد من «المؤمنين» والعديد من الكنائس.. ومحور هذا البعد الدينى قائم على أسطورة «رؤيا يوحنا» التى حولتها البروتستانتية من «رؤيا» و«مجاز» إلى حقيقة فرّعت أن عودة المسيح - عليه السلام - ليحكم العالم ألف سنة سعيدة - قبل يوم القيامة - مرهونة بجمع اليهود وحشرهم فى فلسطين وتهويد القدس، وبناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وإبادة العرب والمسلمين فى معركة «هرمجدون»

وإذا كان هذا البعد الدينى للمشروع الصهيونى - فى اللاهوت الغربى - قد بدأ بروتستانتياً، فإنه قد مارس الابتزاز للكنيسة الكاثوليكية الغربية، حتى جعلها تشرع فى «تهويد نصرانيتها» بدلا من تحقيق الاعتراف اليهودى بالمسيحية! فهى - الآن - تسعى لتجعل «يهوه» إلهها! وتتحدث عن «دمج المسيح فى إسرائيل»! وتعبد، ليس فقط «الفكر المسيحى» وإنما فى «الأناجيل» والصلوات! لتصل إلى طلب «الغفران» من اليهود بعد أن ظلت قرونا طويلة تبيع لأتباعها «صكوك الغفران»! بل إن هذا البعد الدينى - فى الفكر الغربى - للصراع حول فلسطين والقدس، لم يكن وقفا على لاهوت الكنائس الغربية وإنما تعداه إلى الأيديولوجيات التى حركت جيوش الحكومات الغربية «العلمانية» فتمثال السياسى الإنجليزى «سيكس» الذى عقد مع نظيره الفرنسى «بيكو» المعاهدة السرية - الشهيرة - التى مزقت أوصال المشرق الغربى سنة ١٩١٦م - معاهدة «سيكس بيكو» - تمثال هذا السياسى فى قريته «سلدنير» بمقاطعة «يوركشاير» مكتوب عليه: «ابتهجى يا قدس»!

فتمزيق أوصال الوطن العربي - من قبل الاستعمار «العلماني» - هدفه: القدس! والجنرال الإنجليزي «النبني» عندما يدخل القدس سنة ١٩١٧ م على رأس جيشه الاستعماري - يتقمص صورة «بابوات» الحروب الصليبية ويعبر عن أحلام الملك الصليبي «ريتشارد قلب الأسد» فيقول «النبني» «اليوم، انتهت الحروب الصليبية»!

ويومئذ، نشرت مجلة «بنش» Punch الإنجليزية رسماً «كاريكاتوريا» لريتشارد قلب الأسد وهو يقول «أخيراً تحقق حلمي» وذلك تحت عنوان: «آخر حملة صليبية»! فالاستعمار «العلماني» سنة ١٩١٧ م يحقق أحلام الملوك الصليبيين في العصور الوسطى!

أما الجنرال الفرنسي «جورو» الذي يرفع راية العلمانية الفرنسية المتطرفة فهو الذي يذهب عند دخوله دمشق سنة ١٩٢٠ م إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، ليركله بحذاءه، ويقول: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين».

فالبعد الديني لهذا الصراع - حول القدس وفلسطين - قائم وحي ومتأجج في الفكر الغربي اللاهوتي منه والعلماني، التاريخي منه والحديث والمعاصر لنا حتى هذه الأيام.

ومع هذا البعد الديني - الذي يغذي العدوان على القدس وفلسطين - ويجعل هذا العدوان شرطاً لتحقيق مقاصد لاهوتية - عودة المسيح - هناك البعد الإمبريالي الغربي - بعد المقاصد الاستعمارية الغربية في نهب الشرق، والسيطرة عليه، وإزالة العرب والمسلمين، وإخضاع حضارتنا العربية الإسلامية للنموذج الحضاري الغربي - وهو البعد الذي يوظف «البعد اللاهوتي» في خدمة الاستعمار العلماني!

ثم يأتي بُعد «الشريك الأصغر» في هذا التحالف الشيطاني.. البعد العنصري اليهودي ذلك الذي تغذيه القومية الصهيونية التي استثمرت وتستثمر كل ألوان التعصب والأحقاد التي طفحت بها أسفار «التلمود» ضد «الأغيار» من غير اليهود! هكذا.. وعلى هذا النحو يجب أن تظل ذاكرة الأمة واعية بالأبعاد الحقيقية والجوهرية لهذا الصراع، فحتى الذين يرفعون شعار: إنه صراع وجود، لا صراع حدود.. إذا هم غفلوا - في الحديث عن «وجود العدو» - غفلوا عما وراء وفوق

«الوجود الصهيوني» فإنهم لن يروا سوى «الفرع» الصهيوني دون الأصل الغربي الإمبريالي في هذا الصراع!

فالمشكلة التي نواجهها في هذا الصراع - ذات طابع ديني وبعد لاهوتي بدأ في البروتستانتية الغربية وها هو يزحف ليضم لها الكاثوليكية الغربية.. لتتلقفه الحركة الصهيونية التي دعمته «باليهودية الشلمودية» لتوظف الجماعات اليهودية - بالتظمود - في خدمة هذه «الشراكة» في المشروع الإمبريالي الغربي ضد وطن العروبة وعالم الإسلام.

فعلى العقل العربي والمسلم.. وعلى الأمة العربية والإسلامية أن تدرك أبعاد الصراع الذي تخوض حتى لا تنسى الجذور.. والثوابت - وتفرق في الفروع والهوامش - وحتى تصطفى من إمكاناتها ما يوازي أبعاد الخطر المحقق والمحيط!





من الملاحدة.. إلى المؤمنين بالأساطير!

بسبب من الطبيعة المركبة للصراع العربي - الصهيوني، فلقد عمل ويعمل قى خدمة هذا المشروع - على الجبهة المعادية - لاهوتيون وملاحدة ومعتدين وعلمانيون! ووضعيون ودهريون مع من ينتظرون عودة المسيح! وأيضاً أعداء لليهود ولما يسمى بالسامية، أرادوا تهجير اليهود من المجتمعات الغربية إلى أرض فلسطين لتوظيفهم فى خدمة المشروع الغربى الاستعماري كراهة فى اليهود، وتخلصاً من مكرهم وسيطرتهم الاقتصادية على المجتمعات الغربية واستخداماً لهم فى الهيمنة على أمة الإسلام وحضارته! وهذه الطبيعة المركبة لهذا المشروع - الذى نواجهه فى فلسطين - هى التى جمعت بين «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] - وهو وضعى دهرى، لا يؤمن بأي دين - عندما ارتاد ميدان الدعوة إلى هذه «الشراكة» الإمبريالية - اليهودية، فأعلن نداه إلى يهود العالم كي يساعدوه على بناء إمبراطوريته الاستعمارية فى الشرق لقاء «إعادتهم» إلى أرض فلسطين! فكتب وهو محاصر لمدينة «عكا» سنة ١٧٩٩م: «أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد.. إن فرتسا تقدم لكم يدها الآن. حامله إرث إسرائيل.. يا ورثة فلسطين الشرعيين إن الأمة الفرنسية تدعوكم إلى إرثكم بضمائها وتأييدها ضد كل الدخلاء»!

جمعت هذه الطبيعة المركبة لهذا المشروع، بين «بونابرت» الدهرى الملحد - وبين الكنائس البروتستانتية الغربية التى رأت فى تحقيق رغبة الدهرى «بونابرت» الشرط لعودة المسيح - عليه السلام - كي يحكم العالم ألف سنة سعيدة!

وضع الدهريين.. والعلمانيين والبروتستانت اجتماع فى خدمة هذا المشروع الصهيونى - الإمبريالى - الكاثوليك الغربيون أيضاً. وذلك عندما عقدت الكنيسة الكاثوليكية معاهدة الاعتراف بالأمر الواقع - أى اغتصاب القدس وفلسطين -

في ٣١-١٢-١٩٩٣ م وتحدثت في مقدمة هذه المعاهدة عن «العلاقة الفريدة بين الكاثوليكية والشعب اليهودي»! حتى لقد تحدث البابا يوحنا بولس الثاني عن القدس بمناسبة «سنة الفداء» في ٢٠-٤-١٩٨٤ م فقال: «منذ عهد داود الذي جعل أورشليم عاصمة لمملكته، ومن بعده ابنه سليمان الذي أقام الهيكل ظلت أورشليم موضع الحب العميق في وجدان اليهود، الذين لم ينسوا ذكرها على مر الأيام وظلت قلوبهم عالقة بها كل يوم، وهم يرون المدينة شعارا لوطنهم»!

ومع الدهريين... والعلمانيين والبروتستانت... والكاثوليك... انضم الكونجرس الأمريكي - الذي تهيمن عليه أيديولوجية «التحالف المسيحي» - المعيرة عن «المسيحية» - الصهيونية، ليقرر - ١٩٩٥ م نقل السفارة الأمريكية من «قل أبيب» إلى «القدس» حيث تبني على أرض الأوقاف الإسلامية المغتصبة! فعلمنا - هذا الكونجرس - في مقدمة قراره هذا «أن القدس هي الوطن الروحي لليهودية»!

مع أن القدس لم تعرف في كل تاريخها - ولم يعرفها - نبي اليهودية موسى - عليه السلام - ولا نزلت فيها توراتها! وحتى داود وسليمان - عليهما السلام - اللذان عاشا فيها لمحة من التاريخ هما في غرف اليهودية التلمودية، ملوك، وليس من الرسل ولا من الأنبياء!

فمن أين.. ومتى.. وكيف كانت أو تكون القدس «الوطن الروحي لليهودية»؟! لقد أصفى الغرب الاستعماري على هذا المشروع الصهيوني طابعا دينيا وجعله ضمن مكونات البعد الديني في الحضارة الغربية.. وقدم الكيان الصهيوني باعتباره الامتداد العضوي للحضارة الغربية في الشرق العربي الإسلامي وتحدث عن علاقته بهذا الكيان باعتباره علاقة أخلاقية واستراتيجية من النوع الذي يعلو على المعاهدات والنصوص المكتوبة!

وعلى هذا الدرب سارت الحركة القومية الصهيونية حتى الفصائل العلمانية والمادية والملحدة منها فتحدث الجميع عن أسطورة وعد الله بأرض فلسطين لنسل إبراهيم الخليل - عليه السلام - ثم احتكروا - بالاغتصاب - ميراث إبراهيم دون الأغلبية من نسله العرب والمسلمين! وتحدثوا جميعا متدينين وعلمانيين عن أرض التوراة، والوطن التوراتي.. ورفضوا كل البدائل التي عرضت عليهم لإقامة وطن تحل به «المشكلة اليهودية» في أوغندا.. أو كينيا.. أو كندا.. أو أستراليا أو حتى في سيباء.

بل إن الصهاينة العلمانيين حتى هذه اللحظة يطبقون العقوبات التوراتية
ضد المجاهدين من أبناء فلسطين، الإبادة وإهلاك الحرث والنسل - بتدمير
البنى التحتية حتى للمؤسسات الخيرية والاجتماعية - وسد منافذ المنازل
وهدم البيوت!

ففى مواجهة العرب والمسلمين اجتمعت فى هذا المشروع كل الطل والنحل
والتيارات!



الحلف الإمبريالي - الصهيوني .. تراجع أم صعود؟

يخطئ الذين يتصورون أن «وظيفة» الكيان الصهيوني في المشروع الإمبريالي الغربي - ومن ثم علاقة هذا الكيان بالمشروع الإمبريالي - قد تراجعت أو تخلخلت .. بعد تراجع المشروع القومي العربي الذي ناصبه الغرب كل العداء، أو بعد سقوط المنظومة الشيوعية والمعسكر الشيوعي الذي نهضت الصهيونية وكيانها بدورهما في ضرب النظم العربية التي تحالفت مع هذا المعسكر الشيوعي .. يخطئ الذين يتصورون تراجع «الوظيفة الإمبريالية الغربية» للكيان الصهيوني، بعد حدوث هذه المتغيرات ويرقبون على هذا التصور - الخاطئ - أحلام السلام مع هذا الكيان الذي يظنونه في مرحلة الانخلاع من الشراكة الإمبريالية الغربية، والبحث عن الاندماج في الشرق الأوسط، والتعايش مع دوله وشعوبه!

ذلك خطأ كبير .. ووهم عظيم .. يقفان وراء الاجتهادات الخاطئة التي تحلم بالسلام مع هذا الكيان الصهيوني الاستيطاني .. بدعوى الدخول - دخول هذا الكيان - في مرحلة جديدة يسمونها «ما بعد الصهيونية»! .. مع أن الذين تحدثوا عن «ما بعد الصهيونية» من المؤرخين الإسرائيليين الجدد - لم يتحدث أي منهم عن تغيير أو إلغاء الاغتصاب الصهيوني للأرض والديار، وإنما وقف حديثهم عند الدعوة إلى الاعتراف بالأمر الواقع، والتسليم بما صنعت الصهيونية بالأرض والمقدسات .. فلنأنا بإزاء «إلغاء الصفحة الصهيونية» وإنما نحن بإزاء دعوة إلى تجاوز الحديث عن هذه الصفحة، والتعايش الذي يكرس جريمة الاستيطان والاعتصاب مع الاحتفاظ بالتفوق، والاستعلاء الذي يضمن بقاء الأمر الواقع على ما هو عليه!

ولو أن أصحاب هذا الاجتهاد الخاطي وعوا حقائق التاريخ، لعلموا أن «الوظيفة الغربية» للكيان الصهيوني أسبق من وجود هذه العوامل التي أصابتها هذه المتغيرات . فالصهيونية وكيانها موظفان في خدمة الاستعمار والاستعلاء والهيمنة الغربية، في الصراع التاريخي بين الغرب والشرق .. وهو صراع يتحدث التاريخ عن دوراته وصفحاته منذ غزوة الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] لبلادنا، وحتى الآن .. وما الفتوحات الإسلامية .. والحروب الصليبية .. واقتلاع الإسلام من الأندلس .. والالتفاف حول العالم الإسلامي بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ م .. والغزوة الاستعمارية الحديثة التي بدأها بونايرت سنة ١٧٩٨ م .. إلا محطات وحلقات وصفحات في هذا الصراع الحضاري التاريخي .. الذي بدأ الغرب - منذ حملة بونايرت - يوظف فيه الأقليات اليهودية .. فالوظيفة قائمة قبل القومية العربية ومشروعها .. وقبل الشيوعية ومعسكرها .. وهي مرتبطة بالمشروع الاستعماري الغربي في الأساس.

وإذا كان صعود التوجه الإسلامي - بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ م - قد جعل المشروع الإسلامي هو الحامل لمقاصد المشروع القومي، فإن عدااء الغرب لهذه المقاصد - الإحيائية .. النهضة .. التحررية - هو الذي يديم وظيفة الكيان الصهيوني في التصدي لمقاصد المشروع الإسلامي، بل ويتصاعد بدور ومكاته هذا الكيان في المواجهة المعلنة بين الغرب وبين اليقظة الإسلامية المعاصرة .. فحاجة الغرب لدور الكيان الصهيوني تتزايد .. ودعمه لهذا الكيان في أطراف .. والتحالف الاستراتيجي بين أمريكا - طليعة الهيمنة الغربية حالياً - وبين الكيان الصهيوني قد تم وأعلن بعد تراجع المد القومي العربي .. واستمر هذا التحالف الاستراتيجي بعد سقوط المنظومة الماركسية ومعسكرها الشيوعي.

وإذا كان القائد الإنجليزي «جلوب باشا» - الذي عزل من قيادة الجيش الأردني سنة ١٩٥٦ م - قد كتب:

«إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يرجع إلى القرن السابع للميلاد»!! .. أي إلى ظهور الإسلام .. فإن جوهر العدااء الغربي لأممتنا إنما يقوم حول عداائه للحضارة الإسلامية الطامحة إلى تحرير الشرق من الاستغلال الغربي، سواء اتخذ هذا الطموح عنوان «التحرر الوطني» أو «المد القومي» أو «اليقظة الإسلامية» . ومن ثم، فإن «الوظيفة الغربية» للكيان الصهيوني قائمة ما قام هذا الصراع

الحضارى التاريخى .. اللهم إلا إذا ثبت للغرب أن شراكته مع الصهيونية وكيانها
هى مصدر خسارة لمصالحه فى علاقاته مع عالم الإسلام.

بل إن الناظر فى صفحات الفكر الصهيونى ومقاصد الكيان الاستيطانى
القائم على أرض فلسطين، سيجد هذا الفكر وهذا الكيان يجعلان من «العالم
الإسلامى» - وليس فقط العالم العربى - «المجال الحيوى» لهذا الكيان .. ستجد
ذلك الموقف ثابتاً فى مخطط هذا الكيان الصهيونى من قبل صعود التيار القومى
العربى .. وصعود التيار الإسلامى!

وإذا كانت إسرائيل تعلن «أن الخطر الأكبر الذى يهدد العالم هو الأصولية
الإسلامية.. وأن التصدى لهذا الخطر هو فى مقدمة أولوياتها» .. فإن المستشرق
الصهيونى «برنارد لويس» يخطط ويعلن، منذ عقد الأربعينيات لتفتت كل العالم
الإسلامى - من باكستان إلى المغرب - وليس فقط العالم العربى - من المحيط
إلى الخليج - وذلك - بعبارة - «حتى يكون كل كيان من هذه الكيانات -
الورقية الفسيفسائية - أضعف من إسرائيل، فتضمن تفوقها» على كل الكيانات
الإثنية والطائفية - المتشظية - فى العالم الإسلامى!

ونفس هذا المخطط - المعادى للعالم الإسلامى كله - يعلنه «شارون» سنة
١٩٨١ م .. بل وتحديث عنه بالتفصيل مجلة المنظمة الصهيونية «كيفونيم»
باعتباره «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينيات» .. وتفقد له ندوة متخصصة
بإسرائيل سنة ١٩٩٢ م.

فالعرب يعلن أن الإسلام هو العدو .. والكيان الوظيفى العربى - إسرائيل -
يعلن أن الأصولية الإسلامية هى الخطر الأكبر على العالم .. ومن ثم فإن الشراكة
قائمة، ووثاقتهما تتزايد لأن العداء العربى للإسلام هو «الثابت» رغم كل ما يحدث
من تغيرات!

معاملة الأسرى بين الغرب والإسلام

على مر تاريخ الإسلام، كان للمسلمين في معاملة الأسرى - إبان الحروب - موقف ثابت ومشهور .. موقف حدده القرآن الكريم، وطبقته السنة النبوية .. والتزم به المسلمون .. حتى عندما خرج عليه أعداء الإسلام .. فالأسير لا يقتل .. والجرحى من الأسرى يعالجون من جراحهم .. وإيثارهم بالطعام على النفس المحتاجة صفة من صفات المسلمين .. ومصير الأسرى إما النجاة بالحرية والتحرير .. وإما الفداء ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ١٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ١٩﴾ [الإنسان: ٨، ٩] ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَسْتُمُوهُمْ فَهَرَبُوا الْوَيْثَاقَ فَمَا مَبْغِذٌ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرْتُمُوهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْغِضَنَّكُمْ بَعْضٌ﴾ [محمد: ٤] .

ولقد التزم المسلمون بهذا الخلق الإسلامي، حتى في الحروب التي قتل فيها الصليبيون الغربيون آلاف الأسرى من المسلمين .. مدنيين وجنوداً.

حدث ذلك في عهد صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ - ١١٩٣ م] يوم حرر القدس [٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م] فلم يقتل أسرى الصليبيين الذين سبق وقتلوا سبعين ألفاً من أسرى المسلمين عندما احتلوا القدس [٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م]!!

وحدث ذلك أيضاً إبان الحروب الصليبية، رغم قتل الملك الصليبي الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد [١١٥٧ - ١١٩٩ م] لآلاف الأسرى المسلمين، عندما غدر بهم بعد أن قطع لهم عهد الأمان!!

وحدث ذلك أيضاً من الملك الكامل الأيوبي [٥٧٦ - ٦٣٥ هـ = ١١٨٠ - ١٢٣٨ م] عندما حرر مدينة دمياط من الصليبيين [٦١٨ هـ / ١٢٢١ م] الذين سبق وأبادوا جميع من كان بها من المسلمين - مدنيين وجنوداً!!

وحدث ذلك أيضاً إبان غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] عندما عُذر بعهد الأمان الذي قطعه للأسرى المسلمين - من الجيش العثماني - في معركة ياقا [١٢١٣ هـ - ١٧٩٩م].

وتكرر هذا الموقف في القرن العشرين، إبان الحرب العالمية الأولى .. ففي [سنة ١٩١٥م - ١٣٣١ هـ] قاد العالم المسلم بديع الزمان سعيد النورسي [١٢٩٤ - ١٣٧٩ هـ = ١٨٧٧ - ١٩٦٠م] كتائب الجهاد العثماني ضد جيوش القيصرية الروسية، وأتباعها من الأرمن .. فكان الأرمن يغيرون على القرى المسلمة، فيقتلون أسرى المسلمين، بمن فيهم الأطفال .. حتى إن بعض عوام المسلمين ذهبوا إلى معاملتهم بالمثل .. وفي إحدى المرات تجمع آلاف من أسرى أطفال الأرمن، وكاد العوام أن يتأروا منهم بالقتل لهم .. لكن الشيخ النورسي منع ذلك، وقال لهم: «إياكم أن تمدوا أيديكم إليهم بأي أذى» .. ثم أمر بإطلاق سراحهم، وسمح لهم بالذهاب إلى المعسكر الروسي، حيث التحقوا بأهليهم خلف الخطوط الروسية!!

ولقد كان من آثار هذا الموقف الإسلامي، الذي اتخذه بديع الزمان النورسي، أن هذا الأرمن حذوه، فتخلوا عن رذيلة قتل الأسرى، في القرى المسلمة التي كانوا يغيرون عليها مع الجيش الروسي .. فحقن الإسلام دماء الأسرى من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء!

وهكذا يصبح الخلق الإسلامي مثلاً حتى للأعداء .. وحتى في ساحات الصراع والاقتتال!!





من هولاكو القديم إلى هولاكو الجديد

٩٤

الذين يتابعون لغة التهديد والوعيد للإدارة الأمريكية، والتي تريد من العالم الإسلامي الاستسلام للهيمنة .. بل وتريد للقرن الواحد والعشرين أن يكون قرنًا أمريكيًا .. تسيطر فيه الإمبريالية الأمريكية على مصادر الطاقة، لتتحكم في موازين القوى الدولية، وليظل العالم بلا قطب ثانٍ يتنافسها في النفوذ.

الذين يتابعون هذه اللغة وهذا الخطاب الذي يصتف الناس إلى «أخيار» هم أمريكا وإسرائيل ومن سار في ركابهما .. وإلى «أشرار» هم المارقون على هذا الجبروت .. ثم ينظرون إلى تطبيقات هذا الخطاب الأمريكي في العراق وأفغانستان وفلسطين .. لا بد أن يتذكروا النزعة الفرعونية التي جعلت فرعون يقول للذين آمنوا بالله وكفروا بفرعون، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ثُمَّ لَأُصْلِيَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٤].

كذلك .. يتذكر الذين يتابعون لغة الخطاب الأمريكي، ومحاولات الإدارة الأمريكية إضفاء العصمة على جنودها وعلى قراراتها المارقة ضد الشرعية الدولية والإرادة العالمية .. يتذكر المتابعون لهذا الخطاب - أو يجب أن يتذكروا خطاب «هولاكو» [٦١٤ - ٦٦٣ هـ = ١٢١٧ - ١٢٦٥ م] الذي وجهه إلى مصر، طالباً منها الاستسلام لجئون القوة التتارية .. وهو الخطاب الذي خاطب به الملك المظفر «قطن» [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] فقال فيه:

«إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه .. ولقد فتحنا بغداد، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسروا سكانها .. فلکم بجميع العباد معتبر، وعن عزمنا مزيجر، فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، وتندموا على الأخطاء .. فنحن لا نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم

بالهرب، وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم ؟ وأي طريق ينجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ إن كنتم في الجبال نسفناها، وإن كنتم في الأرض خسفناها، فما لكم من سيفونا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيفونا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وأعدائنا كالرمال، فمن طلب حريتنا ندم .. فالحصون معنا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع .. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم .. ولقد أعذر من أنذر»

وإذا كان البعض - يومئذ - قد حسب «أن القيامة قد قامت» .. كما يحسب ذلك «اليوم» المهزومون المرتعدون أمام لهجة الخطاب الأمريكي .. فإن سنن التاريخ - التي لا تبدل لها ولا تحويل لأنّها بعض من سنن الله، سبحانه وتعالى - تقول لنا شيئاً آخر .. تقول لنا إن الدائرة قد دارت على قرعون .. وإن مضر - ومن ورائها الأمة الإسلامية - هي التي أذاقت هولاء وجيوشه الهزيمة في «عين جالوت» التي كتبت النهاية للطغيان والطاغوت!!

إن الهزيمة النفسية هي أخطر التحديات التي تواجهها أمة من الأمم إبان اشتداد حدة الصراع بينها وبين الأعداء .. وإن الوعي بالتاريخ، وبسنن التدافع والصراع هو سلاح فعال في مواجهة خطر الهزيمة النفسية التي يروج لها - في بلادنا - العملاء والأغبياء

■ لقد فتح المسلمون الأولون - من الصحابة والتابعين - في ثمانين عاماً - أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون .. وحرزوا الشرق من القهر السياسي والحضاري، بعد عشرة قرون من الاستعمار الروماني، استمرت فيه من «الإسكندر الأكبر» - في القرن الرابع قبل الميلاد - إلى «هرقل» - في القرن السابع للميلاد - وحرزوا - مع الأرض - الضمائر، فتركوا الناس وما يدينون، تطبيقاً للمبدأ القرآني: «لا إكراه في الدين».

■ فلما جاء الصليبيون - أواخر القرن الحادي عشر الميلادي - ليعيدوا اغتصاب الشرق من التحرير الإسلامي، كان الفضل الذريع نصيبهم، رغم استمرار حملاتهم البربرية مدة قرنين من الزمان! .. ورغم تحالفهم مع القتر الوثنيين ضد الإسلام!

■ ثم جاءت الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة، التي بدأت بإسقاط «غريناطة» سنة ١٤٩٢م .. والتي تحالفت مع الصهيونية اليهودية، لإعادة

اغتصاب الشرق من الإسلام .. وعلى امتداد قرون المواجهة مع هذه الغزوة، أثبت الشرق - تحت رايات الجهاد الإسلامي .. وبثقافة الفداء والاستشهاد - أنه لا يزال مقبرة الإمبراطوريات الغازية، على اختلاف أسماء وأعلام هذه الإمبراطوريات!

■ ومع الوعي بسنن هذا التاريخ .. فإننا بحاجة إلى الوعي بسنن التدافع التي حدثنا عنها القرآن الكريم .. وصدق الله العظيم ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُنِيرٌ نُّورِهِ وَلَهُ كُفْرُ الْكَافِرِينَ﴾ [الصف: ٨].





الزعة الصليبية لكولبس !

الناس يدرسون «كريستوفر كولمبس» [١٤٥١ - ١٥٠٦م] باعتباره «مكتشفًا جغرافيًا» سعى في سنة [٨٩٧هـ / ١٤٩٢م] إلى اكتشاف جزر الهند الغربية، فضلًا طريقه واكتشف أمريكا.

لكن حقائق التاريخ، ومذكرات «كولمبس» ومراسلاته تكشف عن أن الرجل كان «صليبيًا» سخر حياته لجمع الذهب، كي تجهز إسبانيا حملة صليبية جديدة لاغتصاب القدس وفلسطين من المسلمين .. ولقد كتب «كولمبس» عن هذا المشروع الصليبي - الذي وهب له حياته - كتب إلى ملكي إسبانيا «فرديناند» [١٤٧٩ - ١٥١٦م] و«إيزابيلا» [١٤٧٤ - ١٥٠٤م] يقول:

«إن فهمي وإدراكي لمسألة استرداد الضريح المقدس بمدينة القدس لصالح الكنيسة المقدسة عسكرياً سوف أقوم بتوضيحه فيما يلي:

لقد ارتحلت إلى كل مكان يمكن الإبحار إليه حتى الآن .. كما ألهمني الرب أن أمثل أمام جلالكم .. ولقد تجسد الدين والإيمان والإخلاص في جلالكم..

ولقد أراد ربنا أن يكشف المعجزة الأكثر وضوحاً في تلك الرحلة البحرية باتجاه الهند من أجل أن يواسيني وآخرين عن المسألة المتعلقة باسترداد الضريح المقدس بمدينة القدس.

لقد مكثت سبعة أعوام في بلاطكم الملكي، مناقشاً الأمر مع العديد من الرجال.. إن ما حدث هو الذي سبق أن قال به يسوع المسيح المخلص، وذكره من قبل عبر رسالة المقدسين، ولهذا فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس لهو أمر سوف يتحقق بالفعل .. لقد قلت إنني سوف أتحدث عن فهمي وإدراكي لمسألة استعادة الضريح المقدس بمدينة القدس إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية، ولهذا فيجب على تنحية جميع رحلاتي البحرية

منذ حادثة سسلي، وكذا الأحاديث التي أجريتها مع أناس من ملل وطوائف متباينة في أراض مختلفة .. وأن أشير فقط إلى الكتاب المقدس وإلى آياته التنبؤية التي قال بها أشخاص يتصفون بالقداسة، والذين - عبر الوحي والإلهام - ذكروا أشياء حول هذا الأمر.

هذا هو ما أردت أن أقوم بكتابته، لتذكير جلالته، ولتشجيع سموكم على القيام بالرحلة الأخرى المتعلقة باسترداد مدينة القدس، عبر الرجوع إلى الآيات التنبؤية بالكتاب المقدس، وما دام توافر لدى جلالته الإيمان الصادق، فلتكونوا واثقين من إحراز النصر في مسألة استعادة الضريح المقدس ومدينة القدس . ولقد ذكر الكاردينال «بيير» الكثير عن نهاية المسلمين .. كما أن الأب «يوأقيم الفيوري» قد ذكر أن الشخص الذي سيقوم بإعادة بناء الضريح المقدس للمسيح، فوق جبل صهيون بالقدس، سوف يخرج من إسبانيا.

كما كتب «كولمبس» إلى البابا يخبره بأنه قد جمع المال الكافي «لتجهيز خمسين ألفاً من الجنود المشاة وخمسة آلاف فارس لفتح الديار المقدسة». فهل - بعد ذلك - يظل «كولمبس» في كتبنا المدرسية وثقافتنا مجرد «مكتشف جغرافي»؟

إن هذه «النصوص - الوثائق» تقول لنا:

■ إن عمر الغزوة الغربية الحديثة ليس مائتي عام - منذ غزوة بونابرت سنة ١٧٩٨م - وإنما هو خمسمائة عام - منذ إسقاط غرناطة .. واقتلاع الإسلام من الأندلس سنة ١٤٩٢م .. قلقد بدأت هذه الغزوة بالالتفاف حول العالم الإسلامي، لتنتهي بضرب قلب العالم الإسلامي.

■ وإذا كانت الحروب الصليبية قد سبقت هذه الغزوة الحديثة .. وامتدت لقرون من الزمان [١٠٩٦ - ١٢٩١م] .. فإن عمر هاتين الغزوتين يصل إلى سبعة قرون!!

■ وإذا أضفنا إلى هذه القرون السبعة عشر من الاحتلال الغربي للشرق - قبل الإسلام - من الإسكندر الأكبر - في القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» - في القرن السابع للميلاد .. فمعنى ذلك أن الغرب الاستعماري قد مارس العدوان والنهب والقهر ضد الشرق على امتداد سبعة عشر قرناً، من التاريخ المكتوب لعلاقتنا معه - وهو أربعة وعشرون قرناً!!

■ وإذا نظرنا اليوم إلى خارطة الواقع، لوحدنا القواعد العسكرية الغربية تغطي أغلب بلاد العالم الإسلامي وشركات النهب الاستعماري الغربية تنهب ثروات العالم الإسلامي .. وأساطيل الغرب تملأ مياه البحار والمحيطات في العالم الإسلامي .. على حين ليس هناك جندي مسلم على أرض عربية .. ولا سفينة صيد في المياه الغربية .. إذا نظرنا إلى الواقع الراهن .. ووعينا وقائع التاريخ .. فهل يصعب على أحد - منا أو من غيرنا - أن يجيب عن سؤال:
- من هم الإرهابيون .. والمعتدون؟





من عبر التاريخ

فى الوقت الذى ذبح فيه الصليبيون وأحرقوا جميع من وقع فى قبضتهم من مسلمى القدس .. فى مذبحة دامت سبعة أيام، وحصدت سبعين ألفاً من المسلمين «حتى كُلت أيدى الصليبيين من الذبح» !! - كما يقول المؤرخ النصراني - رجل الدين - «مكسيموس مونروند» فى كتابه «تاريخ حرب الصليب» اجتذبت غوايتهم قطاعات من نصارى القدس «الذين كانوا يسرون أمام الصليبيين بدلائل الاحترام والوقار، مرتلين معهم أناشيد الخلاص من الأسر»!!

وسرت هذه الغواية إلى قطاعات من النصارى خارج القدس .. ذلك أن «أخبار الانتصارات التى فاز بها الصليبيون بامتلاكهم هذه البلاد، قد انتشرت بسرعة فى الجهات القريبة إليها .. وهكذا شوهد المسيحيون متقاطرين جموعاً غفيرة إلى أورشليم، من أنطاكية، ومن الرها، ومن تروسوس، ومن كبادوكيا، ومن كيليكيا، ومن بين النهرين، ومن سائر أقاليم سوريا .. فالبعض سكنوا فى أورشليم وما يحوطها، وغيرهم كانوا يزورون الأراضي المقدسة ويعودون إلى بلادهم، والجميع حاصلون على فرح عام، غير فاترين عن تقديم الشكر لله والتقريظات لشجاعة الصليبيين وانتصاراتهم كجنود محقين ليسوع المسيح الذين - أخيراً - أنقذوا قبر ابن الله مخلص العالم من أيدى غير المؤمنين».



ولقد تكررت صفحة الغواية الاستعمارية من هذه القطاعات من الأقليات النصرانية إبان الغزوة التتريّة لدمشق [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠م] - تلك التى قادها القائد التتريّ النسطورى «كُتبغا» - وكتب المقرئى [٧٦٦-٨٤٥ هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤١م]: كيف «استطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمرة فى نهار رمضان،

ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم. وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يَمرون في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به، ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهراً: «ظهر الدين الصحيح دين المسيح» وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرهم لفنائب هولاء «كتبغا» فأهانهم، وضرب بعضهم وعظم قدر قسوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم».

ثم يحكى المقرئ كيف أدت هذه الغواية والخيانة إلى ردود أفعال قاسية. وذلك بعد انتصار الدولة الإسلامية على التتار في عين جالوت [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] عندما «يأمر أهل دمشق إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه».



ولقد تكررت هذه الغواية الاستعمارية بالخيانة لشرائح من أبناء الأقليات إبان الحملة الفرنسية على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] .. ونجحت هذه الحملة الاستعمارية في غواية قطاعات من «أراذل القبط» الذين قادهم المعلم «يعقوب حنا» [١١٥٨-١٢١٦هـ = ١٧٤٥ - ١٨٠١م] الذي يسميه «الجبرتي» [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] «يعقوب اللعين» فجند فيلقاً قبطياً، تزياً برى الجيش الفرنسي وأصبح جزءاً من الحملة الاستعمارية، يشارك في محاربة المصريين وإذلال المسلمين، بل وفي سجن علماء الأزهر الشريف!

وفي تاريخ الجبرتي إشارات كثيرة لمظاهر هذه الغواية والخيانة، التي استفزت أغلبية الأمة، وأحدثت الآثار السلبية في جسد الوحدة الوطنية .. وفي هذه الإشارات نقراً - مثلاً - «كيف ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود - «اعتماداً على المستعمر» - فركبوا الخيول، وتقلدوا السيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين، ومشوا بالخيول، وتلفظوا بفأحش القول، واستذلوا المسلمين. مع عدم اعتبارهم للدين، إلى غير ذلك - مما لا يحيط به الحساب، ولا يسطر في كتاب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وكيف احتفلوا بانتصار جيش بوناپرت في معركة «غزة» [١٢١٣هـ - ١٧٩٩م] - إبان سعيه لاحتلال الشام «فأظهر النصارى الفرح والسرور في

الأسواق والدور، وأولموا في بيوتهم الولايم، وغيروا الملايس والعمائم، وتجمعوا للهو والخلاعة، وزادوا في الشناعة»!

وعندما حل الجنرال «كليبر» [١٧٥٣-١٨٠٠م] محل بونابرت في قيادة جيش الاحتلال عهد إلى المعلم «يعقوب حنا» الذي أصبح «جنرالاً» في الجيش الغازي! «بأن يفعل بالمسلمين ما يشاء فتطاوت النصاري من القبط ونصاري الشوام على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكاناً! وصرخوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين»!

الأمر الذي ترك جراحاً غائرة في مجتمع ذلك التاريخ، وخلف رواسب في الكثير من صفحات التاريخ!.. لذلك فإن الدراما التاريخية تستطيع أن تستدعي صفحات ذلك التاريخ لتنقي عموم البلوى - بلوى الغواية والخيانة لسائر أبناء الأقليات - ولتقول للأقليات المعاصرة - من المسلمين وغير المسلمين: «إن الأمن والأمان.. وكذلك الشرف والكرامة، هي قننى الوحدة الوطنية - والقومية والحضارية.. وليس في التعلق بحيال الغواية الاستعمارية، التي لا مكان لصفحاتها سوى في «مزيله التاريخ»!

ليسوا سواء

لأن الغرب ليس كتلة واحدة صماء .. وليس كل الغربيين ضالعين في مشروع الهيمنة الغربية على العالم .. والمظاهرات والاحتجاجات ضد العولمة .. وضد الحروب على العالم الإسلامي شواهد على ذلك.

ولأن إسلامنا يعلمنا العدالة التي تتنافى مع التعميم والإطلاق في الأحكام .. فيتحدث قرآننا الكريم - مثلا - عن أهل الكتاب فيميز بين فرقائهم وفرقهم ومذاهبهم، مستخدماً صيغ «من أهل الكتاب» [البقرة: ١٠٥]، «كثير من أهل الكتاب» [البقرة: ١٠٩]، «طائفة من أهل الكتاب» [آل عمران: ٦٩]، «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشركون بالله شيئاً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» [آل عمران: ١٩٩] .. وحتى في حديث القرآن الكريم عن اليهود - قتلة الأنبياء - الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء .. والذين هم أشد عداوة للذين آمنوا والذين لعنهم الله لخروجهم عن شريعة موسى، عليه السلام، ولتحالفهم مع الوثنية العربية ضد التوحيد الإسلامي - حتى هؤلاء، لم يعمم القرآن الأحكام عليهم جميعاً، وإنما ميز بين فرقائهم، فقال: «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بعصيان من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بسا عصوا وكانوا يعتدون ١١٢ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يقولون آيات الله آباء الليل وهم يسجدون ١١٣ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمنون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ١١٤ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين» [آل عمران: ١١٢-١١٥].

ولأن إسلامنا يعلمنا العدالة والموضوعية في النظر إلى الآخرين فإن واجب المسلمين أن يقدموا حقائق الإسلام للجماهير الغربية، التي هي ضحية الثقافة

المعشوشة، والفكر العنصري، والزيف الإعلامي، المتدفق من مراكز قوى الهيمنة الإمبريالية - والذي يغترف في عداته للإسلام وتزييفه لحقيقته من مخزون «الذاكرة الصليبية» القديمة - فحاجة هذا الإنسان الغربي - الذي تضلله الأكاذيب الثقافية الموروثة، والتزييف الإعلامي المعاصر، والمؤسسات التي أقامت الرأسمالية الغربية للكذب - باسم صناعة الصورة وتوجيه الرأي العام - والتي يرتزق أصحابها من «صناعة الكذب» مصداقاً لقول الله سبحانه وتعالى في قرآننا الكريم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] .. إن حاجة هذا الإنسان الغربي إلى معرفة حقيقة الإسلام، تفرض على المسلمين الاهتمام بتقديم هذه الحقيقة إلى هذا الإنسان.

وكما يمثل هذا الأمر «حاجة ثقافية .. وضرورة علمية» فإنه يمثل للمسلمين القيام «بفريضة دينية، وتكليف إلهي» فريضة أن ندعو إلى الإسلام بالكلمة الطيبة - التي شبهها القرآن الكريم بالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ٢٤١: تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥] .. وأن نحاور ونجادل طلاب الحقيقة والمحتاجين إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالتي هي أحسن - وليس فقط الحسن ! .. رجاء أن تحل المودة بيننا وبين الذين يناصبوننا العداء، كل هذا العداء: ﴿غَنَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ غَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧].

فهى فريضة من فرائض الإسلام: أن نبُلِّغ دعوة الإسلام .. ونقيم الحجة على صدق الإسلام .. ونزيل الشبهات عن حقائق الإسلام .. وذلك فضلاً عن أن فى ذلك التحقيق لمقاصد الإسلام فى التعارف بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب والثقافات والحضارات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فمن منطلق العزة الإسلامية، التى أراد الله سبحانه وتعالى لنا أن تكون من عزته وعزة رسوله، صلى الله عليه وسلم ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] .. ومن منطلق الاعتزاز بالإسلام، الذى يمثل القوة الصاعدة - على النطاق العالمى - رغم حالة الاستضعاف المفروضة على أهله ..

ومن منطلق نزع سلاح كُتّاب الإمبريالية والهيمنة «الأمريكية - الغربية» والصهيونية .. وتجريدهم من «حججهم» الزائفة .. ومن منطلق تعريف الذين لا يعرفون حقائق الإسلام، وهو مقصد إسلامي أصيل ﴿وَأَنْ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].



الإيمان العلماني المنقوص!

في حديث أجرته إحدى المجلات الشهرية - منذ سنوات - مع قائد إحدى الدول - وهو مسلم، يحكم شعباً مسلماً - سألته عن رأيه في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.. فكانت الإجابة التي أدهشتني .. بل وأذهلتني - حتى تصيت أن تكون المجلة كاذبة فيما نشرت!.. لكن هذا التمني قد تبخر، بسبب أن هذه المجلة، ناطقة باسم نظام ذلك المتحدث، وممولة من خزائنه!.. كانت الإجابة المذهلة التي قال فيها:

- لا .. إن الله في السماء، ونحن في الأرض تصنع ما نشاء!!

وبعد الدهشة .. والذهول .. فكرت في مضمون هذه الإجابة، فاكتشفت أنها التعبير الدقيق والصريح عن كل الذي يقول به العلمانيون! .. فما العلمانية والعلمانيون إلا الدعوة والدعاة إلى عزل السماء عن الأرض، ورفض التدبير السماوي للاجتماع الإنساني والعمراني البشري حتى إن العلمانيين المؤمنين بالله خالقاً للعالم والإنسان، نراهم يقفون بفعله - سبحانه وتعالى - عند مجرد «الخلق» منتزعين منه - سبحانه - سلطات الحكم والتدبير والتشريع!

إنه - هذا الذي عبرت عنه العبارة العازية - موقف كل تيارات العلمانية وسائر مذاهب العلمانيين .. فنحن إذا استثنينا «العلمانية - المادية» - التي يتبناها الماديون والدهريون الملاحدة - فإننا سنجد في العلمانية تياراً عريضاً يؤمن بالله خالقاً لهذا الكون وما فيه ومن فيه، ويعبد الله بأداء المناسك والشعائر القرذية - التكاليف العينية - وقد يكون منهم ورعون ومتنسكون في الشعائر والمناسك .. ولكنهم يعزلون الذات الإلهية عن تدبير شئون العمران البشري، وحكم الاجتماع الإنساني، قاصرين الحكم والتدبير في هذه الميادين الدنيوية على «العقل .. والتجريب» وحدهما.. أي: إنهم جاحدون للشريعة، مغايرون للمؤمنين بها الذين يدعوون إلى تحكيمها في كل مناحي الحياة.

وهؤلاء العلمانيون - في موازين الإسلام: هم مؤمنون بالله، خالقاً للكون.. جاحدون به وله كمدبر وحاكم في شئون الدنيا والدولة والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وغيرها من شئون وميادين الحياة وال عمران فهم ليسوا جاحدين لله .. لكنهم ليسوا يكاملو الإيمان .. إنهم مؤمنون ببعض الكتاب وجاحدون لبعضه الآخر!

والحقيقة التي لا بد وأن يعلمها هؤلاء العلمانيون - ومنهم جمهور مخدوع لا يعلم هذه الحقيقة - أنهم في إيمانهم بالله - سبحانه وتعالى - قد زبقت عليهم صورة الإله .. فتعوزج الألوهية الذي يؤمنون به ليس هو النموذج الحق الذي علمنا إياه القرآن الكريم، وبينت لنا صفاته وأسماءه الحسنى سنة رسولنا ﷺ .

نعم، هم يؤمنون بالله .. ويعبدونه .. لكن علمائيتهم قد جعلتهم «يشركون» مع الله «طواغيت» أخرى، جعلوها الحاكمة والمديرة، دون الله، في الاجتماع البشري وال عمران الإنساني .. ذلك أن العلمانية التي تجعل العالم مكتفياً بذاته عن التدبير الإلهي .. والتي تجعل الإنسان مكتفياً بعقله وتجربته عن الشريعة الإلهية، إنما تجعل الإنسان سيداً لهذا الكون، بدلاً من أن يكون - كما أراد الله - خليفة لله، يدير العمران بشريعة الله، التي هي ميثاق عقد وعهد الاستخلاف.

إن فارقاً كبيراً بين «الماديين - الدهريين» الذين يجحدون وجود الله بإطلاق .. ويقولون - كما عبر عن مذهبهم القرآن الكريم - ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ [الجاثية ٢٤] .. فارقاً بين هؤلاء وبين «المشركين» الذين يؤمنون بالله، لكنهم يعزلونه عن التدبير في بعض الميادين، ويشركون معه آلهة وطواغيت وشركاء يتحاكمون إليهم في حكم هذه المساحات والميادين، ويلتزمون بمرجعياتهم في تدبير شئون هذه المساحات بدلاً من مرجعية الشريعة الإلهية التي تجسد حاكمية الله وتديره في كل ميادين وعوالم الوجود، وفي العمران البشري والاجتماع الإنساني على وجه الخصوص.

لقد اصطلح العلمانيون - حتى المؤمنون منهم بالله والدين - على الفصل بين الدين وبين الدولة والسياسة وشئون الاجتماع وال عمران .. ودعوا ويدعون إلى شعار «الدين لله والوطن للجميع».. بمعنى جعل الدين شأنًا فردياً خاصاً، وتحرير الوطن ودولته ومجتمعه من حاكمية الدين .. وذلك على الرغم من أن كلمة «الدين لله» هي بعض من آيات القرآن الكريم! وهي تغني تحرير الإيمان الديني من

سلطان الطواغيت، ليكون خالصاً لله!.. وعلى الرغم من أن عبارة «الوطن للجميع» لا تعنى الفصل العلماني بين الدين والوطن، لأن القرآن هو الذي يجعل الأرض - كل الأرض - للأنام - كل الأنام.

وفي مقابل هذا التفسير العلماني لهذا الشعار، يرى الإسلام أن الدين لله، وكذلك الوطن لله.. ذلك أن الإيمان الكامل هو الذي يجعل شعار صاحبه قول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغْيَرُ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ (١٦٤)﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٤].

ذلك هو الفارق بين الإيمان الكامل - للمؤمنين - وبين الإيمان المنقوص - للعلمانيين!





خالق فقط .. أم خالق ومدير للوجود ؟

فى التصور الوثنى الجاهلى للذات الإلهية هناك اعتراف بوجود خالق لهذا الوجود .. لكن الوثنية الجاهلية قد وقفت - فى تصورها هذا - بعمل الخالق عند حدود «الخلق» .. ثم أشركت معه شركاء آخرين فى «تدبير» شئون الحياة الدنيا، كان يحتكم إليها الوثنيون فى شئون السلم أو الحرب، السفر أو الحل، الإقدام أو الإحجام.. إلخ.

والقرآن الكريم لم ينزع على هذا التصور الوثنى الجاهلى إنكار الخالق للوجود.. وإنما نعى عليه الوقوف بعمل هذا الخالق عند حدود «الخلق» دون اتفاق «التدبير» فى كل ميادين الوجود وسائر شئون العمران.

﴿ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٢٨].

ففى هذا التصور الوثنى الجاهلى - المشترك - إيمان بالله «خالقاً» لهذا الوجود، وعزل له عن «تدبير» شئون الدنيا، وإحلال «الشركاء» محله فى هذا «التدبير» تماماً كما هو حال التصور العثمانى، الذى يؤمن بالله، خالقاً للوجود، لكنه يعزله عن تدبير العمران والاجتماع الإنسانى، مستبدلاً «العقل» .. والتجريب» بالشريعة الإلهية، وذلك بدلاً من جعل «العقل» .. والتجريب» سبلاً مؤمنة بهذه الشريعة الإلهية، وعاملة على الاجتهاد فيها والتطوير لما بها من فروع ومتغيرات .. فالعلمانية تحل «العقل» .. والتجريب» محل الشريعة؛ أى بدلاً من التدبير الإلهى، راعمة «أنه لا سلطان على العقل إلا العقل»! .. بينما «الإسلامية» تجعل من «العقل» .. والتجريب» ومعهما «الوحي والنقل» سبلاً للمعرفة تتأزر وتتكامل فى هداية الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة.

وكذلك نجد الحال مع التصور «الأرسطي - اليوناني» للذات الإلهية .. فهو تنبيه بهذا التصور الوثني الجاهلي .. فأرسطو يرى الله مجرد خالق للعالم .. ويزعم أن الله، بعد خلقه للعالم، قد ترك تدبيره للأسباب المادية الذاتية المودعة والمركبة فيه .. فعلاقة الخالق بالوجود - في هذا التصور الأرسطي - هي «علاقة منطقيّة»، كعلاقة المقدمة بالنتيجة .. وليست علاقة الراعي المدير لشئون هذا الوجود

وعلى درب التصور الوثني الجاهلي .. والتصور «الأرسطي - اليوناني» .. في حصر نطاق فعل الذات الإلهية في «الخلق»، وعزله عن التدبير لشئون العمران وسياسة الاجتماع البشري .. على هذا الدرب سار التصور النصراني - كما تمثل في لاهوت الكنائس النصرانية - فلقد فصل هذا التصور بين ما لله وبين ما لقيصر؛ أي جعل الله حاكماً ومديراً في الدين - كشأن فردي، ووصايا خلقية - وأطلق العنان لقيصر، كي يكون تدبير الدولة والاجتماع متحرراً من سياسة الدين ووضوابط الشريعة

وعلى خلاف جميع هذه التصورات - الوثنية .. والعلمانية .. والأرسطية .. والنصرانية - رأينا وثرى التصور الإسلامي لنطاق فعل الذات الإلهية .. فكما أنه قد مثل تصور «التوحيد - والوحدانية - والتنزيه» في أرقى صورها .. نراه - كذلك - قد رفض الوقوف بنطاق فعل الذات الإلهية عند مجرد «الخلق» فقط لهذا الوجود، وجعل الله - سبحانه وتعالى - مع الخلق - الراعي والمدير والحاكم - بقضائه .. وبشرعه - لكل شئون الحياة ولسائر ميادين العمران.

فهو - سبحانه - «الخالق» وهو - أيضاً - «مدير الأمر» ... ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمُورَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

وله - سبحانه وتعالى - «الخلق» و«الأمر» - أي الرعاية والتدبير ﴿الْأَلَهُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهو - سبحانه - الذي «خلق» والذي «هدى» - ودبر ورعى - ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۚ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

هذا هو التصور الإسلامي للذات الإلهية، يتميز تميزاً جذرياً عن سائر التصورات الأخرى، تلك التي تقف بنطاق عمل الذات الإلهية عند مجرد «الخلق»

عازلة له عن «التدبير» لسياسة الاجتماع وشتون العمران... وهذا التمييز للتصور الإسلامي - كما رأينا - يجعل التوحيد الإسلامي رافضاً لكل تلك التصورات التي تشرك مع الله المديرين للدنيا والعمران.. تسمتوى في ذلك: التصورات الوثنية الجاهلية... والأرسطية اليونانية... واللاهوتية النصرانية... والعلمانية الوضعية... فجميعها تعزل السماء عن الأرض، وتخل الإنسان - في التدبير للاجتماع - محل الله!



تيار التغريب (١)

لقد بدأت بذرة هذا التيار أول ما بدأت بمصر إبان الحملة الفرنسية عليها [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] .. فكانت بدايات فكرة: الاستقلال عن الموروث، وقطع خيال التواصل الحضاري والاستقلال عن المحيط العربي الإسلامي .. واستبدال النموذج الغربي بدلاً عن المتابع الحضارية الإسلامية .. والوطنية القطرية بدلاً من الجامعة الإسلامية.

ولقد صاغ هذا المشروع - لاستقلال مصر عن منابعها وعن محيطها - «المعلم يعقوب» [١٧٤٥ - ١٨٠١م] - وكان رجلاً من أراذل القبط، التحق بجيش بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] وأصبح جنرالاً فيها! استخدمه الفرنسيون جلاداً للمصريين .. حتى لقد تحفظت إزاهه الكنيسة القبطية، وسماه الجبرتي [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] «يعقوب اللعين»!

وإذا كان هذا المشروع قد قُبر بجلاء الحملة الفرنسية عن مصر [١٢١٦هـ - ١٨٠١م]، ومعها «المعلم يعقوب» .. فلقد عاد مشروع «الإلحاق الحضاري» بعد احتلال الإنجليز لمصر [١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م] .. عاد هذه المرة لتبشيره مؤسسات فكرية، ومنابر ثقافية، وأجهزة إعلامية قامت ومارست عملها بمصر في رعاية سلطات الاحتلال الإنجليزي التي كان يقودها يومئذ اللورد كرومر [١٨٤١ - ١٩١٧م] .. ثم أخذت إشعاعات هذه الدعوة في الامتداد إلى ما حول مصر من أقاليم.

ولقد كان رواد «مشروع الإلحاق الحضاري» هذا - في هذا الطور من أطواره - مجموعة المثقفين الموارنة الشوام، الذين هاجروا إلى مصر فراراً من السلطة العثمانية، والذين تحركهم كراهية شديدة للدولة العثمانية، وبغض نفوذ للإسلام .. ولما كانوا أبناء أقلية دينية لا تملك نمطاً للدولة والقانون والعمران،

معانلاً أو مغايراً لما لدى الإسلام - فمسيحياتهم رسالة روحية خالصة لمملكة السماء، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله - فلقد رأوا أن البديل المرشح لإزالة الإسلام عن أن يكون صيغة النهضة للأمة هو بديل التغريب .. فوظفوا طاقاتهم والمؤسسات التي أقاموها بمصر لخدمة هذا المشروع .. مشروع التبشير بالنموذج الغربي نمطاً لنهضة الشرق وتقدمه، بدلاً من النموذج الإسلامي - الذي أهالوا عليه كل سوءات وسيئات العثمانيين!

وفي ضوء هذه الحقيقة يجب أن نعيد قراءة تاريخ وتأثير مدرسة صحيفة «المقطم» [١٣٠٦-١٣٧١ هـ = ١٨٨٩-١٩٥٢ م] ومنجلة «المقتطف» [١٢٩٣-١٣٧١ هـ = ١٨٧٦-١٩٥٢ م] .. وأن نعي دلالات وتأثيرات الفكر الغربي الذي بشر به وأشاعه أقطاب وأعلام هذه المدرسة وهذا التيار .. من مثل:

يعقوب صروف [١٢٦٨-١٣٤٥ هـ = ١٨٥٢-١٩٢٧ م] .. وقارس نمر [١٢٧٢-١٣٧٠ هـ = ١٨٥٦-١٩٥١ م] .. وشاهين مكاريوس [١٢٦٩-١٣٢٨ هـ = ١٨٥٢-١٩١٠ م] .. وشبلى شميل [١٢٧٦-١٣٣٥ هـ = ١٨٦٠-١٩١٧ م] .. ونقولا حداد [١٢٩٥-١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨-١٩٥٤ م] .. وجورجي زيدان [١٢٧٧-١٣٣٢ هـ = ١٨٦١-١٩١٤ م] .. وفرح أنطوان [١٢٩١-١٣٤٠ هـ = ١٨٧٤-١٩٢٢ م] .. وبشارة تقلا [١٢٦٥-١٣٠٩ هـ = ١٨٤٩-١٨٩٢ م] .. وسليم تقلا [١٢٦٨-١٣١٩ هـ = ١٨٥٢-١٩٠١ م] .. وأمثالهم فمن خلال هذه المؤسسات والمنابر التي رعاها الاستعمار تسربت عناصر المشروع الغربي كبديل للمشروع الإسلامي، وتسربت «الثقافة الغربية» - وليس «حقائق العلم الغربي» - لتحل محل الثقافة العربية الإسلامية، مستغفدين من الفراغ الذي نشأ من عجز تيار التقليد والمحاكاة للموروث.

وإذا شئنا كلمات معبرة - بصراحة عارية - عن مقاصد هذا التيار، فإننا نختار كلمات سلامة موسى [١٣٠٥-١٣٧٨ هـ = ١٨٨٨-١٩٥٨ م] - وهو الذي مكنته «مواظنته» المصرية من أن يكون صريحاً - والتي يقول فيها عما يريده هذا التيار للشرق وأهله: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة؛ لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان .. وحكومة ديمقراطية برلمانية، كما هي في أوروبا، فتعاقب كل من

يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون أو توت قراطية دينية ..
إنني كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضى

يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوروبا، فإننى كلما زادت معرفتى
بالشرق زادت كراهيتى له، وتستعورى بأنه غريب عني، وكلما زادت معرفتى
بأوروبا زاد حبى لها وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها. هذا هو
مذهبي الذي أعمل له طول حياتى سراً وجهراً، فأنا كافر بالشرق مؤمن
بالغرب»!!!



تيار التغريب (٢)

لم يكن هذا التيار «الكافر بالشرق، المؤمن بالغرب» غافلاً عن مكان العربية - كلغة قومية، وكلسان للإسلام - في السمات والقسمات التي تميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية؛ ولذلك وجدنا «الوعاء اللغوي» - العربية - مثله كمثل «المضمون الفكري» - الإسلام - هدفاً لشهام هذا التيار.

فوجدنا سلامة موسى - الذي رأى قى «الرابطة الشرقية سخافة» وفي «الرابطة الدينية وقاحة» - ودعا إلى «الخروج من آسيا» - و«آسيا» هو التعبير الاستشراقي عن «الإسلام» - وأعلن «كفره بالشرق» و«إيمانه بالغرب» .. رأيناه يدعو إلى «لغة عامية» تكتب «بالحرف اللاتيني» لتتقطع صلات الأمة - وهي مصر فقط بنظره - مع تراثها العربي الإسلامي وضع محيطها العربي الإسلامي .. رأيناه يدعو إلى «اضطئاع العامية لغة أدب، والكتابة بالحروف اللاتينية؛ لأن هذه الكتابة تضمننا إلى مجموعة الأمم المتقدمة، وتكسبنا عقلية المتدنيين . فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد . فنظره متجه أبداً نحو الشرق، وثقافته كلها عربية شرقية مع أننا في كثير من الأحيان نحتاج إلى الاتجاه نحو الغرب، والثقافة تقرر الذوق والنزعة، وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق».

ثم يكشف سلامة موسى القناع عن أن العدا لـ «الوعاء اللغوي» - العربية - إنما هو فرع عن العدا لـ «المحتوى الفكري» - الإسلام - الذي يحتويه هذا الوعاء .. فيقول عن تراث العربية .. إنه «تراث لغوي يحمل عقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها» فالعربية ليست لغة الديمقراطية والأومبيل والتلفزيون، بل لغة القرآن وتقاليد العرب!!

فالالتحاق بالغرب، حضارياً، والكفران بالحضارة الشرقية .. وبلغتها العربية وبتراث هذه اللغة، لغة القرآن، الحاملة «لعقيدة اجتماعية يجب أن نحاربها» -

بتعبير سلامة موسى - وتبنى الحرف اللاتيني حرف كتابة اللغة عامية تقطع روابط أمة الإسلام وتحولها إلى أقاليم يلتحق كل منها بالغرب الحضارى .. وتبنى المضامين الحضارية الغربية بدلاً من المضامين الإسلامية - هى جماع معالم المشروع الذى بشر به هذا التيار .. تيار التقليد والمحاكاة للغرب، الذى اختار هذا الطريق عامداً متعمداً، ويوعى بمعالم هذا الطريق، وينتأجه ومقاصده لأن أعلامه كانوا كارهين للإسلام، كخيار حضارى لنهضة الشرق والعرب والمسلمين.

وإذا كانت «مدرسة المقطم» و«مدرسة المقتطف» - وهما جناحان لتيار واحد - عبرتا عن «التغريب - الليبرالى» .. فإن السنوات التى أعقبت قيام الثورة البلشفية فى روسيا [١٣٣٦ هـ - ١٩١٧ م] قد شهدت بدايات تيار «التغريب - الشمولى» على يد طلائع «اليهود - الصهاينة - الماركسيين» .. فعرف هذا التيار، وعرفت منظماته قادة ومؤسسين ومنظرين من مثل «روزنتال» .. و«مارسيل إسرائيل» .. و«هنرى كورييل» .. و«أوديف» .. و«إيزاك إسرائيل» .. و«شوارتز» .. و«ريمون دويك» .. وأشياهم من شذاز الأفاق، الذين انضموا إلى متغريبى المواردنة، مؤملين تحويل المسار الحضارى للأمة عن التوجه إلى رسالة نبينا محمد بن عبدالله ﷺ .. وخالمين بمناقسة أعلامها المحدثين .. من مثل: جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] ومحمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] ورشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] وعبدالله النديم [١٢٦١ - ١٣١٤ هـ = ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م] وعبد الحميد ابن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] ومصطفى عبدالرازق [١٢٠٢ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] وسعد زغلول [١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٧ م] وحسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] .. وغيرهم من الأبناء البررة لثقافة هذه الأمة وحضارتها.

هكذا بدأ وتبلور تيار التغريب والاستلاب الحضارى الذى بشر بثقافة الغرب أداة لإزاحة تميز الثقافة العربية الإسلامية .. والذى دعا إلى تبنى النموذج الحضارى الغربى، بخبره وشهره، وبحلوه ومره، زاعماً أن العقل الشرقى كان ولا يزال عقلاً يونانياً، حتى بعد أن تدبى أهله بدين الإسلام !

ولقد كان الهدف - الذى أعلنه سلامة موسى - لهذا التيار هو إخراج الأمة من «آسيا» - أى من الإسلام وحضارته - وإلحاقها بالغرب، حضارياً .. وهو ذات الهدف الذى وضع بذرتة الأولى الجنرال «يعقوب اللعين» !!



تيار التقليد للموروث

متطلقات هذا التيار ومنابعه هي فكر أسلافنا، الذي تبلور في عصور التراجع الحضارتنا الإسلامية على وجه الخصوص والتحديد .. فأمله ومؤسساته لا يعرفون كثيراً عن حقيقة المنابع الجوهرية والنقية لفكر الحضارة الإسلامية، ولا يهتمون كثيراً بإبداع عصر الازدهار لهذه الحضارة .. وأغلب زادهم الفكري هو ابن لقرون التراجع والجمود المملوكية - العثمانية .. وإذا كان هذا التيار قد ضم فصائل ثلاثاً (أ) مؤسسات العلم والتعليم الموروثة .. مثل الأزهر، وما مثله وشابيه من المدارس والجامعات.

(ب) والطرق الصوفية .. وتنظيماتها، ومشيخاتها المتعددة.

(ج) والنصوصيون الذين وقفوا عند ظواهر النصوص ودلالاتها، عازلين إياها عن ملابساتها وعن مقاصد الشريعة والتشريع المبتغاة من هذه النصوص إذا كانت تلك هي أبرز قصائل هذا التيار .. فإننا نعرف له فضل الحفاظ على تراثنا وفضيلة الدفاع عنه أمام الوافد الغربي الذي أراد اقتلاعه والحدول في مواقعه، الأمر الذي حفظ للأمة ولثقافتها التواصل مع ماضيها الحضاري ومكن لحركات الإحياء والتجديد من مادة ومنطلق هذا الإحياء والتجديد.

ذلك فضل لا ينكر لفصائل هذا التيار.

لكن هذا التيار الذي جفل من «الوافد الغربي»، فانكفاً على «الذات» ... قد ظل عاجزاً عن صياغة الخيار الحضاري والنموذج التجديدي القادر على منافسة النموذج الغربي .. لا لقصور طبيعي في عقول أعلام هذا التيار، وإنما لعيب في بضاعتهم الفكرية .. فلقد كانت بضاعة عصر تراجعنا الحضاري : أي أنها كانت عرضاً من أعراض مرض التخلف الحضاري الذي أصاب هذه الأمة فأثني لها أن تكون سبيلاً ومادة للنهضة والإحياء؟

لقد تأملتُ - وأنا الذي درست في الأزهر - وتساءلت: لماذا كانت أغلب الكتب التي ندرسها مؤلفة في عصر التراجع وليس في عصر الإبداع الحضاري لامتناهٍ وفي ضوء هذا التأمل، وهذا التساؤل، فهمت معنى عبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] التي يقول فيها عن الأزهر وأبنائه - في عصره: «إنهم لا يتعلمون في الأزهر إلا بعض المسائل الفقهية وطرفاً من العقائد، على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها، وجل معلوماتهم: تلك الزوائد التي عرضت على الدين، ويخشى ضررها، ولا يرجى نفعها.. فهم أقرب للقائر بالأوهام، والانقياد إلى الوسواس من العامة، وأسرع إلى مشايعتها منهم!.. فيقاؤهم فيما هم عليه مما يؤخر الرعية».

وهذه المؤسسات التعليمية العريقة الموروثة، عندما سلكت طريق التطور، أخذت «بشكل التجديد»، لا بجوهده، فاقتربت - في أحيان كثيرة - من «التغريب» أكثر من اقترابها من منابع الجهرية والنقية للفكر الذي أبدع وميز حضارة الإسلام. أما المؤسسات الصوفية فإنها - باستثناء القلة القليلة التي رحم ربى - قد استبدلت الشعوذة والخرافة بحقيقة التصوف، كسبيل لتهذيب النفس، ورافد يزامل العقل في إقامة التوازن بثقافة الإنسان.

وإذا كان التيار النصوصي الحديث قد نقض عن عقائد الدين كثيراً من البدع، وعن تصورات العامة كثيراً من الخرافات، فإن جموده عند حرفية ظواهر النصوص قد أورت العجز عن إبداع المشروع الحضاري الذي يصوغ الإنسان المقاوم للزحف الغربي. لقد أضاف هذا التيار النصوصي حصناً جديداً منيعاً إلى حصون «الرافضين للتغريب»، والممتنعين عن الاستلاب الحضاري.. لكن عجزهم عن إبداع البديل المعاصر، القادر على منافسة النموذج الغربي والانتصار عليه، قد هبأ ذلك «الفراغ» الذي تقدم التغريب لملئه واحتلاله إما في عقول «النخبة» التي تغربت، أو في واقع الأمة الذي أصبح محكوماً بقوانين وفلسفات التغريب.

وإذا كنا قد أوردنا عبارة الإمام محمد عبده، التي وصفت الحالة الفكرية لأبناء الأزهر - على عهده - فإن له عبارة تصف هذا «القصيل النصوصي» من قصائل تيار التقليد للموروث.. يقول فيها عن أهله: «إنهم «أضيق عطشاً وأحرج صدرًا من المقلدين!.. فهم، وإن أنكروا كثيراً من البدع، ونخوا عن الدين كثيراً مما أضيف إليه، وليس منه، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد، والتقيّد به، دون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين، وإليها كانت الدعوة، ولأجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم أولياء، ولا للمدنية أحياء».



الأزهر في العصر العثماني

بعد أن كان الأزهر يمد مصر - فضلاً عن غيرها - بالقضاة أصبح قضاء مصر للأتراك منذ المحرم سنة ٩٢٩ هـ = نوفمبر سنة ١٥٢٢ م.

■ وكانت المدارس التي بنيت بمصر منذ عهد صلاح الدين الأيوبي [٥٢٢ - ٥٨٩ هـ = ١١٢٧ - ١١٩٣ م] قد غدت الامتداد العلمي والفكري للأزهر، يدرس فيها شيوخه، ويتخرج منها العلماء على منتهجه، فجاء العصر العثماني ليؤثرها بمظالمه، حتى ليتحدث على مبارك باشا [١٢٣٩ - ١٣١١ هـ = ١٨٢٣ - ١٨٩٣ م] عن ذلك في «الخطط» فيقول: «لقد أهمل أمير المدارس، وامتدت أيدي الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا في مفارقتها، وصار ذلك يزيد في كل سنة، عما قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب .. فامتدت أيدي الظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى صار بعض تلك المدارس الفخمة والمباني الجليلة .. زريبة أو حوشاً، أو غير ذلك، والله عاقبة الأمور».

■ ولقد انعكس «الفقر المادي والفكري» الذي ميز الحقبة العثمانية على الأزهر، فزادت غريبته عن العلوم التي أبدعها السلف، والتي تأسست عليها صفحة ازدهار حضارتنا، ووقف التدريس فيه عند الكتب التي ألفها «علماء» العصر «المملوكي - العثماني»، وهو العصر الذي توقف فيه الإبداع وأغلق فيه باب الاجتهاد .. بل واقتصر التدريس، غالباً، على علوم الوسائل والأدوات .. حتى لقد غدت علوم وفنون مثل: المنطق والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، غريبة، يرتاب فيها الكثير من الشيوخ، ويخشون ضررها على الإسلام!

وفى الحوار الذى يحكيه المؤرخ الجبerty [١١٦٧ - ١٢٣٧ هـ = ١٧٥٤ - ١٨٣٢ م] والذى دار بين الوالى التركى أحمد باشا (كور وزير) وشيخ الأزهر الشيخ عبدالله الشبراوى [١٠٩٢ - ١١٧٠ هـ = ١٦٨١ - ١٧٥٧ م] تجسيد للحال الفكرية التى بلغها الأزهر [١١٦٢ هـ - ١٧٤٩ م] أى قبل نصف قرن من حملة «بونابرت» وبدء هجمة التغريب. فى هذا الحوار متطوق طريف يجسد حال الأزهر البائس فى ذلك التاريخ.

■ الوالى التركى: المسموع عندنا بالديار الرومية - «التركية» - أن مصر فتبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق إلى المجيء إليها، فلما جنتها وجدتها - كما قيل - «تسمع بالمعدي خير من أن تراه»!

■ شيخ الأزهر: هى، يا مولانا، كما سمعتم، معدن العلوم والمعارف.

■ الوالى: وأين هى؟! وأنتم يا أعظم علمائها، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم: الفقه، والمعقول، والوسائل، ونفذتم المقاصد!

■ شيخ الأزهر: ... غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والموارث.

■ الوالى: وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية، بل هو من شروط صحة العبادة، كالعلم بدخول الوقت، واستقبال القبلة، وأوقات الصوم والأهلة، وغير ذلك.

■ شيخ الأزهر: نعم .. معرفة ذلك من قروض الكفاية .. وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية، كرقعة الطبيعة، وحسن الوضع، والخط، والرسم والتشكيل، والأمور العطاردية. وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاق مجتمعة من القرى والأفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك.

هكذا صبت الحقيقة العثمانية بالأزهر .. قلصت مجاله المادى بتدمير المدارس التى مثلت هذا المجال، وأصابته بالفقر الفكرى، الذى كان سمة لهذه الحقبة فى كل المجالات وجميع الولايات .. وهكذا جاءت الهجمة التغريبية

القوية لتجد الأزهر أشبه ما يكون بالفارس الذي يحمل سلاحاً تراكم عليه الصدا
وعلاء الغبار!

لكن الأزهر - مع ذلك - لم يستسلم، وما كان بالإمكان أن يستسلم لتيار
التغريب .. لقد حصن موقعه، فنجاه لأكثر من قرن ونصف قرن، من تأثيرات
التغريب، ومثل وسط المجتمع الذي مال إلى التغريب الاستثناء الداعي إلى أن تعود
الأمة إلى ذاتها وهويتها الحضارية المتميزة، والتي بدونها لن يتحقق لها
الاستقلال الحقيقي عن التبعية للاستعمار!

مصطلح «الشرق الأوسط»

إبان الحرب العالمية الثانية [١٣٥٨ - ١٣٦٤ هـ = ١٩٣٩ - ١٩٤٥ م] أطلق الاستعمار على الوطن العربي اسم: «الشرق الأوسط» .. وذلك ليفرغ هذا الوطن من هويته «العربية - الإسلامية» وليصبح مجرد «جغرافيا» قابلة للإلحاق «بالمركز الغربي» وليفتح الباب الثقافي لصبغ هذه «الجغرافيا» بالصبغة الثقافية التغريبية التي يريدونها الاستعمار!

وكان لهذه التسمية (الشرق الأوسط) مقصد آخر أكثر إمعاناً في محاولات هذه «المركزية الغربية» إلحاق الآخرين بفرقيتها .. فتسمية «الشرق الأوسط» - بعد محوها لهويتنا «العربية - الإسلامية» - تسمينا باعتبار موقعنا - كتابعين - من المركز الغربي! .. فهناك من هو «شرق أدنى» - بالنسبة لموقعه من المركز الغربي - ومن هو «أوسط» .. ومن هو «أقصى» - بالنسبة لموقعه من هذا «المركز» - فكأننا العبيد الذين تتم تسميتهم بحسب موقعهم من «السيد»!!

ولقد ابتلعت كثير من دوائر السياسة والفكر والثقافة والإعلام، في وطن العروبة وعالم الإسلام - بسبب الغفلة والجهالة - هذه التسمية التي تكرر معاني التبعية .. ومحو الهوية .. والإلحاق.

فلما حدثت نكبة الاغتصاب «الصليبي - الصهيوني» لفلسطين - عقب الحرب العالمية الثانية - ذاع وشاع التعبير عن هذه القضية باسم «مشكلة الشرق الأوسط» .. وذلك بدلاً من اسم «الصراع العربي - الصهيوني» وذلك - مرة أخرى - لتكريس محو الهوية المميزة لهذا الصراع.

وفي السنوات الأخيرة .. ومع الحديث عن التسويات التي تحاول تكريس النكبة والهزيمة، حسبت الدوائر الصليبية والصهيونية .. أنها قد اقتربت - بهذه التسويات البائسة - من كسر الإرادة العربية والإسلامية الرافضة «لاغتصاب

الصهيونية المقدس وفلسطين» .. وأن هذه التسويات توشك أن تمحو هويتنا العربية الإسلامية، حتى تقبل «جغرافيتنا» الكيان الصهيوني .. بل وسيطرته على هذه «الجغرافيا» .. قيدا شيوع مصطلح «الشرق الأوسط الجديد» .. ثم مصطلح «الشرق الأوسط الكبير»!



ومنذ شيوع هذا المصطلح - «الشرق الأوسط» - كانت هناك محاولات لطمس جذور هذا الصراع الذي ينور على القدس وفلسطين، كرمز للصراع الإمبريالي الغربي - التاريخي - ضد الشرق الإسلامي .. حتى لقد أصبح الكثيرون يظنون أن تاريخ هذا الصراع قد بدأ مع قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨ م .. أو أن تاريخه لا يعدو «وعد بلفور» سنة ١٩١٧ م .. أو أن جذوره لا تتجاوز المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في «بال» بسويسرا ١٨٩٧ م.

كل ذلك لتسطيح القضية .. وإخفاء جذورها العميقة والدقيقة .. وقبل كل ذلك لمحو هوية هذا الصراع التاريخي، وطمس الأبعاد الفكرية والعقدية و«الأيدولوجية» والدينية التي غذته، وتغذت عليه عبر قرون طوال، ولتصويره على أنه مجرد «حاجز نفسي» - حديث النشأة - تزيله وتبدده هذه التسويات!!

وكان القائد العسكري الإنجليزي «جلوب ياشا» [١٨٩٧ - ١٩٨٦ م] - الذي عمل قائداً للجيش العربي الأردني حتى سنة ١٩٥٦ م!! - وهو كاتب ومؤرخ - قد أصاب كبد الحقيقة عندما كشف عن تاريخ هذا الصراع بعبارة التي توظف النيام والغافلين - بل والسكراني - والتي تقول: «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع الميلادي» أي إلى تاريخ ظهور الإسلام!!



مصطلحات .. ومفاهيم

منذ الاحتكاك بين حضارتنا الإسلامية والحضارة الغربية، دخلت إلى قواميس العلوم الإنسانية والاجتماعية، وإلى مؤلفات الفكر والثقافة، بل ووسائل الإعلام، الكثير من المصطلحات الغربية، ذات المفاهيم الغربية .. والتي تحتاج إلى ضبط مفاهيمها، وإلى التعريف بهذه المفاهيم ومن هذه المصطلحات:

■ **الوجودية** رؤية فلسفية للوجود الإنساني، ظهرت في أوروبا - عقب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ - ١٩١٨ م] - في ألمانيا أولاً، ثم في فرنسا .. ثم امتد انتشارها - بعد الحرب العالمية الثانية [١٩٣٩ - ١٩٤٥ م] - إلى الأوساط الفلسفية في أوروبا وأمريكا .. وبلاد الشرق والجنوب.

وتنطلق الفلسفة الوجودية من وحدة الذات والموضوع، والنظر إلى الإنسان باعتباره وجوداً .. وسبيلها في المعرفة هو الحدس .. وهي تولي الحرية، بمعنى الاختيار الفردي، اهتماماً شديداً، مع عزل الحرية والاختيار عن الضرورات الموضوعية والقوانين والسنن التي تحكم الواقع وتحيط بالإنسان .. فالحرية - في الوجودية - هي الغاية، وهي تعنى تحرير الفرد من المجتمع.

ولقد أجادت الوجودية استخدام الفن والأدب، بما في ذلك المسرح، في نشر فلسفتها. وفي إطار الفلسفة الوجودية تمايزت تيارات أبرزها:

١ - تيار الوجودية المؤمنة بالدين - كما هي عند الفيلسوف الفرنسي جابرييل مارسيل .. والألماني كارل ياسبرز [١٨٨٣ - ١٩٦٩ م] .. والروسي نيقولاى ألكسندروفيتش برديائييف [١٨٧٤ - ١٩٤٨ م] والألماني مارتن بوبر [١٨٧٨ - ١٩٦٥ م].

٢ - والوجودية الإلحادية - كما هي عند الألماني مارتن هيدجر .. والفرنسي جان بول سارتر .. والفرنسي ألبيير كامو [١٩١٣ - ١٩٦٠ م].

ومع أن الوجودية غير علمانية، إلا أنها - ككل الفلسفات الغربية - فلسفة علمانية النزعة تعزل الدين عن الحياة - في تيارها الملحد - وتعزله عن الدولة - في تيارها المؤمن ؛ لأن الإيمان - ككل الفلسفة الوجودية - مجرد نزعة ذاتية واختيار فردي، لا علاقة له بالدولة أو السياسة أو الاجتماع.

ولقد تراجعت بل وانهارت وتدهورت الفلسفة الوجودية في العقود الأخيرة .. وربما لن يدخل منها إلى القرن الحادي والعشرين سوى التاريخ.

■ أما العلمانية: فإنها النزعة التي ميزت فلسفة التنوير الوضعية الغربية، على اختلاف مدارس هذا التنوير، منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وذلك بإحلال العقل والتجربة والعلم - ثالث التنوير الغربي - محل الله والكنيسة واللاهوت .. والتركيز على عالم الشهادة - الدنيا - دون عالم الغيب، وجعل الإنسان الطبيعي - وليس الذي نفخ الله فيه من روحه، واستخلفه - هو محور الثقافة الحديثة بدلاً من أن يكون الله هو محور هذه الثقافة، وعزل السماء - أي الله والشرائع الدينية والقيم الإيمانية - عن أن تكون حاكمة وعدبرة للاجتماع الإنساني .. فالعلمانية - وثمرتها ثقافة الحداثة - تحل «العالم» و«الواقع» و«الدنيا» محل الله والسماء والدين، وتعزل السماء عن الأرض، وتحرر الإنسان والمجتمع من الرعاية الإلهية والتدبير الديني .. فالإنسان - فيها - مكتف بذاته، والعالم - عندها - مكتف بذاته تدبرهما الأسباب الذاتية المودعة فيهما، دونما حاجة إلى التدبير الإلهي والشرائع الدينية.

وفي العلمانية تياران رئيسيان:

١ - تيار العلمانية الكلية والشاملة، وهو مادي يطمح إلى تحرير الحياة - بجميع ميادينها، والإنسان في كل عوالمه - من الدين - بكل أبعاده القيمية والقانونية والشعائرية، والماركسية من نماذج هذه العلمنة الكلية والشاملة.

٢ - وتيار العلمانية الجزئية، التي لا تنكر الإيمان بالله والدين، ولكنها تقف بالدين عند العلاقة الفردية بين الإنسان والله، وعند الشعائر العبادية وبعض القيم الأخلاقية لمن يريد، بينما ترفض كل تدخل للدين في تدبير الدولة والاجتماع الإنساني .. فهي تكتفي بفصل الدين عن الدولة .. على حين تطمح العلمانية الشاملة إلى عزله عن كل الحياة.

■ أما الماسونية: فإنها حركة عالمية وتنظيم دولي، نشأ بأوروبا في عصورها

الوسطى، وتتميز باختلاف ما يعلن من شعارات عما يبطن من مقاصد وأسرار.

فالماسون - في محافلهم - يسمون أنفسهم «البنائين الأحرار» ويرفعون

شعارات الثورة الفرنسية (الحرية - والإخاء - والمساواة) ويدعون إلى التحرر من

سلطة الكهانة البابوية، ويبرزون الإخاء الديني بين كل المنتسبين إلى محافلهم

- من كل الديانات - عندما يستبعدون الهوية الدينية للأعضاء .. لكن حقائق

مقاصد الماسونية - التي اتضحت علاقاتها باليهودية والصهيونية - كشفت عن

أنها تستخدم التحرر من العصبية الدينية سبيلاً للتدخل من الانتماء الديني -

وخاصة لدى غير اليهود - فتذويب الخصوصيات الدينية - فضلاً عن مضاربه -

إنما يتم لحساب اليهودية والصهيونية .. كما أن الغار تعاليم الماسونية تسهم -

بالتدريج، وبشكل غير مباشر - في تشكيك الأخذين بها في مواريتهم وعقائدهم

الدينية .. وذلك فضلاً عما تكشف عبر القرن المتصرم من علاقة الماسونية

بالصهيونية، وليس فقط باليهودية .. فالماسونية «تعلن» أعضاءها من غير

اليهود، وذلك خدمة للأقلية اليهودية ومخططاتها الصهيونية، بل لقد تبين أن

عبارة «البنائين الأحرار» إنما تعني - في الحقيقة - العاملين على إعادة بناء

هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى في القدس الشريف.

وعندما تكشف هذه البواطن والمقاصد الماسونية لبعض المجتمعات والدول

الإسلامية، فأغلقت المحافل الماسونية، عادت لتتسرب تحت لافتات أندية

وتنظيمات عالمية أخرى، من مثل «الروتاري» و«الليونز» وأمثالهما.



عن العروبة والإسلام (١)

فى دراسة المشاريع الفكرية لأعلام الفكر، من الخطأ الوقوف عند البدايات مع إغفال التطور والنهايات .. أو الوقوف عند النهايات، مع إغفال الجذور والبدائيات.

وفى التعرف على علاقة العروبة بالإسلام فى المشروع الفكرى لميشيل عفلق [١٩١٠ - ١٩٨٩م] وهو أكبر منظرى التيار القومى العربى - هناك مفارقة غريبة هى وقوف كل من الإسلاميين والقوميين عند كتابات عفلق الأولى، وتجاهل أو جهل تطوره الفكرى والنهايات التى انتهى إليها فى علاقة العروبة بالإسلام .. ويكفى لمعرفة حجم هذا الخطأ، إدراك أن الرجل قد بدأ من موقع «القومية أولاً» .. ثم تطور وانتهى إلى موقع «الإسلام أولاً» الأمر الذى يحتم - لفهم هذه القضية فى مشروعه الفكرى - تتبع الخط البيانى لفكر هذا الرجل على امتداد سنوات مشروعه الفكرى التى استمرت لأكثر من خمسين عاماً.

وفى دراسة علاقة العروبة بالإسلام، فى فكر ميشيل عفلق، نجد أن هناك «ثوابت» صاحبت فكره دائماً وأبداً .. وهناك «تطور» أصاب هذا الفكر فى علاقة العروبة بالإسلام.

ففى إطار «الثوابت» نجد التأكيد الدائم على وجود علاقة بين الإسلام والعروبة، وتنبيهها على دور هذه العلاقة فى «تمييز» القومية العربية عن القوميات الأخرى.. تمييزها بـ«الخلود» و«الإطلاق» النابغين من «خلود» الدين الإسلامى، و«إطلاق» هذا الدين .. وهو تمييز امتد إلى أمة هذه القومية، فجعل لها «رسالة خالدة» حملتها وتحملها إلى العائمين، وهذه الخصوصية فى العلاقة بين العروبة والإسلام، ولا امتياز الإسلام بالتجدد الدائم، فلقد تميزت هذه العلاقة هى الأخرى بالدوام - فى مشروع النهضة المعاصرة، كما فى النهضة العربية التى فجرها

ظهور الإسلام - ومن ثم فلقد تميزت صيغة «البعث» في المسألة القومية، عن الصيغ القومية التي نشأت في الحضارة الغربية، والتي استعارها قوميون عرب، جردوا القومية من هذه العلاقة العضوية والخاصة بالإسلام

تلك أمور «جوهريّة - وثوابت» في المشروع الفكري لميشيل عفلق، على امتداد الخمسين عاماً التي قضاها الرجل في الفكر والممارسة.

أما القضايا التي شهدت «تطوراً» في فكره، إزاء علاقة العروبة بالإسلام، ومن ثم مكانة الإسلام بين مكونات القومية العربية، وموقعه في مرجعية المشروع الحضاري العربي، قلل أبرزها:

■ أن الرجل كان يرى في العقود التي سبقت عقد السبعينيات - من القرن العشرين - انفراد القومية العربية وحدها كمحرك للأمة العربية نحو الثورة والنهوض .. والإسلام الحضاري هنا هو مجرد مكون من مكونات القومية، يغذيها بترائه الروحي، وهو متضمنٌ فيها.

■ أما منذ عقد السبعينيات، وبعد اتساع مساحة الحديث عن الإسلام في مشروعه الحضاري، فلقد أصبح الإسلام أكبر مكون من مكونات القومية العربية. أصبح أباهما الذي ولدت منه ولادة جديدة .. كما أصبح الإسلام الحضاري خياراً قائماً بذاته ضمن خيارات النهضة الثلاثة كما تحدث عنها ميشيل عفلق، وهي: القومية .. والتقدم .. والإسلام الحضاري.

لقد كانت العروبة في المرحلة الأولى هي الأصل وكان الإسلام «مجرد مَفْصَح» عن رسالة الأمة العربية، إبان ظهوره .. وكانت القومية، وليس الإسلام، هي «المفصّح» عن رسالة الأمة في العصر الحديث .. أما في المرحلة الثانية - مرحلة «الحقبة العراقية» في تطور ميشيل عفلق .. والتي اعتزل فيها «العنصر السياسي» وتفرغ «الفكر» وتخلص فيها من ضغوط وملايسات «الطائفية الشامية»! - .. أما في هذه المرحلة الثانية، فلقد تحدث عفلق عن الإسلام باعتباره الأب الشرعي للعروبة - وليس المفصّح عنها - وباعتباره المكون الأول لها - وليس مجرد مكون من مكوناتها - وباعتباره جوهر مشروعها النهضوي.. بل وباعتباره وطن الأمة، والسياج الحامي لوحدتها، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء.. لقد أصبح الإسلام عنده: ديناً، ووطناً، ووطنية، وقومية، وحضارة، وثقافة .. بل وأصبح العبر لوجود الأمة العربية!

على هذا النحو الهام والجذرى والعميق، تطور فكر ميشيل عفلق إزاء علاقة العروبة بالإسلام .. الأمر الذى يجعل من الوقوف فى دراسة فكره حول هذه القضية عند البدايات والجذور، خطأ كبيراً .. كما يجعل رؤية قمة التطور والنهايات، دون وصلها بالبدايات والجذور، خطأ آخر كبيراً .. فنتبع الخط البياني لتطور فكر الرجل حول علاقة العروبة بالإسلام، ووزن كل منهما إزاء الآخر، ضرورة من ضرورات الدراسة العلمية لفكر عفلق فى هذا الموضوع الهام، والشاغل لكل من الإسلاميين والقوميين على حد سواء.

إننا لم ندرك عظمة صحابة رسول الله ﷺ، إذا رأينا جاهليتهم فقط! كما لن ندرك أبعاد عظمتهم هذه إذا لم نبصرها فى ضوء جاهليتهم .. لا لأن خيارهم فى هذه الجاهلية كان خيارهم فى الإسلام - كما قال رسول الله ﷺ - فقط .. وإنما لأن درجة عداؤهم من عظمتهم - كعمر بن الخطاب مثلاً فى جاهليته - للإسلام ورسوله .. قد رشحته ليكون الفاروق بين الحق والباطل، عندما اهتدى بهدى الإسلام .. فالتطور الفكرى - للإنسان .. والمشروع الفكرى - هو آية الحيوية والحياة .. وبدونه تصبح الدراسة بلا حياة!





عن العروبة والإسلام (٢)

لقد بدأ ميشيل عفلق [١٩١٠ - ١٩٨٩م] مشروع القومية، مؤمناً بالإسلام كدين سماوى .. لكن ما كان يهمه من الإسلام، ويستدعيه منه في حركته القومية هو «الحركة» التى قام بها العرب عندما تدينوا بهذا الدين .. كانت «الحركة العربية» المتنبئة فى إنجاز الأمة العربية، هى ما يحفل به ويحتفل، ويبرزه ويستدعيه .. ولعلاقة «المحرك - الإسلام» بـ «الحركة - الأمة - وقوميتها» فلقد رفض عفلق نموذج القومية الغربى المجرد من الدين، ورأى أن للعرب وقوميتهم خصوصية متميزة فى هذا الميدان، جاءت ثمرة للعلاقة العضوية بين العروبة والإسلام .. فالمفهوم الغربى للقومية يجعلها تقيضاً للدين، لثبات الدين ونسبيتها، ولإلهية الدين وبشريتها، وهو يجردها من التراث - لأنها لدية ظاهرة حديثة لا علاقة لها بالتراث - بينما رأى عفلق - فى الواقع العربى - أن علاقة الإسلام بالعروبة قد ملحتها شيئاً من «خلوده» و«إطلاقه» .. كما أصبح تراثه الروحى المعين الذى ترتوى منه العروبة والقومية العربية .. واللغة العربية هى - عندنا - لغة الدين والقومية معاً، وليس كذلك لغة الدين والقوميات فى الغرب .. فالإسلام ولغته ليسا أجنيين عن الأمة العربية، كما هو حال الدين المسيحى مع القوميات الغربية .. والإسلام الحضارى: الحركة، والثورة، والتاريخ، والرسالة الإنسانية، والتجربة، التى امتزجت فيها تأثيرات السماء باستجابات الأرض .. كل هذا الجانب البشرى من الإسلام - والذى هو وليد الآلام العربية، ومفصيح عن عبقرية الأمة العربية - قد غدا مكوناً ومغذيةً للقومية العربية، الأمر الذى ميزها ويميزها عن القوميات الغربية.

يحدثنا ميشال عفلق عن هذه القضية، منذ السنوات الأولى لمشروعه الفكرى، فيكتب سنة ١٩٤١م يقول: «إن هذه القومية التى تأتينا من أوروبا، مع الكتب والمجلات، تهددنا بخطر مزدوج، فهى من جهة تنسينا شخصيتنا وشؤونها، ومن

جهة أخرى تسلبنا واقعنا الحي، وتعطينا بدلاً منه الغاظة قارعة ورموزاً مجردة. وإن قى مقارنة القومية بالدين والتقاليد والفن مثلاً ما يضم عن إخلال بدقة التفكير، وفهم جزئى للقومية كأنها شىء مستقل عن الدين والتقاليد والفن، مع أنها التربة التى تنمو فيها مواهب أمة ما فى كل الميادين. وعلى هذا لا يعود جائزاً أن تختلق خصوصية بينها وبين أحد أجزائها الأصلية المتبعثة منها، ولا أن نساوئها بها، إن التفكير المجرد منطقي مع نفسه إذ يقرر أن القومية لا بد أن تصطدم بالدين مثلاً لأنهما يختلفان فى المتبع والمظاهر، ولكن لتتجر اللفظ قليلاً، ونسم الأشياء بأسمائها وصفاتها المميزة، فنستبدل بالقومية «العروبة» وبالدين «الإسلام»، تظهر لنا المسألة تحت ضوء جديد، فالإسلام فى حقيقته الصاقية نشأ فى قلب العروبة، وأفصح عن عبقريتها أحسن إفصاح، وسائر تاريخها، وامتزج به فى أمجد أدواره فلا يمكن أن يكون تمة اصطدام وبعد، فهل القومية محصورة فى الأرض، كما يظن، بعيدة كل البعد عن السماء حتى يعتبر الدين شاغلاً عنها، مبدراً لبعض ثرواتها، بدلاً من اعتباره جزءاً منها، مغزياً لها، ومفصلاً عن أهم نواحيها الروحية والمثالية؟ إن القومية العربية ليست نظرية، ولكنها مبعث النظريات، ولا هى وليدة الفكر، بل مرضعته، وليست مستبعدة الفن، بل نبهه وروحه، وليس بين الحرية وبينها تضاد؛ لأنها هى الحرية، إذا ما انطلقت فى سيرها الطبيعي، وتحققت ملء قدرتها».

هنا يرفض ميشيل عفلق نموذج القومية العربية، المجرد من الدين، وذلك لإيمانه بعلاقة الإسلام بالعروبة، فى النموذج القومى العربى.. لكنه يرى الإسلام «جزءاً» من أجزاء القومية العربية «نشأ فى قلب العروبة، وأفصح عن عبقريتها» فهى الأصل وهو الفرع! وهى الكل وهو الجزء!

وفى سنة ١٩٤٣م، يعيد عفلق تأكيد هذه المعانى التى تلج على خصوصية قوميتنا وتميزها عن القوميات الأخرى، فيقول: «الفكرة القومية النجدة - [عن الدين] - فى الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين: لأن الدين يدخل على أوروبا من الخارج، فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها، وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، ولم ينزل بلغاتهم القومية، ولا أفصح عن حاجات بينتهم، ولا امتزج بتاريخهم، فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب، ولا هو أخلاق مجردة، بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى

ونظرتهم إلى الحياة، وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التي يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر، والتأمل بالعمل، والنفسي بالقدر، وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وأدابهم، وأضخم قطعة من تاريخهم القومي، فلا نستطيع أن نتغنى ببطل من أبطالنا الخالدين بصفته عربياً وتهمله وننقر منه بصفته مسلماً. قوميتنا كائن حتى متشابك الأعضاء، وكل تشريح لجسمها وفصل بين أعضائها يهددها بالقتل .. فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أي دين بأي قومية .. فملحمة الإسلام لا تنفصل عن مسرحها الطبيعي، الذي هو أرض العرب، وعن أبطالها والعاملين فيها، وهم العرب .. فالإسلام إذن كان حركة عربية، وكان مغناه: تجديد العروبة وتكاملها، فاللغة التي نزل بها كانت اللغة العربية، وفهمه للأشياء كان بمنظار العقل العربي، والفضائل التي عززها كانت فضائل عربية ظاهرة أو كامنة، والعيوب التي حاربها كانت عيوباً عربية سائرة في طريق الزوال، والمسلم في ذلك الحين لم يكن سوى العربي، ولكنه العربي الجديد، المتطور، المتكامل.. إن هذا الدين يمثل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقى».

فعلق هنا .. مع اعترافه بـ«سماوية» الإسلام، كدين إلهي .. إلا أنه يسلط كل الضوء على الجانب «البشري» فيه .. على «الحركة العربية» التي أفصح عن عبقرية الأمة في «صورة الإسلام» .. وهو ينفي أن يكون الإسلام قد «وجد ليكون مقصوراً على العرب» لكنه يعتبر «بعده الإنساني» التعبير عن نزوع القومية العربية «في أصل تكوينها إلى القيم الخالدة الشاملة، والإسلام خير مفسح عن نزوع الأمة العربية إلى الخلود والشمول .. فرسالة الإسلام إنما هي خلق إنسانية عربية»!

إنه لا يزال في مرحلة: العروبة أولاً .. وهي الأصل، والإسلام مجرد جزء من مكوناتها .. ومقصص عن عبقرية أمتها!





عن العروبة والإسلام (٣)

فى المرحلة الأولى من مراحل فكر ميشيل عفلق - السابقة على مرحلة السبعينيات من القرن العشرين - لا يرى الرجل اليقظة العربية الأولى - إبان ظهور الإسلام - ثمرة للإسلام، وبعضاً من آثاره وتجلياته، وإنما يرى فى الرسالة الدينية الإسلامية مفصلاً عن تلك اليقظة القومية العربية الأولى؛ فالأصل هو القومية .. والإسلام ثمرة لعبقرية الأمة ومظهر لرسالتها الخالدة؛ وفى ذلك يقول - مغلياً «البشرى» على «السماوى» - فى هذا الذى شهده العرب إبان ظهور الإسلام «إن العرب ينفردون دون سائر الأمم بخاصية: أن يقظتهم القومية قد اقترنت برسالة دينية، أو بالأحرى كانت هذه الرسالة مفصحة عن تلك اليقظة القومية .. وما الإسلام إلا وليد الآلام، آلام العروبة»^١

وبسبب من هذا الموقف المتأثر بالتحليل المادى لنشأة الأديان - الموقف الذى رأى الإسلام مجرد مكوّن ومغذٍ للقومية العربية - أفصح - بلغة السماء - عن يقظة العرب الأولى، وعبقورية أمّتهم، وتجسّد فى الحركة البشرية العربية الثورة والعلوم .. والتراث .. والمثل والحضارة .. بسبب هذا الموقف، الذى غلب فيه عفلق «البشرى» على «السماوى» - حيال النظرة إلى الإسلام - رأيناه، رغم حديثه عن البعد الإنسانى والعالمى للإسلام، يرى أن «الإسلام لا يمكن أن يتمثل إلا فى الأمة العربية، وفى فضائلها، وأخلاقها ومواهبها.. ولذلك يجب أن توجه كل الجهود إلى تقوية العرب وإنهاضهم، وأن تحصر هذه الجهود فى نطاق القومية العربية»^٢

وفى سنة ١٩٤٦م يعود عفلق فيطرق ذات الموضوع، ليؤكد على ذات الفكرة .. فالأصل والمتبع - عنده - هو أن للأمة العربية «رسالة خالدة» هى: «نزوع واستعداد» لتحقيق الذات، والإفصاح عن هذه الذات .. نزوع واستعداد دائم وخالص .. أما «أشكال» الإفصاح والتعبير فإنها تختلف باختلاف مراحل تطور هذه الأمة ..

فقبل الإسلام أفصحَت الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة «تَشْرِيعِ خُصُورَانِي» [١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م] مرة .. وفي صورة «الشعر الجاهلي» مرة ثانية .. وعند ظهور الإسلام كان الإفصاح عن الذات في صورة هذا الدين - «دين محمد» ثم جاء عصر أفصحَت فيه الأمة عن ذاتها ورسالتها في صورة «ثقافة عصر المأمون» [١٧٠ - ٢١٨ هـ = ٧٨٦ - ٨٢٣ م] والآن .. غدت «القومية» هي الصورة العصرية التي تفصح بها الأمة العربية عن ذاتها وعن نزوعها الدائم ورسالتها الخالدة.

يعبر ميشيل عفلق عن هذه الفكرة عندما يقول «فهذه الأمة التي أفصحَت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحًا متعددًا متنوعًا، في تشريع حضوراني، وشعر الجاهلية، ودين محمد، وثقافة عصر المأمون، فيها شعور واحد يهزها في مختلف الأزمان، ولها هدف واحد، بالرغم من فترات الانقطاع والانحراف .. لقد أفصح الدين، في الماضي، عن الرسالة العربية التي تقوم على مبادئ إنسانية، فهل معنى ذلك أنه يتعذر على هذه الرسالة أن تكون قومية؟ .. إن هذه الرسالة يجب أن تفهم على أنها نزوع واستعداد أكثر من كونها أهدافًا معينة محدودة».

ويذهب عفلق، على درب التأكيد لهذا الرأي الذي يرى الإسلام - في آثاره الأرضية والبشرية - ثمرة لعبقرية الأمة العربية - وليس ثمرة للوحي الإلهي والوضع الرباني - عندما يمضي مؤكدًا حلول «القومية» محل «الدين» كالمحرك الأول، بل والوحيد للأمة العربية في هذا العصر الذي نعيش فيه .. «قمشكلتنا هي القضية القومية. لكل أمة في مرحلة معينة من مراحل حياتها، محرك أساسي يهز أعماقها ويفجر فيها ينابيع النشاط والحيوية والحماسة ويفتح له قلبها، وهو بمثابة نقطة يتركز فيها انتباه الأمة، وتكون مفصحة عن أعماق حاجاتها في مرحلة ما .. فإذا نظرنا إلى العرب في الماضي، وجدنا هذا المحرك الأساسي كان في وقت ما، عند ظهور الإسلام، هو الدين، فقد قدر وحده على استتارة كوامن القوى في النفس العربية، واستطاع أن يحقق الوحدة والتضامن، وأن يلهب النفوس، ويفتح القرائح، وأن يحقق بالتالي تلك النهضة. في ذلك الوقت دُعي العرب إلى الإيمان بالله واحد، فقادهم ذلك الإيمان إلى تحقيق الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي الذي كانوا بحاجة إليه، فالإصلاح الاجتماعي كان فرعًا ونتيجة للإيمان العميق بالدين

أما اليوم، فإن المحرك الأساسي للعرب .. هو القومية، التي هي كلمة السر التي تستطيع وحدها أن تحرك أوتار قلوبهم وتنفذ إلى أعماق نفوسهم، وتتجاوب مع حاجاتهم الحقيقية الأصيلة .. لذلك، لا يمكنهم أن يفهموا لغة غير لغة القومية .. وكما استجابوا في الماضي لنداء الدين فاستطاعوا أن يحققوا الإصلاح الاجتماعي، فإنهم يستطيعون اليوم تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بين المواطنين وضمان الحرية بين العرب جميعاً، نتيجة الإيمان القومي وحده»

ف«الإيمان القومي وحده» - بنظر علق - في هذه المرحلة من مراحل فكره - هو المحرك الوحيد للأمة، في عصرنا الراهن .. وهو قد حل محل «الإيمان الديني» الذي كان المحرك للأمة على عهد ظهور الإسلام! .. حل محله في المشروع القومي للنهوض المنشود.

ولقد قادت هذه الأفكار - التي اختزلت الإسلام فجعلته «جزءاً» من «الكل القومي» واستبدلته «كمحرك تاريخي» بـ«المحرك القومي» المعاصر - قادت هذه الأفكار ميشيل علق إلى فكرة أخطر، جعلته يتبنى «الإسلام التراث» إذ هو من مكونات القومية، يحقق وحدة الأمة الثقافية والروحية .. على حين قد أهمل «الإسلام الدين الصرف» بدعوى افتقاره إلى ما يميزه ويفضله على الديانات الأخرى في الواقع العربي، ويدعوى أنه عامل «تفريق» للأمة، وليس عامل «توحيد»، فكتب - في سنوات ١٩٥٠، ١٩٥٥، ١٩٥٧م - داعياً إلى الوقوف من الإسلام عند تبني «ناحيته القومية»؛ لأنها هي أداة التوحيد للدولة القومية، دون تبني «ناحيته الدينية» بدعوى أنها عامل «تفريق لا توحيد» ومتوهمًا وجود تماثل بين «الدولة» في الإسلام، وتظيرتها في المسيحية الغربية إبان حكم الكنيسة في العصور الأوربية الوسطى والمظلمة!

عن العروبة والإسلام (٤)

في حقبة خمسينيات القرن العشرين، كتب ميشيل عفلق، داعياً إلى استبدال القومية بالدين، والاقتصار من الدين الإسلامي على تراثه الموحد لثقافة الأمة؛ لأن هذا هو الإسهام الإسلامي في القومية، التي غدت الصورة العصرية للرسالة الخالدة للأمة العربية.. وعن ذلك كتب فقال: «إن البعث العربي حركة قومية، تتوجه إلى العرب كافة، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وتقّدر حرية الاعتقاد، وتنظر إلى الأديان نظرة متساوية في التقديس والاحترام، ولكنها ترى إلى جانب ذلك، في الإسلام، ناحية قومية لها مكانتها الخطيرة في تكوين التاريخ العربي والقومية العربية، وتعتبر هذه الناحية ذات صلة وثيقة بتراث العرب الروحي وبمميزات عبقريتهم.. فالإسلام، من حيث هو دين صرف، مساو لغيره من الأديان في الدولة العربية التي تساوى بين جميع مواطنيها وتحترم حرية معتقدتهم. والإسلام - من حيث هو حركة روحية امتزجت بتاريخ العرب واصطبغت بعبقريتهم وأتاحت ظهور نهضتهم الكبرى - له مكانة خاصة في روح القومية العربية وثقافتها وحركة انبعاثها.. وبهذا المعنى تستلهم حركة البعث العربي من الإسلام تجددته وثورته على القيم الاصطلاحية.. تستقي من تبعه فضائل الإيمان والمثالية والتجرد عن المنافع الشخصية والمغريات الدنيوية في سبيل نشر المبادئ التي تنقذ العرب في هذا العصر من ضعفهم وتفككهم وانخفاض مستواهم الروحي والاجتماعي».

فموقف عفلق هنا من الإسلام موقف انتقائي، يأخذ منه فقط «الناحية القومية»، دون غيرها من نواحيه التي تغطي جميع الميادين! وهذه «الناحية القومية» من الإسلام والتي هي من مكونات العروبة، ومتضمنة فيها، هي «عامل التوحيد القومي» في الإسلام.. بينما - في رأي عفلق -

تكون «النواحي الدينية» وكذلك «العالمية - غير العربية» هي عوامل «تفريق» لا توحيد! «فالإسلام الذي هو أقرب ما يكون إلى الواقع وإلى الماضي وإلى المستقبل هو العروبة. فإذا قلنا الإسلام قسنخيلط مع عالم آخر نصطدم معه بالمصالح، فالفروق القائمة وسط مجتمعاتنا العربية تظهر أنها لا شيء أمام الفروق في وسط المعالم الإسلامي، إذا أخذنا الأقليات العنصرية ما بين العالم العربي والإسلامي تجدها كثيرة.. فالعرب اليوم لا يريدون أن تكون قوميتهم دينية؛ لأن الدين له مجال آخر؛ وليس هو الرابط للأمة، بل هو على العكس قد يفرق بين القوم الواحد، وقد يورث - حتى لو لم تكن هناك فروق أساسية بين الأديان - نظرة متعصبة وغير واقعية.. والدولة الدينية التي كانت تجزية في القرون الوسطى انتهت بالفشل وكلفت البشرية كثيراً من الجهد ومن الدماء ومن المشاكل، وحدثت تقريباً في أوقات متقاربة في البلاد الإسلامية وفي أوروبا المسيحية».

هكذا - وعلى هذا النحو - رأى ميشيل عفلق علاقة الإسلام بالعروبة في مرحلة الخمسينيات من القرن العشرين.. فرغم إيمانه بالإسلام ديناً سماوياً.. إلا أنه قد دعا فقط إلى استلهاام الإسلام: الثورة.. الإسلام.. الحضارة.. الإسلام.. التراث.. لأن هذا الجانب من الإسلام هو «الحركة» العربية التي أفضحت عن عبقرية الأمة ورسالتها الخالدة.. أي عن نزوعها واستعدادها الدائم للتجدد، أفضحت عن هذه الرسالة في «صورة إسلامية» ولأن هذا «الجانب القومي» من الإسلام قد غدا مكوناً قومياً في قوميتنا العربية، ومتضمناً في «العروبة» التي هي الصورة العصرية لرسالة الأمة، المفصحة عن عبقريتها، والمحرك الأول والوحيد، في عصرنا، للعرب كي ينهضوا لأداء رسالتهم الخالدة.. وأيضاً: لأن هذا «الجانب القومي» في الإسلام هو «عامل التوحيد» للأمة، بينما - في رأى عفلق - يمثل «الإسلام الدين الصرف» عامل تفريق بين العرب أنفسهم، وبين العرب وغيرهم من القوميات التي اعتنقت الإسلام؛

تلك هي صورة الإسلام.. ومكانته.. وحججه في المشروع القومي لعفلق، منذ الأربعينيات وحتى منتصف السبعينيات.

وأيضاً هذه هي الصورة التي وقف عندها قراؤه ودارسوه - من القوميين والإسلاميين على السواء! - بل إنها هي صورة الإسلام ومكانته التي استقرت في مجمل الفكر البعثي الحركي بوجه عام!

أما الجديد في فكر الرجل .. والذي أبدعه في «الحقبة العراقية» من عمره -
على امتداد خمسة عشر عامًا بدأت منذ منتصف سبعينيات القرن العشرين -
عندما تفرغ «الفكر» ولم يبق له من «العمل الحزبي» سوى لقب «الأمين العام
للقيادة القومية» - وهو اللقب الذي رغب في التنازل عنه أيضًا لكنه اضطر
للاحتفاظ به تحت إلحاح رفاقه! - .. أما الجديد في فكر الرجل عن الإسلام -
صورتته .. ومكانته في المشروع القومي، والذي لم يدرس من قبل - فهو مدهش
بالقياس إلى هذا الذي سبق وقدمه .. وهو يستحق الدرس والتأمل والإنصاف.



عن العروبة والإسلام (٥)

منذ أن استقر ميشيل عفلق بالعراق، في منتصف سبعينيات القرن العشرين، وتحرر من العمل الحزبي، ومسئوليّاته وحساسياته ومناوراتِه .. برزت في مشروعه الفكريّ قسمة الحديث بتوسع عن الإسلام .. وشرع الرجل يلقي الأضواء على الدور المحوريّ والمصيريّ «لاكتشافه الإسلام» منذ فجر حياته الفكرية والنضالية .. و«اكتشافه» خصوصية العلاقة بين الإسلام والعروبة، وتأثير هذا «الاكتشاف» في تميّز صيغة البحث عن الصيغ التي كانت سائدة في ساحة الفكر والسياسة العربية في عقد الأربعينيات .. صيغ «القومية المجردة من الدين» كرد فعل ضد الدولة العثمانية أو تقليدًا للقوميات الغربية اللادينية .. من ليبرالية .. أو ماركسية مادية.

وأخذ ميشيل عفلق ينبه على أن هذه المنطلقات - منطلقات الإسلام الحضاري - لم تعط في المشروع البعثي حقها من البحث والدرس والإيضاح واستخلاص الدروس .. وإلى جانب مزيد عنايته بها في كتاباته وخطبه ومحاضراته في «مدارس الإعداد الحزبي»، أخذ ينبه الأجيال البعثية الجديدة إلى ضرورة بذل المزيد من العناية لجلاء وتطوير الرؤية البعثية لهذه المنطلقات.

فإلى جانب التركيز على دور الإسلام في تحديد الاختيار البعثي المتميز عن الخيارات الأخرى التي أهملت الإسلام أو حاربتَه، أخذ ميشال عفلق يربط بين «الإسلام، الدين» و«الإسلام، التجربة» - بعد أن كان في السابق يعلن أن ما يعنيه من الإسلام فقط هو «الإسلام، التجربة» - أخذ الرجل «يطور فكره» حيال هذه القضية .. فاختلفت من كتاباته العبارات التي كانت تنبهم «الإسلام، الدين الصرف» بأنه مفرق للأمة، وليس جامعًا لها .. وبأنه مسافٍ لغيره من عقائدها الدينية!

وأخذ يؤكد أن «تجربة العرب الإسلامية» فيها شيء «مطلق» و«خالد» اكتسبته من «الإسلام: الدين» فتميزت به عن «تجارب» الأمم الأخرى .. وعلى تداخل «السماء» و«الأرض» في تراث الأمة وثورتها وحضارتها ورسالتها الإنسانية .. ففي ذلك كله امتزجت «البشرية» بـ «السماوية» بل وبلغ الرجل درجة القطع «بأن الأمة العربية لا تستطيع شيئاً أقل من الوحي الإلهي - الشيء السماوي»!

وبعد أن كان الإسلام عنده مجرد مكوّن من مكونات القومية، وتراثاً روحياً يغذيها، وهو متضمّن فيها .. أصبح الإسلام - في كتاباته الأخيرة - الأب الشرعي للقومية العربية والعروبة، ولدت منه ولادة جديدة ومتميزة!

وبعد أن كان الإسلام عنده - فيما قبل المرحلة الجديدة - مجرد «مُفَصِّح» عن عبقرية الأمة ورسالتها - التي هي سابقة عليه - ومستقلة عنه - ودائمة معه وبعده - .. غدا الإسلام - في كتاباته الأخيرة - كل شيء! .. فهو العروبة وهو الوطن .. وهو الثقافة .. وهو القومية .. وهو الحرية .. وهو الحضارة .. وهو أئمن شيء في العروبة!

وبعد أن كان حبه للإسلام نابغاً من حبه للأمة العربية، غدا الحب لذات الإسلام! .. وأصبح الحب للعرب نابغاً من أنهم أمة الإسلام!

لقد كانت «العروبة أولاً» - في فكر عفلق القديم - وهي قد حلت محل الإسلام كمحرك وحيد للتهوض .. فلما اقترب الرجل من الإسلام أكثر وأكثر - في مرحلته الأخيرة - قال: «الإسلام أولاً»!

تلك هي حقيقة الوضوح والتطور اللذين حدثا لفكر ميشيل عفلق إزاء مكانة «الإسلام: الحضاري»، وحجم مرجعيته في المشروع القومي لنهضة الأمة العربية.. وهما وضوح وتطور قد استتبعا امتداد رؤيته إلى ما وراء حدود الوطن العربي والأمة العربية، فأختفت نظرتة السلبية لعلاقة الأمة العربية بالمسلمين غير العرب .. وبرز حديثه عن «الشعوب الإسلامية» وعن العلاقة المتميزة بين الأمة العربية وهذه الشعوب الإسلامية .. بل ودعا إلى الحوار مع «الإسلاميين» - «حوار الحب والعقل» - بعد أن كانت دعوته للحوار قاصرة على القوميين والماركسيين! كل ذلك حدث في فكر ميشيل عفلق منذ عقد السبعينيات .. مصاحباً لتعاظم المد الإسلامي .. ولتعاظم الهيمنة الغربية على وطن العروبة وعالم الإسلام .. ولقد

سبق هذا التطور - في فكر ميشيل علق - قيام الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩ م ..
والحزب «العراقية - الإيرانية» فبرئ من شبهة المزايدة بشعارات الإسلام ..
نعم .. لقد صاحب هذا التطور - في اتجاه تبني الإسلام - تعاظم مد الصخرة
الإسلامية .. الأمر الذي يوحى بالعلاقة بينهما .. لكنه سبق الثورة الإيرانية
بخمسة سنوات.
أما نصوص الرجل وعباراته، التي كشفت وقدمت هذا التطور الجديد، فإنها
تحتاج إلى حديث جديد.





عن العروبة والإسلام (٦)

فى سنة ١٩٧٦ بدأ ميشيل علق - بعد أن تحرر من قيود التنظيم الحزبى - بولى الأهمية لإلقاء الأضواء على دور الإسلام فى تحديد «الخيار القومى البعثى» وعلى تداخل «خلود» الدين و«إطلاق» فى «التجربة العربية» على النحو الذى ميزها بنسبة من «الخلود» والإطلاق.. جاءت ثمرة لتداخل «السماء» و«الأرض» فى هذه «التجربة» فكتب - فى نص طويل وهام - يقول:

«قراءة جديدة للإسلام كشفت لنا عن حقائق أساسية فى روح شعبنا ونفسيته، وأضاءت لنا طريق العمل الثورى .. وثمة واقع ذاتى جاء فى الوقت نفسه تعبيراً عن واقع موضوعى .. الواقع الذاتى هو أننى شخصياً فى بداية تكوين الحزب اكتشفت الإسلام أقول اكتشفت، ولا أعنى أننى لم أكن أعرف الإسلام .. فقد كانت هنالك ألفة منذ الصغر .. اكتشفت الإسلام كثورة .. كتجربة ثورية هائلة، وقرأته قراءة جديدة من هذا المنظار - إنه عقيدة، ونضال فى سبيلها .. وقضية، هى قضية أمة، وقضية إنسانية.. بل إنه قضية أمة بتصور إنسانى أوسع .. ونضال على أروع ما يكون، بأعلى مراحل، وبما فيه من تنظيم دقيق، وثقيف، إلا أنه أيضاً دين، فهو تجربة ثورية السماء فيها متداخلة مع الأرض.

ولولا هذا الاكتشاف لما كان مستبعداً أن يأخذ تفكيرنا، كشباب مثقف مخلص لبلده، يريد أن يعمل شيئاً بإحدى الصيغ: إما بالتحرر بالصيغة الغربية .. وهذه كانت معروفة عند الكثيرين، ولم تكن شيئاً معيباً .. وإما صيغة أخرى أحدث، وفيها نزعة تقدمية، وجدة .. وهى صيغة الماركسية، أو الشيوعية، وفيها النقد للمجتمع والاستغلال الرأسمالى الطبقي، كل هذا كان وارداً، وقد مشى عشرات المثقفين العرب فى هذا السبيل.

لماذا اختط البحث طريقاً خاصة به؟ هذا أمر لم نتحدث فيه : لأننا لا نريد الدعاية .. ولكن، بعد أكثر من ثلاثين سنة من نشوء الحزب، علينا أن نذكر ذلك، ونقول إن الفضل في ذلك يرجع إلى اكتشافنا للإسلام.

إن المسلم لا يكتشف الإسلام .. وكذلك البعيد عن الإسلام . الذي يكتشف الإسلام ينبغي أن يجمع بين الاستعداد النفسي والجدّة .. أي ذلك الذي لم تضعف العادة والألفة حساسية عينيه وأذنيه .. فالمسلم الذي نشأ في بيت مسلم منذ طفولته، واعتاد سماع الكلام عن الإسلام، يتكون عنده نوع من الضعف في رهافة الحس والذهن، فلا يرى الجديد في هذا الكلام، ولا يدرك المعنى العميق والهزة الروحية .. كما يحصل حين يهزك الكلام الذي تسمعه لأول مرة.

ولكن، هل اكتشاف الإسلام وقراءته قراءة جديدة، هو فقط أن شخصاً وضع جهده وقرأ الإسلام قراءة جديدة؟

لا .. فهناك ظروف موضوعية للأمة العربية .. للثورة العربية، هي مواجهة الاستعمار الغربي والحضارة الغربية، والسؤال عن سبيل الخلاص، عن كيفية الإنقاذ، كيف تتحرك؟ كيف تتقدم؟ هل بالشيوعية؟

قرأنا الإسلام .. بعد قراءة الشيوعية .. بعد مواجهة التحدي الاستعماري الغربي وحضارته .. وبعد الاطلاع على الحل الثوري الشيوعي الآتي من الغرب أيضاً .. فهي إذن قراءة من خلال موقف مصيري من تحديات الاستعمار والحضارة الغربية، ومن تحديات الفكر الشيوعي.

القهم هو هذه الصورة التي انتطعت أثناء القراءة الجديدة للإسلام، والتي أعطت أشياء أساسية، بعضها واضح، وبعضها واقع بين الوضوح والإيهام.

إن الأمة التي يختارها القدر لتكون مسرحاً لمثل هذه التجربة، البشرية السماوية، هي أمة حكم عليها، وإلى الأبد أن تكون متميزة عن باقي البشر؛ لأنها ذاق طعم شيء لم يشاركها أحد فيه .. إنها لا يمكن أن تستطيب شيئاً أقل من مستوى الوحي الإلهي .. الشيء السماوي، الذي هو، أيضاً، بشري ومتجسد في عقل بشري واضح.

عندما نضع يدينا على هذه الميزة التي للأمة العربية، بهذا الوضوح وبهذه الواقعية، وهذه القوة، فلا شك أنها توحى بطريقة خاص للثورة العربية، ليس

المطلوب فيه أن نخالف العقل البشري، أو نخالف العصر، والقوانين العلمية، فمن ضمن قوانين العقل والعلم يعطى هذا الاكتشاف لحركة الثورة العربية خصوصية.. يعطيها مستوى، وأخلاقية معينة.. كما يعطيها سعة إنسانية، وكونية.. يعطيها اتساعاً وشمولاً.

لا أريد القول إن الأفكار كانت كلها جديدة.. لأنها في الجو العربي.. ولكن الحزب كتفها وأحس بها بقوة أكبر، انبعثت كلها من لحظة اللقاء مع التجربة الخالدة.

الأمة العربية لها رسالة لا تستطيع التنازل عنها وتبنى غيرها.. فالأمة العربية شغلت بحضارتها ثلث التاريخ البشري، وكانت هذه الحضارة إحدى الحضارات الإنسانية الثلاث المؤثرة.

فالتراث وحده يعطى الأمة شعوراً بالوحدة، كما يعطيها حق الطموح إلى حبل الرسالة.. قراءة التراث تعطي الثورة في العالم، ولثورات العصر، بما فيها الثورة العربية، نسبية معينة؛ لأنها جميعاً ثورات بشرية، بحدود طاقة الإنسان مهما بلغت هذه الطاقة، وتجزية الأمة العربية من خلال الإسلام، فيها شيء مطلق.. في حين أن كل شيء آخر نسبي، قد يعيش عشر سنوات، أو مائة سنة.. ولكن ليس فيه الخلود.

هذا بالذات أعطانا جرأة معينة لنقد الشيوعية، تجاوزنا أوضاعنا القومية إلى الأوضاع الإنسانية عامة أي إن نقدنا للشيوعية لم ينحصر في أن الشيوعية لا تلائمنا كعرب، بل تعداه إلى الكشف عن النقص الأساسي في هذه النظرية بالنسبة للعرب ولغيرهم».

هكذا بدأ ميشيل عفلق سنة ١٩٧٦م يفسح المكان للحديث عن دور الإسلام في تحديد الخيارات المتميزة بالنسبة لفكره القومي والاجتماعي.. ولحديثه هذا بقايا تفصح عن التطور الكيفي الذي بلغه فكره عن الإسلام في هذا الطور الجديد من فكره حيال الإسلام.. وعلاقة العروبة بالإسلام.



عن العروبة والإسلام (٧)

فى سنة ١٩٧٧م... عاد ميشيل عفلق فأفسح الحديث عن اكتشافه للإسلام .. وعن دور الإسلام فى تحديد توجهاته الفكرية .. وعن حجم الإسلام فى مرجعية المشروع الحضارى البعثى، منبهاً على أن هذه القضية الهامة لم تعط فى أدبيات البعث وفكره القدر الواجب لإيضاحها وتطويرها .. فكتب عن الموقف من «التراث والإسلام» يقول:

«لقد كانت اللحظة التاريخية فى حياة الثورة العربية المعاصرة: سلامة الاختيار .. ولم يكن الاختيار بين روح ومادة، بل بين مادة مستقلة مسيطرة، ومادة تابعة عن الروح، وتابعة لها، والروح، فى تفكيرنا، ليست شيئاً غيبياً ولا سحرياً يناقض منهجنا العلمى، وإنما هى الوعى، وهى الإرادة والأخلاق وكل النزعات التى تشدنا إلى الخير والجمال والتضحية والبطولة، وهى الإيمان بالحقيقة والعدالة والحرية.

وقد كان الموقف من التراث القومى، وعلاقته بمرحلة الانبعاث القومى المعاصرة، معبراً عن أحد الاختيارات الكبرى لفكر البعث، وقد قام من البدء على تصور ثورى للإسلام: لذلك لم يكن غريباً أن يعود الحزب بين الحين والآخر ليؤكد منطلقاته الأساسية التى لم تعط الاهتمام الذى تستحقه، ولم يستخرج منها كل العبر الكامنة فيها، كالموقف من التراث والإسلام».

وعندما يسأل ميشيل عفلق فى «مدرسة الإعداد الحزبى» عقب إحدى محاضراته عن نطاق حديثه حول صلة العروبة بالإسلام .. هل هو النطاق التراثى التاريخى؟ فهى «صلة ذكريات .. أم أنها - هذه الصلة - لا تزال قائمة وحية ومتجددة؟ تأتى إجابته لتؤكد دوام وتجدد الصلات بين العروبة - النسبية - وبين الإسلام - المطلق - على النحو الذى يميز عروبتنا عن غيرها من القوميات .. لقد سئل:

- «تؤكدون باستمرار صلة العروبة الحية بالإسلام فهل صلة ذكريات؟
أو امتداد؟ أو تجديد؟»

فكان جوابه «الصلة» كما نراها ونؤمن بها، هي صلة عضوية بين العروبة والإسلام، لا يمكن أن تنفصم، صلة تاريخ، وهي مستمرة منذ القدم، حية لا تموت، وهي أيضاً صلة تجديد : أي إننا لنا غمهم ثوري للإسلام، ونرى أيضاً ونعتقد بأن نشوء حركات إصلاحية وثورية في الدين تنفض الغبار عن حقيقة الدين وتعيد إليه إشعاعه وحيويته، أعتقد أن هذا ضروري في حركة الثورة العربية، وأعتقد أنه سيحصل بشكل حتمي

الأمة عندما تنهض وتدخل في طور الابداع، إنها تنهض وتبدع في كل مجالات الحياة ولا تقتصر على ناحية واحدة، والدين من أهم مجالات الحياة والحياة الروحية في الإنسان لها أهميتها الكبيرة.

لذلك، بمقدار ما تتقدم مسيرة الثورة العربية نجد أن الفكر الديني يصبح أكثر إشراقاً .. أكثر تجديدًا .. أكثر تحرراً، يذهب إلى اللب وإلى الحقيقة ويتخلّى عن القشور وعن العقلية الحرفية الجامدة، النهضة العربية ستكون نهضة شاملة : نهضة في الفكر : ونهضة في الدين : ونهضة في الفن : ونهضة في البناء المادي والاقتصادي : ولذلك كانت نظرة الحزب إلى صلة العروبة بالإسلام بأنها هي بصورة خاصة صلة تجديد : أي إننا نستمد من فهمنا الثوري لحركة الإسلام قوة ثورية لتجديد عقليتنا ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية.

وهنا أحب أن أشير إلى فكرة عزيزة عليّ، وهي أن أمتنا قد عرفت عند ظهور الإسلام ما لم يتسن لأي أمة أخرى أن تعرفه .. عرفت تجربة مطلقة، وبقي شيء من هذه الذكريات في نفس كل عربي حتى الآن، وسيبقى ذلك طويلاً إلى المستقبل البعيد .. نحن كعرب، عندنا هذا الرصيد الروحي .. هذا التراث، إذا حرصنا على أن نبقى صلتنا حية بيننا وبينه، وخاصة نحن كحركة ثورية، أن نستلهم هذا التراث بقيمه الروحية والأخلاقية السامية، فإننا نعطي لتورثنا العربية ضوابط أخلاقية وجواً فيه هداية، وفيه ورع، وفيه ضوابط كثيرة نحن بحاجة ماسة إليها؛ لذلك قلت، إن ثورات العصر تسبية، والثورة العربية كذلك ثورة تسبية، ولكنها إذا حرصت على صلتها بالتراث الخالد فإنها تستطيع أن تدخل إلى جوها شيئاً من المطلق : أي من الضوابط الأخلاقية الرفيعة».

وهكذا .. فى هذه المرحلة الأخيرة من تطور فكر ميشيل عفلق حول علاقة
العروبة بالإسلام - تعانقت - فى المرجعية التراثية. «التجربة .. والحركة» أى
«الإسلام الحضارى» - مع «المطلق .. والخالد»! أى «الإسلام الدين»، بل تحدث
عفلق عن ضرورة أن نستمد من الإسلام الحضارى القوة الثورية لتجديد عقليتنا
ولتجديد أوضاعنا الفكرية والاجتماعية والقومية، وعن ضرورة اتخاذ التراث
البروحى - أى الإسلام - ضابطاً وزاداً للثورة والثوار فى واقعنا العربى
المعاصر... بل دعا إلى استمداد «الهداية» من هذا التراث!!

فالأمة العربية التى شرفت باقتراح نهضتها الأولى برسالة الإسلام،
لا تستطيع - برأى ميشيل عفلق - فى نهضتها الحديثة والمعاصرة - شيئاً أقل
من الوعى الإلهى!



عن العروبة والإسلام (٨)

لا تغالى إذا قلنا إن المرحلة الأخيرة من فكر ميشيل عفلق - مرحلة الحقيقة العراقية التي تحرر فيها من العمل الحزبي ومشكلاته ومقتضياته - قد شهدت تطوراً قارب الانقلاب في رؤيته لعلاقة العروبة بالإسلام .. وهذه حقيقة أهملت، فلم يدرسها القوميون والإسلاميون على حد سواء!

فبعد أن كان الرجل يرى في «الإسلام الحضاري» مجرد ثمرة ونتيجة أفصحت عن عبقرية الأمة العربية، وعبرت عن رسالتها الخالدة ونزوعها واستعدادها للعطاء المتجدد، وتحقيق الذات - في مرحلة تاريخية بعينها - ولقد حلت القومية - باعتبارها المفصح عن رسالة الأمة وعبقريتها - محل الإسلام في العصر الحديث .. فهي - أي القومية - المحرك المعاصر للثورة والنهضة، وليس الإسلام .. بعد أن كان يرى ذلك، قبل سبعينيات القرن العشرين، وصل تطوره الفكري إلى «قلب» هذه المعادلة، فتحدث عن الإسلام الحضاري باعتباره «المكون للأمة» وقال: «الشعب العربي .. شعب واسع .. رحب .. لا تكتنفه العقدة .. وهو منفتح متسامح، مستقر على أرضه، غير مشرد وغير تائه، مؤمن بالمستقبل، وواثق بهذا المستقبل مهما حدث .. فهو إنسانى بعقيدته ويتكوّنه أيضاً، وياخذ رقة وطنه».

وكل هذا الذي اكتسبه الشعب العربي، وتميزت به الأمة العربية هو من ثمرات الإسلام وبفضله .. وبعبارة ميشال عفلق: «إن بدون الإسلام كان يمكن لهذا الشعب العربي أن يبقى بعقلية قبلية».

ورغم سبق العروبة للإسلام - في الزمان - فإن النهضة العربية الأولى، التي اقترنت برسالة الإسلام الدينية، هي «التي كونتهم كأمة».

فالأمة العربية قد غدت في التطور الفكري - لعقل - ثمرة للإسلام... بعد أن كان الإسلام - في فكره القديم - مجرد مفصح عن عبقرية هذه الأمة!

وبعد أن كان «الإسلام الحضاري» مجرد مكوّن من مكونات القومية العربية، وتراث روحي ينهض بتغذية العروبة، وهو متضمّن فيها، وهي التي تعبّر عنه، بل لقد غدت مغذية عنه؛ لأنها هي وحدها المحرك للأمة في مشروع نهضتها المعاصرة، كما كان الدين هو المحرك لها في نهضتها الأولى، إبان ظهور الإسلام.

بعد أن كان هذا هو فكر ميشيل عفلق، وكانت تلك هي صياغته لعلاقة العروبة بالإسلام - إبان المرحلة الفكرية السابقة على عقد السبعينيات - أصبح يتحدث عن الإسلام باعتباره «أهم وأعمق حقيقة في تكوين القومية العربية.. فهو جوهر العروبة والمحور والروح للمشروع الحضاري.. ومصدر إلهام النهضة المعاصرة..» «فمن أجل قوميتنا، ولكي يكون مجتمعنا صحيحاً سليماً، أكدنا ضرورة الدين، وأنه حاجة ملزمة للنفس الإنسانية التي تلبى مطلباً عميقاً وأساسياً فيها، وأن الدين خالد.. وهكذا كان الدين الحقيقة الإنسانية الثانية التي أكدها الحزب منذ بدايته، في وقت كان الفكر المادي الإلحادي يغزو عقول السببية العربية، مستغلاً ظماً هذه الشبهة إلى التحرر والانعقاد وإلى الثورة والتجديد.

ومن أجل قوميتنا، ولكي تكون صحيحة وصادقة ومكتملة الجوانب والأبعاد الروحية والأخلاقية والحضارية، نظرنا إلى أعماق هذه القومية وإلى جذورها والينابيع التي تنهل منها، فوجدنا الإسلام أهم وأعمق حقيقة في تكوينها، وأنه روحها وأفقها الأخلاقي والإنساني.

لقد طرح فكر البعث ذلك كله في وقت ساعدت فيه الدعوات التي تنكر القومية والدين أو تشوههما وتستغلّهما، وفي وقت كانت فيه الاشتراكية مطروحة كنقيض للقومية، وتيار الثورة والتجديد نقيضاً للاستقلالية والأصالة والتراث الروحي».

لقد أصبح عفلق يرى أن الإسلام هو الذي يكون أول مقومات الشخصية العربية.. وبالنسبة للثورة العربية فإنه هو الذي يكون روحها وقيمها الإنسانية، وأفقها الحضاري.. إنه جوهر العروبة، وملهم ثورتها الحديثة، ولذلك، فإن من الطبيعي أن يحتل الإسلام - كتورة عربية فكرية أخلاقية اجتماعية ذات أبعاد

إنسانية - مركز الفحور والروح في هذا المشروع الحضاري الجديد لأمة واحدة ذات تاريخ عميق ورسالة حضارية إنسانية

هكذا تطور ميشيل عفلق - كمفكر قومي - من الموقع الذي كان يرى فيه الإسلام الحضاري مجرد مكوّن من مكونات القومية العربية، أفصح عن عبقرية الأمة إبان نهضتها الأولى .. إلى الموقع الذي رأى فيه هذا الإسلام مكوّن الأمة .. وأول مقومات الشخصية العربية .. وجوهر العروبة .. وروح ثورتها .. وقيمها وأفقها الحضاري.



عن العروبة والإسلام (٩)

نحن نقول: إن الثقافة العربية الإسلامية المحتوية، عربية اللسان .. وإن إسلامية هذه الثقافة العربية رباط جامع وموحد لكل الأمة، على اختلاف شرائعها الدينية.

تلك حقيقة لا يختلف عليها الإسلاميون .. بل هم دعاؤها والمدافعون عنها.. ونحن عندما نتأمل صياغات ميشيل عفلق - حول هذه القضية - نراه واقفاً على ذات الأرض المشتركة .. فالإسلام عنده هو «الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، ومبادئه الإنسانية وقيمته الأخلاقية والحضارية هي روح العروبة ومصدر إلهامها المتجدد .. تلك هي النظرة العلمية المضاءة بالحب «حب العروبة وحب الإسلام».

وهذا الارتباط بين العروبة والإسلام - في رأى ميشيل عفلق - ليس فكراً نظرياً، وإنما هو واقع حي تعيشه الأمة، وتتدفقه «كالهواء» ولا يحتاج إثباته إلى براهين وأدلة .. إنه نتاج القرون والأجيال، ولكنه قبل كل شيء (والكلام لميشيل عفلق) هو إرادة إلهية، طبعت الحياة العربية، وهو قد ظل أيضاً بالنسبة للشعوب الإسلامية غير العربية بمثابة الحقائق البديهية .. فالقومية العربية قائدة في خدمة الإسلام، وتدميرها ليس إلا ضرباً لمصلحة الإسلام في الصميم.

هنا .. وفي هذه المرحلة الأخيرة من تطور فكر ميشيل عفلق، بدأ يتحدث بإيجابية عن الشعوب الإسلامية غير العربية .. وتحدث عن أن القومية العربية «خادمة للإسلام»!

ويعلل ميشيل عفلق اهتمام صيغة تياره القومي - البعث - إلى «الإسلام الحضاري» كمخرج لقوميتنا ومشروعنا الحضاري، بنشأة هذه الصيغة في ظرف موضوعي سيطرت عليه حدة الصراع الحضاري بين أمتنا وبين الحضارة

الغربية.. فالعرب الذين تبسوا صيغة القومية العربية المجردة من الإسلام قد صنعوا ذلك إبان الصراع مع الدولة العثمانية - ذات المشروع الإسلامية - والشعارات الإسلامية - أما المرحلة التي أعقبت ذلك والتي نشأ فيها البعث، فلقد تميزت بهيمنة الغرب، وصراعه الحضاري ضد أمته، بسبب تدينها وتخصنها بالإسلام.. فالإسلام هو هوية الأمة وسلاحها الحضاري في هذا الصراع.. ومن ثم كانت له هذه المكانة المرجعية في هذا المشروع القومي الجديد.. وفي ذلك يقول ميشيل عفلق: «إن حركة البعث وجدت في فترة تاريخية فاصلة بين مرحلة استنفدت أغراضها، ومرحلة مضطربة قلقة ورؤيتها للمستقبل غير واضحة.

المرحلة التي استنفدت أغراضها كانت مرحلة القومية العربية المجردة، والتي اقتضاهم الصراع التحرري ضد الهيمنة العثمانية، فلم تكن تستطيع رفع شعار الإسلام الذي كان هو شعار الدولة المهيمنة، واستمرت الحال حتى بعد أن زالت الظروف التي استوجبت ذلك.

واستجدت ظروف هيمنة الاستعمار الغربي على الأقطار العربية، هذه الظروف التي أعادت الأمور إلى نصابها، حين أعادت الإسلام إلى العروبة.. إلى القومية العربية لضرورة المواجهة الحضارية - مع الاستعمار الغربي.. لقد تم ذلك بنظرة إلى التقدم.. ونظرة إلى الإسلام.. ولدت منهما نظرة جديدة للإسلام، كثورة عربية إنسانية حضارية، قابلة للتجدد والانبعاث في كل مرحلة تاريخية مصيرية من حياة الأمة العربية.

وهكذا بدأ طريق المستقبل العربي يزداد وضوحاً، فهو لا يبني إلا من خلال الثورة باتحاد التقدم، ولكن باستلهاهم الأصالة التي تجسدها ثورة الإسلام، بواقعها العربي وجوهرها الإنساني، وأبعادها الحضارية.. لنهضة تاريخية يكون الإسلام بمفهومه الثوري، مصدر إلهامها.

هكذا حدد ميشال عفلق الطرف الموضوعي الذي استدعى مرجعية الإسلام في المشروع الحضاري القومي.. بعد أن حجته عنه ظروف الصراع «العربي - العثماني».. وفي هذا الطرف كان الصراع الحضاري بين الغرب الاستعماري، وبين الأمة العربية هو الأساس.. وكان الإسلام في مركز أسباب هذا الصراع!

وإذا كانت هذه الحقيقة التي أشار إليها ميشال عفلق - حقيقة استدعاء التيار القومي لمرجعية الإسلام في مشروعه، بسبب وجود الهيمنة الاستعمارية الغربية

المعارضة للإسلام - وإذا كانت المتغيرات التي حدثت في العقد الأخير من القرن العشرين قد زادت من درجة الهيمنة الغربية حتى وصلت إلى «اجتياح العولمة» وإلى «إعلان» العداء للإسلام .. أفلا تجعلنا هذه المتغيرات توجه أنظار القيار القومي إلى أهمية وضرورة استدعاء كامل الإسلام إلى المشروع القومي؟

لقد كانت الهيمنة الاستعمارية في النصف الأول من القرن العشرين، وكانت يومئذ، في مرحلة «غواية الترغيب والترهيب»، السبب في استدعاء الإسلام الحضاري في مرجعية المشروع القومي .. واليوم وبعد أن وصلت الهيمنة الاستعمارية - بعد إعلانها العداء للإسلام وأمته وحضارته - إلى مرحلة «اجتياح العولمة» - ألا يستدعي ذلك تطوير علاقة القوميين بالإسلام واستدعاء كامل الإسلام إلى مرجعية المشروع القومي؟



عن العروبة والإسلام (١٠)

في المرحلة الأولى من الحياة الفكرية لميشيل عفلق، لم يكن الإسلام غائباً عن مشروع القومي، لكنه كان مختزلاً .. فهو التراث الموحد للثقافة القومية للأمة .. والذي سبق ومثل التعبير عن رسالتها الخالدة إبان ظهوره .. لكن القومية قد حلت محله - في عصرنا - باعتبارها المفصحة عن عبقرية الأمة، والممثلة لرسالتها والمحركة الوحيدة لنهضتها الجديدة .. ووجود الإسلام في المشروع القومي لا يعدو أن يكون في حيز مكون من مكونات القومية العربية.

أما في المرحلة الأخيرة من التطور الفكري لعفلق - منذ منتصف السبعينيات حتى وفاته - فلقد غدا الإسلام المكون للأمة .. وأبنا القومية التي ولدت منه ولادة جديدة .. وهو جوهرها وروحها وقيمها .. لقد أصبح الإسلام هو الدين .. والقومية .. والوطن .. والوطنية والثقافة القومية .. وأثمن شيء في العروبة .. والخضارة والحرية.

وبعد أن كانت معادلة العلاقة بين العروبة والإسلام - في فكر عفلق - تقول: القومية أولاً .. وصل الرجل - في تطوره الفكري - إلى أن يقول: الإسلام أولاً وأعلن أنه كان يحب الإسلام كثمرة لحيه للعرب .. أما الآن فلقد أصبح الحب للإسلام .. وما العرب إلا أمة الإسلام .. وما العروبة إلا ضرورة لنصرة الإسلام! ولأن كثيرين - من القوميين والإسلاميين - يدهشون - بل يتشككون من هذا الذي نقول، فإننا نسوق إليهم نصوص الرجل - دونما تدخل أو تعليق أو حتى استنتاج، وندعوهم - هم - إلى القراءة والتفسير والحكم والاستنتاج .. لقد قال الرجل في سنة ١٩٨٢م وسنة ١٩٨٤م وسنة ١٩٨٦م:

«وعندما أقول: عروبة، تعرفون بأثني أقول: الإسلام أيضاً لا بل أولاً.

العروبة وجدت قبل الإسلام، ولكن الإسلام هو الذي أنضج عروبتنا، وهو الذي أوصلها إلى الكمال، وهو الذي أوصلها إلى العظمة، وإلى الخلود... هو الذي جعل من القبائل العربية أمة عربية عظيمة: أمة عربية حضارية. فالإسلام كان، وهو الآن وسيبقى روح العروبة، وسيبقى هو قيمها الإنسانية والأخلاقية والاجتماعية، هذا هو الإخلاص للشعب، هذا هو حب الشعب، هذه هي الحقيقة.

صحيح أننا نصل إليها في المطالعة وفي قراءة التاريخ، ولكننا نصل إليها بصورة أعمق وأصدق عندما نقرب من شعبنا، ونصغي إلى دقات قلبه وإلى خجبات ضميره، إلى هذا الترادف، هذا التمازج بين العروبة والإسلام.. فالوطنية هي العروبة بعينها.. والعروبة هي الإسلام في جوهره.

لقد نمت البذور الأولى للبعث في عهد الكفاح الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، الممثل في ذلك الحين للغطرسة الغربية، وللتعصب العنصري والديني ضد العروبة والإسلام.. فكان صراع أمتنا مع الاستعمار الغربي صراع حضارة وتاريخ وتراث وعقيدة، فكان رجوع البعث إلى الإسلام في مواجهة الطغيان الغربي الحضاري رجوعاً طبيعياً وعفوياً لم يحتاج إلا إلى الحس الصادق.. وتلك بداية الطريق التي أعطت الحزب أمالته الراسخة.. لقد وجد الحزب في معين الإسلام الذي لا ينضب، أول ما وجد، عروبة الإسلام، العروبة كهوية، وطبيعة، وأرض، ولغة، وتاريخ، والعروبة كشعب ومجتمع في حالة مخاض وتحفز، والعروبة كثورة فجرها الإسلام فأصبحت ثورة إنسانية عالمية، وأعظم ثورة في التاريخ البشري، والعروبة كرسالة خالدة: لأن الإسلام - وهو دين هداية للعالمين - كان العرب أول من حمل مسئولية نشره، وسيظلون مسئولين قبل غيرهم عن حمايته ورفع لوائه وتجسيد قيمه في نهضتهم الحديثة.

وعروبة الإسلام لا تتعارض مع إنسانيته وعالميته ومصدره السعائى، بل تسمو بهذه الحقائق وتشرف وتزداد قوة.

وتعتقد أن أية أمة من الأمم معرضة لأن تجنح إلى الإلحاد، ماعدا الأمة العربية التي يدخل الإسلام في نسيج شخصيتها وتاريخها؛ لأن الإسلام بالنسبة إليها هو دين، وقومية، وحضارة، وهل يستطيع شعب أن يهرب من شخصيته، ويتمرد على قوميته، ويتنكر لحضارته؟!

ولئن وُجدت شعوب تُشدد الحرية بالانعتاق من الدين، فالأمة العربية تجد حريتها في الفهم المتجدد للإسلام؛ ولذلك، فإن الدفاع عن الإسلام هو مهمة القوميين الذين يريدون أن يبقى للأمة العربية سبب وجيه للبقاء.

إن الإسلام هو وطن الأمة العربية الروحي والمادي بكل ما تحمل كلمة وطن من معاني حب الأرض والأهل وحب اللغة والتاريخ.

هكذا تحدث ميشيل عفلق عن الإسلام، وأبوته للعروبة والأمة والوطن والوطنية والحضارة والهوية والتاريخ.. وتلك هي نصوص عباراته، تطلب إعادة القراءة والفهم والعدالة في التقويم!



وبدا ميشيل عفلق يتحدث عن الشعوب الإسلامية غير العربية، كعمق للأمة العربية، يشعر نحوها بعاطفة القريبى، بعد أن كان يرى - فى المرحلة الأولى من حياته الفكرية - فى هذه العلاقة عامل «تفريق»!

لقد أصبح الإسلام - عنده - : الأب الشرعى للأمة .. ورسالتها التى لولاهما لما كان لهذه الأمة مبرر للبقاء!

«لقد ولد الإسلام فى أرض العروبة، وضمن تاريخها وأهلها، ولكنه أصبح هو أياها: لأنها ابتداء من الإسلام ولدت ولادة جديدة، وأصبحت أمة عظيمة تاريخية، لها دور أساسى فى تاريخ الإنسانية، وفى صنع مستقبل الإنسانية. الإسلام أعطى للأمة العربية هذه الأبعاد .. أعطاهم مسئولية الدور الإنسانى العظيم، وأعطى العرب مذاق الخلود وطعم الحياة الحقيقية، التى هى جهاد قبل كل شئ، وفكرة ومبدأ وعقيدة، ولا خوف على العروبة ما دامت مقترنة بالإسلام: لأنه كغفل بأن يجددها ويوقظ فيها هذه النزعة إلى السماء .. إلى الخلود .. إلى الأفق الكونى .. إلى البطولة وحمل الرسالة .. وعندها تتهاوى الأمراض العالقة والمشاكل المادية والانية التى لا تليق بأمتنا ولا تعبر عن حقيقتها وحقيقة رسالتها .. وينهوض الأمة ووحدتها ينتصر الإسلام ويعلن وجهه الحقيقى الإنسانى السمع الذى تحتاجه الإنسانية اليوم كما احتاجته فى الماضى، وكما ستبقى بحاجة إليه فى المستقبل.

إن الإسلام هو الذى حفظ العروبة، وشخصية الأمة فى وقت التمزق والضياع وتشتت الدولة العربية إلى طوائف وإلى ممالك ودويلات عدة متناحرة وكان مرادفا للوطنية والدفاع عن الأرض والسيادة، والداعى إلى الجهاد أمام العدوان والغزو الأجنبى، وسبقى يوماً قوة أساسية محركة للنضال الوطنى والقومى .. وهو الذى خرجت من صلبه ومن حركة التطور التاريخى فكرة القومية العربية، بمفهومها الإنسانى السمع، وهو الذى يحيط الأمة العربية بسياج من الشعوب المتعاطفة معها.

إن الإسلام هو العامل الصنمى المتدمج فى نسيج الأمة، وفى تاريخها، وفى حياتها اليومية .. ولا يصح تناول الإسلام من الموقع الجيادى النظرى السياسى، والشئ الطبيعى هو أن يكون انفتاح التيار القومى على الإسلام موقفاً فيه الحرارة والحنين والغيرة والحرص، والاعتراف بالفضل، وبما يشكله الإسلام من

ضمانة مصيرية لقوميتنا ولماستقبلنا كأمة .. ومن هذا المنطلق يستطيع التيار القومي أن يحاور التيار الديني المتجرد الوطني حوار الحب والعقل ..

هكذا انتهى ميشيل علق - أبرز مفكرى ومنظرى التيار القومي العربى - إلى صياغات فكرية حول علاقة العروبة بالإسلام، تستدعى إعادة الدراسة .. والتأمل العميق؛ لأنها - فى رأى - تفتح الباب إلى إعادة اللحمة - مرة أخرى - بين العربيين والإسلاميين فى بلادنا العربية، كما كانت يوم كانت العروبة والإسلام تياراً واحداً، وقبل الانقسام الذى حدث بسبب القومية المجردة من الدين التى أتى بها إلى الشام نفر من مثققي المؤرثة المتغربين العلمانيين.

إن هذه الصياغات الفكرية التى مثلت ذروة النضج والتطور فى المشروع الفكرى - القومى - لميشيل علق جديرة بأن تكون موضوعاً للدرس والحوار بين القوميين والإسلاميين على حد سواء .. ففيها بدايات وقواعد الكلمة سواء التى ندعو إليها هذين التيارين اللذين يمثلان الأصالة والمستقبل فى وطن العروبة وعالم الإسلام.



عن العروبة والإسلام (١٢)

الإسلام دين الفطرة .. والفطرة الإنسانية تشهد على تعدد وتدرج دوائر الانتماء والولاء لدى الإنسان .. فلإنسان ولاء وانتماء إلى أهله وعشيرته، لا يتناقض مع ولاءه وانتمائه إلى شعبه، وهاتان الدائرتان لا تتناقض بينهما وبين ولاء الإنسان وانتمائه إلى قومه - الذين يتكلم وإياهم لغته القومية، ثم إن كل هذه الدوائر لا تتناقض مع الانتماء إلى الدائرة الأعظم وهي الدائرة العقدية والحضارية - دائرة الجامعة الإسلامية، والانتماء إلى الإسلام - وأخيراً، فهذا الإنسان الجامع لدوائر الانتماء الأهلي والوطني والقومي والإسلامي هو في النهاية جزء من الدائرة الإنسانية، بحكم الخلق الإلهي للناس من نفس واحدة، وبحكم ما بين الأمم والحضارات من مشترك إنساني في المنافع والقيم والعلوم والأفكار.

تلك هي الفطرة الإنسانية السوية التي اعتمدها الإسلام في دوائر الانتماء، فعاشت الأمة الإسلامية محيطاً يحتضن جزر الأقاليم والأوطان والأجناس والقوميات، دونما تناقض بين هذه الانتماءات الفرعية وبين الانتماء الأول إلى جامعة وأمة الإسلام.

لكن غزو المفاهيم الغربية - ذات الطابع العنصري والعلماني - لمصطلحات الوطنية والقومية - وخاصة بعد سقوط الخلافة والدولة الإسلامية الجامعة سنة ١٩٢٤م - طرح في الساحة الفكرية مفاهيم توهم التناقض بين هذه الدوائر في الانتماء .. فعرفت بلادنا دعوات وطنية تسوى بين العروبة والإسلامية وبين الاستعمار .. ودعوات قومية تدير ظهرها للدائرة الإسلامية، وتغض عن شأن الانتماء الوطني، الأمر الذي أوجد مشكلات فكرية طارئة في المفاهيم الإسلامية في ميدان الانتماء.

غير أن الدعوات الإسلامية التي قامت عقب سقوط الخلافة، وزعماء الإصلاح الإسلامي ظلوا على ولائهم لهذا الموقف الإسلامي الجامع بين هذه الدوائر المتوالية والمتدرجة والمتداخلة في سلم الانتماء.

ففي ثلاثينيات القرن العشرين [١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م] يكتب الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] فيقول: «كثيراً ما تتوزع أفكار الناس في هذه النواحي الثلاث: الوحدة القومية (أي الوطنية) .. والوحدة العربية .. والوحدة الإسلامية .. ثم تنطلق الألسنة بالموازنة بينها .. والتشجيع لبعضها دون البعض الآخر .. فما موقف الإخوان من هذا الخليط من الأفكار والمناحي؟

إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة؛ باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود، ولا يرون بأساً بأن يعمل كل إنسان لوطنه، وأن يقدمه في العمل على سواه، ثم هم بعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية؛ باعتبارها الحلقة الثانية في النهوض، ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية؛ باعتبارها السياج الكامل للوطن الإسلامي العام .. ولى أن أقول، بعد هذا، إن الإخوان يريدون الخير للعالم كله؛ فهم ينادون بالوحدة العالمية؛ لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه ومعنى قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وبعد أن ساق الأستاذ البنا - عليه رحمة الله - الحجج الإسلامية والتاريخية والمنطقية الداعمة لهذا الموقف، ختم حديثه فقال: «وأنا في غنى بعد هذا عن أن أقول: إنه لا تعارض بين هذه الوحدات، بهذا الاعتبار، وبأن كلا منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها. فإذا أراد أقوام أن يتخذوا المناداة بالقومية الخاصة [الوطنية] - سلاحاً يميز الشعور بما عداها، فالإخوان المسلمون ليسوا معهم .. ولعل هذا هو الفارق بيننا وبين كثير من الناس».

وحول نفس التاريخ الذي حدد فيه الشيخ حسن البنا موقف الإخوان من هذه القضية، كان الإمام الشيخ عبدالحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] - رئيس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر - يكتب لبيعت «الوطنية» الجزائرية بـ «العروبة» وبـ «الإسلام» فيتحدث عن اصطقاء الله - سبحانه وتعالى - العرب لرسالة الإسلام العالمية، كما اصططفى رسوله ﷺ نبياً ورسولاً لهذه الرسالة الإنسانية. يقول: «لقد اختار الله العرب للنهوض بالرسالة العامة .. وكما اختارهم للنهوض بالعالم، كذلك اختار لسانهم ليكون لسان هذه الرسالة».

وترجمان هذه النهضة. ولا عجب في هذا، فاللسان الذي اتسع للنوحى الإلهى لا يضيق أبداً بهذه النهضة العالمية مهما اتسعت أفاقها وزخرت علومها.

فترى ابن باديس لا يجمع فقط بين الانتماء العربى والانتماء الإسلامى، وإنما يعطى العرب دوراً ريادياً ومسئولية قيادية فى المحيط الإسلامى والعالمى، لا لعصبية عرقية - فالرجل من أصول أمازيغية! - وإنما بحكم حمل العرب لرسالة الإسلام إلى العالمين.

وهذا هو نفس موقف الإمام الشهيد حسن البنا الذى تحدث عن هذه القضية - مكانة العرب والعروبة فى الإسلام - فقال: «إن هذا الإسلام نشأ عربياً، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب، وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين! وقد جاء فى الأثر: إذا ذل العرب ذل الإسلام. وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى، وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم. فالعرب هم عصبية الإسلام وحراسه .. ومن هنا كانت وحدة العرب أمراً لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه، ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها».

بل لقد كتب الإمام ابن باديس، فى ذكرى المولد النبوى الشريف، مقالاً جعل عنوانه «محمد - صلى الله عليه وسلم - رجل القومية العربية» .. قال فيه: «واختار الله محمداً ﷺ، رسول الإنسانية، ورجل القومية العربية، الذى نهتدى بهديه، ونخدم القومية العربية، خدمته، وتوجهها توجيهه، ونحيا لها ونموت عليها .. وعيد مولده الشريف هو عيد الإسلام والعروبة والإنسانية كلها».

هذا هو موقف المشروع الإسلامى من قضية الانتماء .. موقف الجمع والتأليف بين الوطنية والقومية والإسلامية، كدرجات متتالية ومتراصة فى سلم الانتماء.

في المشروع الحضاري الإسلامي (١)

على امتداد أوطان الأمة الإسلامية - من «غانة» إلى «فرغانة»، ومن «حوض نهر الفولجا» إلى جنوبي خط الاستواء - وفي مواطن الأقليات الإسلامية خارج دار الإسلام - إذا نظر الباحث المتصف إلى ظواهر وحركات ومشروعات البعث والنهضة والتغيير والإصلاح فسيجد ظاهرة الصحوة الإسلامية ومشروعها الحضاري أقوى وأخطر وأكبر وأعمق ظواهر ومشاريع العصر الذي نعيش فيه . يستوى في ذلك التقييم الباحثون المؤيدون أو المناوئون لهذا المشروع .

والحقيقة الثانية التي لن نجد عليها خلافاً بين الباحثين ولا بين حركات وتيارات هذه الصحوة الإسلامية هي الأبوّة والإمامة والريادة التي يمثلها الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى التي تمثل أمل النهضة لدى الإسلاميين .. والقلق المخيف لأعداء الإسلاميين .

أما الحقيقة الثالثة - في هذا المقام - فهي أن أبوّة وإمامة وريادة حسن البنا لهذا الإحياء الإسلامي المعاصر، إنما تمثل الحلقة «المعاصرة» في سلسلة الإحياء الإسلامي «الحديث»، إنها مرحلة متميزة في «الكم» و«الكيف»، ولكنها امتداد متطور لمرحلة «النشأة» و«التبلور» التي تمثلت في حركة «الجامعة الإسلامية» التي ارتاد ميدانها ورفع أعلامها إمام الإحياء الإسلامي في العصر الحديث جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والتي كان الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] المهندس الأول لتجديدها الفكري، كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] الامتداد الذي حمل فكرها عبر مجلة (المفار) إلى العالم على امتداد أربعين عاماً ثم أسلم أمانتها، إلى حسن البنا الذي انتقل بها إلى هذا «الكيف»

المعاصر الذي نعيش فيه.. لقد بدأ المشروع الحضاري الإسلامي على يد الأفغانى حركة تجديد واجتهاد وحياء تستهدف تحرير العقل المسلم، ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن حقبة التراجع الحضاري «الفلوكية - العثمانية» ويتمكن من مواجهة التحدي الحضاري الاستعماري الغربي الذي اقترح حياتنا الفكرية وواقعنا الإسلامي في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة، وبعبارة محمد عبده فلقد «وجه الأفغانى عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول» أما مقصده السياسي «فهو إنهاء دولة إسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق الأمة بالأمم العريضة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدین الحنیفی مجده».

وفي هذا المشروع الحضاري «رابط» محمد عبده على «ثغرة الفكر» وجاهد في ميدانها جهاداً عظيماً حتى جعله جهاده هذا المهندس الأعظم لفكر هذا المشروع .. وبعبارة هو التي يتحدث فيها عن «الثغرة الفكرية» التي «رابط» عليها مجدداً ومجتهداً ومجاهداً .. يقول: «لقد ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة، قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لقرء من شططه .. لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل. كل هذا أعده أمراً واحداً .. وقد خالفت في الدعوة إليه رأيي الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن شاكلهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم.

أما الأمر الثاني: فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير.

وعلى امتداد ما يقرب من أربعين عاماً [١٣١٥ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٩٨ - ١٩٣٥م] كانت مدرسة (المنار) التي قادها الشيخ محمد رشيد رضا - هي ترجمان هذا التيار الإحيائي التجديدي الذي وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضاري الإسلامي، والذي كون «العقل» المفكر للصحة الإسلامية الحديثة .. ذلك الذي تمثل في الصفوة والنخبة من العلماء الذين انخرطوا في موكبه، وأحياناً في تنظيماته، بدءاً من «الحزب الوطني الحر» الذي كونه الأفغانى في

سبعينيات القرن التاسع عشر بمصر، إلى «العروة الوثقى» التي كونها الأفغانى
ومحمد عبده، فى ثمانينيات ذلك القرن .. تنظيمًا إسلاميًا أمميًا - من الهند إلى
المغرب - وحتى «أم القرى» الذى أقامه عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ =
١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] لدراسة وإزالة أسباب الفتور فى أمة الإسلام.

ففى هذه الحقبة، تكون «العقل» لتيار اليقظة الإسلامية الحديثة .. وتبلورت
معالم المشروع الحضارى الإسلامى الذى يقدم البديل الإسلامى للنهوض، بديلاً
عن المشروع الغربى الذى كان قد بدأ التبشير به نفر من المثقفين، أغلبهم من غير
المسلمين الذين صنّعهم الاستعمار على عينه فى مدارس إرساليات التبشير ..
تبلورت معالم مشروع «الإصلاح بالإسلام» الذى عبرت عن تميزه كلمات محمد
عبده التى قال فيها «أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار ملبعاً
فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة
التي أودعه فيها، فلا يذبت، ويضيع تعب، ويخفق سعيه .. فسبيل الإصلاح فى
المسلمين هو الإسلام».

في المشروع الحضاري الإسلامي (٢)

في أوائل القرن العشرين، حذر الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] من عواقب صراع «العرب» مع «الأتراك»؛ لأن «هذين الشعبين هما أقوى شعوب الإسلام؛ ولأن دول أوربا واقفة لهما بالمرصاد .. فإذا وهنت قوتهما في الصراع الداخلي، وثبتت دول أوربا، فاستولت على الفريقين، أو على أضعفهما .. فتكون العاقبة إضعاف الإسلام، وقطع الطريق على حياته».

وبعد خمسة عشر عاماً من هذا «التحذير - النبوءة» وقع المحذور .. وبدأ عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الإسلام .. فالشريف حسين بن علي [١٢٧٢ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٦ - ١٩٣١ م] تمرد على الدولة العثمانية [١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م] استجابة لعوامل داخلية، مدفوعاً بإغراءات إنجليزية؛ ففتحت في جدار دولة الإسلام الكبرى الثغرة التي أفضت إلى تنفيذ الغرب لمعاهدة «سيكس - بيكو» السرية التي عقدها [١٣٣٤ هـ - ١٩١٦ م]؛ لتقسيم تركيا الدولة العثمانية بين أقطار الحلف الاستعماري الغربي، ولوعد بلفور [١٣٣٥ هـ - ١٩١٧ م] بإقامة الكيان الصهيوني قاعدة غربية على أرض فلسطين .. واحتل الفرنسيون الشام، وقال قائدهم «جورج» أمام قبر صلاح الدين الأيوبي بدمشق: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»! بعد أن احتل الإنجليز فلسطين، وقال قائدهم «النبی» عندما دخل القدس: «اليوم انتهت الحروب الصليبية»! ونشرت مجلة «ينتش» الإنجليزية رسماً لريتشارد قلب الأسد - الملك الصليبي الذي حارب صلاح الدين الأيوبي - وهو يقول - في الرسم - : «الآن، تحقق حلمي»!

وبعد أن رفرفت رايات الاستعمار الغربي على أوطان الأمة الإسلامية - من «غانة» إلى «فرغانة» - أسقطت الخلافة الإسلامية [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م]، وغاب رمزها وانكسر وعاءها لأول مرة في تاريخ الإسلام، فعمت البلوى التي جاهد

ضدها تيار اليقظة الإسلامية، بقيادة جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] وحذر منها محمد عبده، وتيار الإحياء والإصلاح بالإسلام لأكثر من نصف قرن من الزمان.

بل لقد حدث ما هو أخطر من احتلال الأرض، ونهب الثروة، والإلحاق بالمركز الغربى .. حدث الاختراق الفكرى والثقافى والفلسفى والقيسمى للعقل العربى والمسلم، وبدأ صوت «التغريب» على لسان نفر من أبناء الأمة يبشرون بالخلاص لن يتحقق إلا عبر تبنى المشروع الحضارى الغربى، بخيره وشره، بحلوه ومزقه، بما يحب منه وما يكره، بما يحمد فيه وما يعاب - وفق عبارة الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] وذلك بدعوى أن عقلنا يونانى، مثل العقل الأوروبى، كان كذلك قديماً وهو لا يزال يونانياً، لم يغير الإسلام ولا القرآن من يونانيته، كما أن الإنجيل لم يغير من يونانية العقل الأوروبى، إذ القرآن ليس أكثر من مصدق للإنجيل!

وزعم دعاة التغريب - بلسان الشيخ على عبدالرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] - أن الإسلام دين لا دولة، ورسالة لا حكم، وأن رسول الإسلام ﷺ، لم يقم دولة، ولم يؤسس ملكاً، ولم يسس مجتمعاً، ولم يتجز وحدة سياسية، وما كان إلا كخالين من الرسل، مجرد مبلغ لدعوة دينية .. غيا بُعد ما بين السياسة والدين!

وقال دعاة التغريب - بلسان طه حسين - فى كتاب [فى الشعر الجاهلى] إن المؤمنين أن يؤمنوا ما شاء لهم الإيمان بقصص القرآن الكريم ووقائع التاريخ التى وردت فيه، لكن الباحثين - امتثالاً لمنهاج الشك الديكارتى - لابد لهم من الشك فى هذه القصص والتاريخ القرآنى.

وبعنا نقر - بلسان سلامة موسى [١٣٠٥ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٨ م] إلى الخروج من الشرق والالتحاق بالغرب، وتبنى العامية - لغة الهكسوس - بدلاً من الفصحى - لغة القرآن والتقاليد العربية - وإلى التفرنج حتى فى الأزياء: لأن لبس القبة يساعد على حسن التفكير والإبداع: ولأن الرابطة الشرقية إذا كانت بخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين!

نعم .. حدث هذا الاختراق .. وصدرت الكتب العربية التى كتبها عرب ومسلمون - حاملة لهذه «الأفكار» وأمثالها، لنفر من أعلام الفكر العربى - فى

العقد الثالث والرابع من القرن العشرين - الأمر الذي اهتز له ضمير الأمة كما لم يهتز في منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التي واجهتها .. فلقد كانت منعطفات التحديات القديمة - في أغلبها - عسكرية - صليبية .. ومغولية .. وبيزنطية - أما هذا المنعطف الذي أعقب الحرب الاستعمارية العالمية الأولى، ورافق سقوط الخلافة الإسلامية - فلقد اقترن فيه الفكر بالمدفع واحتلال العقل باحتلال الديار .. وانطلقت أبواق الفكر التغريبي لتكس الهزيمة النفسية في وجدان المسلمين.

وأمام هذه «النازلة» حدثت الاستجابة الإيجابية من العقل المسلم والحركة الإسلامية، وذلك تعبيراً عن نقاسة المعدن وتحقيقاً للسنة الإلهية ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فكان الحراك الفكري والاجتماعي الذي انتقل باليقظة الإسلامية والإحياء الإسلامي من مرحلة «الصفوة» إلى مرحلة «الجماهير»!



في المشروع الحضاري الإسلامي (٣)

كان الإسلام، على مر تاريخ الأمة، هو حصنها المنيع عندما تهدد الملمات والتحديات هذه الأمة، ويصدق الخطر بوجودها.. وكانت صيحة «وا إسلاماه» هي «كلمة السر» التي تتنادى بها الأمة، وتتداعى إليها عقولها وقلوبها.. خاصتها وجماهيرها.

كان هذا هو قانون «التحدى» و«التضدي» على مر تاريخ الإسلام والمسلمين.. ولقد عاد هذا القانون ليعمل عندما عمّت بلوى الاستعمار والغزو الفكري بلاد الإسلام عقب الحرب العالمية الأولى.. فلقد احتلت الأرض، ولم يعد التغريب وقفًا على الاستشراق والمستشرقين، وإنما غدا مذاهب ومدارس وبعوات ينطق بها عرب ومسلمون - أفرادًا وأحزابًا - ولذلك حدث الاستنفار الإسلامي لغرائز وملكات وقوى المقاومة في الأمة..

ففي [١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م] اجتمع صفوة علماء الإسلام بالقاهرة وأسسوا «جمعية الشبان المسلمين»، وقريبًا من ذلك التاريخ تأسست «الجمعية الشرعية للعاملين بالكتاب والسنة».

وفي العام التالي [١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م]، حدثت «اللحظة التاريخية» التي مثلت «التطور النوعي» لإنجاز الشيخ «حسن البنا» [١٣٢٤ - ١٣٦٨هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م] في سياق تطور المشروع الإسلامي للنهضة الحضارية.. عندما أدرك الرجل أن تصاعد التحدي.. وفترات الاختراق.. وعموم البلوى، إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة التي كانت عليه منذ «العروة الوثقى» وحتى «الشبان المسلمين» - إلى الدائرة التي تشترك فيها «الأمة» مع «النخبة» وإلى المستوى الذي تسهم فيه «الجماهير» مع «الصفوة» في مواجهة التحديات.

لقد كان نصف القرن الذي مضى من عمر الصحوة الإسلامية، وحركة الجامعة الإسلامية تأسيساً لمشروع النهضة الإسلامية، وتكويناً لـ «العقل» القائد لهذا المشروع .. وأمام تصاعد التحديات، والاختراق للحصون من الداخل، كان لابد من بلورة وتكوين وتنمية «جسم» لهذا «العقل» .. فكان الإنجاز التاريخي لحسن البناء، في سياق الإحياء الإسلامي: الانتقال بـ «أسس المشروع الحضاري الإسلامي» إلى «معالم» أكثر وضوحاً، وأكثر تفصيلاً حتى ليقترّب بها من «البرنامج» المقدم لـ «الجماهير» .. والانتقال بـ «التنظيم» الحامل للرسالة من إطار «الصفوة» - كما كان الحال في جمعية «العروة الوثقى» إلى إطار «الجماهير»، كما تجسد في «جماعة الإخوان المسلمين».

تلك هي اللحظة التاريخية لحسن البناء .. وذلك هو التطور النوعي، والإضافة الكيفية لإنجازه، في السياق التاريخي لحركة ومسيرة الإحياء الإسلامي الحديث.. وتلك هي «بصمته» الخالدة في ظاهرة الصحوة الإسلامية المعاصرة..

وإذا كان المقام لا يتسع لحديث مفصل عن معالم المشروع الإسلامي للنهضة الحضارية، كما صاغه الإمام الشهيد حسن البناء لحركة الصحوة الإسلامية المعاصرة، ممثلة في «جماعة الإخوان المسلمين» .. فإننا نقف هنا عند «عناوين» أمهات المسائل في هذا المشروع، وهي «عناوين» شاهدة على شمول المشروع للإيجابيات الإسلامية على أهم التحديات وعلامات الاستفهام التي مثلت، يومئذ، أبرز العطل والمخاطر والتحديات.

ففي مواجهة «التغريب» الذي اخترق عقل الأمة، وغدا له أنصار من بين أبنائها، يقف مشروع الأستاذ البناء ليقول: «إن الحضارة الغربية، بمبادئها المادية، قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعي على الحضارة الإسلامية، بمبادئها القويمة الجامعة للروح والمادة معاً، في أرض الإسلام نفسه، وفي حرب ضروس، ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم، كما انتصرت في الميدان السياسي والعسكري.. وكما كان لذلك العدوان السياسي أثره في تنبيه المشاعر القومية، كان لهذا الطغيان الاجتماعي أثره كذلك في انتعاش الفكرة الإسلامية .. إن مدينة الغرب التي زهت بجمالها العلمي حيناً من الدهر، وأخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه، تفلس الآن وتنتحر في هذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات.

وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادئ الشاذة والثورات المتدلعة في كل مكان . وقد حار الناس في علاج شأنها وضلوا السبيل ونحن نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد على أساس الإسلام الحنيف لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته في كل شيء، نريد أن تتميز بقومياتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مهيبة، تجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد».

هكذا واجه الأستاذ البنا خطر «التغريب» للعقل العربي والمسلم في المشروع الحضاري الذي قدمه للصحة الإسلامية في طورها الجديد



في المشروع الحضاري الإسلامي (٤)

لقد كان رفض «التغريب» في المشروع الفكري للشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] رفضاً له «التقليد .. والتبعية» للغرب - الحضاري والاستعماري - ولم يكن رفضاً له «التفاعل الصحي» بين الحضارات ولا دعوة «للعزلة .. والانعلاق .. والاكتفاء الذاتي»، فهو نفسه الذي يقول عن حضارتنا الإسلامية، وأمتنا الإسلامية «لقد اتصلت بغيرها من الأمم، ونقلت كثيراً من الحضارات، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومثانة نظامها عليها جميعاً، فغربت أو كادت، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال، ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعاً، من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية».

■ ولم تنس المعركة مع «التغريب» حسن البنا التصدي له «الجمود والتقليد .. والتخلف الموروث»؛ لأن هذا التخلف الموروث هو الذي يؤدي إلى «العجز الذاتي» والفراغ الذي يتعدد فيه «التغريب» .. فهما وجهان لعملة واحدة؛ ولذلك، دعا حسن البنا إلى «التجديد» .. وحدد، في صراحة ووضوح، أن دعوته هي واحدة من «الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب»، وطالب «في النظرة النقدية للتراث وللتاريخ بالتمييز بين «الدين الثابت» وبين «الفكر - المتغير» و«الممارسة - البشرية»، ذلك «أن أساس التعاليم الإسلامية ومعينها هو كتاب الله - تبارك وتعالى - وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .. وأن كثيراً من الآراء والعلوم التي اتصلت بالإسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التي أوجدتها والشعوب التي عاصرتها، ولهذا يجب أن تستقى النظم الإسلامية، التي تحمل عليها الأمة، من هذا المعين الصافي، معين السهولة الأولى، وأن نفهم الإسلام كما كان يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح، رضوان الله عليهم. وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية؛ حتى لا نقيّد أنفسنا بغير ما يقيدنا به الله، ولا نلزم عصرنا لون عصر لا يتفق معه، والإسلام دين البشرية جمعاء».

كذلك وقف الأستاذ البنا - عليه رحمة الله - موقفًا نقدياً من تاريخ الدولة الإسلامية، عندما حدد العوامل السبعة التي أدت إلى تحلل كياناتها .. وهي:

- ١ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه.
 - ٢ - والخلافات الدينية والمذهبية.
 - ٣ - والانغماس في ألوان الترفق والنعيم.
 - ٤ - وانتقال السلطة والرياسة إلى غير العرب، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن، لصعوبة إدراكهم معانيه.
 - ٥ - وإهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية، وصرف الأوقات وتضييع الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة.
 - ٦ - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم، وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم من غيرهم، حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة، وأخذتهم على غرة.
 - ٧ - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم، والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم، والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع.
- وفي مواجهة الذين اكتفوا من مقاصد «الاستقلال» بالاستقلال «السياسي» الذي يقف عند «العلم والشيد» دعا حسن البنا إلى الاستقلال الذي يحقق «سيادة الأمة»: «لأن الإسلام لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال»، فضلاً عن السيادة وإعلان الجهاد، ولو كلفهم ذلك الدم والمال». وإلى الاستقلال الاقتصادي للأمم: «وليس لقطر واحد من أقطارها .. فالهدف هو تحقيق «نظام اقتصادي استقلالي للثروة والمال والدولة والأفراد والنقد: ذلك أن الرابطة بيننا وبين أمم العروبة والإسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي، وتنفذنا من هذا التحكم الغربي في التصدير والاستيراد وما إليهما..» كما دعا إلى «الاستقلال الحضاري» الذي يعيد لأمة الإسلام وحضارته مكانة الإمامة للدين وموقع الشهود على العالمين .. «فلقد كانت قيادة الدنيا في وقت ما شرقية بحتة، ثم صارت بعد فلول اليونان والرومان غربية، ثم نقلتها الذبوات إلى الشرق مرة ثانية ثم غفا الشرق غفوته الكبرى، ونهض الغرب نهضته الحديثة، فورت الغرب

القيادة العالمية، وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى وينحار ويتخبط، فلم تبق إلا أن تعتد يد «شرقية» قوية يظل لها لواء الله، وتخفق على رأسها راية القرآن، ويمدها جند الإيمان القوى المتين، فإذا الدنيا مسلمة هائلة، وإذا بالعوالم كلها هاتفة: «الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله».

إنه استقلال الحضارة «المتميزة» لا «المتعلقة»، ولا «التابعة» - ذلك أن الإسلام - وفق عبارة حسن البنا - «لا يأتي أن نفتس المافع، وأن نأخذ الحكمة أتى وجدناها، وإنكنا يأتي كل الإباء أن نتشبه في كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لتجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين!»

فمواجهة التبعية التغريبية .. ومواجهة الانغلاق التقليدي .. والدعوة للتفاعل الحضاري، دونما تبعية .. هي بعض من المشروع الحضاري لحسن البنا، عليه رحمة الله



في المشروع الحضاري الإسلامي (٥)

كانت قضية «الانتماء» وتعدد وتأزر دوائره واحدة من القضايا التي أولاها الإمام الشهيد حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] عنايته في المشروع الحضاري الذي قدمه للصحة الإسلامية.

■ ففي مواجهة المضمون الغربي، الضيق الأفق، الأنعرالي، لكل من «الوطنية» و«القومية».. قدم الأستاذ البنا الصيغة التي تحقق التكامل والانسجام بين درجات ودوائر الانتماء: الوطني.. والعربي.. والإسلامي.. والإنساني.. «فالإسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة.. ومصر هي قطعة من أرض الإسلام، وزعيمة أممه، وفي المقدمة من دول الإسلام وشعوبه، ونحن نرجو أن تقوم في مصر دولة مسلمة تحتضن الإسلام، وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم، وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان، وتنتشر كلمة الله وتبلغ رسالته.. فالمصرية لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحققها في الكفاح والنضال.. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام، ولخير العالم كله».

■ وفي مواجهة «الغلاة» الذين لا يرون في المجتمعات الإسلامية، وفي عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية فيحكمون بهما على الأمة، أو على النظم والمجتمعات، يقدم مشروع الأستاذ البنا الموقف الموضوعي المتوازن.. فنحن «لا نكفر مسلماً أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض - برأى أو معصية - إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب حريح القرآن، أو فسده على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملاً لا يحتمل تأويله غير الكفر».

«ولقد اندمجت مصر بكيئتها في الإسلام بكيئته، عقيدته ولغته وحضارته؛ ودافعت عنه وذاتت عن حياضه وردت عنه عادية المعتقدين .. ومن هنا بدت مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة في كثير من جوانب الحياة المصرية، فأسماءها إسلامية، ولغتها عربية، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء، وهذه مشاعرنا لا تهتز لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام».

والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التي وفدت إلينا من الحضارة الغربية؛ تلك «الحضارة التي غزتنا غزواً قوياً .. فأنحسر ظل الفكرة الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية في كثير من شئونها الهامة، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوروبية، وحصرنا سلطان الإسلام في حياتنا على القلوب والمحاريب، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة؛ وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة».

لقد كانت معركة حسن البنا هي معركة تنقية المجتمعات الإسلامية من الدخيل الذي أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الإسلام وبين الروح المادية الإلحادية، روح اللذة والشهوة، الذي تميزت به الحضارة الغربية .. ولم تكن معركته مع مجتمعات ارتدت عن الإسلام ونوره وتصوراته إلى الجاهلية وظلماتها - كما قال «الغلاة»!

■ وفي مواجهة المتعجلين لقطف الثمار .. الذين يريدون القفز سريعاً إلى القبض على صولجان الحكم والدولة .. في مواجهة هؤلاء، يؤكد مشروع الأستاذ حسن البنا ضرورة اعتماد طريق المراحل .. ومنهج التربية .. وسياسة النفس الطويل .. فينادي الرجل قائلاً:

«أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم: اسمعوا مني كلمة عالية داوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده .. ولست مخالفًا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول ..

أجل! قد تكون طريقاً طويلة، ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات .. ومن صبر معي حتى تنضو

البذرة، وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله،
وإن يفوتنا وإياد أجر المحسنين! إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة.

أجموا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولا تصادموا نواميس الكون فإنها
غلبة .. ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على
بعض، وترقبوا ساعة النصر، وما هي منكم ببعيدا

أريد أن أكون صريحاً معكم للغاية، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة .. أعدوا
أنفسكم .. وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها
نفسها، روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب
والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لحج البحار، وأقتحم بكم
عنان السماء، وأغزو بكم كل جبار عنيد، فإنني فاعل إن شاء الله !

هكذا فكر .. وكتب .. وعمل حسن البنا .. فكانت حياته ودعوته معالم مشروع
إسلامي للنهضة الحضارية .. كما كانت بذرة مباركة، يبارك الله في غراسها كما
لم يبارك في غراس آخر على امتداد القرن العشرين ..



الشيخ البشير الإبراهيمي (١)

لقد احتفلت «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ٢٠٠٥م بمرور أربعين عامًا على وفاة الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي .. ثاني اثنين - هو والإمام عبد الحميد بن باديس، اللذين قادا النهضة الإسلامية التي أعادت الجزائر إلى العروبة والإسلام .. واستخلصتها من الصليبية الاستعمارية الفرنسية .. فمن هو هذا الإمام: البشير الإبراهيمي؟

■ هو محمد البشير بن محمد السفدي بن عمر بن محمد السعدي بن عبدالله بن عمر الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٦٥ م] .. من قبيلة «أولاد إبراهيم» العربية التي استوطنت مقاطعة قسنطينة - بالجزائر.

■ ولد بريف الجزائر في يوم الخميس [١٤ شوال سنة ١٣٠٦ هـ = ١٣ يونيو سنة ١٨٨٩ م]، في أسرة توارثت علوم الإسلام والعربية على امتداد خمسة قرون. وتربى وتعلم في كنف عمه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي، ودرس على يديه الكتب التي كانت تدرس بالأزهر الشريف في ذلك الحين .. وكان لا يفارق عمه ليلاً ولا نهاراً .. يعلمه عمه، ويتعلم من عمه، حتى في لحظات إسلام عمه الروح إلى بارئها!

■ وكان ذا ذاكرة حافظة خارقة للعادة .. حفظ القرآن الكريم في تمام الثامنة من عمره، مع فهم مفرداته وغريبه .. ولم يبلغ الرابعة عشرة من عمره إلا وكان قد حفظ العديد من «المتون» - منها «الألفية» لابن مالك [٦٠٠ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٧٤ م] .. ومعظم «الكافية» - لابن مالك أيضاً .. وألفيتا العراقي [٧٢٥ - ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤ م] في الأثر والسير .. ومعظم رسائله المجموعة في كتابه «ريحانة الكتاب» .. و«كفاية المتحفظ» للأجدابي الطرابلسي (المتوفى قبل ٦٠٠ هـ - ١٢٠٣ م) .. وكتاب «الألفاظ الكتابية» للهمداني [٣٢٠ هـ - ٩٢٢ م] ..

وكتاب «الفصيح» لثعلب [٢٠٠ - ٢٩١ هـ = ٨١٦ - ٩٠٤ م] .. وكتاب «إصلاح المنطق» ليعقوب السكيت [١٨٦ - ٢٤٤ هـ = ٨٠٢ - ٨٥٨ م] .. و«جمع الجوامع» في الأصول .. و«تلخيص المفتاح» للقاضي القزويني «كان حياً» [٢٥٦ هـ - ٩٦٧ م] .. و«رقم الحل في نظم الدول» لابن الخطيب [٧١٣ - ٧٧٦ هـ = ١٣١٣ - ١٣٧٤ م]. ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس، كابن شهير [٢٨٢ - ٤٢٦ هـ = ٩٩٢ - ١٠٣٥ م] .. وابن أبي الخصال [٤٦٥ - ٥٤٠ هـ = ١٠٧٤ - ١١٤٦ م] وأبي المطرف بن أبي عميرة [٥٨٢ - ٦٥٨ هـ = ١١٨٦ - ١٢٦١ م] .. ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق، كالصابي [٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م] .. والبيديع [٣٥٨ - ٣٩٨ هـ = ٩٦٩ - ٩٩٨ م] .. مع حفظ المغلفات .. والمفضليات .. وديوان الحماسة، وشعر المتنبي [٣٠٣ - ٣٥٤ هـ = ٩١٥ - ٩٦٥ م] كله .. وشعر الشريف الرضي [٣٥٩ - ٤٠٦ هـ = ٩٧٠ - ١٠١٥ م] .. وابن الرومي [٢٢١ - ٢٨٣ هـ = ٨٣٦ - ٨٩٦ م] .. وأبي تمام [١٩٠ - ٢٣١ هـ = ٨٠٦ - ٨٤٦ م] والبحتري [٢٠٦ - ٢٨٤ هـ = ٨٢١ - ٨٩٧ م] .. وأبي نواس [١٤٥ - ١٩٦ م = ٧٦٢ - ٨١٢ م] .. كما استظهر الكثير من شعر جرير [٢٨ - ١١٠ هـ = ٦٤٠ - ٧٢٨ م] والأخطل [١٩ - ٩٠ هـ = ٦٤٠ - ٧٠٨ م] .. والفرزدق [١١٠ هـ - ٧٢٨ م] .. كما حفظ كثيراً من كتب اللغة كاملة .. مثل «الإصلاح» و«الفصيح» .. ومن كتب الأدب مثل «الكامل» و«البيان» و«أدب الكاتب» .. كما حفظ أسماء الرجال الذين ترجم لهم «نفع الطيب» .. وأخبارهم، وكثيراً من أشعارهم.

ولقد بلغت قوة حافظته الحد الذي كان يحفظ فيه عشرات الأبيات من

سماع واحداً

■ وفي الحادية عشرة من عمره بدأ عمه يشرح له العديد من المتنون التي سبق

له حفظها..

■ ولقد مات عمه سنة [١٣٢١ هـ - ١٩٠٣ م] - وعمر البشير أربع عشرة سنة -

وكان عمه قد أجاز له الإجازة العامة .. وعهد إليه أن يخلفه في التدريس لطلابه،

فأصبح شيخاً وهو في سن الصبا!



الشيخ البشير الإبراهيمي (٢)

في سنة [١٣٢٩ هـ - أواخر سنة ١٩١١ م] رحل الشيخ البشير - متخفياً - من الجزائر إلى الحجاز - وعمره إحدى وعشرون سنة - فالتحق بوالده الذي كان قد استقر بالمدينة المنورة منذ سنة [١٣٢٦ هـ - سنة ١٩٠٨ م].. وفي طريقه إلى الحجاز أقام بالقاهرة ثلاثة أشهر طاف فيها بطلقات دروس العلم في الأزهر الشريف - دروس الشيخ سليم البشري [١٢٤٨ - ١٣٣٥ هـ = ١٨٣ - ١٩١٧ م].. والشيخ محمد بخيت المطيعي [١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م].. والشيخ يوسف الدجوي [١٢٨٣ - ١٣٦٥ هـ = ١٨٧٠ - ١٩٤٦ م].. والشيخ عبدالغني محمود والشيخ السمالوطي والشيخ سعيد الموجي [١٢٦٧ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٥١ - ١٩٣٥ م] وزار العديد من العلماء والشعراء من مثل الشيخ محمد رشيد رضا [١٢٨٣ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م]، وأحمد شوقي [١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ = ١٨٦٨ - ١٩٣٢ م]، وحافظ إبراهيم [١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧١ - ١٩٣٢ م] وغيرهم من العلماء والشعراء والأدباء.

■ وفي المدينة المنورة - وعلى امتداد خمس سنوات - واصل الشيخ البشير التعلم والتعليم.. فحضر العديد من دروس العلم «وخاصة دروس الشيخ العزيز الوزير التونسي.. والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي.. كما أخذ التفسير عن الشيخ خليل إبراهيم الأسكوبي.. والجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد الهرزنجي الشهرزوري.. وأنساب العرب وأدبهم الجاهلي، والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبدالله زيدان الشنقيطي.. وعلم المنطق عن الشيخ عبدالباقي الأفغاني.

وفي المدينة - أيضاً - استفاد من المكتبات العلمية الموجودة فيها..

■ وخلال سنوات إقامته بالمدينة المنورة تفتحت الملكات الإصلاحية والسياسية للشيخ الإبراهيمي وتدارس قضايا الخلافة الإسلامية .. وحال الدولة العثمانية .. وأوضاع الأمة العربية ومستقبلها .. والهيمنة الاستعمارية .. وخاصة مع الشيخ عبدالحميد بن باديس الذي التقى به في المدينة المنورة سنة ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م .. وعلى امتداد ثلاثة أشهر تذاكر الشيخان وتدارسا وخططا معاً للتهوض بوطنهما الجزائر، وانتزاعه من المصغ الاستعماري الصليبي الفرنسي وإعادته إلى العروبة والإسلام .. وكان التعليم والإصلاح الديني هما السبيل إلى تحقيق هذه المقاصد التي قامت لإنجازها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة [١٣٤٩ هـ - مايو سنة ١٩٣١ م].

■ وبعد ثورة الشريف حسين بن علي [١٢٧٠ - ١٣٥٠ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣١ م] حاكم المدينة المنورة يومئذ - ضد الخلافة العثمانية - ولحساب الإنجليز - وكان الشيخ البشير ضد هذه الثورة - تم ترحيل الكثيرين من سكان المدينة إلى الشام، ومنهم الشيخ البشير ووالده - في النصف الأخير من سنة ١٩١٦ م سنة ١٣٣٤ هـ فاستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

■ وفي دمشق طلب منه القائد التركي جمال باشا [١٢٨٩ - ١٣٤٠ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٢ م] بواسطة أحد أعوانه - التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى، وفضل الاشتغال بالتدريس، فعمل أستاذا للعربية في مدرسة «السلطاني».

■ وعندما حكم الأمير فيصل بن الحسين [١٣٠٠ - ١٣٥٢ هـ = ١٨٨٣ - ١٩٣٣ م] دمشق .. قامت علاقات صداقة بين الشيخ البشير وبين الأمير فيصل، وفي دمشق .. تزوج وفيها توفي والده .. وأحد أولاده.

■ وعندما بلغته أخبار عن الجزائر تبشر بتحسين الحق للعمل الإصلاحي .. عاد إلى الجزائر سنة ١٣٣٨ هـ - أوائل سنة ١٩٢٠ م - على نية القيام بالعمل العلمي .. ثم السياسي .. فتعاون مع اللجنة التي كانت قد سارت على المنهاج الذي رسمه هو والشيخ ابن باديس .. وتواصل العمل التمهيدى للحركة الإصلاحية بالجزائر عشر سنوات.

الشيخ البشير الإبراهيمي (٣)

في سنة [١٣٤٩هـ - ١٩٣١م].. أقامت فرنسا الاستعمارية - بالجزائر - احتفالات صاخبة بمئوية استعمارها للجزائر .. واستفرت هذه الاحتفالات ضمير الأمة، وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقت المقاومة .. ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: «إننا لن نتعصر على الجزائريين ما داموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم»!!

وخطب سياسي آخر فقال: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار!!»

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد .. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منيع وحيها الإنجيل!!»

■ وفي مواجهة هذا القصور «الاستعماري - الصليبي» تأسست «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة [١٣٤٩هـ - ١٩٣١م] .. وكان رئيسها الإمام ابن باديس .. ووكيلها ونائب رئيسها الإمام البشير .. وبذلك بدأت الثورة الإصلاحية والإحيائية - في الجزائر - سالكة طريق المنهاج الإسلامي في الإصلاح .. وبواسطة المؤسسات الإصلاحية .. والعمل المؤسسي المنظم .. أخذت المدارس والخطب والدروس في تكوين الجيل «العربي - المسلم» والوطني، العامل على استعادة الجزائر إلى حصون العروبة والإسلام والاستقلال.

■ وفى ٢ ربيع الأول سنة [١٣٥٩هـ - ١٠ إبريل سنة ١٩٤٠م] اعتقل المستعمرون الفرنسيون الإمام البشير الإبراهيمي ونفوه إلى قرية نائية في الجنوب الوهراني.

■ وفى ربيع الأول سنة [١٣٥٩هـ - ١٦ إبريل سنة ١٩٤٠م] توفى الإمام عبدالحميد بن باديس - والإمام البشير في المنفى - فانتخبه قادة «جمعية العلماء» رئيساً لها .. وبعد خروجه من المعتقل والمنفى - الذي دام قرابة ثلاث سنوات - وضع تحت المراقبة الإدارية إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ..

■ وما هي إلا أشهر حتى سيق - ثانية - إلى السجن العسكري - بالجزائر العاصمة - في جمادى الآخرة سنة [١٣٦٢هـ - ٢٧ مايو سنة ١٩٤٥م] عقب مذابح فرنسا في ٨ مايو سنة ١٩٤٥م التي قتل فيها ٦٠.٠٠٠ من الجزائريين وظل الإمام البشير في زنزانة مظلمة تحت الأرض مدة سبعين يوماً! وبعد مائة يوم في السجن العسكري بالجزائر ويسبب سوء حالته الصحية نقلوه إلى السجن العسكري بقسنطينة .. فلبث فيه أحد عشر شهراً .. ولقد دخل إلى السجن معه يومئذ ٧٠.٠٠٠ من أعضاء جمعية العلماء!

■ وبعد الإفراج عنه، عاد إلى قيادة العمل الإصلاحى، كأقوى ما يكون عزماً وأصلب ما يكون عوداً.

■ وفى جمادى الآخرة سنة [١٣٧١هـ - ٢٧ مارس سنة ١٩٥٢م] بدأ البشير رحلته الثانية إلى المشرق - فأقام بالقاهرة أسبوعاً .. وفى باكستان قرابة ثلاثة أشهر، ألقى فيها - بمختلف مدن باكستان - نحواً من سبعين محاضرة في الدين والاجتماع والتاريخ والإصلاح .. ثم ذهب إلى العراق، فطوف بمدنها نحواً من ثلاثة أشهر، ألقى فيها عشرات المحاضرات .. ثم رحل إلى الحجاز في موسم حج سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، وألقى في الحرمين الشريفين العديد من الدروس والمحاضرات .. ثم رجع إلى القاهرة في [٢٤ أكتوبر من نفس العام - ربيع أول سنة ١٣٧٢هـ] ومنها عاود الترحال إلى العراق والحجاز وسوريا والأردن والقدس لعدة مرات .. محاضراً في الدعوة إلى الإصلاح، ومدرساً بالمساجد الكبرى، وفى بعض المدارس لعلوم الإسلام والعربية .. ومعرفاً بالقضية الجزائرية، وداعياً إلى مناصرة شعبها وثورتها التي قامت سنة ١٩٥٤م ومدافعاً عن القضية الفلسطينية، وسائر قضايا الأمة الإسلامية.

■ وفي القاهرة أقام الإمام البشير مكتباً باسم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» للإشراف على تعليم طلاب الجمعية ببلاد المشرق العربي.

■ وفي القاهرة - التي اتخذها مركزاً لنشاطه - انتخب عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية سنة [١٣٨٠هـ - ١٩٦١م].

■ وعندما استقلت الجزائر سنة [١٢٨٢هـ - ١٩٦٢م] عاد الإمام البشير إلى الجزائر وخطب خطبة الجمعة في افتتاح مسجد «كتشاوة» بالجزائر العاصمة الذي عاد مسجداً بعد أن كانت الصليبية الاستعمارية الفرنسية قد حولته إلى كاتدرائية كاثوليكية طوال قرن وثلاث القرن!

■ وكان آخر أعمال الإمام البشير - قبيل وفاته - وإبان مرضه - هو القداء الذي أذاعه في ٣ من ذي الحجة سنة [١٣٨٣هـ - ١٦ من إبريل سنة ١٩٦٤م] إلى قادة الدولة الجزائرية، داعياً إياهم إلى إنقاذ الجزائر من خلافات الثوار وإلى إعادة الجزائر المستقلة إلى منهاج الإسلام في الإصلاح!

■ وعلى الرغم من أن هذا الإمام العظيم لم يتفرغ لتأليف الكتب؛ لأنه، كما قال: «لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعصار أكلاً، ولكنني ألقتُ للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تهيئةً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصححت له موازين إيمانه، فأصبح إنساناً أبنياً، وحسبني هذا مقرباً من رضى الرب ورضى الشعب»

على الرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة - تربية الرجال وإيقاظ الأمة - فلقد ترك من الآثار العلمية «عيون البصائر» و«الاطراد والشذوذ في اللغة» و«أسرار الضمائر العربية» و«التسمية بالمصدر» و«كاهنة أوراس» و«رسالة الضب» و«قصيح العزبية من العافية الجزائرية» و«أرجوزة» - في ٣٦ ألفاً من أبيات الشعر، ضمنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته .. أما مقالاته، فإنها قد جمعت فكانت خمسة مجلدات، قاربت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة.



■ هذا هو الإمام محمد البشير الإبراهيمي .. الذي لم يرث مالاً .. ولم يتموّل أموالاً .. والذي عاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» .. والذي كان يسد ديونه القديمة بديون جديدة محتفظاً

بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان .. سالكم في ذلك طريق العلماء
الأعلام .. الذين لم يورثوا درهما ولا دينارا - مكتفين بالعلم والجهاد، أسوة
بالنبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

وهو الذي قال فيه صديقه ورفيق دريه الإمام عبدالحميد بن باديس - بعد
إقرار لائحة «جمعية العلماء» التي كتبها الشيخ البشير سنة [١٣٤٩هـ - ١٩٣١م]:
«عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يخزي في دنياه،
أو يذل لاستعمار»

عليه رحمة الله.





الشيخ الغزالي قلب تقى .. وعقل ذكى (١)

«هو الفقيه الداعية المجدد» الشيخ محمد الغزالي السقا [١٣٣٥ - ١٤١٦ هـ =

١٩١٧ - ١٩٩٦ م].

مصري المولد والنشأة .. ولد - لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة - في قرية «نكالا العقب» مركز «إيتاي البارود» محافظة «البحيرة» - بدلتا مصر - يوم السبت ٥ من ذي الحجة سنة ١٣٣٥ هـ - ٢٢ من سبتمبر ١٩١٧ م . ولقد اختار له والده اسم «محمد الغزالي» تيمناً بحجة الإسلام «أبو حامد الغزالي» لقزعة الصوفية لدى الوالد. وكان الشيخ الغزالي أكبر إخوته السبعة .. ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال.

ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، والتحق - طالباً للعلم الإسلامي - بالمعهد الديني - التابع للأزهر الشريف - بمدينة الإسكندرية .. فحصل على شهادة «الابتدائية» سنة ١٩٣٢ م .. ومن نفس المعهد - القسم الثانوي - حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٣٧ م.

وفي سنة ١٩٣٧ التحق بالتعليم العالي الأزهرى - كلية «أصول الدين» بالقاهرة .. وفيها تلقى العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم الشيخ عبدالعظيم الزرقاني .. والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت .. وتخرج في «أصول الدين» فنال شهادة «العالمية» سنة ١٩٤١ م .. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣ م.

وفي نفس العام الذي التحق فيه بكلية أصول الدين سنة ١٩٣٧ م، التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] وأصبح عضواً بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية.

ولقد تزوج الشيخ الغزالي وهو لا يزال طالباً بكلية أصول الدين، وأنجب من الأولاد تسعة .. يحيا منهم ولدان - ضياء وعلاء - وخمس سيدات.

كما بدأت ممارسته الدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إماماً وخطيباً بأحد مساجد القاهرة .. فلما نال شهادة العالمية سنة ١٩٤١م، عين - في العام التالي - سنة ١٩٤٢م بوزارة الأوقاف إماماً وخطيباً بمسجد «العتبة الخضراء» بوسط القاهرة .. ولقد تدرج في مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد .. والوعظ بالأزهر الشريف .. ووكيلاً، فمديراً للمساجد .. فمديراً للتدريب .. فمديراً للدعوة والإرشاد في ٢ يوليو سنة ١٩٧١م .. فوكيلاً لوزارة الأوقاف، لشئون الدعوة الإسلامية، في ٨ مارس سنة ١٩٨١م

ولقد تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يد الشيخ حسن البنا، وفي صحافة جماعة الإخوان التي أصبح من كتابها .. حتى أطلق عليه لقب «أديب الدعوة» .. وكتب إليه الأستاذ البنا خطاباً - في سنة ١٩٤٥م - يقول له فيه: «أخي العزيز الشيخ محمد الغزالي .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد، قرأت مقالكم «الإخوان المسلمون والأحزاب» في العدد الأخير من مجلة «الإخوان» فطربت لعبارته الجزلة، ومعانيه الدقيقة، وأديه العف الرصين.

هكذا يجب أن تكتبوا، أيها الإخوان المسلمون، انكتب دائماً، وروح القدس يؤيدك، والله معك .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. حسن البنا»



الشيخ الغزالي قلبٌ تقيٌ .. وعقلٌ ذكيٌ (٢)

ولقد تحمل الشيخ الغزالي نصيبه من المحن والمكاره التي أصابت جماعة «الإخوان المسلمين» .. فقضى في معتقل «الطور» - بشبه جزيرة سيناء - قرابة العام سنة ١٩٤٩ م .. وأقل من عام في سجن «طرة» إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة ١٩٦٥ م.

ولما شارك في «المؤتمر الوطني للقوى الشعبية» سنة ١٩٦٢ م، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين الليبراليين واليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف .. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرتة مظاهرات جماهير المساجد .. وفي سنة ١٩٧٤ م كان له - هو والشيخ محمد أبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التي أدخلت على قانون الأحوال الشخصية - فكان يرى أن مشكلة مصر هي في عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة في تعدد الزوجات.. فضاعت الدولة بمعارضته، ومنعته من الخطابة بجامعة عمرو بن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته في وظائف الدعوة حتى لقد ألغوا المنصب الذي كان يشغله - مدير عام الدعوة - ! فوجد نفسه على «حصير» دون مكتب في «سندرة» ملحقة بمسجد صلاح الدين - بالقاهرة - فجلس على «الحصير» يشتغل بالتأليف!

ولما أحس باقتراب المخاطر منه، إبان التحقيقات مع صالح سرية المتهم الأول فيما عرف بقضية «الغنية العسكرية» الذي ذكر أنه زار الشيخ الغزالي مرة - سعى إلى الخروج من مصر، فسافر إلى المملكة العربية السعودية أستاذًا بجامعة أم القرى - بمكة المكرمة - فأمضى بالجامعات السعودية ما بين سنة ١٩٧٤ م وسنة ١٩٨١ م .. وفي سنة ١٩٨١ م الذي رقى فيه إلى منصب وكيل وزارة

الأوقاف لشئون الدعوة - قدم استقالته من الوزارة عندما اختلف مع سياسة الدولة في الصلح مع إسرائيل.

وكان تعرف الشيخ الغزالي على الواقع العربي والإسلامي، خارج مصر، قد بدأ مبكراً.. ففي سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣ م شغل وظيفة رئيس «التكية المصرية» بمكة المكرمة.. وفي الأعوام من سنة ١٩٦٨ م إلى ١٩٧٣ م أمضى شهر رمضان في دول الكويت وقطر والسودان والمغرب.. وشارك في ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر - بانتظام - سنوياً.. منذ سنة ١٩٨٠ م.. وعمل في قطر - أستاذاً زائراً - ما بين سنة ١٩٨٢ م، وسنة ١٩٨٥ م.. وعاش بالجزائر ما بين سنة ١٩٨٥ م وسنة ١٩٨٨ م منشئاً وراعياً لجامعتها الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر ومشرقاً على مجلسها العلمي.. وعلى امتداد هذه الأعوام الخمسة عشر: ١٩٧٤ - ١٩٨٨ م.. عاش واقع الأمة، واستوعب مشكلاتها، وأعطى لجهاميرها، وغداً أبرز فقهاء الدعوة والتجديد والأصالة والاستنارة على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام.

ولقد امتلك الشيخ الغزالي حرية المفكر واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينيات، عندما استقل عن تنظيم جماعة الإخوان المسلمين؛ لخلافه مع مرشدها العام الأستاذ حسن الهضيبي.. فكان تفرغه للدعوة والتأليف.. وظل محافظاً على استقلالية الفكر حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان في سنوات عمره الأخيرة.



وإذا كان الشيخ الغزالي قد تتلمذ على حسن البنا الذي تتلمذ على رشيد رضا، تلميذ محمد عبده أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغاني. فلقد حدد الشيخ الغزالي منهاج هذه المدرسة، التي ينتمي إليها مشروع الفكر التجديدي في معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامي: مدرسة الرأي.. والأثر.. والموازنة بينهما - كما هو الحال عند ابن تيمية - مع ميل للأثر.. ومدرسة الاختيار الشخصي والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة. وحدد منهاج مدرسته التي وازنت بين «الرأي» و«الأثر» على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك «بثرويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلاً للنقل.. وهي تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد.. وهي ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكاراً حاسماً أن يكون في القرآن نص انتهى أمده، وتري المذهبية

فكرًا إسلاميًا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهي تنكر التقليد المذهبي، وتحترم علم الأئمة وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة، «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ص ٦٩ - ٧٧ طبعة دار الوفاء - القاهرة سنة ١٤١٣ هـ - سنة ١٩٩٣ م.

فهو علم متميز، من أعلام هذه المدرسة التي تمايزت اجتهادات وتجديدات أعلامها في هذا الإطار.



الشيخ الغزالي قلبٌ تقيٌّ .. وعقلٌ ذكيٌّ (٣)

ولقد كان الشيخ الغزالي يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول إنه «قلب تقيٌّ، وعقل ذكيٌّ»! معبراً بذلك عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع، في مصادر المعرفة، بين كتابي الله: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الكون المنظور .. وفي سبل المعرفة، بين العقل والنقل والتجربة والوجدان؛ ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالي في «القدوة» منافساً لعطاءه في «الفكر» كما برئ مشروعته الفكرية من الفصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمستكلات الأمة والإنسانية، والماضي والحاضر والمستقبل جميعاً.

- ففي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية، قدم عدالة الإسلام، في العديد من الآثار الفكرية .. من مثل «الإسلام والأوضاع الاقتصادية» و«الإسلام والمناهج الاشتراكية» و«الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين» و«الإسلام في وجه الزحف الأخضر»... إلخ.

- وفي مواجهة الاستبداد السياسي، دافع عن الشورى الإسلامية، في كتبه: «الإسلام والاستبداد السياسي» و«حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة»... إلخ.

- وفي مواجهة الهيمنة الغربية وتيارات العلمانية والمادية والإلحاد والتفريب، قدم: «من هنا نعلم» و«دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين» و«الغزو الثقافي يمتد في فراغنا» و«مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه» و«صيحة تحذير من دعاة التنصير»... إلخ.

- وفي مواجهة الجمود والحرفية والتقليد، قدم: «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» و«تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل» و«قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة» و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث»... إلخ.

- ولتجديد الذات الإسلامية، قدم عشرات الكتب، من مثل: «خلق المسلم» و«عقيدة المسلم» و«جدد حياتك» و«فقه السيرة» و«كيف نفهم الإسلام؟» و«الجانب العاطفي من الإسلام» و«سر تأخر العرب والمسلمين»... إلخ.



ولقد كانت رسالة الشيخ الغزالي في حياته الفكرية والدعوية والتعليمية والعملية هي إحياء الأمة بالإسلام، وتحريكها بطاقتها الإحيائية.. «فالجهد الأول المطلوب هو تحريك قافلة الإسلام، التي توقفت في وقت تقدم فيه حتى عبيد البقر! وسوف تتلاشى التحديات التي تواجهنا يوم يعتنق المسلمون الإسلام، ويدخلون فيه أفواجا، حكاما وشعوبا!» «دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين» ص ١٩ و«مفهوم داعية» ص ١٧، طبعة سنة ١٩٨٣ م.

وكان داعية لتحرير العقل الإسلامي من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة وبين الفكر الإسلامي غير المعصوم، ورفض الادعاء بأن الأولين لم يدعوا للآخرين مجالا في الاجتهاد والتجديد «فالإسلام هو صانع الأنمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. ومصادر الإسلام معصومة لأنها من عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم: لأنه من عند الناس.. والأنمة الأوائل كانوا روادا في تأسيس الفقه الإسلامي، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجيء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار» (دستور الوحدة الثقافية) ص ٨٥ - ٩٣.

وكان يرى أن صلاح دنيا الناس بالعدالة الاجتماعية شرط لعلاج قلوبهم بدين الإسلام.. فعدالة الإسلام هي الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب «إذ من العسير أن تعلق قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية! أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريا! فلا بد من التمهيد الاقتصادي الواسع، والإصلاح العمراني الشامل، إذا كنا مخلصين حقا في محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقا في هداية الناس لرب العالمين» (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ص ٦١، ٦٢ طبعة سنة ١٩٨٧ م.

وكان يدعو في فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم - إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد الذي هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية للطواغيت.. وآيات الله الكونية، الميثوقة في الأنفس

والآفاق، والتي على تعقلها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان .. والقصص القرآني، كأداة للتربية والتزكية، ومعالج على طريق الاعتقاد الديني .. ونبأ الغيب والبعث والجزاء، ودوره في بناء الأخلاق .. والتربية والتشريع، لصالح الدنيا الذي يتأسس عليه صلاح يوم الدين .. (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) طبعة سنة ١٩٩٤م.

وكان مدافعاً عن سنة رسول الله ﷺ، فهي مع القرآن «قوام الإسلام، وهي الامتداد لسُنَن القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه.. وكما أنه لا فقه إلا بسُنَّة، فلا سُنَّة بغير فقه .. والحكم الديني لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذي تعمل الأحاديث في نطاقه لا تعدوه .. والأحكام في الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبي ﷺ من القرآن، بتأييد إلهي وبيان رباني»، فهي بيان نبوي للبلاغ القرآني وإرادة من الله لنبيه ليفصل ما أجمله القرآن .. «دستور الوحدة الثقافية» ص ٣٣، ٣٤، ٣٦-٣٨. و«السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» ص ١١٨، ١١٩ طبعة سنة ١٩٨٩م .. و«هذا ديننا» ص ١٩٧ طبعة سنة ١٩٦٥م.





الشيخ الغزالي قلباً تقياً .. وعقلاً ذكياً (٤)

ولقد عاش الشيخ الغزالي حياته وقلبه معلق بالمساجد .. وكان حلم حياته الذي حققه عندما كان مسئولاً عن الدعوة بوزارة الأوقاف - أن تصبح المساجد جامعات إسلامية حرة لشباب الأمة وجماهيرها، تلقى فيها الدروس المنتظمة في علوم الدين والحضارة الإسلامية .. حتى لقد كانت آخر الأوراق التي كتبها إلى الندوة التي عقدت بجامعة الأزهر - يوم ٥ مارس سنة ١٩٩٦م، حول المساجد والدعوة الإسلامية، والتي حال سفره دون حضوره لها - كانت بمثابة «الوصية» كتبها لتحويل المساجد إلى جامعات للثقافة الإسلامية .. ولقد اتخذتها «الندوة» «توصيات» لمداولاتها .. وكان ذلك قبل وفاته بأربعة أيام!



ولقد شرفت بعضوية الشيخ الغزالي العديد من الجامعات الفكرية والمؤسسات العلمية .. من مثل «مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف» و«المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية» بالأردن، و«المعهد العالمي للفكر الإسلامي» بواشنطن، و«الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت ... إلخ ... إلخ.

كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز .. من مثل:

- ١ - وسام الأسير - وهو أعلى وسام بالجزائر سنة ١٩٨٨م.
- ٢ - جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة ١٩٨٩م.
- ٣ - جائزة الامتياز من باكستان سنة ١٩٩١م.
- ٤ - جائزة الدولة التقديرية من مصر سنة ١٩٩١م.
- ٥ - جائزة علي وعثمان حافظ - لمفكر العام سنة ١٩٩١م.



ولقد عاد الشيخ الغزالي للإقامة الدائمة بمصر - في منزله رقم ١٠ بميدان الدكتور سليمان - بحي الدقي بالقاهرة .. منذ سنة ١٩٨٨م .. وكانت أسفاره إسهاماً في الملتقيات العلمية والفكرية .. وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة .. حيث خطب في عيدها الخمسين، ممثلاً للأزهر الشريف سنة ١٩٩٦م .. وأقضى بين مسلمي أمريكا في تلك الرحلة ثلاثة أسابيع.

وبعد أسابيع من عودته سافر إلى المملكة العربية السعودية للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة - الجنادرية - حيث لبى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها في قاعة الملك فيصل، والقلم في يده يدون نقاطاً للدفاع عن الإسلام، مساء يوم الجمعة [١٧ شوال سنة ١٤١٦ هـ = ٩ مارس سنة ١٩٩٦م] .. ليدفن به «القيع» في المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

مؤلفات الشيخ الغزالي:

١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية - طبعة نهضة مصر - القاهرة - سنة ١٩٩٦م.

٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٣ - الإسلام والاستبداد السياسي.

٤ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٧م.

٥ - من هنا نعلم - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.

٦ - تأملات في الدين والحياة - طبعة دار الدعوة - الإسكندرية - سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

٧ - خلق المسلم - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٨ - عقيدة المسلم - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

٩ - التعصب والتسامح.

١٠ - فقه السيرة - طبعة دار الدعوة - سنة ١٩٨٨م.

١١ - في موكب الدعوة.

١٢ - ظلام من الغرب.

١٣ - جدد حياتك - طبعة نهضة مصر - ١٩٩٦م.

- ١٤- ليس من الإسلام.
- ١٥- من معالم الحق.
- ١٦- كيف نفهم الإسلام؟ - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- ١٧- الاستعمار أحقاد وأطماع.
- ١٨- نظرات في القرآن - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
- ١٩- مع الله - دراسات في الدعوة والدعاة.
- ٢٠- معركة المصحف - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
- ٢١- كفاح دين - طبعة مكتبة وهبة - القاهرة - سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
- ٢٢- الإسلام والطاقات المعطلة.
- ٢٣- حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.
- ٢٤- هذا ديننا - طبعة دار الشروق - القاهرة - سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- ٢٥- حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي.
- ٢٦- الجانب العاطفي من الإسلام.
- ٢٧- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦م.
- ٢٨- ركائز الإيمان بين العقل والقلب - طبعة مكتبة وهبة - سنة ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- ٢٩- حصار الغرور - مكتبة وهبة - سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
- ٣٠- الإسلام في وجه الزحف الأحمر.
- ٣١- قذائف الحق.
- ٣٢- الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر - طبعة مكتبة وهبة - سنة ١٤١٠هـ سنة ١٩٩٠م.
- ٣٣- فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء - طبعة دار الاعتصام - القاهرة - سنة ١٩٨٠م.
- ٣٤- دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين - طبعة دار الوفاء - القاهرة - سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- ٣٥- واقع العالم الإسلامى فى مطالع القرن الخامس عشر.
- ٣٦- مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦ م.
- ٣٧- هموم داعية - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦ م.
- ٣٨- مائة سؤال فى الإسلام - طبعة دار ثابث - القاهرة - سنة ١٩٨١ م.
- ٣٩- علل وأدوية - طبعة دار الدعوة - سنة ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- ٤٠- مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف تفكر فيه - طبعة الأردن - عمان - سنة ١٩٨٤ م.
- ٤١- قصة حياة.
- ٤٢- سر تأخر العرب والمسلمين - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦ م.
- ٤٣- الطريق من هنا.
- ٤٤- جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.
- ٤٥- الحق المر - ج ١ : ج ٦ - طبعة نهضة مصر - سنة ١٩٩٦ م.
- ٤٦- من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث.
- ٤٧- الغزو الثقافى يمتد فى قراعتنا - طبعة الأردن - عمان - سنة ١٩٨٥.
- ٤٨- المحاور الخمسة للقرآن الكريم - طبعة دار الصحوة ودار الوقاء - القاهرة - سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٤٩- السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث - طبعة دار الشروق - سنة ١٩٩٦ م.
- ٥٠- قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة - طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٥١- تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل .. طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م.
- ٥٢- كيف نتعامل مع القرآن الكريم؟ - طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى - واشنطن - سنة ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
- ٥٣- صيحة تحذير من دعاة التنصير - طبعة دار الصحوة.
- ٥٤- نحو تفسير موضوعى للقرآن الكريم - طبعة دار الشروق - سنة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٥٥- كنوز من السنة.



أمانة الشيخ الغزالي

في آخر لقاء لي بشيخنا الإمام محمد الغزالي [١٣٣٥-١٤١٦هـ ١٩١٧م-١٩٩٦م] عليه رحمة الله، كان ذلك بمنزله، لتسجيل حلقات - شاركته فيها - لبرنامج «روضة الإسلام» - الذي يبثه «التلفاز المصري» .. وبعد أن فرغنا من التسجيل مددت يدي إليه مصافحاً ومودعاً، فطلب مني الانتظار حتى يجمع عمال «التلفاز» وفتيوة أجهزتهم، ويغادروا، وفهمت أنه يريدني - على انفراد - لأمر خاص، فجلست معه، حتى غادر فريق «التلفاز» المنزل، وعند ذلك نهض الشيخ إلى خزانة كتبه، وأحضر نسخة - مجلدة - من آخر مؤلفاته «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم»، وكتب عليها آخر إهداء لآخر كتاب في آخر لقاء، فإذا كلمات هذا الإهداء تحملني أمانة، شعرت - ولا أزال - بخطرها وثقلها حتى هذه اللحظات .. كتب في الإهداء:

«إلى أخي الحبيب، داعية الإسلام وحارس تعاليمه الدكتور محمد عمارة، مع

الدعوات . محمد الغزالي».

ولقد ظل التواصل بيننا - عبر الهاتف - منتظماً، يتكرر عدة مرات كل أسبوع، حتى علمت أنه قد قبل الدعوة لزيارة «الرياض» بالمملكة العربية السعودية - فاستدعيت واستفقت؛ لأننا كنا نخشى على صحته، بسبب قرط حساسيته، ومن أن يتعرض لاستفزاز الذين أساءوا به الظن - غفر الله لهم - وهاجموه، وأصدروا ضده أربعة عشر كتاباً مليئة بالافتراءات، بعد صدور كتابه «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» سنة ١٩٨٩م .. وكنا - معشر المقربين منه من محبيه - قد اتفقنا معه على تجنب مصادر ومواطن الاستفزاز .. بل عدم قراءة ما يكتبه عنه هؤلاء!

ولم أكن أدري - ولا أحد يدري - أن لقاءه لربه قد اقترب، وأنه مسافر - في
لهفة غير مسبوقة - إلى الأرض المقدسة التي كتب الله أن يلقاه فيها وعليها ..
وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي
نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]

وقد سافرت أنا - حول ذات التاريخ - إلى الكويت للمشاركة في ندوة علمية،
وهناك سمعت وقرأت نبأ انتقال الشيخ الغزالي إلى يارثه، فلقد صعدت روحه إلى
خالقها وهو يمسك القلم والورقة مدافعاً عن الإسلام في قاعة الملك فيصل
 بالرياض ثم كان دفنه بمدينة حبيبه وحبيبنا رسول الله، ﷺ بـ«البقيع» على
مقربة من مثنوى إمام دار الهجرة «مالك بن أنس» [٩٣-١٧٩هـ ١٧١٢م -
١٧٩٥م] رضى الله عن الجميع.

ولقد تذكرت عند سماع نبأ وفاته لحظات استبقائه لي في منزله في آخر لقاء
بيننا، وحرصه على كتابة الإهداء لي .. وكلمات الإهداء .. والأمانة التي حملني
إياها في هذا اللقاء الأخير!

وبعد أيام من وقائع العزاء والتأبين، انتهالت عليّ - من قراء صحيفة
«الشعب» ومن المسؤولين عن إصدارها - الطلبات الملحة - على غير اتفاق بين
الطالبين - أن أكتب الباب الصغير الذي كان يكتبه شيخنا الغزالي في عدد
الثلاثاء من صحيفة «الشعب» تحت عنوان «هذا ديننا» - وذلك حرصاً على
استمرار هذا المقال الذي كان يطل منه شيخنا على القراء كل أسبوع.

وحرصاً مني على تلبية هذا المطلب الذي شعرت أنه أول تطبيق عملي
للأمانة التي حملني إياها الشيخ الغزالي، توكلت على الله، وكتبت عدداً من
المقالات وأرسلتها إلى «الشعب» لتأخذ مكانها في هذا الباب - وذلك بعد تغيير
العنوان من «هذا ديننا» إلى «هذا إسلامنا» احتراماً لرغبة أبناء الشيخ؛ لأن
العنوان الأول هو عنوان لأحد كتبه.

ثم علمت من صحيفة «الشعب» أن الشيخ - رحمه الله - قد ترك عدداً من
المقالات التي سيتوالى نشرها، وأن مقالاتي ستأخذ دورها بعد الانتهاء من
مقالات الشيخ الجليل .. فسعدت بذلك كل السعادة، ولم أسأل عن عدد هذه
المقالات، ولا عن التاريخ الذي سيبدأ فيه نشر مقالاتي، فلقد كنت - مع كل قراء
«الشعب» - تعيش نعمة رؤية صورة الشيخ، وقراءة مقالته صباح كل ثلاثاء.

وفي ليلة الجمعة التالية لنشر آخر مقالات الشيخ - ولم أكن أدري أن ذلك هو آخر مقالاته في هذا «البرواز» - رأيت فيما يرى النائم شيخنا الغزالي في أبيه حله، وأجمل صور تألقه، يزورني في منزلي، وأنا أجلس إلى جواره، ومن حولنا الكتب التي تغطي الجدران، واللوحة المعدنية الصغيرة المكتوب فيها سورة الفلق - تلك التي أهداها لي عندما زارني بمستشفى «النزهة» يوم أجريت لي جراحة الغضروف - وكان معه ابننا الحبيب محمد عبدالقدوس.

رأيت الشيخ الغزالي - في هذه الرؤيا - وإذا به يناولني «ملفًا» مليئًا بالأوراق .. وصحوت من نومي متذكرًا الأمانة التي حملني إياها في إهداء آخر كتبه، بأخر لقاء.

وبعد أيام من هذه الرؤيا .. وعلى غير علم مني بالتوقيت .. بدأ نشر مقالاتي في الباب الذي كان يحرره الشيخ الجليل، وكأنما بدأ تواصل الأوراق وتواليها مع «ملف» الرؤيا التي رأيت فيها شيخنا الغزالي، عليه رحمة الله.

لقد توفي في ٩ مارس .. نفس اليوم الذي توفي فيه جمال الدين الأفغاني قبل مائة عام .. ولقد كتبت هذه الكلمات تقديمًا للكتاب الذي جمع فيه الباحث الجاد الشيخ أحمد فضلية ما كتبه العلماء والمفكرون عن الشيخ الغزالي عقب وفاته .. وهو الكتاب الذي أصدرته هذا العام دار الدعوة بعنوان «الإمام محمد الغزالي وشهادة التاريخ» .. رحم الله شيخنا الغزالي الذي عاش ومات نموذجًا عظيمًا من نماذج العلماء المجاهدين المرايطين على ثغور الإسلام.





التطور الفكري للدكتور طه حسين (١)

كان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] أحد أعظم بلغاء اللغة العربية، على امتداد العصر الذي عاش فيه .. أجمعت على ذلك كل تيارات الفكر والأدب، سواء منها الذين اتفقوا معه أو كانوا معه على خلاف أو اختلاف .. ولقد توجته الأمة - على امتداد أوطانها، واختلاف شعوبها - عميداً للأدب العربي .. حتى لقد اشتهر بلقب «الأستاذ العميد» كما اشتهر من قبله الشيخ محمد عبده بلقب «الأستاذ الإمام».

لكن الناس قد اختلفوا اختلافاً شديداً .. وأحياناً حاداً - حول بعض كتابات طه حسين عن الإسلام ..

ولم يكن الاختلاف مع طه حسين في بعض كتاباته عن الإسلام بسبب تمرده الشهير والمبكر على العقلية الأزهرية ونمط الدراسة في الأزهر الذي درس فيه، فكثيرون من شيوخ الأزهر وخريجيه قد انتقدوا مناهج الدراسة الأزهرية وخاضوا المعارك لتطویر هذه المناهج حتى نجحوا في ذلك إلى حد كبير .. ولقد تبلور في حياتنا الفكرية تيار عريض لإصلاح الأزهر، بلغ ذروته بجهود الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] .. واستمر عبر تلاميذه العظام الذين شهد الأزهر على أيديهم درجات من الإصلاح والتطوير، من مثل الشيوخ: محمد مصطفى المراغي [١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ = ١٨٨١ - ١٩٤٥ م] ومُصطفى عبدالرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] .. وعبدالمجيد سليم [١٢٩٩ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٨٢ - ١٩٥٤ م] ومحمود شتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ = ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م] ..

فلم يكن نقد الأزهر - من قبل طه حسين - رغم حدته - هو السبب في اختلاف علمائه مع الدكتور طه حسين .. كما أن هذا الاختلاف لم يقف عند علماء الأزهر، وإنما امتد بامتداد ساحات الإسلام وميادين الفكر الإسلامي ..

■ ولعل أولى الأفكار التي اختلف فيها الكثيرون من علماء الإسلام ومفكره مع طه حسين، في حقل الإسلاميات، كانت كتاباته التي حاولت علمنة الإسلام، والدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، وذلك إبان المعركة الفكرية الكبرى التي دارت حول كتاب الشيخ علي عبدالرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ = ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] «الإسلام وأصول الحكم» سنة ١٩٢٥ م .. فلقد جاء في هذا الكتاب - تحت عنوان «رسالة لا حكم، ودين لا دولة» «أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة .. ولم يقم بتأسيس مملكة، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة، ومرادفاتها، ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة، ولا داعياً إلى ملك .. وظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي لم يكن له شأن في الملك السياسي، وآياته متضافرة على أن عمله السماوي لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معاني السلطان .. لم يكن إلا رسولاً قد خلت من قبله الرسل .. ولم يكن من عمله شيء غير إبلاغ رسالة الله تعالى إلى الناس .. وليس عليه أن يأخذ الناس بما جاءهم به، ولا أن يحملهم عليه .. كانت ولاية محمد على المؤمنين ولاية الرسالة غير مشوبة بشيء من الحكم .. هيئات هيئات، لم يكن ثمة حكومة، ولا دولة، ولا شيء من نزعات السياسة ولا أغراض الملوك والأمراء»^(١).

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يكتب فيها شيخ أزهري - وقاض شرعي - مثل هذا الكلام .. بل إن كتابات المستشرقين أنفسهم قد أجمعت على تميز الإسلام على النصرانية بأنه دين ودولة، وعبادات ومعاملات، وأخلاق وشريعة، وقيم وقانون .. وأنه - كما قال الإمام محمد عبده - «إن للإسلام دولة .. فهو دين وشرع، كمال للشخص، وألفة في البيت، ونظام للملك .. وضع حدوداً ورسم حقوقاً .. ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام .. والإسلام لم يدع ما لقيصر لقيصر .. بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله»^(٢).

بل إن التحقيق العلمي لتأليف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» قد أثبت أن لطله حسين نصيباً في تأليف هذا الكتاب .. فلقد اعترف - بعد وفاة علي

(١) علي عبدالرازق - الإسلام وأصول الحكم - ص ٦٤ - ٨٠ طبعة القاهرة - سنة ١٩٢٥ م.
(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - ج ٣ - ص ٢٨٧، ٢٢٥، ٢٢٦ - دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٩٣ م.

عبدالرازق - فقال: «لقد قرأت أصول كتاب الشيخ على عبدالرازق، قبل طبعه ثلاث مرات، وعدلت فيه كثيراً!!» (١).

وهكذا مثلت هذه المعركة الفكرية الكبرى - حول العلمانية .. وعلمنة الإسلام - أولى محطات الخلاف الحاد مع طه حسين في كتاباته حول الإسلام.



وفي العام التالي لقيام هذه المعركة الفكرية - أي سنة ١٩٢٦م - أصدر الدكتور طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي استخدم فيه منهج الشك الديكارتى في تحقيق نسبة كثير من الشعر الجاهلي إلى الشعراء الذين نسبت إليهم قصائده .. وما كان لهذه القضية أن تثير جدلاً يذكر، ولا أن يمس الجدل حولها الدراسات الإسلامية مساً مباشراً .. ولكن الدكتور طه حسين ذهب فشكك في عقائد ووقائع وردت في القرآن الكريم، من مثل الرحلة الحجازية لأبي الأنبياء الخليل إبراهيم، وولده إسماعيل - عليهما السلام - وإقامتهما قواعد البيت الحرام.

ولقد اعترف الدكتور طه حسين نفسه بهذا التشكيك فقال: «لقد انتهيت إلى رفض قدر كبير من هذا الشعر الجاهلي .. وفي إطار ذلك المسعى شككت في بعض المعتقدات التي ذكرت في القرآن أو في الأحاديث النبوية، وكانت الصدمة قاسية والاستنكار واسع النطاق» (٢).

وبعد معركة فكرية حامية الوطيس - صدر فيها العديد من المؤلفات التي ترد على طه حسين أفكاره، وتشكيكه، والتي شارك فيها أعلام من أمثال الشيخ محمد الخضر حسين [١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٨م] ومحمد فريد وجدي [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٥٤م] بل أسهم فيها زعيم الأمة - ابن الأزهري الشريف - سعد زغلول باشا [١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٧م] الذي علق على هذا الذي كتبه طه حسين بقوله: «وماذا علينا إذا لم يفهم البقر!!»

(١) د. محمد الدسوقي - طه حسين يتحدث عن أعلام عصره - ص ٧٠، ٧١ - طبعة دار المعارف - سلسلة اقرأ - القاهرة - ١٩٩٢م

(٢) د. طه حسين - من التاملين الآخر - ص ٦٢ - ترجمة عبدالرشيد الصادق محمودي، طبعة بيروت - سنة ١٩٩٠م

بعد هذه المعركة الفكرية الحامية والخصبة، حذف طه حسين السطور الثماني والعشرين التي أشارت هذه الصدمة القاسية والاستنكار واسع النطاق .. وغير عنوان الكتاب، فصدر معدلاً ومزيّناً بعنوان «في الأدب الجاهلي» .. وكانت تلك هي المحطة الثانية في الاختلاف مع طه حسين حول ما كتب عن الإسلام.



■ أما المحطة الثالثة في معارك هذا الخلاف، فكانت سنة ١٩٣٨ م .. عندما أصدر طه حسين كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»، وهو الذي تحدث فيه حديثاً جميلاً وعميقاً عن التعليم في مصر .. لكنه أثار الجدل والخلاف عندما أسس ونظر وفلسف للتغريب والتبعية الفكرية للغرب والحضارة الأوروبية، وذلك بحديثه عن أن العقل الشرقي قد كان ولا يزال وسيظل عقلاً يونانياً .. وإن الإسلام والقرآن لم يغيرا من يونانية عقلنا الشرقي، كما لم تغير النصرانية وإنجيلها من يونانية العقل الأوروبي!! بل ذهب الدكتور طه - في هذا الكتاب - إلى أننا ملزمون بأن نسير سيرة الغرب في الحكم والإدارة والتشريع .. وبأننا لا بد أن تأخذ النموذج الحضاري الغربي، بحلوه ومره، بخيره وشره، بما يحب منه وما يكره، وما يُحمد منه وما يُعاب!! وجاءت عباراته هذه لتقول: «إن العقل الشرقي هو كالعقل الأوروبي، مرده إلى عناصر ثلاثة:

١ - حضارة اليونان، وما فيها من أدب وفلسفة وفن.

٢ - وحضارة الرومان، وما فيها من سياسة وفقه.

٣ - والمسيحية، وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان.

.. وأن السبيل واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي واحدة قذّة ليس فيها تعدد، وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم .. في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، ما يُحمد منها وما يُعاب .. وأن الإسلام قد تقبل الحضارة اليونانية، فلم لا يتقبل الحضارة الفرنسية؟ والحضارة الغربية والفرنسية قائمتان على أساس واحد هو الحضارة اليونانية اللاتينية، لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع .. ولو أننا هممنا أن نعود أراجفاً،

وأن نحى النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تجاز ولا تذلل، عقاباً نقيمها نحن؛ لأننا حراس على التقدم والرقى، وعقاباً نقيمها أوربا؛ لأننا عاهدناها أن تسيرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة!!» (١)

وفى نص آخر بالفرنسية - ترجم بعد وفاة الدكتور طه حسين - أخذ يسفه من الجهود التي بذلها الإمام محمد عبده في الإصلاح الدينى، والتوفيق بين العلم والدين الإسلامى .. ذاهباً إلى أننا نتجه نحو الغرب فى سرعة وابتهاج، دونما التفات إلى الدين!! فقال: «إن العالم الإسلامى قد أصابه التغيير .. ولم يعد محمد عبده مواكباً للعصر .. قد صارت كل أفكاره بشأن العلم والدين بالية.. متخلفة، وغير صالحة للبقاء .. وقليلون هم المسلمون الذى يهتمون بالتوفيق بين إيمانهم والمعارف التى حصلوها، وهم يندفعون بابتهاج نحو الحضارة الغربية، ويتخذونها مثلاً أعلى!!» (٢)



كانت تلك هى المحطات الثلاث التى أثرت أهم المعارك الفكرية الكبرى بين الإسلاميين وبين الدكتور طه حسين حول ما كتبه عن الإسلام - علاقته بالدولة، ومرجعياته لمشاريع النهضة والتقدم والإصلاح - والتى بدأت بعدها - تدريجياً - وفى ضمت استدعاءه الكبيراء الذى كان عليه عميد الأدب العربى - بدأت التحولات الفكرية الكبرى فى عقل ووجدان طه حسين، والتى أثرت مواقف فكرية يجهلها - مع الأسف الشديد كثير من الإسلاميين .. ويتجاهلها - مع أسف أشد - كثير من العلمانيين، الأمر الذى يستدعى تتبع التطور الفكرى لهذا العلم من أعلام أدبنا وفكرنا الحديث والمعاصر؛ وذلك لإنصاف الحقيقة؛ ولإنصاف الرجل من أنصاره وخصومه على السواء!

(١) د. طه حسين - مستقبل الثقافة فى مصر - ج ١ - ص ٢٩، ٤٥، ٢٦، ٢٧ - طبعة القاهرة - سنة ١٩٣٨م.

(٢) من الشاطئ الآخر - ص ٢٦، ٢٧.



التطور الفكري للدكتور طه حسين (٢)

لقد كان الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] ابناً باراً من أبناء هذه الأمة .. وكان عقلاً مجتهداً، يلتزم طريق التجديد لحياة هذه الأمة وفكرها .. وكان واحداً من جيل الرواد الذين حسبوا أن «التخلف العثماني» هو «الإسلام» فبحثوا في النموذج الغربي عن سبيل التقدم والنهوض .. لم يكن الرجل - وكثيرون من الذين انبهروا بالغرب، وكان يومها مزدهراً .. لم تتكشف بعد أغلب عورات حضارته - غميراً للغرب، وإنما كان ياحثاً عن الحق .. يصيبه حيناً ويخطئه حيناً آخر .. وكان مسلماً يؤمن بأن من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران.

■ ولأن دعوى طه حسين حول يونانية العقل الشرقي، وعدم تغيير القرآن والإسلام لهذه اليونانية، ومن ثم حتمية أن تكون غريباً في حاضرتنا ومستقبلنا، في الإدارة والحكم والتشريع، دونما التفات إلى الدين الإسلامي، ولا إلى التمايز الحضاري؛ لأن هذه الدعوى كانت أخطر الادعاءات التي خالف فيها الرجل ثوابت الحضارة الإسلامية وقسماتها المتميزة، فلقد بدأ قلق الرجل إزاء صحة هذه الدعوى منذ وقت مبكر في مسيرة تحولاته الفكرية .. فكتابه «مستقبل الثقافة في مصر» - الذي ادعى فيه هذه الدعوى - قد صدر ونفذ سنة ١٩٢٨ م.. لكن طه حسين لم يعد طبع هذا الكتاب - طوال حياته - كما كان يعيد طبع جميع كتبه الأخرى فور نقاد طبعاتها! وكان هذا الموقف من إعادة طبع هذا الكتاب وحده، إشارة - غير معلنة - إلى مراجعته - وربما تراجعته عن هذه الدعوى التي جاءت فيه.

حتى إذا كانت سنة ١٩٧١ م .. فستل الدكتور طه حسين - في حديث معه نشره «الأهرام» - في أول مارس سنة ١٩٧١ م، عن رأيه في هذا الكتاب .. فإذا به

يقول: « .. ده كتب سنة ١٩٣٦ م .. قُدم قوى، عاوز يتجدد، ويجب أعود إليه، وأصلح فيه بعض حاجات، وأضيف»

فكانت هذه أولى محطات المراجعات الفكرية فى مسيرة الدكتور طه حسين.



■ أما المحطة الثانية فى هذه المراجعات الفكرية فهى ما كتبه عن القرآن فى كتابه «الفتنة الكبرى» - فى التصف الثانى من عقد الأربعينيات - فى القرن العشرين - فبعد الجراءة والجموح الذى حدث منه إزاء القرآن فى كتاب «فى الشعر الجاهلى» سنة ١٩٢٦ م .. ها هو طه حسين يقول عن القرآن الكريم: «لقد قلت فى بعض أحاديثى عن نشأة النثر عند العرب: إن القرآن ليس شعراً، ولا نثراً، وإنما هو قرآن، له مذهب، وأساليبه الخاصة فى التعبير والتصوير والأداء»

فيه من قيود الموسيقى ما يخيّل إلى أصحاب السذاجة أنه شعر، وفيه من قيود القافية ما يخيّل إليهم أنه سجع، وفيه من الحرية والانطلاق والترسل ما يخيّل إلى بعض أصحاب السذاجة الآخرين أنه نثر.

ومن أجل هذا خدع المشركون من قريش، وكذبوا فى ذلك تكذيباً شديداً .. ومن أجل هذا خدع كذلك بعض المتتبعين لتاريخ النثر، فظنوا أنه أول النثر العربى، وتكذبهم الحقائق الواقعة تكذيباً شديداً، فلو قد حاول بعض الكتاب التأثيرين - وقد حاول بعضهم ذلك - أن يأتوا بمثله لما استطاعوا إلا أن يأتوا بما يضحك ويثير السخرية!!»^(١)

نعم .. كتب طه حسين ذلك - وهو أحد بلغاء العصر - والخبير بأسرار التركيب والإعجاز فى الأساليب الغربية .. فكانت محطة الثانية فى مراجعاته الفكرية ..



■ أما المحطة الثالثة فى المراجعات الفكرية للدكتور طه حسين، فلقد كانت سنة ١٩٥٣ م.

فعقب ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ م، قامت الثورة بإلغاء دستور سنة ١٩٢٣ م. وكونت لجنة من خمسين عضواً لوضع دستور جديد .. وكان طه حسين واحداً من هؤلاء الخمسين .. وفى اجتماع من الاجتماعات التى كانت تناقش حقوق المرأة،

(١) د. طه حسين - الفتنة الكبرى - ج ١ - عثمان - ص ٣٢ - طبعة القاهرة - سنة ١٩٨٤ م.

دعا الدكتور عبدالرحمن بدوي [١٢٣٥ - ١٤٢٣ هـ = ١٩١٧ - ٢٠٠٢ م] إلى النص في الدستور على المساواة التامة والمطلقة بين النساء والرجال، فإذا بالدكتور طه حسين - الذي سبق له وشكك في بعض ما جاء بالقرآن الكريم .. وانحاز إلى العلمانية .. ودعا إلى تنحية الإسلام جانباً من مكونات الدولة ومرجعية المدنية والحضارة والإصلاح - إذا به هو الذي يتصدى لدعوة الدكتور عبدالرحمن بدوي، فيقول: «إنه من المقطوع به أن الأغلبية لن تقبل أن تخرج، عند وضع الدستور على ما أمر به الإسلام، وإنه ليس هناك مقتض يسمع لنا بأن نعدل عن نص القرآن .. وإنه إذا وجد نص ديني صريح .. فالحكمة والواجب يقتضياننا ألا تعارض النص، وأن نكون من الحكمة ومن الاحتياط بحيث لا نضر الناس في شعورهم، ولا في ضمائرهم، ولا في دينهم، وإذا احترمت الدولة الإسلام فلا بد أن تحترمه جملة وتفصيلاً .. ولا يكون الإيمان إيماناً ببعض الكتاب وكفراً ببعضه الآخر»^(١).

نعم .. دعا الدكتور طه حسين إلى حاكمية القرآن والإسلام وشريعته على الدستور والقانون .. وذلك بعد أن كان - سابقاً - يقول: «إن السياسة شيء والدين شيء آخر، وإن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوموا على أي شيء آخر .. وهذا أصل من أصول الحياة الحديثة .. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول .. وإن جوهر الإسلام ومصدره هما جوهر المسيحية ومصدرها .. وإن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيمًا مجملًا أو مفصلاً .. وإن النبي لم يرسم بسنته نظامًا للحكم ولا للسياسة .. فليس بين الإسلام والمسيحية فرق من هذه الناحية .. ولأمر ما قال عيسى - عليه السلام - للذين جادلوه من بني إسرائيل: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»^(٢).

هكذا بلغ الدكتور طه حسين قمة المراجعة الفكرية .. والتطور .. إن لم نقل الانقلاب! فدعا إلى الالتزام بحاكمية الإسلام والقرآن في الدولة والدستور والقانون .. بعد أن كان يدعو إلى الانقلابات من حاكميتهما.



(١) لجنة مشروع الدستور - محضر لجنة الحريات والحقوق والواجبات العامة - الجلسة السابعة - ص ٨١.

١٢١ - طبعة وزارة الإرشاد القومي - القاهرة - بدون تاريخ.

(٢) مستقبل الثقافة في مصر - ج ١ - ص ١٧، ١٦، ٢٢ - و«الفتنة الكبرى» - ج ١ - عثمان - ص ٢٢.

■ أما المحطة التي بلغ فيها وبها الدكتور طه حسين قمة القمم، وذروة الإياب إلى الأحضان الحنون والرءوم والعطوف والداقنة لروحانية الإسلام - وليس فقط عقلانيته المؤمنة - فلقد كانت هي محطة الوصول الكامل - وصول العاشق للمعشوق - بعد طول تطواف .. وذلك عندما قام برحلته الحجازية، حيث اعتمر وعاش لحظات من الروحانية المتصوفة الراقية في منزل الوحي ومنبع نور الإسلام، فعادت به إلى الأصول النقية، وغسلت عنه كل الأدران!

ففى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٧٤ هـ - يناير ١٩٥٥ م - زار الدكتور طه حسين المملكة العربية السعودية رئيساً للجنة الثقافية للجامعة العربية التي عقدت دورتها التاسعة في جدة - وذلك على رأس كوكبة من المثقفين والأدباء العرب - وكان يصحبه في هذه الرحلة صديقه العلامة الشيخ أمين الخولى [١٣١٣ - ١٣٨٥ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦ م]، وفى خطابه بالمؤتمر تحدث عن صهبط الوحي ومشرق الإسلام، فقال: «سادتى .. لقد سبق لى أن عشت بفكرى وقلبى فى هذه الأماكن المقدسة زهاء عشرين عاماً، منذ بدأت أكتب على هامش السيرة حتى الآن .. ولما زرت مكة والمدينة، أحسست أنى أعيش بفكرى وقلبى وجسدى جميعاً، عشت بعقلى الباطن وعقلى الواعى، استعدت كل ذكرياتى القديمة، ومنها ما هو من صميم التاريخ، ومنها ما هو من صميم العقيدة .. وكانت الذكريات تختلط بواقعى فتبدو حقائق حية، ورموزاً حية، وكان السعور بها يغمرنى، ويضاً جوانح نفسى.

والآن أريد أن أقول لكم الحق كل الحق الذى لا نصيب لسرف فيه من قريب أو بعيد! إن لكل مسلم وطنين، لا يستطيع أن يشك فى ذلك. شكاً قوياً أو ضعيفاً، وطنه الذى نشأ فيه، وهذا الوطن المقدس الذى أنشأ أمته وكون عقله وقلبه وذوقه وعواطفه جميعاً .. هذا الوطن المقدس الذى هداه إلى الهدى، والذى يسره للخير، والذى عرفه نفسه، وجعله عضواً صالحاً مصلحاً فى هذا العالم الذى نعيش فيه.

أعترف - أيها السادة - بأنى حين شرفنى مجلس الجامعة العربية لاختيارى مشاركاً فى اللجنة الثقافية للجامعة، ترددت فى قبول هذا الشرف لأن فيه أعباء لا ينهض بها إلا أولو العزم، ولكنى لم أكد أسمع أن الدورة ستعقد فى هذا الوطن الكريم العزيز، حتى أقبلت غير متردد ولا محجم، بل أقبلت يدفعنى هذا الشوق الطبيعى الذى تمتلئ به قلوب المسلمين جميعاً، مهما تكن أوطانهم، ومهما تكن

أطوارهم .. فهذا الوطن العزيز الكريم وطن العروبة ووطن الإسلام، لهذا الوطن أقدمت على قبول هذا الشرف وأنا أستعين الله على أن يتيح لي أن أنهض بأعبائه، وهي أعباء ثقال لا شك في ثقلها».

■ وبعد الفراغ من المؤتمر - في جدة - ركب طه حسين وبصحبته الشيخ أمين الخولي - السيارة قاصدين البيت الحرام - بمكة المكرمة - لأداء العمرة .. وشهد مرافقوه - طوال الطريق - كيف كان الرجل متنقلاً بين تلاوة آيات من القرآن الكريم، وبين التلبية - لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .. لبيك .. وكيف كان يقطع هذا الاستغراق الصوفي ليسأل عن المكان الذي تمر به السيارة أو تحاذيه، ليعيش ذكريات تاريخ الإسلام حتى إذا قالوا له إنهم بمحاذاة «الحديبية» - حيث نزل الرسول - ﷺ - وصحابته سنة ٦ هـ معتمرين - طلب طه حسين من السائق أن يتوقف، ثم ترحل وقبض من تراب الحديبية قبضة فتمها، ثم تميم ودموعه تنساب على القراب، قائلاً: «والله إنني لأشم رائحة محمد - ﷺ - في هذا القراب الطاهر» .. وعلى مدى نصف ساعة بذل مرافقوه جهدهم كله في تهدئة روعه! ثم واصل الركب سيره إلى مكة المكرمة حتى دخلوا الحرم من باب السلام، وطه حسين لا يكاد يخفى زلزاله إيمانه عن رفيقه .. فتوجهوا إلى الكعبة، فاستلم الحجر وقبله .. ولم يغادر مكانه، بل ظل يتنهد ويبكي ويقبل الحجر حتى وقفت مواكب المعتمرين انتظاراً لأن يغادر هذا الأديب الكبير المكفوف مكانه، ولكنه - كما يقول الشيخ أمين الخولي - أطلال البكاء والتنهيد والتقبيل، ونسى نفسه، فتركه المعتمرون في مكانه، وأجهشوا معه في البكاء والتنهيد!!» (١)

هكذا كانت رحلة الدكتور طه حسين مع الإسلام والقرآن .. ومع رسول الإسلام - ﷺ - ومع روحانية الإيمان .. وكما يقولون فإن العبرة بالخواتيم .. ولقد صدق رسول الله إذ يقول: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار، فيدخلها .. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة، فيدخلها» .. رواه البخاري ومسلم.

(١) مجلة الحج والعمرة - مكة المكرمة - حسين محمد باغقيه - المقال الافتتاحي - عدد ١، ٢ - مجرم وصفر - سنة ١٤٢٦ هـ.

وإذا كان الدكتور طه حسين - في أخريات حياته - لم يكن يسمع بمنزله إلا المصحف المرتل من إذاعة القرآن الكريم، فإن على دارسيه - من العلمانيين والإسلاميين - أن يكونوا أمناء مع حقائق هذا التطور الفكري. فلا يقفون عند مراحله الأولى، غافلين أو متغافلين عن التطورات التي صعد الرجل درجات سلمها، وصعدت به نحو الاجتصان الحميمي لكامل الإسلام.. فهذا المنهج المعيب في دراسة العظماء والفلاسفة والمفكرين والعلماء، لو طبق على أغلب صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذين أقاموا الدين.. وبينوا الدولة.. وأسسوا للحضارة.. وأورثونا أعظم نعم الله - نعمة الإسلام - لوقفت الدراسة لهم عند مرحلة العبادة «للات» و«العزى» و«متاة» الثالثة الأخرى!!

وتلك كارثة في الدراسة للمفكرين والأفكار، حرام أن يقع فيها ويجتمع عليها كثير من غلاة العلمانيين وتفرد من الإسلاميين على السواء!

إن من يقول: «إن مهبط الوحي، هو الوطن المقدس، الذي أنشأ الأمة.. وكون العقل، والقلب، والدوق.. والعواطف جميعاً» لابد أن يقرأ من جديد!



تهنئة بالعيد الدامي!!

إلى من نتوجه بالتهنئة في هذا العيد:

■ الذي سبقه صيام لم تتوقف فيه آلة الحرب العالمية - الأمريكية الغربية - عن سفك الدماء الإسلامية، وإشاعة الدمار على أرض فلسطين وأفغانستان والعراق، وكشمير والشيخان!

■ عيد تطل فيه على شاشات «التلفاز» مواكب جنازات الشهداء على أرض عالم الإسلام، دون غيره من بقاع العالم الذي نعيش فيه!

■ عيد يشهد قتل وإحراق الأسرى المكبلين بالأغلال في قلاع أفغانستان، أمام سمع وبصر وبتدبير وتنفيذ الذين وضعوا موافق واتفاقات «جنيف» وحقوق الإنسان!

■ عيد يمتنع الحصار الصهيوني فيه المسلمين من الصلاة في المسجد الأقصى .. ويمنع أبناء الشهداء وأمهاتهم وزوجاتهم من الخروج حتى لزيارة مقابر الشهداء!!

■ عيد يشهد تحالف الغرب «الإمبريالي - الصليبي» والعنصرية الصهيونية مع الروس الأرثوذكس، وبمباركة من الصين الكنفوشيوسية، والهند الهندوسية ضد الإسلام والمسلمين!

إلى من نتوجه بالتهنئة في مثل هذا العيد؟!

■ إن أحق من نتوجه إليهم بالتهنئة في هذا «العيد الدامي» هم أرواح الشهداء - الأحياء عند ربهم يرزقون - ومواكب الفداء والاستشهاد الساعين على طريق الجهاد، محققين قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْتَفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْقَهُنَّ نُفُوسَهُنَّ ثُمَّ يَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وكذلك إلى قيادات وأعضاء منظمات المقاومة والفداء: حماس .. والجهاد .. وفتح .. وحزب الله .. والمجاهدين في كشمير والشيشان والعراق .. والصومال .. وإلى روح الصمود والمقاومة في الشعب الأفغاني الذي سيدق أمريكا وحلفاءها، بإذن الله من الزقوم الذي أذاقه من قبل للإنجليز .. وللروس.

- كما نهني العلماء والمفكرين والدعاة والكتاب الذين يشيعون في عقول الأمة ووجدانها الوعي بسن قوانين التدافع بين الحق والباطل عبر التاريخ .. والتي تزيج اليأس والقنوط، وأوهام الهزيمة النفسية، وذلك عندما تذكر بالذكرى التي تنفع المؤمنين .. تذكر بأن القلة المؤمنة قد فتحت - فتحت تحرير - في ثمانين عاماً أوسع مما فتحت الرومان في ثمانية قرون .. وأن المسلمين قد قهروا التتار الذين لم يغلّبوا من قبل .. وطهروا أرض فلسطين من الكيانات الصليبية التي امتد عمرها أربعة أضعاف عمر الكيان الصهيوني .. وأن صلاح الدين الأيوبي قد حرر القدس بعد احتلال دام تسعين عاماً، تحول فيها المسجد الأقصى إلى إصطبل خيل وإلى كنيسة لاتينية .. وأن بوتابرت قد قر من مصر بليل، وهو الذي حوّل الأزهر الشريف إلى إصطبل خيل .. فبقى الإسلام، وتحرر المسلمون، وذهب كل الغزاة إلى «مذبلة التاريخ» ! وأن الإمبراطوريات الأوربية الاستعمارية، التي لم تكن تغرب عنها الشمس - والتي تسعى أمريكا إلى وراثتها - قد هزمتها مقاومة الإسلام والمسلمين.

إلى هؤلاء جميعاً نتوجه بالتهنئة في هذا العيد.

نتوجه بالتهنئة إلى أرواح الشهداء الأبرار .. وإلى منظمات الفداء والاستشهاد .. وإلى الكلمات الإسلامية الواعية المجاهدة بالكشف عن سنن التدافع بين الحق والباطل عبر التاريخ.

مع دعاء إلى الله، سبحانه وتعالى، أن يهيئ لأمتنا من أمورها رشداً.. وأن يجعل يومها خيراً من أمسها، وغدها أكثر إشراقاً وأخف قيوداً من يومها .. وأن يرزقنا شرف السعي على درب الشهادة والفداء.

ولنتذكر جيداً ودائماً: أن اشتداد الضربات الموجهة إلى أمتنا هو الدليل على سريان روح اليقظة والمقاومة في هذه الأمة .. وإلا فلو كنا جثة هامدة لما شدد أعداؤنا وسددوا إلينا كل هذه الضربات .. «فالضرب في الميت حرام» كما يقولون!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

صفحة

تقديم	٢
١ - الاستراتيجية الغربية لتنصير المسلمين ودور الكنائس المحلية في التنصير	٧
٢ - لماذا دستور الأسرة المسلمة؟	١٧
٣ - الأيديولوجيات في خدمة المصالح	٢٦
٤ - علاقة المسلم بالآخر الديني	٢٨
٥ - المباهلة	٣١
٦ - غي العدل مع الآخر الديني	٣٤
٧ - وشيد شاهد من أهلها	٣٦
٨ - عقد الذمة	٣٨
٩ - الحكومات غير الشرعية والأقليات	٤١
١٠ - اللعب بورقة الأقليات (١)	٤٤
١١ - اللعب بورقة الأقليات (٢)	٤٧
١٢ - اللعب بورقة الأقليات (٣)	٥٠
١٣ - اللعب بورقة الأقليات (٤)	٥٢
١٤ - اللعب بورقة الأقليات (٥)	٥٥
١٥ - اللعب بورقة الأقليات (٦)	٥٨
١٦ - اللعب بورقة الأقليات (٧)	٦٢
١٧ - اللعب بورقة الأقليات (٨)	٦٥
١٨ - قانون الاحتكاك بين الحضارات	٦٩
١٩ - الوعي بالآخر شرط للوعي بالذات	٧٢
٢٠ - الوعي بالذات والواقع المحيط	٧٥
٢١ - الاهتمام بـ«بضاعة» الآخرين	٧٨
٢٢ - الوسطية الإسلامية (١)	٨١
٢٣ - الوسطية الإسلامية (٢)	٨٤
٢٤ - الوسطية الإسلامية (٣)	٨٦
٢٥ - وسطية التجديد والاجتهاد	٨٩
٢٦ - للإسلام عقلانية مؤمنة	٩٢

٢٧-	تكامُل دوائر الانتماء: الوطني .. والقومي .. والإسلامي	٩٥
٢٨-	فلسفة السياسة بين الغرب والإسلام	٩٧
٢٩-	السياسة والدولة من الغرور	٩٩
٣٠-	الإسلام والسياسة (١)	١٠١
٣١-	الإسلام والسياسة (٢)	١٠٤
٣٢-	الإسلام والسياسة (٣)	١٠٨
٣٣-	الإسلام والسياسة (٤)	١١٢
٣٤-	الإسلام والسياسة (٥)	١١٥
٣٥-	الإسلام والسياسة (٦)	١١٨
٣٦-	كيفما تكونوا يول عليكم	١٢٠
٣٧-	المساجد والسياسة	١٢٣
٣٨-	قانون التنوع والاختلاف	١٢٦
٣٩-	واحدية الحق .. وتعددية الخلق	١٢٩
٤٠-	الإسلام والتعددية (١)	١٣٢
٤١-	الإسلام والتعددية (٢)	١٣٤
٤٢-	عن الشريعة الإسلامية	١٤٠
٤٣-	الشريعة الإسلامية والتحريم من الاستعمار	١٤٣
٤٤-	وحدة الأمة الإسلامية (١)	١٤٦
٤٥-	وحدة الأمة الإسلامية (٢)	١٤٨
٤٦-	وحدة الأمة الإسلامية (٣)	١٥٠
٤٧-	وحدة الأمة الإسلامية (٤)	١٥٣
٤٨-	وحدة الأمة الإسلامية (٥)	١٥٦
٤٩-	إنسانية الحضارة الإسلامية	١٦٠
٥٠-	طبيعة الاجتهاد الإسلامي الحديث	١٦٤
٥١-	في النموذج الثقافي ..	١٦٨
٥٢-	النموذج الثقافي .. ماذا يعني؟	١٧٠
٥٣-	من أين تأتي معارف الإنسان؟	١٧٣
٥٤-	علاقة المعارف بالإسلام	١٧٦
٥٥-	الإسلام وفلسفة العلوم	١٧٨
٥٦-	عن إسلامية المعارف والعلوم (١)	١٨١

١٨٤	٥٧ - عن إسلامية المعارف والعلوم (٢)
١٨٧	٥٨ - عن إسلامية المعارف والعلوم (٣)
١٩٠	٥٩ - الاختلاف حول المرجعية الحضارية
١٩٣	٦٠ - المنهاج العلمي في القرآن الكريم
١٩٦	٦١ - المنهاج النصوصي
١٩٩	٦٢ - التوحيد الإسلامي
٢٠٢	٦٣ - الخلافة والاستخلاف
٢٠٥	٦٤ - دعوى تاريخية أحكام القرآن الكريم
٢٠٨	٦٥ - في التزوير الفكري!
٢١٠	٦٦ - جدل الإيجابيات والسلبيات في التاريخ
٢١٣	٦٧ - الرأس مالية ليست نهاية التاريخ
٢١٦	٦٨ - النهوض بالمرأة .. ووسطية الإسلام
٢١٨	٦٩ - شبهات حول مكانة المرأة في الإسلام
٢٢١	٧٠ - ميراث المرأة وتحريرها
٢٢٤	٧١ - عن الجهاد والقتال والإرهاب
٢٢٦	٧٢ - أخلاقيات القتال
٢٣٠	٧٣ - من آداب القتال في الإسلام
٢٣٢	٧٤ - الجهاد في سبيل الله (١)
٢٣٤	٧٥ - الجهاد في سبيل الله (٢)
٢٣٦	٧٦ - الجهاد في سبيل الله (٣)
٢٣٩	٧٧ - الجهاد في سبيل الله (٤)
٢٤١	٧٨ - عن الشهادة والاستشهاد (١)
٢٤٣	٧٩ - عن الشهادة والاستشهاد (٢)
٢٤٦	٨٠ - عن الشهادة والاستشهاد (٣)
٢٤٨	٨١ - عن الشهادة والاستشهاد (٤)
٢٥٠	٨٢ - في التدافع بين الحق والباطل
٢٥٣	٨٣ - صراع له تاريخ (١)
٢٥٦	٨٤ - صراع له تاريخ (٢)
٢٥٩	٨٥ - صراع له تاريخ (٣)
٢٦١	٨٦ - صراع له تاريخ (٤)

٢٦٢	٨٧ - صراع له تاريخ (٥)
٢٦٦	٨٨ - صراع له تاريخ (٦)
٢٦٨	٨٩ - جوهر الصراع العربى - الصهيونى
٢٧١	٩٠ - البعد الدينى فى الصراع العربى - الصهيونى
٢٧٤	٩١ - من الملاحظة إلى المؤمنين بالأساطير!
٢٧٧	٩٢ - الحلف الإمبريالى - الصهيونى: تراجع أم صعود؟
٢٨٠	٩٣ - معاملة الأسرى بين الغرب والإسلام
٢٨٢	٩٤ - من هولاكو القديم إلى هولاكو الجديد !
٢٨٥	٩٥ - النزعة الصليبية لكولمبس!
٢٨٨	٩٦ - من عبر التاريخ!
٢٩١	٩٧ - ليسوا سواء
٢٩٤	٩٨ - الإيمان العلمانى المنقوص !
٢٩٧	٩٩ - خالق فقط أم خالق ومدبر للوجود؟
٣٠٠	١٠٠ - تيار التغريب (١)
٣٠٣	١٠١ - تيار التغريب (٢)
٣٠٥	١٠٢ - تيار التقليد للموروث
٣٠٧	١٠٣ - الأزهر فى العصر العثمانى
٣١٠	١٠٤ - مصطلح «الشرق الأوسط»
٣١٢	١٠٥ - مصطلحات ومفاهيم
٣١٥	١٠٦ - عن العروبة والإسلام (١)
٣١٨	١٠٧ - عن العروبة والإسلام (٢)
٣٢١	١٠٨ - عن العروبة والإسلام (٣)
٣٢٤	١٠٩ - عن العروبة والإسلام (٤)
٣٢٧	١١٠ - عن العروبة والإسلام (٥)
٣٣٠	١١١ - عن العروبة والإسلام (٦)
٣٣٣	١١٢ - عن العروبة والإسلام (٧)
٣٣٦	١١٣ - عن العروبة والإسلام (٨)
٣٣٩	١١٤ - عن العروبة والإسلام (٩)
٣٤٢	١١٥ - عن العروبة والإسلام (١٠)
٣٤٥	١١٦ - عن العروبة والإسلام (١١)

٣٤٨	١١٧ - عن العروة والإسلام (١٢)
٣٥١	١١٨ - في المشروع الحضاري الإسلامي (١)
٣٥٤	١١٩ - في المشروع الحضاري الإسلامي (٢)
٣٥٧	١٢٠ - في المشروع الحضاري الإسلامي (٣)
٣٦٠	١٢١ - في المشروع الحضاري الإسلامي (٤)
٣٦٣	١٢٢ - في المشروع الحضاري الإسلامي (٥)
٣٦٦	١٢٣ - الشيخ البشير الإبراهيمي (١)
٣٦٨	١٢٤ - الشيخ البشير الإبراهيمي (٢)
٣٧٠	١٢٥ - الشيخ البشير الإبراهيمي (٣)
٣٧٤	١٢٦ - الشيخ الغزالي: قلب تقى .. وعقل ذكى (١)
٣٧٦	١٢٧ - الشيخ الغزالي: قلب تقى .. وعقل ذكى (٢)
٣٧٩	١٢٨ - الشيخ الغزالي: قلب تقى .. وعقل ذكى (٣)
٣٨٢	١٢٩ - الشيخ الغزالي: قلب تقى .. وعقل ذكى (٤)
٣٨٦	١٣٠ - أمانة الشيخ الغزالي
٣٨٩	١٣١ - التطور الفكري للدكتور طه حسين (١)
٣٩٤	١٣٢ - التطور الفكري للدكتور طه حسين (٢)
٤٠٠	١٣٣ - تهنئة بالعيد الدامي "

الإسلام في مواجهة التحديات

- في مواجهة التحديات انتصر الإسلام..
- انتصر التوحيد على الشرك والوثنية والعنصرية وعبادة البشر من دون الله..
- وفي مواجهة القوى العظمى - الروم والفرس - الذين احتلوا الشرق وقهروه حضارياً ودينياً - عشرة قرون - انتصرت الفتوحات الإسلامية التي حررت الأرض.. وتركت الناس وما يدينون..
- وفي مواجهة التحديات الصليبية والتترية - التي دامت قرنين - قامت الفروسية الإسلامية، التي أعادت تحرير الشرق.. وأنقذت الحضارة من الدمار..
- وفي مواجهة التخلف، والغزوة الغربية الحديثة، قامت نهضتنا العربية الإسلامية، متسلحة بالإحياء الديني.. والتجديد الفكري.. وروح الجهاد ضد الغزاة..
- واليوم.. وشراسة التحديات قد كشفت عن الوجه الصليبي الكالح، الذي يريد العبث بمقدساتنا.. واحتلال أرضنا.. ونهب ثرواتنا.. وكسر شوكة عزتنا.. وتفجير التناقضات في صفوفنا..
- في مواجهة هذه التحديات «الجديدة - القديمة» نحتاج إلى الكلمة الصادقة المجاهدة، التي تواجه هذا الطور الجديد من التحديات..
- وتلك هي الرسالة التي يصدر من أجلها هذا الكتاب.

الناشر



الهيئة العامة
للطباعة والنشر والتوزيع

